تهذيب التفسير وتجريد التأويل
مما ألحق به من الأباطيل ورديء الأقاويل

تأليف
عبد القادر بن شيبة الحمد
عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة سابقاً والمدرس بالمسجد النبوي الشريف

الجزء الأول

مكتبة المعارف للنشر والتوزيع
الرياض

الطبعة الأولى

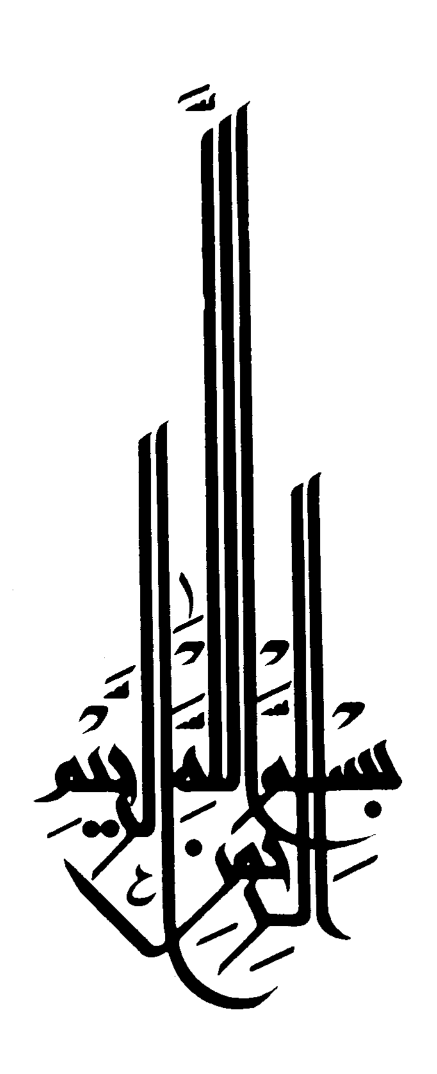
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

مكتبة المعارف للنشر والتوزيع
هاتف: ٤١١٤٥٣٥ - ٤١١٣٣٥٠
فاكس ٤١١٢٩٣٢ - برقياً دفتر
ص.ب: ٣٢٨١ الرياض الرمز البريدي ١١٤٧١
سجل تجاري ٦٣١٣ الرياض

تهذيب التفسير وتجريد التأويل
مما ألحق به من الأباطيل ورديء الأقاويل

١




بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمـــــــــــة

الحمدلله الذي أنزل على عبده الكتـاب ولم يجعل له عوجاً * قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ماكثين فيه أبداً * وينذر الـذين قالـوا اتخذ الله ولداً * مـا لهم بـه من علم ولا لآبـائهم كبرت كلمةً تخرج مـن أفواههم، إن يقـولـون إلا كذبـاً * والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على خاتم النبيين وسيد المرسلين محمد خير خلق الله أجمعين وعلى آله الطيبين وأصحـابه الغُـر الميامين ومن سلك سبيلهم وتـرسم خطـاهم ونهج منهجهم إلى يوم الـدين، أمـا بعد : فهـذا تفسير سهل يسير جمعت فيه أصح طرق التفسير بالروايـة وأدق مسالك التأويل بالدراية وتجنبت ما تسرب إلى كتب التفسير من أقـوال رديئة، وروايات موضـوعة أو ضعيفة، وقد سميتـه «تهذيب التفسير وتجريد التأويل مما ألحق بـه من الأباطيل ورديء الأقاويل» وأسأل الله تعـالى بأسمائه الحسنى وصفاتـه العُلى أن يجعله خـالصاً لوجهه الكريـم، إنه رءوف رحيم.

عبد القادر بن شيبة الحمد

عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلاميّة
بالمدينة المنوّرة سابقاً والمدرّس بالمسجد النبوي الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿بسم الله الرحمن الرحيم * الحمدلله رب العالمين * الرحمن الرحيم* مالك يوم الدين * إياك نعبد و إياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم* صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾

أبتدئ باسم الله الرحمن الرحيم، وهذه السورة المباركة تسمى سورة الفاتحة، وأم القرآن والحمد وأم الكتاب، والسبع المثاني، والقرآن العظيم، قال البخاري في صحيحه: حدثنا مُسَدَّدٌ حدثنا يحيى عن شُعْبَةَ قال: حدثني خُبَيْبُ بنُ عبدالرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي سعيد بن المُعَلَّى قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ، فلم أُجِبْهُ، فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم﴾ ؟ ثم قال لي: لأعلمَنَّكَ سورةً هي أعظم السُّور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد. ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل: لأعلمنَّكَ سورةً هي أعظم سورة في القرآن ؟ قال: الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أُوتيتُه. وأخرج البخاري هذا الحديث أيضاً في تفسير سورة الحجر فقال: باب قوله تعالى: «ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآنَ العظيم» حدثني محمد بنُ بَشَّار حدثنا غُنْدَرٌ حدثنا شعبةُ عن خُبَيْبِ بن عبدالرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد بن المُعَلَّى قال: مرَّ بي النبيُّ ﷺ وأنا أصلي، فدعاني فلم آتِهِ حتى صليت، ثم أَتَيْتُ، فقال: ما منعك أن تأتي ؟ فقلت: كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله «يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول» ثم قال: أَلَا أُعَلِّمك أعظم سورة

في القرآن قبل أن أخرج من المسجد ؟ فذهب النبي ﷺ ليخرج ، فَذَكَّرتُهُ ، فقال : «الحمد لله رب العالمين» هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أُوتيتُه . حدثنا آدم حدثنا ابنُ أبي ذُؤيب حدثنا سعيد المَقْبُرِيُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أم القرآن هي السبع المثاني والقرآنُ العظيمُ . وقال مسلم في صحيحه : حدثنا حسن بن الربيع وأحمد بن جَوَّاس الحنفي قالا حدثنا أبوالأحوص عن عمار بن رزيق عن عبدالله بن عيسى عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عباس قال : بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سَمِع نَقِيضاً من فوقه ، فرفع رأسه ، فقال : هذا بابٌ من السماء فتح اليوم ، لم يُفْتَح قَطُّ إلا اليومَ ، فنزل منه مَلَكٌ ، فقال : هذا مَلَكٌ نزل إلى الأرض لم يَنْزِلْ قط إلا اليوم ، فَسَلَّمَ وقال : أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتيتَهُما لم يُؤْتَهُمَا نبيٌّ قبلَك ، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما إلا أُعْطِيتَهُ . وقد أخبر رسول الله ﷺ أن فاتحة الكتاب رُقْيَةٌ فقد روى البخاري في صحيحه من طريق أبي بِشْر عن أبي المتوكل عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ أَتَوْا على حيٍّ من أحياء العرب فلم يَقْرُوهُمْ ، فبينما هم كذلك إذ لُدِغَ سَيِّدُ أولئك ، فقالوا : هل معكم من دَواءٍ أو رَاقٍ ؟ فقالوا : إنكم لم تَقْرُونا ، ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جُعْلاً ، فجعلوا لهم قطيعاً من الشاء ، فجعل يقرأ بأم القرآن ويجمع بُزَاقَه ويَتْفل ، فَبَرَأَ ، فَأَتَوْا بالشاء ، فقالوا ، : لا نأخذه حتى نسأل النبي ﷺ ، فسألوه فضحك وقال : وما أدراك أنها رُقْية ؟ خذوه واضربوا لي بسهم . وأخرج مسلم من طريق أبي بِشْر عن أبي المتوكل عن أبي سعيد الخدري أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا في سفر ، فَمَرُّوا بحي من أحياء العرب ، فاستضافوهم ، فلم يُضيفوهُمْ ، فقالوا لهم : هل فيكم راقٍ فإن سيد الحي لَدِيغ أو مُصَابٌ ؟ فقال رجل منهم : نَعَم ، فأتاه فَرَقَاهُ بفاتحة الكتاب ، فَبَرَأَ الرجل ، فَأُعْطِيَ قطيعاً من

غنم، فأَبى أن يقبلها وقال: حتى أذكر ذلك للنبي ﷺ فأتى النبيَّ ﷺ فذكر ذلك له، فقال: يا رسول الله ما رَقَيْتُ إلا بفاتحة الكتاب، فتبسم، وقال: وما أدراك أنها رُقْيَةٌ ؟ ثم قال: خُذُوا منهم واضربوا لي بسهم معكم. وفي لفظ لمسلم من طريق محمد بن سيرين عن أخيه مَعْبَد بن سيرين عن أبي سعيد الخدري قال: نَزَلْنَا مَنزلا، فأتتنا امرأة فقالت: إن سيد الحي سَليمٌ لُدِغَ، فهل فيكم من راقٍ ؟ فقام معها رجل منا ما كنا نَظُنُّه يُحسِنُ رُقْيَةً، فَرَقَاه بفاتحة الكتاب، فَبَرَأَ، فَأَعْطَوْهُ غَنَماً، وَسَقَوْنا لبناً، فقلنا: أكنت تحسن رقية ؟ فقال: ما رَقَيْتُهُ إلا بفاتحة الكتاب قال: فقلتُ: لاَ تُحَرِّكُوهَا حتى نأتي النبيَّ ﷺ، فأتينا النبيَّ ﷺ، فذكرنا ذلك له، فقال: ما كان يُدْرِيهِ أنها رُقية، اقْسِموا واضربوا لي بسهم معكم. كما روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس أن نَفَراً من أصحاب النبي ﷺ مرُّوا بماء، فيهم لديغ أو سَليم فَعَرَضَ لهم رجل من أهل الماء، فقال: هل فيكم من راقٍ ؟ إن في الماء رجلاً لديغاً أو سَليماً، فانطلق رجل منهم، فقرأ بفاتحة الكتاب على شاءٍ، فبرأ، فجاء بالشاء إلى أصحابه، فكَرِهُوا ذلك، وقالوا: أخذتَ على كتاب الله أجراً ؟ حتى قَدِمُوا المدينة، فقالوا: يا رسول الله، أَخَذَ على كتاب الله أجراً، فقال رسول الله ﷺ: إن أَحَقَّ ما أخذتم عليه أجراً كتابُ الله. وقد أطبق المسلمون على قراءة الفاتحة في الصلاة، وأخبر رسول الله ﷺ أنه لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب فقد روى البخاري ومسلم من طريق الزهري عن محمود بن الرَّبيع عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب. ولذلك أطلق رسول الله ﷺ اسم الصلاة على فاتحة الكتاب فقد روى مسلم في صحيحه من طريق سفيان بن عيينة عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خِدَاجٌ ثلاثا غيرُ تَمَام. فقيل لأبي هريرة: إنَّا نكون وراءَ الإمام ؟ فقال: اقرأ بها

في نفسك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نِصْفَيْنِ ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين * قال الله تعالى: حَمَدَنِي عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم * قال الله تعالى: أثنى عَلَيَّ عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين * قال: مَجَّدَنِي عبدي، وقال مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عبدي، فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين * قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين * قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل. قال سفيان: حدثني به العَلاَءُ بنُ عبدالرحمن بن يعقوب دخلت عليه وهو مريض في بيته فَسَأَلْتُهُ أنا عنه اهـ وقوله تعالى: الحمد لله رب العالمين أي مجامع الحمد والثناء والشكر والمدح والرضا إنما يَسْتَحِقُّها الله المعبود بالحق وحده سيد كل شيء وخالقُه ومالكُه ومصلحه ومربيه لا إله غيره ولا ربَّ سواه. والحمد هو الثناء على الله رب العالمين بالجميل على ما أسدى من النعم، وعلى ما اتصف به من الأسماء الحسنى والصفات العُلَى، والرضا بقضائه وقدره فهو المحمود قبل حمد الحامدين وشكر الشاكرين، والشكر هو الاعتراف والإقرار للمنعم بنعمته، وضده الكفر، والمدح نقيض الذم، والرضا ضد السُّخْط، وكلٌّ من الشكر والمدح والرضا داخل في حقيقة الحمد، فَحَمْدُ الله عز وجل يقتضي من العبد الثناء على الله، والإقرار بآلائه ونِعَمِه التي لا تُعَد ولا تحصى، ووصْفَ الله عز وجل بجميع صفات الكمال التي وصف بها نفسه أو وَصَفَهُ بها رسوله ﷺ وتَنْزِيهَهُ عن كل نقص، وخُضُوع القلب والجوارح واللسان لله عز وجل، لأن جميع ما يصدر عن الله عز وجل يستحق الحمد عليه سواء كان مما يَعُدُّه العبد ضُرًّا أو نفعاً كالعافية والبلوى، والغنى والفقر، والصحة والمرض، والحياة والموت، وغير ذلك، فالله عز وجل محمود على كل حال، لما أسبغ من نعم ظاهرة وغير ظاهرة وقد

وهم من زعم أن الحمد هو الثناء باللسان وحده، وأن الشكر يكون باللسان وبالقلب وبالجوارح مستدلاً بقول الشاعر:

أفادتكُم النعماء مني ثلاثـةً يَدِي ولساني والضمير المُحَجَّبَا

فإن الحمـد يشمل الشكر والمدح والـرضا، وسـائر الكائنـات في الوجـود تسبح بحمـد الله بلسـان الحال أو المقال على حـد قـوله تعـالى: ﴿تُسَبِّحُ لـه السمواتُ السَّبْعُ والأرضُ ومن فيهن، وإن مـن شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنـه كان حليما غفورا﴾. ولعظيم منزلـة الحمد افتتح الله تبـارك وتعالى بـه فـاتحة الكتـاب وأربع سُوَر من القـرآن العظيم وهي سـورة الأنعـام وسورة الكهف وسـورةُ سبأ وسورة فـاطر، وفي حَيِّـز الحمد من هـذه السُّـوَر يلفت الله انتباه الخلق إلى مـوجبات حمده وشكـره ومدحـه والرضـا بما يصـدر عنـه ففي سـورة الفاتحة لفـت الانتباه إلى أنـه رب العـالمين، الـرحمن الـرحيم. مالك يـوم الدين، وأنـه وحده هـو المستحق للعبادة فـلا يجوز أن يُصْرَفَ شيء منهـا لغيره، وأنـه وحـده المستعـان، وأنـه الهادي إلى الصراط المستقيم، وفي سورة الأنعـام لفت الانتباه إلى أنه وحده هو خـالق السموات والأرض وجاعلُ الظلمات والنور، وفي سـورة الكهف يلفت الانتباه إلى نعمته العظمى وحجته البـالغة حيث أنزل القرآن العظيم والـذكر الحكيم على خير خلقه وأفضل رسلـه وخاتمِ أنبيـائه عبده محمد ﷺ ليرسم لـلإنسانيـة طريق سعادتها ومنهج رشدها وعزِّها. وفي سورة سبأ يلفت الانتباه إلى أن جميع ما في السمـوات وما في الأرض لله عـز وجل مِلْكاً ومُلْكـاً فهو المستحق للحمـد في الدنيـا والآخرة، وفي سورة فـاطر يلفت الانتباه إلى أنـه وحده هو الـذي فطر السموات والأرض، وجعل الملائكة رسلاً وأنـه على كل شيء قدير ﴿ما يفتح الله للناس مـن رحمة فلا ممسك لها ومـا يمسكْ فلا مرسـل له من بعـده وهو العزيز الحكيم﴾. كما نَبَّه الله تبـارك وتعالى عباده إلى حمده في الصباح والمساء

والظهر والعشي حيث يقول في سورة الروم: ﴿فسبحان الله حين تُمْسُونَ وحين تُصْبِحُون * وله الحمد في السموات والأرض وعَشِيـا وحين تُظْهِرُون﴾ كما نَبَّه عز وجل إلى افتتاح الخطب بحمده حيـث يقول: ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خيرٌ أما يشركون﴾. كما اختتم السلام على المرسلين بحمده حيث يقول: ﴿وسلام على المرسلين* والحمد لله رب العـالمين﴾ كما لفت انتباه عباده إلى حمد ربهم واستغفاره عنـد تمام نعمه عليهم ليحفظها لهم حيث يقول عز وجل: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنـه كان توابا﴾ فلله الحمد في الأولى والآخرة كما قـال عز وجل في سورة القصص: ﴿وهو الله لا إلـه إلا هو لـه الحمد في الأولى والآخـرة ولـه الحكم وإليه تـرجعـون﴾. ويقول في سـورة لقمان: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموٰات والأرض ليقـولُنَّ الله قل الحمد لله بل أكثـرهم لا يعلمـون* لله مـا في السمـٰـوات والأرض إن الله هــو الغني الحميـد﴾، ويقول في سـورة المؤمنون: ﴿فإذا استـويت أنت ومن معك على الفُلك فقل الحمـد لله الـذي نَجَّـانا مـن القوم الظـالمين﴾ وقـال عن خليلـه إبـراهيم عليـه الســلام: ﴿الحمـد لله الــذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾ وقال عن داود وسليمان: ﴿وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾ وقال لنبيه محمد ﷺ «وقـل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا» ونبه عباده إلى أن أهـل الجنة يختمون أذكارهم بحمد الله حيـث يقول في سورة يونس: ﴿إن الـذين آمنوا وعملـوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم * دعواهم فيها سبحـانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخـر دعواهـم أنِ الحمد لله رب العالمين﴾ وأشـار عز وجل إلى تسبيح ملائكتـه بحمده حيث يقـول في سورة البقرة عـن الملائكة: ﴿ونحن نسبح بحمـدك ونُقَدِّس لك﴾ ويقـول في خواتيم المسك من سـورة الزُّمـر عن أهل

الجنة والملائكة: ﴿وقالوا الحمد لله الذي صَدَقَنَا وعده وأورثَنَا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين * وترى الملائكة حآفِّين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقُضِيَ بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ كما قال عن أهل الجنة أنهم يقولون: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذي أَحَلَّنا دار المُقَامَةِ من فضله لا يَمَسُّنَا فيها نَصَبٌ ولا يَمَسُّنَا فيها لُغُوبٌ﴾ وقد بَيَّن رسول الله ﷺ أن الله يحب أن يَحْمَدَهُ العبدُ ويشكرهُ ويُثْنِيَ عليه عند طعامه وشرابه وعند حصوله على ثوب جديد أو نعل جديدة وعند حدوث أية نعمة له فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لَيَرْضى عن العبد أن يأكلَ الأكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عليها أو يَشْرَب الشَّرْبَةَ فيحمده عليها» كما روى أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اسْتَجَدَّ ثوباً سماه باسمه — عمامةً أو قميصاً أو رداءً — يقول: اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه أسألك خيره وخير ما صُنِعَ له وأعوذ بك من شره وشر ما صُنِعَ له. كما روى البخاري في صحيحه من حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا رفع مائدتَه قال: الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مَكْفيٍّ ولا مُسْتَغْنًى عنه رَبُّنَا. كما روى أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن عن معاذ بن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من أكل طعاماً فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حَوْلٍ مني ولا قوةٍ غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه. كما كان رسول الله ﷺ إذا استيقظ من نومه حمد الله فقد روى البخاري عن حذيفة وأبي ذر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا استيقظ قال الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور. كما كان رسول الله ﷺ يستفتح التهجد بعد تكبيرة الإحرام بحمد الله فقد روى البخاري ومسلم

واللفظ للبخاري من حديث ابن عبـاس رضي الله عنهما قال : كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قـال : اللهم لك الحمد أنت قَيِّمُ السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمـد لَكَ مُلْك السمـوات والأرض ومن فيهن ولك الحمـد أنت نـور السمـوات والأرض ومن فيهن ولـك الحمـد أنت مَلِك السمـوات والأرض ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق ولقـاؤك حق وقولك حق والجنة حق والنار حـق والنبيون حق ومحمد حـق والساعة حق . الحديـث . كما كان من دعاء استفتاحه للصلاة ﷺ أن يقـول : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعـالى جَدُّك ولا إله غيرك . وقـد صار حمد الله عـز وجل في كثير من شعائر الإسلام كقوله في الرفع من الركوع سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد . وفي الركـوع والسجود : سبحـانك اللهم ربنا وبحمـدك اللهم اغفر لي . وفي التلبيـة في الحج أو العمـرة : لبيك إن الحمـد والنعمـة لك والمُلْك لا شريك لك . وبيَّن رسـول الله ﷺ أن من قال مـائة مرة في يـوم سبحان الله وبحمـده حُطَّتْ خطايـاه . فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هـريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال : من قال سبحـان الله وبحمده في يـوم مائة مـرة حُطَّتْ خطـاياه وإن كانت مِثْـلَ زَبَد البحر. كما روى البخـاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ، كما روى مسلم من حديث أبي مالك الأشعـري رضي الله عنه قال : قال رسـول الله صلى الله عليه وسلـم : الطُّهُورُ شطـر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان وسبحـان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السمـوات والأرض ، وقد أمر رسـول الله ﷺ من عَطِسَ أن يَحْمَدَ الله ، فقـد روى البخاري من حـديث أبي هـريـرة رضي الله عنـه عن النبي ﷺ قـال : إذا عَطِسَ أحـدكم فليقل : الحمد لله ، وليقل لـه أخوه أو صاحبـه : يرحمك الله ، فإذا قال لـه يرحمك الله

فليقل لـــه : يَهْديكم الله ويُصْلِحُ بـــالكم، كما روى مسلم من حـــديث أبي مـوسى رضي الله عنه قـال : سمعت رســول اللهﷺ يقول إذا عَطِسَ أحـدكم فحمِدَ فَشَمِّتُـوه فإن لم يحمد الله فلا تُشَمِّتُـوه . كما روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنـه قال : عَطِسَ رجـلان عند النبي ﷺ فَشَمَّتَ أحـدَهما ولم يُشَمِّت الآخـر فقـال الـذي لم يُشَمته : عَطِسَ فـلان فَشَمَّتَـهُ وعَطِسْتُ فلم تشمتني فقال : هذا حَمِدَ الله وإنك لم تحمد الله .

وقد وصف رسول الله ﷺ قـوله تبارك تعالى : ﴿الرحمن الـرحيم﴾ بأنه ثناء على الله عـز وجل حيث قـال في حـديث أبي هريـرة عنـد مسلم : وإذا قـال الرحمن الرحيم . قال الله تعالى : أثنى عليَّ عبدي . وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن العبد مهما كَمُلَ لا يستطيـع أن يُحْصِيَ الثناء على الله عز وجل حيـث يقول رســول الله صلى الله عليـه وسلم فيما رواه مسلم في صحيحــه من حـــديث الصـديقة بنت الصـديق عائشـة أم المؤمنين رضي الله عنها أن رســول الله ﷺ قال : لا أُحْصِي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك . والرحمن الرحيم من أسماء الله الحسنى . وأهل السنة يُثبتون لله عز وجل مـا أثبته لنفسه أو أثبته له رسـوله ﷺ من الأسماء الحسنى والصفـات العُلَى من غير تأويل ولا تعطيلٍ، ولا تكييفٍ ولا تحريفٍ، ولا تشبيهٍ ولا تمثيلٍ، ومهما خطر ببالك فإن رحمة الله فوق ذلك، وقد روى البخاري ومسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قـال : قدم رســول الله ﷺ بسبيٍ فإذا امرأة من السَّبْي تَسْعَـى إذا وَجَدَتْ صبياً في السَّبْي أخذتـه فألزقته ببطنها فأرضعته فقال رسـول ﷺ : أَتُرَوْنَ هذه المرأةَ طارحة ولدها في النار ؟ قلنا : لا والله، فقال : الله أرحم بعباده من هذه بولدها . كما روى البخاري ومسلم من حـديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قـال رســول الله ﷺ : لما خلق الله الخلق كتب في كتـاب فهـو عنــده فـوق العـرش . إنَّ رحمتي تغلب غضبي، وفي رواية : غلبت غضبي . وفي روايــة :

سبقت غضبي. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: جَعَلَ الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءًا واحداً، فَمِنْ ذلك الجزء يتراحم الخلائق حتى تَرْفَع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه. وفي رواية: إن لله تعالى مائة رحمة، أنزل منها رحمةً واحدةً بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فَبِهَا يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تَعْطِفُ الوحشُ على ولدها، وأخَّر الله تعالى تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة. ورواه مسلم من حديث سلمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن لله تعالى مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلقُ بينهم. وتسعة وتسعون ليوم القيامة. كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طَمِعَ بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قَنِط من جنته أحد. وقد وصف الله عز وجل نفسه بأنه أرحم الراحمين. وأن رحمته وسعت كل شيء كما قال عز وجل: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾. وقد جعل الله عز وجل اليأس من رحمة الله علامة الكفر حيث يقول عز وجل: ﴿ولا تيأسوا من رَوْح الله إنه لا ييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون﴾ وقال عز وجل: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾ ولله دَرُّ القائل:

فؤادي من ذنوبي في لهيب ... توهُّجَ حَرِّ مِسْرَى أو أبيب

ولست بقانط أبداً لأني ... رأيت الله أرحمَ من أبي بي

وقد وصف الله عباده الصالحين بأنهم يرجون رحمة الله ويخافون عذابه حيث يقول عز وجل: ﴿ويرجُون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً﴾ وكما قال عز وجل: ﴿نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن

عـذابي هو العـذاب الأليم﴾ . وقولـه عـز وجل : ﴿مالك يـوم الدين﴾ هـو تمجيد لله تبارك وتعـالى كما جاء في حديث أبي هريـرة عند مسلم : وإذا قال : مالك يـوم الدين قـال : مَجَّدَني عبدي . وقد قـرأ عاصم والكسـائي ويعقوب ﴿مـالك يـوم الـدين﴾ وقرأ البـاقـون ﴿ملك يـوم الـدين﴾ وهي قـراءةُ أهل الحرمين . فكلتا القراءتين سـبعية متـواترة ، والمِلِك بفتح الميم وكسر اللام من لـه المُلْك بضم الميم وسكون الـلام أي من لـه السلطان القـاهر ، والاستيـلاء البـاهر والغَلَبَـة التامـة ، والحُكْمُ في جميع شؤون الخلائق ، فمعنى ملك يـوم الدين أي المتصرف في شـؤون خلقه وحده يوم القيامـة ، فكُلُّ ذي سلطان في الدنيـا قد انقطع سلطانه ، وقـد أشار الله عز وجل إلى ذلك في كتابـه الكريم حيث يقول عن مشهد من مشـاهد يوم القيامة : ﴿لمن المُلْكُ اليـوم لله الواحد القهـار﴾ وكما قال عـز وجل : ﴿المُلْك يـومئذ الحقُّ للـرحمن وكـان يومـاً على الكـافرين عسيرا﴾ . والله تبـارك وتعـالى هـو الملك الحق دائما وأبداً وكما قـال الحق تبارك وتعالى : ﴿قوله الحق وله الملك يوم يُنْفَخُ في الصور﴾ . والمالك مَنْ له المِلْك بكسر الميم وسكـون اللام وهو من يملك الرقبـة . والله تبارك وتعالى هـو مالك الـرقـاب ومَلِكُهَـا ، فهو المهيمن على جميع خلقـه ، ونـواصي كل العالمين بيده يحكـم فيها بما يشاء ويقضي ما يريـد ، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمـه ، والـدِّين الجزاء والحساب ومنـه قـولـه تعالى : ﴿أئنـا لمدينـون﴾ أي لمحاسبُون ومجزيون بأعمالنا ، ومنه قوله تعالى : ﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ قال البخـاري في صحيحه : والدين الجزاء في الخير والشر، كما تدين تدان ، وقـال مجاهد : بالدين : بـالحساب ، مدينين محاسبين اهـ وقال لبيد :

حَصَادُك يوماً ما زَرَعْتَ وإنما ... يُدَانُ الفتى يوما كما هو دائن

وعلى حد قول الشاعر:

ولـم يبـق سـوى العُـــدْوَان دِنَّــــاهـــم كـمــا دَانُــوا

وتخصيصـه تعـالى بأنه المِلـك المالك ليوم الـدين — وإن كـان هـو الملك المالك لجميع الدنيـا والآخرة — لأنه إذا جاء يـومُ القيامة لا يدعي أحـد فيه مُلْكاً ولا مِلْكاً على حد قوله تعالى: ﴿يوم يأت لا تَكَلَّمُ نفس إلا بإذنه فَمنهم شقيٌّ وسعيد﴾ وكقولـه تعالى: ﴿يوم يقوم الرُّوح والملائكـة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقـال صوابا﴾. وكقولـه تعالى: ﴿وخشعت الأصواتُ للرحمن فلا تسمع إلا همساً﴾. وكقولـه تعالى: ﴿وعَنَتِ الوُجُوهُ للحي القيوم وقد خاب من حَمَل ظلما﴾. وقوله تعـالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: أي لا نعبـد إلا إيــاك. ولا نتـوكل إلا عليك. وهذا هو كمال الطـاعة، والدين كله يرجع إلى هـذين المعنيين، وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحةُ سرُّ القـرآن، وسِرُّها هذه الكلمة ﴿إيـاك نعبد وإياك نستعين﴾ فالأولُ تَبَرُّؤٌ من الشرك، والثاني تَبَرُّؤٌ من الحولِ والقوةِ، والتَّفْوِيضُ إلى الله عـز وجل، وهــذا المعنى في غير آيـة من القـرآن، كما قــال تعـالى: ﴿فاعبده وتوكل عليه، وما ربك بغافل عما تعملون﴾، ﴿قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا﴾، ﴿ربُّ المشرق والمغرب لا إلَـه إلا هو فاتخذه وكيلاً﴾ اهـ.

والعبـادة هي بذل أقصـى غايـة الحب مع أقصى غـايـة الذل للمعبـود ولها مراسيم قد حـددتها شريعة الإسلام من توحيد الله عز وجل والصـلاة والزكاة والصيـام والحج وجميع ما يتقـرب بـه إلى الله عز وجـل وحده لا شريك لـه، ومنها الرغبة والرهبة وخوف السر والرجاء والإنابة والقنوت والإخبات، وهذه الحقيقــة هي التي من أجلهــا خلق الله الإنس والجن، وأقــام السمــوات والأرض، وينصب يـوم القيامة سـوق الجنة والنـار، حيث يقول عـز وجل: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ ولتحقيق التوحيد أرسل الرسل

وأنزل الكتب ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حَيَّ عن بينة، فالسعيد من عبد الله وحده واستعان به، وإذا حقق العبد معنى ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ انطبق عليه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل في حديث أبي هريرة عند مسلم: فإذا قال: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل. ولا شك أن من عبد الله وحده وتوكل عليه واستعان به كفاه الله ما أهمه من أمور الدنيا والآخرة، وجعل له من كل ضيقٍ فرجاً ومن كل كرب وشدة مخرجاً، وإلى ذلك يشير الله عز وجل حيث يقول: ومن يتق الله يجعلْ له مخرجا ويرزقْه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا﴾. ولله در القائل:

إذا كان عون الله للعبد مُسْعِفاً ... تَأَتي له من كل شيء مرادُهُ
وإن لم يكن عونٌ من الله للفتى ... فأول ما يقضي عليه اجتهاده

وما أحسن ما أنشد ابن دقيق العيد:

وقائلةٍ مات الكرام فمن لنا ... إذا عَضَّنَا الدهر الشديد بنابه
فقلت لها من كان غاية همه ... سؤالاً لمخلوق فليس بنابه
لئن مات من يُرجَى فمعطيهم الذي ... يرجونه باق فلو ذوا ببابه

وما أجملَ قولَ القائل:

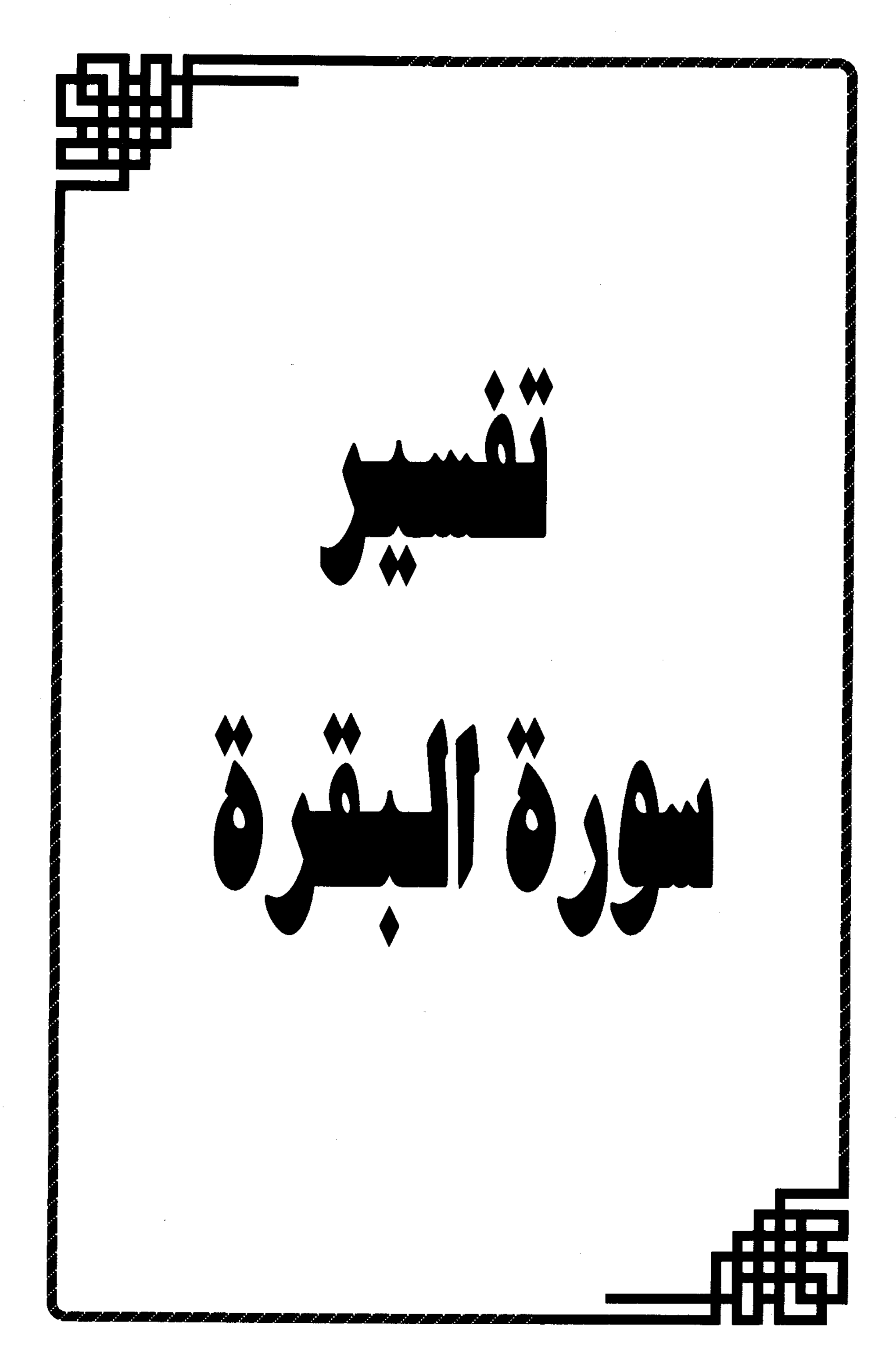
يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ... ولا يهيضون عظماً أنت جابره

وتحقيق ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ يَعْصِمُ المسلمَ من مذهب الجبرية والمعتزلة القدرية.

وقوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أي دُلَّنَا وأرشدنا ووفقنا وأَلْهِمْنَا طريقك المعتدل الذي لا اعوجاج فيه المُوصِلَ إلى مرضاتك وجنات النعيم

بمتابعة رسولك والعمل بكتابك والوقوفِ عند حدودك والثبات على ذلك، فإنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، هذا وفي تقديم: الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين بين يَدَيْ قوله: اهدنا الصراط المستقيم. الخ السورة لفتُ انتباه المسلمين إلى استحباب التوسل إلى الله عز وجل قبل الدعاء بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وحمده والثناء عليه وتمجيده والإقرار بأنه لا معبود بحق سواه وأنه لا يستعان إلا به لأن ذلك أرجى للإجابة، وقد أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ حيث لفت انتباه المسلمين إلى أن الإنسان المسلم إذا دعا الله تعالى بعد أن يذكر أَرْضَى عمل تقرب به إلى الله عز وجل، وعَمِلَه لوجهه الكريم حَرِيٌّ أن يستجاب له، حيث ذكر قصة الثلاثة الذين آواهم المبيتُ إلى غار، فانطبقت عليهم الصخرة، فتضرع كلٌّ واحد منهم إلى الله تعالى وذكر عملا صالحا وقال: اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافْرِجْ عنا ما نحن فيه، فانفرجت عنهم الصخرة وخرجوا يمشون وقد رواه البخاري ومسلم مُطَوَّلا من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، وقوله تعالى ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ الخ. عطفُ بيان أو بدل كل من كل من قوله: الصراط المستقيم، وهو تفسير للصراط المستقيم، وأن سالكيه هم المُنْعَمُ عليهم، وقد بين الله تبارك وتعالى المنعم عليهم حيث يقول في سورة النساء: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقا﴾ وفيه إيماء إلى الثناء على أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم فإن هؤلاء رأس المنعم عليهم بعد رسول الله ﷺ من أمة محمد ﷺ فقد وصف رسول الله ﷺ أبا بكر بالصديق وعمر وعثمان بالشهيدين كما أنه لا شك في أن علياً رضي الله عنه قد مات شهيداً، ولم يوصف بالصديقية من أمة محمد ﷺ أحد غير أبي بكر رضي الله عنه فهو أفضل الخلق بعد النبيين عليهم السلام، فقد روى البخاري من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ صَعِدَ أُحُداً وأبو

بكـر وعمـرُ وعثمانُ فَرَجَفَ بهم فقـال : اثْبُتْ أُحُـدُ فإنما عليك نبي وصـديق وشهيدان ، وفي لفظ للبخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : صَعِدَ النبي ﷺ إلى أحد ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فَرَجَفَ بهم فضربه برجله وقال : اثبت أحد فما عليك إلا نبـي أو صِديق أو شهيدان . كما روى مسلم من حديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان على حـراء هو وأبو بكر وعمـر وعثمان وعلي وطلحة والـزبير فتحركـت الصخرة فقـال رسول الله ﷺ : اهـدأ فما عليك إلا نبي أو صِـدِّيـق أو شهيـد . أمـا المغضـوب عليهم والضـالـون فهم كلُّ من كفـر بـالله وكـذَّب المرسلين من اليهـود والنصـارى والمنافقين والمشركين وسـائر الملاحدة والـدهريين ، أصحـاب الصراط المعوج المنحرفين عن سـواء السبيل ممن غَضِبَ عليهم رب العزة جل جـلاله وتَـاهوا عن طريق الـراشدين . وقد أخبر رسـول الله ﷺ في حديث أبي هـريرة عنـد مسلم أن العبد إذا قال : اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . قال : «يعني الله» هذا لعبدي ولعبدي ما سأل . هـذا ويستحب لمن قرأ الفـاتحة أن يقول بعـدها : آمين ومعنـاه اللهم استجب . فقـد روى أحمد وأبو داود والترمـذي وحسَّنه من حـديث وائل بن حُجْـر قـال : سمعت النبي ﷺ قرأ ﴿غير المغضـوب عليهم ولا الضـالين﴾ فقال : آمين مدَّ بها صـوته . كما روى البخاري ومسلم من حديـث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسـول ﷺ قال : إذا أَمَّن الإمـام فَأَمِّنُوا فإنه مـن وافق تأمينه تأمين الملائكـة غفر لـه مـا تقدم من ذنبـه ، كما روى مسلم من حـديث أبي مـوسى مـرفـوعـاً : وإذا قـال — يعني الإمـام ﴿غير المغضـوب عليهم ولا الضالين﴾ فقولوا : آمين يجبكم الله . وفي لفظ البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله أن رسـول الله ﷺ قـال : إذا قـال الإمـام غير المغضـوب عليهم ولا الضالين فقـولوا : آمين ، فمن وافق قـولُه قـولَ الملائكة غفـر له مـا تقدم من ذنبه .



تفسير سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ * ذٰلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولٓئك على هدى من ربهم وأولٓئك هم المفلحون﴾

هذه سورة البقرة، وإنما سميت سورة البقرة لأن الله تعالى ذكر فيها قصة بقرة بني إسرائيل، المنبئة عن تعنت بني إسرائيل وتنطعهم في دين الله — ولن يشادَّ الدين أحد إلا غلبه — المقررةَ لإثبات رسالة الرسل، وقدرةِ الله تعالى على إحياء الموتى، وبعض مظاهر آيات الله عز وجل وعلامات قدرته ليعقل الناس ويسلكوا صراط الله المستقيم، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تُقْرَأ فيه سورةُ البقرة» كما روى مسلم من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزَّهْراوَيْنِ البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فِرْقانِ من طير صَوافَّ تُحاجَّان عن أصحابهما، اقرأوا سورة البقرة فإن أَخْذَها بركة وتَركها حسرة ولا يستطيعها البَطَلَةُ. كما روى مسلم في صحيحه من حديث النَّوَّاسِ بن سمعان الكِلابي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهلِه الذين كانوا يعملون به تَقْدُمُه سورةُ البقرة وآل عمران. وضرب لهما رسول الله ﷺ

ثلاثة أمثـال ما نَسيتُهُنَّ بعدُ، قال: كأنهما غَمامتـان أو ظُلَّتَان سَوْدَاوَان بينهما شرقٌ أو كأنهما حِزْقَان من طَيْر صَواف تُحاجان عن صاحبهما. اهـ ومعنى الزهراوين أي المضيئتين فالزهراوان تثنية الزهراء والزهراء تأنيث الأزهر وهو المضيء الشديد الضوء، وقد وصفت البقرة وآل عمران بهذا الوصف لما اشتملتا عليه من أنوار الأحكام الشرعية، والأخلاق العَلِيَّة، وأسماء الله الحسنى وصفاته العُلَى، وقوله: كأنهما غمامتان أي سحابتان تُظِلاَّن صاحبهما عن حَرِّ الموقف عند دُنُوِّ الشمس من رؤوس الخلائق يوم القيامة. وقوله: أو كأنهما غيايتان أي كأنهما ظلتان فالغياية كل شيء أظل الإنسان من فوق رأسه كالسحابة وغيرها.. وقوله: كأنهما فرقان أو كأنهما حِزْقان هما بمعنى واحد ومعناهما قطيعان وجماعتان، وقوله صَوافَّ هي جمع صَافَّة وهي الطير التي تبسط أجنحتها في الهواء، وقوله: تُحَاجَّانِ عن أصحابهما أي تدافعان النار والزبانية عن وجوه أصحابهما يوم القيامة وتَشْفَعَان لقُرَّائهما بقوة وقوله: سوداوان أي كثيفتان لا يَتَسَرَّبُ منهما شيء من حر الموقف، وقوله: بينهما شَرْق هو بسكون الراء ويجوز فتحها ومعناه الضَّوْء. ولا خلاف عند أهل العلم أن سورة البقرة كلَّها مدنية نزلت على رسول الله ﷺ بعد هجرته إلى المدينة المنورة وقد افتُتِحتْ سورة البقرة بقوله عز وجل ﴿الٓمٓ﴾ وقد افتتح الله تبارك وتعالى تسعا وعشرين سورة بالحروف المفرقة فافتتح بقوله عز وجل ﴿الٓمٓ﴾ سورة البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة وبقوله عز وجل ﴿الٓمٓصٓ﴾ الأعراف وبقوله عز وجل ﴿الٓر﴾ سُوَرَ يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحِجْر وبقوله عز وجل: ﴿الٓمٓر﴾ الرعد وبقوله عز وجل: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ مريم وبقوله عز وجل ﴿طه﴾ سورة طه وبقوله عز وجل ﴿طسٓمٓ﴾ الشعراء والقصص وبقوله عز وجل ﴿طسٓ﴾ النمل وبقوله عز وجل ﴿يسٓ﴾ سورة يسٓ وبقوله عز وجل ﴿صٓ﴾ سورة صٓ وبقوله عز

وجل ﴿حمٓ﴾ سُوَر غافر وفصلت والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف وبقوله عز وجل ﴿حمٓ. عٓسٓقٓ﴾ الشورى، وبقوله عز وجل ﴿قٓ﴾ سورة قٓ وبقوله عز وجل ﴿نٓ﴾ سورة القلم ومجموع الحروف المفرقة المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعةَ عَشَرَ حرفا وهي ا ل م ص ر ك ه ي ع ط س ح ق ن يجمعها قولك: نَصٌّ حكيم قاطعٌ له سرٌّ، وهي نصف حروف الهجاء عددا وقد اشتملت على أصناف أجناس الحروف من المهموسة والمجهورة ومن الرخوة والشديدة، ومن المُطْبَقَة والمفتوحة، ومن المستعلية والمنخفضة، ومن حروف القلقة، وقد عُلِم قطعا أن رسول الله ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب على حد قوله تعالى: ﴿وما كنت تتلواْ من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾ وقوله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلواْ عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبلُ لفي ضلال مبين﴾ فمجيء هذه الحروف في افتتاحيات هذه السور بهذه الصفة معجزةٌ ظاهرة لرسول الله ﷺ وبرهان قطعي على أنه من عند الله، ولذلك ذهب جماعة من محققي العلماء إلى أن المقصود من هذه الحروف هو الإعجاز والتحدي للعرب والعجم والإنس والجن كما أن مجيئها على حرف واحد كقوله ص ن ق وعلى حرفين كقوله: حم وعلى ثلاثة أحرف كقوله الم وعلى أربعة أحرف كقوله المر والمص وعلى خمسة أحرف كقوله كهيعص وحم. عسق يلفت انتباه ذوي العلم الذي يعلمون أن الكلام إنما يجيء على حرف أو حرفين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة لا غير بأن هذا القرآن من عند الله لأنه مركب من نفس الحروف التي يتركب منها كلامهم وعلى الأساليب التي يعبرون بها، ومع ذلك فقد تحداهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله، وبين الله عز وجل عجزهم حيث يقول: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هٰذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان

بعضهم لبعض ظهيرا﴾ وعلى مدى ثلاث وعشرين سنة التي نزل فيها القرآن وإلى اليوم لم يظهر على وجه الأرض مَنْ يَدَّعِي أنه يقدر على أن يعارض هذا التحدي مهما ارتفعت معارفهم وتقدمت مدارسهم، ومما يؤيد أن المقصود من ذكر هذه الحروف المفرقة في أوائل السور هو الإعجاز والتحدي وإثباتُ أنه من عند الله تبارك وتعالى أن الله يذكر عَقِبَ هذه الحروف في افتتاحيات السور القرآن صراحةً أو ضمناً ثم يذكر اختلاف الناس بين مؤمنٍ به أو مُكَذِّبٍ له وأن المُؤمنين يحصل لهم عز الدنيا وسعادة الآخرة وأن المكذبين يرجعون بخزي الدنيا وعذاب الآخرة، ثم يختم السورة بمثل ما بدأها به من مدح القرآن والمؤمنين به وذم المكذبين وبيان سوء عاقبتهم. كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ. ذٰلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾. وكقوله تعالى: ﴿الٓمٓ * الله لا إلَه إلا هو الحي القيوم * نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبلُ هدًى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام﴾ وقال: ﴿المص * كتابٌ أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين﴾ وقال: ﴿الٓر تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ وقال عز وجل: ﴿الٓر * كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ الخ هذه الافتتاحيات الكريمة.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ذٰلك الكتاب﴾ أي هذا الكتاب العالي المنزلة الرفيع الدرجة الكاملُ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فالإشارة بقوله ﴿ذٰلك﴾ لعلو منزلته ورفيع درجته وأل في ﴿الكتاب﴾ للكمال كما تقول: زيد الرجل أي الكامل في الرجولية، و﴿الكتاب﴾ هو القرآن، والقرآن هو كلام الله تعالى المنزلُ على رسوله محمد ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام المنقول إلينا تواترا المعجزُ بأقصر سورة منه المتَعَبَّدُ بتلاوته. وهو حجة الله البالغة ومعجزته الباقية لا تنقضي عجائبه ولا يَخْلَقُ على كثرة الرد، كلما

تكرر زادت حلاوته، أنزله الله تبارك وتعالى تبيانا لكل شيء، من حكم به عدل، ومن استمسك به فقد هُدِي إلى الصراط المستقيم. وقوله تعالى: ﴿لا ريب فيه﴾ أي لا شك فيه، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يتطرق الرَّيْبُ إلى معانيه أو مبانيه، أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، وبعض القراء يقف على قوله: ﴿لا ريب﴾ ويبتدئ بعد الوقف بقوله: فيه هدى للمتقين. وبعض القراء يقف على قوله: ﴿فيه﴾ ثم يبتدىء بقوله: ﴿هدى للمتقين﴾ والقاعدة عند القراء هنا أن من وقف على أحدهما لا يجوز له الوقف على الآخر والوقف على قوله: ﴿لا ريب فيه﴾ أولى لقوله عز وجل في أول سورة السجدة: ﴿الٓمٓ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ ولا شك أن كون القرآن هدًى أولى من كونه فيه هدى، والهُدَى النور والإرشاد والبيان والدلالة والدعوة والتنبيه والاهتداء ونقيض الضلال، كما يطلق الهُدَى على توفيق الله تعالى للعبد وتأييده وتسديده وعونه، واستعماله في طاعته، وحفظه من الشيطان، ودفع الشر عنه، حتى يصل به إلى جنات النعيم، والهدى الذي بهذا المعنى من التوفيق والتأييد تَفرَّد الله عز وجل به فلا يقدر عليه ملَكٌ مقرب ولا نبي مرسل، وفي ذلك يقول الله عز وجل لخاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد ﷺ: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولَٰكنَّ الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾ ويقول رسول الله ﷺ في خطبته في حديث ضماد الذي أخرجه مسلم في صحيحه: من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، والله تعالى يهدي من يشاء فضلاً ويضل من يشاء عدلاً وله الحكمة التامة والحجة البالغة، أما الهُدَى الذي معناه البيان والدلالة والإرشاد والدعوة والتنبيه إلى الخير فهو وظيفة الرسل والدعاة إلى الله على بصيرة من أتباع المرسلين وفي هذا يقول الله عز وجل: ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ ويقول عز وجل: ﴿ولكل قوم هاد﴾ ومنه قوله

عز وجل: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾ أي بينا لهم طريق الخير ليسلكوه وطريق الضلالة والكفر ليجتنبوه فاختاروا طريق الكفر وتركوا طريق الإيمان. والمراد بالمتقين في قوله عز وجل: ﴿هدى للمتقين﴾ هم الذين يخافون عذاب الله ويرجون رحمته ويحرصون على طاعته. وقد وصفهم الله تبارك وتعالى في هذا المقام بقوله عز وجل: ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزلَ إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون﴾ وأصل التقوى في اللغة العربية التوَقي مما يكره مأخوذة من الوقاية قال النابغة:

سقط النَّصيفُ ولم تُرِدْ إِسْقَاطَهُ فَتَنَاوَلَتْهُ واتَّقَتْنَا بِالْيَدِ

وإنما خصَّ الله تبارك وتعالى المتقينَ بهدَى القرآن لأنهم هم الذين يحرصون على الانتفاع به، والوقوف عند حدوده وتحليل حلاله وتحريم حرامه، وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاءٌ والذين لا يؤمنون في آذانهم وقْرٌ وهو عليهم عمًى﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ونُنَزِّلُ من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خَسَارًا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدًى ورحمةٌ للمؤمنين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أفمن يعلم أنما أُنزل إليك من ربك الحقُّ كمن هو أعمى إنما يتذكر أُوْلُواْ الألباب﴾. وقد قَسَّم الله تبارك وتعالى الناس في هذا المقام إلى ثلاثة أقسام، القسم الأول هم المتقون، والقسم الثاني هم الكافرون والقسم الثالث هم المنافقون. والواقع أن جميع الناس الذين بلغوا حدَّ التكليف لا يخرجون عن هذه الأقسام الثلاثة، وقد تحدث عن المتقين في ثلاث آيات من الآية الثالثة إلى الآية الخامسة وتحدث عن الكافرين المصرحين بكفرهم في آيتين من الآية

السادسة إلى الآية السابعة وتحدث عن المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر في ثلاث عشرة آية من الآية الثامنة إلى الآية العشرين. وقد وصف الله تبارك وتعالى المتقين هنا مع وصف التقوى بخمس صفات ثم حكم بأنهم على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون وقد بدأ الله عز وجل هذه الصفات الخمس بأنهم يؤمنون بالغيب، ولا شك أن الإيمان بالغيب هو أهم صفات المؤمنين المتقين، كما أن الكفر بالغيب هو أبرز صفات الكافرين ولا سيما الملاحدة والدهريين، ولذلك كان من أخص صفات الشيوعيين؛ أنهم لا يؤمنون إلا بالمادة، ففي صدر تعاليمهم الشِّرِّيرَة: لا إله والكون مادة. والمراد بالغيب الذي يسعد المؤمنون به هو الإيمان بالله وملائكته والقَدَرِ خيره وشرِّه، حُلْوِه ومُرِّه من الله عز وجل وجميع ما أخبر الله عز وجل به أو أخبر به رسوله ﷺ من أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وسائر ما جاء عن الله أو صح عن رسوله ﷺ من أمور الغيب التي لا يشاهدونها عندما يجيئهم الخبر بها عن الله عز وجل أو عن رسوله ﷺ. أما الصفة الثانية من صفات المتقين فهي إقامة الصلاة أي الإتيان بها مجودة بشروطها وأركانها في أوقاتها ابتغاء وجه الله عز وجل، والصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام، وهي أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة فقد روى الترمذي بسند حسن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن أول ما يُحَاسَبُ به العبد يوم القيامة من عمله صلاتُهُ فإن صلحت فقد أفلح وأَنْجَحَ، وإن فَسَدَتْ فقد خاب وخَسِرَ، فإن انْتَقِصَ من فريضته شيء قال الربُّ عز وجل: انظروا هل لعبدي من تطوع فَيُكَمِّلُ بها ما انْتُقِصَ من الفريضة، ثم تكون سائر أعماله على هذا كما روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة. كما روى الترمذي بسند حسن صحيح عن النبي ﷺ قال: العهد

الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر. أما الصفة الثالثة من صفات المتقين فهي أنهم يـؤدون زكاة أموالهم ومـا يلزمهـم من النفقات، أمـا الصفة الرابعـة من صفات المتقين فهي الإيمان بما أنـزل الله من كتاب سـواء عُلِمَ لهم كالقرآن والتوراة والإنجيل والزبور أو لم يعلم لهم، وهذا يقتضي الإيمان برسل الله، والإيمان بكتب الله ورسلـه من أركان الإيمان. أمـا الصفة الخامسـة من صفات المتقين فهي الإيمان بالآخرة، يعني التصديق بيوم القيامة وإنما سميت الآخـرة لأنها بعـد الأولى أي الـدنيا وهـو يقتضي الإيمان بـالبعث بعـد الموت وبـالحساب والعـرض على الله عز وجل والميـزان والصراط، والجنة للسعـداء والنار لـلأشقياء، وهـذا كله وإن كان داخـلاً في الإيمان بالغيب إلا أنـه يُعَدُّ ركناً مستقـلاً من أركان الإيمان، وقد كفـر به المشركـون أشد الكفر وعـارضوه أشد المعـارضة ولذلك كانت السـور المكية تدور في فلك حقـائق ثلاث وهي الإيمان بـالله والإيمان بالـرسالـة والإيمان بالبعث بعـد الموت، تقيم على ذلك الحجج وتسوق البراهين، ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حيَّ عن بينة.

وقـوله عـز وجل: ﴿أولَـٰئك على هـدى من ربهم وأولَـٰئك هم المفلحـون﴾ أي هَؤلاء العظماءُ المتصفون بهذه الصفات الخمـس على هدى أي على نور وبيان وبصيرة وبرهان من الله عز وجل وأولَـٰئك هم الفـائزون الناجون الناجحون في الدنيـا والآخرة، والإشـارة بأولَـٰئك لعلو منـزلتهم ورفيع درجاتهم عنـد الله عز وجل، والتعبير بعَلَى في قـولـه عز وجـل: على هدى من ربهم للـدلالـة على تمكنهم في الهُدَى وبُعْـدِهـم عن كل ضـلالـة وانحـراف، إذ سلك الله بهم صراطه المستقيم، وهداهم إلى الدين القويم. والحمدلله رب العالمين.

قال تعالى : ﴿إن الذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تُنذِرْهم لا يؤمنون * خَتمَ الله على قلـوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصـارهم غِشَـاوةٌ ولهم عـذابٌ عظيم﴾ .

بعـد أن وصف الله تعـالى القسم الأول مـن أقسـام المكلفين وهـم المتقـون بخمس صفات ذكـر هنا في هـاتين الآيتين الكريمتين حـال القسم الثاني من النـاس وهم الكافـرون المصرِّحـون بكفرهـم من المشركين واليهود والنصـارى والملاحدة والـدهريين وسـائر من أنكر مـا عُلِمَ من دين الإسـلام بالضرورة ، وهاتان الأيتان الكريمتان ، في صنف خاص من الكفار وهم من عَلِمَ الله عز وجل أنهم يموتون على الكفـر وأنهم لن تتسرب أنوار الإيمان إلى قلوبهم ، ولن يصل إليها شعـاع من الهدى ، بسبب انسياقهم وراء الشيطـان ، وقد أراد الله عز وجل أن يريحَ رسـول الله ﷺ مما كان يعانيه بسبب شـدة حرصه ﷺ على هـداية النـاس حتى كـاد يبخع نفسـه كما قال عـز وجل في سـورة الكهف : ﴿فلعلك بـاخع نفسك على آثارهم إن لم يـؤمنوا بهذا الحديث أسفـاً﴾ . وكما قال في سورة الشعراء : ﴿لعلك باخع نفسك ألاَّ يكونوا مؤمنين﴾ فبين الله عز وجل له أن من كتب الله عليه الشقاوة فـلا يُسْعده أحد ومن أضله الله بسبب انحـرافه وزيغـه فلن يهديه أحـد ، فلا تـذهب نفسك عليهم حسرات ، ولا تحزن بسبب استمـرارهم على الكفـر والعناد فـإنما عليك البلاغ كما قـال عـز وجل : ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينـا الحساب﴾ . وكما قال عـز وجل في سورة الغاشية : ﴿لستَ عليهم بمُصَيطر * إلا من تولى وكفر * فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾ . وكما قال عـز وجل في سورة الشـورى : ﴿فإن أعرضـوا فما أرسلناك عليهم حفيظًا إن عليك إلا البـلاغ﴾ ومعنى قولـه تعالى : ﴿إن الـذين كفروا سـواء عليهم أأنـذرتهم أم لم تنـذرهم لا يـؤمنـون﴾ . أي إن من علم الله أنـه

يموت على الكفـر وكتب ذلك عليه يستـوي عنده إنذارك وعـدم إنذارك فلن يصل إلى قلـوبهم نور الهدايـة ؛ لأن عليها أقْفَـالَهَا . ومعنى قـوله عـز وجل : ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ أي طبع الله على قلوبهم فـلا يدخلها الإيمان وطبع على سمعهم فلا يستمعون إلى الحق ولا ينتفعون بما يسمعون من الإنـذار، ومعنى قولـه تعـالى : ﴿وعلى أبصـارهم غِشاوةٌ﴾ أي وعلى عيـونهم غِطـاءٌ يُغَطِّيهـا عن مشـاهـدة آيـات الله الكونيـة المنصـوبـة في الآفـاق وفي الأنفس ، ومعنى قـوله عز وجـل : ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ . أي وللكافـرين عذاب مُهين مـؤلم كبير خطير لا يدور في الخيـال ولا يخطر على البـال وأصل الكفر الجحود والإنكار ومعاندة الحق فمـن أنكر الله ولم يعترف به فهو كافر، ومن عرف الله بقلبـه لكنه بارز الله بـالعداوة وجحـد حقه فهو كـافر كإبليس واليهود فهم عـرفوا الحق وكفـروا به كما قـال تعالي : ﴿ فلما جـاءهم ما عـرفوا كفـروا به فلعنـة الله على الكافـرين﴾ . وكفـر العناد هـو أن يعرف الله بقلبـه ويعترف بلسانه لكنه لا يدين بدين الإسلام كأبي طالب حيث يقول :

ولقد علمت بأن دين محمـد ... مـن خـير أديان البريـة دِينـاً

لولا الملامةُ أو حَذَارِي سُبَّةً ... لوجدتني سـمحا بذاك مُبينـاً

والإنـذار إعلام مع تخويف وتحذيـر، والقلب في الأصل هو قطعـة اللحم الصنـوبريـةُ الشكل الموضـوعةُ في تجويف الصـدر مع ميل قليل إلى اليسـار غـالباً، كما يطلق القلب على اللطيفـة الربـانيـة التي تقوم بـالقلب اللحمي الصنوبري الشكل فبها يحصل منه الإدراك وترتسم فيه العلوم والمعارف، وإذا أطلق القلب في لسان الشرع فالمراد به اللطيفة الـربانية وهي محل القوة العاقلة من الفؤاد وهى كالحرارة القـائمة بالفحم عند اشتعـال النار فيه ؛ لأن القلب اللحمي موجـود في البهائم الأليفة والوحشية ، فإذا استعمـل الله تعالى العبد في طاعته استنارت بصيرة قلبه ، و إذا خذله عميت بصيرته كما قال عز وجل :

﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولَكن تَعْمَى القلوبُ التي في الصـدور﴾ . وقد أشار الله عز وجل إلى سبب الطبع والختم على قلوب الكـافرين حيث يقول : ﴿بل طبع الله عليها بكفـرهم فلا يـؤمنون إلا قليلاً﴾ . كما أشـار رسول الله ﷺ إلى سبب الختم على القلوب بأن الـذنوب إذا تتابعت على القلـوب أغلقتها حتى يختم عليها فقد روى مسلم في صحيحه من حـديث حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأي قلب أُشْرِبَهَا نُكِتَ فيه نُكْتَـةٌ سوداءُ وأيُّ قلب أنكرهـا نُكِتَ فيه نُكْتـةٌ بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفـا فـلا تضره فتنة مـا دامت السمـوات والأرض والآخر أسود مُـرْبَادّاً كالكوز مُجَخِّياً لا يعرف معـروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه . كما روى الترمذي بسند صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسـول الله ﷺ : «إن المؤمن إذا أذنب ذنبًا كانت نُكْتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستعتب صُقِلَ قَلْبُه وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه ، فـذلك الران الذي قال الله تعـالى : ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كـانوا يكسبون﴾ . والسمع يطلق ويـراد به الأذن كما يـراد به مـا أودعه الله في الأذن من لطيفة تفرق بها بين ما تسمعـه من خير أو شر وهو المراد هنا فإذا ختم الله على القلب لا يفقه ولا يعقل كما قال عز وجل : ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ وإذا ختم على السمع فإنـه لا يصله صـوت الحق ، والأبصار جمع بَصَر وهـو حِسُّ العين والمراد هنـا مـا أودع الله تعـالى في العين من لطيفـة تفـرق بها بين مشاهد الحق ومشاهد الباطل ، وتكرير كلمة ﴿على﴾ في قوله تعالى : ﴿ختم الله على قلـوبهم وعلى سمعهـم﴾ للـدلالـة على أن ختـم القلب غير ختم السمع ، وإن لكل واحـد من القلب والسمع خَتْمَـهُ على حـدة . والمراد بالغِشاوة غطاء التعامي عن آيـات الله الكونية المبثوثة في السموات والأرض ، وإنما جمع القلوب والأبصار ووحَّد السمع ؛ لأن القلوب والأبصار تدرك أشياء

متعددة بخلاف المسموع فهو شيء واحد وهـو الصوت، هذا وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ إشعار ظـاهر بفساد مذهب المعتزلة القائلين بأ ن العبد يخلق أفعال نفسه، وهو مذهب فاسد كاسد؛ لأن الله تبـارك وتعـالى يقـول: ﴿فلما زاغـوا أزاغ الله قلـوبهم والله لا يهدي القـوم الفاسقين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ونُقَلِّب أفئـدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿ولو شاء ربك مـا فَعَلُوه فـذرهم وما يفترون﴾ في آيـات كثيرة تـؤكد أن الله يهدي من يشـاء فضـلاً ويضل من يشـاء عـدلاً. وكما قـال رسـول الله ﷺ في الحديث الـذي أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: المؤمن القـوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احـرص على مـا ينفعك واستعن بالله ولا تعجـز وإن أصـابك شيء فلا تقل: لـو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطـان. فــالله تبـارك وتعـالى ختم على قلـوب الكفــار وسمعهم وغطَّى أبصارهم جزاء وفاقاً لما اقترفـوه وليس ذلك جبراً كما يقول الجبرية الجهمية بل بطريق الترتيـب على ما اقترفوه من القبـائح، ولا يظلم ربك أحداً، ولـذلك قال في سورة الجاثية: ﴿أفـرأيت من اتخذ إلٰهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعـه وقلبـه، وجعل على بصره غشـاوة فمن يهديـه من بعـد الله أفـلا تذكـرون﴾. وقال في سورة النحل: ﴿ذٰلـك بأنهم استحبوا الحياة الـدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القـوم الكافرين* أولٰئك الـذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولٰئك هم الغافلون﴾ وقـد خص الله تبارك وتعالى هذه الأعضـاء الثـلاثـة أعني القلب والسمع والبصر لأنها طـرق المعـرفـة والعلم فالقلب محل العلم، وطـر يقه إما سماع الأذن أو رؤيـة العين. ولذلك وصَّى الله تبارك وتعـالى بالمحافظـة على السمع والبصر والفؤاد مُنبِّهًـا عباده إلى أنهم

مسئولـون عنها حيث يقـول عز وجل في سـورة الإسراء : ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولَئك كان عنه مسئولاً﴾ وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أهـم أسباب صيانة القلب واستنارة بصيرته وهو الحرصُ على الطعام الطيب والابتعـادُ عن تناول المحـرمات حيث يقـول فيما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حـديـث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قـال : سمعت رسـول الله ﷺ يقـول : «إن الحلال بَيِّنٌ، وإن الحرام بَيِّنٌ وبينهما مشتبهاتٌ لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعِرْضِـه، ومَنْ وقع في الشبهات وقع في الحرام كـالراعي يَـرْعَى حول الحمى يُوشِك أن يرتع فيـه، أَلاَ وإن لكل مَلِكٍ حِمًى، ألا وإن حَمى الله محارمهُ، ألا وإن في الجسـد مضغـة إذا صلَحت صلَح الجسـد كلُّه، وإذا فسـدت فَسَـدَ الجسدُ كلُّـه، ألا وهي القلب» اهـ. وفي هاتين الآيتين الكـريمتين صُورةٌ من صور الإعجاز القـرآني بالتنبيه على خصائص بعض الجوارح، ومـا رُكِّب فيها من الآيات الباهـرات الشـاهدة على أنه تنزيل من حكيم حميد.

قال تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين* يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون* وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون * ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون * وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾

بعد أن بَيَّن الله تبارك وتعالى حَالَ المؤمنين المصدقين بالإسلام باطناً، المنقادين له ظاهراً، المتفقة سريرتُهم مع علانيتهم، وحالَ الكافرين المكذبين بالقرآن سراً وعَلَناً شرع يشرح أحوال المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، ولما كانوا أشد خطراً على الإسلام والمسلمين، وأقدر على بث الفرقة بينهم، لاندساسهم في صفوف المسلمين، ومعرفة مخارجهم ومداخلهم لذلك تحدث الله تبارك وتعالى عنهم هنا في ثلاث عشرة آية فضح فيها نواياهم، ونبه المسلمين إلى معرفة أحوالهم وأقوالهم، حتى يحترزوا منهم ولا يغتروا بهم، فقال عز وجل: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ أي وبعض الناس يتلفظ بدعوى الإيمان والتصديق بالله جل جلاله وبالإقرار بالبعث بعد الموت وواقع حال قلوبهم يناقض ذلك فهم لم يصل نورُ الإيمان إلى قلوبهم، وإنما قالوا ذلك نفاقاً، ورغبةً في المشاركة فيما يصيب المسلمين من عز ورهبةً من سيوف المسلمين لا سيما بعد غزوة بدر الكبرى وإعزاز الله لدينه وأوليائه، وأصل النفاق في لغة العرب يعود إلى الرَّواج من قولهم: نَفَقَ البيع نَفاقًا أي راج والنِّفاق فعل المنافق، ولذلك قيل لإحدى جِحَرَةِ اليَرْبوع نافقاء لأنه يكتمها ويظهر غيرها فإذا أُتي من جهة القاصعاء ضَرَبَ النافقاءَ برأسه فانتفق وخرج، والقاصعاءُ هي جُحْر اليربوع

الذي يدخله، ولم يكن بين المهاجرين منافق قط لأنهم لم يُكْـرَهُوا على الهجرة بل تركـوا أموالهم وأرضهم وأهلهم فـراراً إلى الله بدينهم، وكـان عبدالله بن أُبَي ابن سلول رأس المنافقين قـد رأى أنه لا قبَلَ له بحرب الإسلام عـلانية فأظهر الـدخـول في الإسـلام وأبطن الكفـر وانضـم لـه طـوائف من المشركين وأهل الكتاب في المدينة وممن حولها من الأعراب، وقـد ذكر الله تبارك وتعالى أحوال المنـافقين في مواضع كثيرة مـن القرآن الكـريم فـذكرهـم في سورة البقـرة وآل عمران والنساء والمائدة والتوبة والعنكبوت والأحزاب والقتال والفتح والحديد والمجادلـة والحشر والمنافقين بـل عامة السُّـور المدنية لا تكـاد تخلو مـن بيان أحـوالهم ليحذرهم المؤمنـون، وقد حكم الله عـز وجل عليهم بأن يكونـوا في الدرك الأسفل من النار حيث يقول في سورة النساء: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً﴾ وفي كل مقام من مقامات التحذير من المنافقين يبين الله عـز وجل بعض صفاتهم، ففي هـذا المقام من سـورة البقرة بيَّن أحـوالهم الظاهـرة والبـاطنة ومـا هم عليـه من الكذب والخِداع ومـرض قلـوبهم وحـرصهم على الفسـاد في الأرض مع دعـوى الإصـلاح الكـاذبـة، وجهلهم وسفاهتهـم، وانقيادهم لشياطين الإنـس والجن، والاستهزاء وأنهم اشتروا الضلالـة بالهدى ثـم ضرب لهم مثلا ناريـاً ومثلا مـائياً يقـرران تَخَبُّطَ المنـافقين وتَنَـاقُضَهم، وقولـه عـز وجل: ﴿يخادعـون الله والذين آمنـوا ومـا يخدعون إلا أنفسهم ومـا يشعرون﴾ في هذه الآيـة الكريمة بيـان جَلِيٌّ لما عليه المنافقون من جهلهـم بالله عز وجل وعدم معرفتهم بـأسمائه الحسنى وصفاته العلى إذ يظنـون بالله ظن السـوء ويحسبون أنـه تجوز عليه حيلهم وأنـه تخفى عليه سرائرهم فهم لذلك يظهرون الإسـلام ويبطنون الكفر ويظنون أن الله لا يعلم ذلك وأنهم ينجون مـن عذابه إذا نطقـوا بالشهـادتين وإن خالف ذلك سريـرتَهم وطَوِيَّتَهُمْ وأنهم يحسبـون أنه يَـرُوجُ على الله كما قد يـروج على بعض

المؤمنين والـواقع أن خداعهم إنما يـرجع وَبَالُـه عليهم وحدهم وأن الله تعـالى يدفع عن المؤمنين مكرهم وشرهم، ويدرأ في نحورهم، ولذلك قال عز وجل في سورة النسـاء: ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهـو خادعهم﴾ وقـد أشار الله عز وجل إلى أن المنافقين يظنون يوم القيامة أنهم يخدعون الله عز وجل بالأيمان الكـاذبة الفـاجرة كما كـانوا يفعلـون ذلك مع المؤمنين في الدنيـا حيث كانـوا يجيئون إلى رسول الله ﷺ ويحلفون أنهم مصدقـون بالإسلام وأنهم يشهدون أن محمـداً رسـول الله واتخذوا أيمانهم جُنَّة وفي ذلك يقـول الله عـز وجل: ﴿يـوم يبعثهم الله جميعـا فيحلفـون له كما يحلفـون لكم ويحسبـون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون﴾ والخِداع أن يوهـم الإنسان صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه ليوقعه فيـه من حيث لا يشعر، أو يُوهمه المساعدة على ما يـريد هو به ليغتر بذلك، وفي قـوله عز وجل: ﴿وما يخدعون إلا أنفسهـم وما يشعرون﴾ أي ومـا يَغُـرُّون بخـداعهم هـذا إلا أنفسهم ولا يعـود وَبَـالُ ذلك إلا عليهم وحدهم دون المؤمنين وهم مع ذلك لا يشعرون ولا يدرون أن سوء صنيعهم لا يعود إلا عليهم، والآية مُسْتَأنفة استئنافـاً بيانياً حيث وقعت في جواب سؤال مُقدَّر نشأ عـن الآية السابقـة كأن سائلاً سأل: لماذا قـالوا آمنـا بالله وبـاليوم الآخـر ومـا هم بمـؤمنين، فكان الجواب: يخادعـون الله والـذين آمنـوا ومـا يخدعون إلا أنفسهم ومـا يشعرون. وقد أشار الله تبارك وتعـالى إلى مشهد من مشاهـد القيامة يُنبِّـه فيه المؤمنون المنـافقين على ما خادعـوا به المؤمنين حيث يقول عز وجل في سورة الحديد: ﴿يوم يقول المنـافقون والمنافقات للذين آمنوا انْظُـرُونا نَقْتَبِسْ من نـوركم قيل ارجعـوا وراءكم فـالتمسوا نـورا فَضُرِبَ بينهم بِسُور له بـاب باطنه فيه الـرحمة وظاهره من قبله العـذابُ * ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالـوا: بلى ولَكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغـرتكم الأمانيُّ حتى جاء أمـر الله وغركم بالله الغَرورُ * فـاليوم لا يؤخذ منكم فـدية ولا من

الذين كفـروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير﴾ وقولـه عز وجل : ﴿في قلوبهم مـرض فزادهم الله مرضا ولهم عـذاب أليم بما كانوا يَكـذبون﴾ أي في قلوب المنـافقين شك وَرَيْبٌ ورِجْسٌ فَخَذَلَهُمْ الله عز وجل فامتـلأت قلوبهم مرضا وشكـاً وَرَيْباً ورجساً وقد أُعِدَّ لهم عـذابٌ أليم مُوجِعٌ بسبب تكذيبهم بالدين وكَذبهم في دعواهم أنهم مـؤمنون وما هم بمؤمنين ، وأصل المرض هو ما يعرض للبَدَن فيخرجه عن حد الاعتـدال ويصيبه بالخلل قال في القاموس المحيط : المرض إظلامُ الطبيعـة واضطرابُها بعـد صفائهـا واعتدالِهَا اهــ وقال ابن منظـور في لسـان العـرب : والمرض : السُّقْمُ نقيض الصحـة . ثم قـال : والمرض في القلب يَصْلُحُ لكل مـا خرج بـه الإنسان عن الصحة في الـدين ، ويقال : قلب مريض من العداوة وهو النفـاق اهـ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن المؤمنين يـزدادون إيمانـاً بسماع القـرآن ، وأن المنـافقين يـزدادون رجسـاً بسماعه حيث يقـول عز وجل في خواتيـم المسك من سورة التوبـة : ﴿وإذا ما أُنْـزِلت سورة فمنهم من يقـول : أيكم زادته هـٰذه إيمانا ؟ فأمـا الذين آمنـوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهـم كافرون﴾ . وقوله عـز وجل : ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قـالـوا إنما نحن مصلحـون* ألا إنهم هم المفســدون ولَكن لا يشعـرون﴾ أي وإذا نصح هؤلاء المنـافقين ناصح بأن يتركـوا ما هم عليـه من الأخلاق الشريـرة والأفعال الرذيلـة والكيد للمسلمين ، وبث الفُرقـة والصد عن سبيل الله ومـوالاة أعـداء الله ، وغير ذلك من أنـواع الفسـاد في الأرض أجـابوا النـاصحين بأننـا مصلحون ، فهم يـرون أن الكفـر بالله والصـدَّ عن سبيله ، وتكـذيب المرسلين ، وموالاة أعـداء الله وبثَّ الفـرقة بين المسلمين ، وإشـاعة الـرذيلـة يحسبـون أن ذلك إصلاح في الأرض لا إفسـاد فيهـا حيث انقلبت عليهم الموازين واعتقـدوا الحقَّ بــاطـلاً والبـاطلَ حقـا ، بل حصروا

الصلاح في أعمالهم الفاسدة وسلوكهم المُعْوَجّ فردَّ الله تبارك وتعالى عليهم بأن عملهم هو الفساد في الأرض وأنهم محصورون في دائرة هذا الفساد لأن من عَمِل على نقض موازين العدل التي تستقيم بها البلاد والعباد، كان غارقاً في بحار الفساد وقد وسمهم الله عز وجل مرةً أخرى بأنهم لا يدرون ولا يشعرون أنهم تائهون في مهامه الضلال فقد زيَّن لهم الشيطان أعمالهم فهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً على حد قوله عز وجل: ﴿أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسنا﴾ وعلى حد قول الشاعر:

يُقْضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

فالقبيح عند المنافقين حسن والحسن عندهم قبيح بسبب انقلاب فطرتهم، وانحراف قلوبهم عن صراط الله المستقيم، ومنهجه القويم، فهذه صورة من صور قبائح المنافقين، وقوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاءُ ألا إنهم هم السفهاءُ ولٰكن لا يعلمون﴾ وهذه صورة أخرى من صور قبائح المنافقين، وبيانٌ لِمَا هُمْ عليه من انقلاب الفطرة وفساد السلوك، والتكبر في الأرض بغير الحق، فكانوا إذا دعاهم داع إلى الإيمان بالله ورسوله وقال لهم: صَدِّقوا بمحمد رسول الله ﷺ وشرعه كما صدَّق به المهاجرون والأنصار قالوا: أنصدق بما صدَّق به أهل الجهل الذين لا عقول لهم ولا أفهام، ولفظ الناس هنا عام أريد به الخصوص على مثل قوله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾، والسفيه هو الجاهل الضعيفُ الرأي القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار، ولا شك أن المنافقين قالوا هذه المقالة فيما بينهم فأعلم الله تعالى رسوله ﷺ بمقالتهم، إذ لو قالوها مجاهرة أمام المؤمنين لخرجوا عن حيز النفاق وانضموا إلى الكفار المصرحين بكفرهم، وقد تولى الله تبارك وتعالى جوابهم فقال: ﴿ألا إنهم هم السفهاء﴾ فأكد حصر السفاهة في المنافقين، وبين سبب وصفهم

للمؤمنين بهذا الوصف وهو أن المنافقين لا يعلمون، فَهُمْ من تمام جهلهم لا يعلمون بحال أنفسهم في الضلالة والجهل، وما غُلِّفَتْ به قلوبهم من العَمَى والبعدِ عن الهدى، ومناسبةُ هذه الآية لما قبلها هي أن المؤمنين لما نصحوا المنافقين بترك الإفساد في الأرض وهو عبارة عن التخلي عن الرذائل أمروهم بالإيمان وهو عبارة عن التحلي بالفضائل، والتخلية مُقَدَّمَةٌ على التحلية.

قال تعـالى: ﴿وإذا لَقُوا الـذين آمنوا قـالوا آمنـا وإذا خَلَوْا إلى شيـاطينهم قالوا: إنا معكم إنما نحن مستهزءون * الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون * أولَئك الذين اشتروا الضلالـة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾

وهـذه صورة أخـرى من صور أفعـال المنـافقين القبيحة وهي أنهم يلقـون المؤمنين بوجـه ويلقون شياطينهم بـوجه آخر، فهم إذا كـانوا بحضرة المؤمنين أظهروا الإسلام وادعوا الإيمان وإذا انْفَرَدُوا بشياطينهم قالوا: إنا على مذهبكم في الكفر بمحمد ودينـه، وما تَلَفَّظْنَا به من دعوى الإيمان بمحمـد ودينه هو استهزاء وسخـرية من محمـد وأصحابه، وكـانوا بهذا شَرَّ النـاس، فقد أخبر الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى حبيبُ الله ورسولُه وسيد خلقه محمـدٌ ﷺ أن شر الناس ذو الـوجهين الذي يلقى هـؤلاء بوجـه ويلقى هؤلاء بوجـه فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديـث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: تَجِدُون شرَّ الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بـوجه وهـؤلاء بوجـه وقولـه عز وجل ﴿وإذا خلـوا إلى شياطينهم﴾ أي انفردوا معهم يقـال: خلوتُ إلى فُـلان أي انفردت معـه وقد يستعمل بـالباء فيقال خَلوتُ به، واللفظ القرآني هـو أفصح اللغة وأعلاها، والشياطين جمع شيطان وهو المتمرد من الإنس والجن والـدواب ولذلك أثر أن عمر رضي الله عنه ركب على بِرذون فتبختر به فقال: لقد حملتموني على شيطان حتى أنكرت نفسي، وقد ذكر الله عز وجل أن في الإنـس شياطين وفي الجن شياطين يوحى بعضهم إلى بعض زخـرف القـول غـروراً حيث يقـول في سـورة الأنعـام: ﴿وكـذلك جعلنا لكـل نبيٍّ عدوا شيـاطين الإنس والجنِّ يُـوحي بعضهم إلى بعض زخـرفَ القول غـرورا ولـو شاء ربك مـا فعلـوه فذرهـم ومـا يفترون *

ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون﴾ واشتقاق الشيطان من شَطَنَ إذا بَعُد؛ لأن الشيطان بعيد عن كل خير كما تدور مادة الشيطان على الخبث.

قال الشاعر:

نأت بسعاد عنك نَوَى شَطُونُ   فبانت والفؤاد بها رهين

أي بعدت بها طريق بعيدة. ويقال: بئر شَطُون إذا كانت بعيدة القعر، قال في القاموس المحيط: ونِيَّةٌ شَطُونٌ أي بعيدة، والشاطن الخبيث والشيطان م وكل عات متمردٍ من إنس أو جن أو دابة اهـ وقيل: بل اشتقاق الشيطان من شاط بمعنى احترق لأن مصيره إلى النار وقد أنكر ذلك سيبويه وقال: العربُ تقول تشيطن فلان إذا فَعَلَ فِعْلَ الشياطين ولو كان من شاط لقالوا: تَشَيَّط اهـ وقد روى مسلم من طريق عبدالله بن الصامت عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال: إذا قام أحدكم يصلي فإنه يستره إذا كان بين يديه مِثْلُ آخرة الرَّحْل، فإنه يقطع صلاتَه الحمارُ والمرأة والكلبُ الأسودُ. قلت: يا أبا ذر ما بالُ الكلب الأسود من الكلب الأحمر من الكلب الأصفر؟ قال: يا ابن أخي سألتُ رسول الله ﷺ كما سألتني فقال: الكلبُ الأسود شيطان اهـ ومعنى قوله: ﴿قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾ أي قالوا لشياطينهم ومن يتعاونون معهم على حرب دين الله ورسوله ﷺ: إنا معكم على دينكم، وظُهَرَاؤُكم على من خالفكم، وأولياؤكم ضد محمد ودينه، إنما ما نتلفظ به عند محمد وصحبه هو استهزاء بالله وبكتابه ورسوله وأصحابه وسخرية منهم أما قوله عز وجل: ﴿الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ أي الله يجازيهم بعذاب يُحُسُّون به أنه من جنس عملهم فكما ضحكوا من المؤمنين وكانوا إذا مروا بهم يتغامزون سخرية واستهزاء فإن الله عز وجل يجعل المؤمنين يوم القيامة يضحكون من الكفار والمنافقين كما قال عز وجل: ﴿إن الذين

أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مروا بهم يتغامزون * وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فَكِهِين * وإذا رأوهم قالوا: إن هؤلاء لضالون * وما أُرْسِلوا عليهم حافظين * فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون، على الأرائك ينظرون * هل ثُوِّبَ الكفار ما كانوا يفعلون﴾ فقد جازاهم الله من جنس عملهم قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وأما الاستهزاءُ والمكرُ بأن يظهر الإنسان الخير والمراد شر فهذا إذا كان على وجه جحد الحق وظلم الخلق فهو ذنب محرم، وأما إذا كان جزاء على من فعل ذلك بمثل فعله كان عدلاً حَسَناً، قال الله تعالى: ﴿وإذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا: إنا معكم إنما نحن مستهزئون.الله يستهزىء بهم﴾ فإن الجزاء من جنس العمل اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿ويَمُدُّهم في طغيانهم يعمهون﴾ أي يَزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عُتوِّهم وتَمَرُّدهم كما فعل بنظرائهم في قوله عز وجل: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ يعنى نذرهم ونتركهم فيه ونملي لهم ليزدادوا إثماً إلى إثمهم وضلالاً فوق ضلالهم وعُتُواً على عُتُوهم. والطغيان مجاوزةُ الحد والغُلُوُّ في الكفر والإسراف في المعاصي والظلم. ومعنى ﴿يعمهون﴾ أي يتيهون في الضلالة ويتحيرون ويترددون ولا يهتدون سبيلاً. قال في القاموس المحيط: العَمَهُ محركة التردد في الضلال والتَّحيُّرُ في منازعة أو طريق أو أن لا يعرف الحُجَّةَ اهـ وقال الجوهري في الصحاح: العَمَهُ التحير والتردد وقد عَمِهَ بالكسر فهو عَمِهٌ وعَامِهٌ والجمع عُمَّهٌ قال رؤبة:

وَمَهْمَهٍ أَطْرَافُهُ في مَهْمَهِ أَعْمَى الهُدَى بالجاهلين العُمَّهِ

وأرض عَمْهَاءُ: لا أَعْلاَمَ بها، وذهبتْ إبلُهُ العُمَّهَى إذا لم يدر أين ذهبت اهـ وقال ابن منظور في لسان العرب: قال ابن الأثير: العَمَهُ في البصيرة كالْعَمَى في البصر اهـ وقوله عز وجل: ﴿أولَئك الذين اشْتَرَوُا

الضـلالة بـالهدى فما ربحت تجارتهم وما كـانـوا مهتدين﴾ الإشـارة بقولـه: ﴿أولَئك﴾ للمنافقين الذين عدد صفاتهم القبيحـة وأخلاقهم الشِّرِّيرة الذين وصفهم الله عز وجل بإظهار الكذب بألسنتهم بـدعواهم التصديق بالإسلام وبما جـاء به رسـول الله ﷺ خِداعـاً لله ولـرسولـه وللمؤمنين عنـد أنفسهم، والاستهزاء بالمؤمنين. ومعنـى ﴿اشتروا الضلالة بالهدى﴾ قال ابـن جرير في تفسيره: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى، وذلك أن كل كافر بالله فإنه مستبدل بالإيمـان كفرا باكتسابه الكفر الذي وُجِدَ منه بدلاً من الإيمان الذي أُمِرَ به، أو مـا تسمع الله جل ثنـاؤه يقـول فيمـن اكتسب كفـرا بـه مكـان الإيمان بـه وبرسولـه. ﴿وَمَن يتبدَّلِ الكفر بالإيمان فقـد ضل سواء السبيل﴾ وذلك هو معنى الشراء، لأن كل مُشْتَرٍ شيئاً فإما أن يستبدل مكـان الذي يؤخذ منه من البَدَل آخـر بدلاً منـه، فكذلـك المنافق والكـافر استبـدلا بالهدى الضـلالة والنفـــاق، فأضلهما الله، وسلبهما نـــور الهدى فتَرَكَ جميعهم في ظلمات لا يبصرون وقوله تعالى: ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ قال ابن جرير: وتأويل ذلك أن المنافقين بشرائهم الضلالة بالهدى خسروا ولم يـربحوا، لأن الرابح من التجار المُسْتَبْدِلُ من سلعتـه المملوكة عليـه بَدَلاً هـو أَنْفَسُ من سلعته أو أفضل من ثمنهـا الذي يبتـاعها بـه، فأما المستبـدلُ من سلعته بـدلاً دُونَهَا ودون الثمن الذي يبتاعها به فهو الخاسر في تجارته لا شك، فكذلك الكافِرُ والمنافقُ لأنهما اختـارا الحَيْرَةَ والعَمَـى على الـرشـاد والهُدَى، والخَوفَ والـرُّعْبَ على الحفظ والأمنِ، فاستبدلا في العـاجل بالرشاد الحَيْرَةَ، وبالهدى الضـلالةَ، وبالحفظ الخوفَ، وبـالأمن الـرُّعْبَ، مع مـا قـد أُعِـدَّ لهما في الآجل من أليم العقـاب وشديد العذاب، فخابا وخَسِرَا، ذلك هو الخسران المبين. اهـ ولما كان الرابح أو الخاسر هو الشخص لا التجـارةُ كان أصلُ الكـلام: فما رَبِحُوا في تجارتهم لا فيما اشتَرَوْا ولا فيما باعوا، لكن العربَ قد استعملوا هذا الأسلوب الفصيح

حيث قالوا: ربح بيعه، ونام ليله، وخَسِر سعيُه ولذلك جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً وكان أحبُّ أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله إن الله يقول: ﴿لن تنالوا البرحتى تنفقوا مما تحبون﴾ وإن أحبَّ أموالي إليَّ بيرحاء وإنها صدقةٌ لله أرجو بِرَّها وَذُخْرَها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال النبي ﷺ: بخ بخ ذاك مال رابح ذاك مال رابح الحديث وقال رؤبة بن العجاج:

حَارِثُ قد فَرَّجْتَ عني هَمِّي فَنام ليلي وتَجَلَّى غَمِّي

وقوله تعالى: ﴿وما كانوا مهتدين﴾ أي وما كانوا راشدين في اختيارهم الضلالة على الهدى والكفر بَدَلَ الإيمان، ولا شك أن التجارة الرابحة هي المنجية من العذاب الأليم الجالبة لسعادة الدنيا والآخرة وقد بينها الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذٰلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويُدخلْكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذٰلك الفوز العظيم * وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين﴾ وكما أخرج مسلم من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ الناس يغدو فبايع نفسَهُ فَمُعْتِقُهَا أو مُوبِقُهَا».

قال تعالى: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمي فهم لا يرجعون. أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير﴾.

بعد أن وصف الله تبارك وتعالى المنافقين في هذا المقام من سورة البقرة بما تقدم من صفات، وحكم عليهم بأنهم ما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ضرب لهم مَثَلاً نارياً ومَثَلاً مائياً لتقرير كشف أحوالهم وبيان مواقفهم والتشنيع عليهم وما هم فيه من الحَيْرَة والحسرة والتردد والتذبذب، وما يصيبهم من المخاوف وما ينتابهم من الرعب والهلَع والفزع، وما يسلطه الله عز وجل عليهم من البلايا التي تحيط بهم من كل جانب حتى صاروا يحسبون كلَّ صيحة عليهم. والواقع أن المنافقين لم يكونوا على وتيرة واحدة. فبعضهم لاحت لهم أنوار الإسلام فآمنوا ثم ذهب الله بنورهم فكفروا فطبع الله على قلوبهم، وفي هذا الصنف من المنافقين يقول الله عز وجل في سورة ﴿المنافقون﴾: ﴿ذٰلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فَطُبِعَ على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾ وبعض المنافقين لحقارة نفوسهم كانوا يحرصون على التظاهر بالإسلام لمجرد الحصول على بعض الصدقات فإن أُعْطُوا منها فرحوا ومالوا نحو الإسلام وإذا لم يُعْطَوْا امتلأت قلوبهم غِلاً وحقداً وسَخَطاً وفي هذا الصنف من المنافقين يقول الله عز وجل: ﴿ومنهم مَنْ يلمزك في الصدقات فإن أُعْطُوا منها رَضُوا وإن لم يُعْطَوْا منها إذا هم يَسْخَطُون﴾ وبعض المنافقين عندما أعلن إسلامه لم يكن موقنا به بل كان مُتَرَدِّداً شاكاً، قد يرى بصيصاً

من نور يتسرب إلى قلبـه لا يلبث أن يذهب عنـه ويزول ويُغَلِّفُ قَلْبَـهُ الظلامُ الدامِسُ، وقد ضرب الله تبـارك وتعالى في هذا المقـام من سـورة البقرة مثلين للمنافقين أحـدهما ناري والآخر مـائي يقرران صفة المنـافقين على أكمل وجه وأوضَحِـه فقـال في المثل النـاري: ﴿مثلهـم كمثل الـذي استـوقـد نـارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾ والمثل بفتح الميم والثـاء يطلق على معنى الصفة كأنه قال: صفة المنافقين كصفة الذي استوقد نارًا الخ، كما يطلق المثل على القول السائر الـذي يُشَبَّهُ مَضْرِبُـهُ بِمَوْرِدِهِ، والأمثـال لا تُغَيَّر، وقد أكثـر الله تبارك وتعالى من ضرب الأمثال في كتابه الكريم وفي ذلك يقول في سورة العنكبوت: ﴿وتلك الأمثال نضربها للنـاس وما يعقلهـا إلا العالمون﴾ وقد شبـه الله تبارك وتعالى في هـذا المثل الناري المنافقين الـذين آمنوا ثم كفـروا في صيرورتهم بعد البصيرة إلى العمي حيث اشتَرَوُا الضلالـة بالهدى بقوم مسـافرين جَنَّ عليهم الليل واشتـد الظلام وانطمست أمَـامَهُم المعالم وصـاروا لا يدركـون شيئاً ممـا حولهم فلم يهتدوا إلى الطريق فأوقدوا ناراً ليستضيئوا بنورها، فلما أضاءت لهم النار ما حَوْلَهُم وبدؤا في الانتفاع بها أطفأ الله نارهم، وذهب بنورهم، وتركهم في ظلمات لا يبصرون، ثم وصفهم وهم في هـذه الحال المزعجـة بما يزيـدهم ضـلالاً على ضلالهم، حيث وصفهـم بأن الله عز وجل سلب منهـم حاسـة السمع فَأَصَمَّهُم وحاسـة الكلام فأخـرس ألسنتهم، وحاسة الـرؤية فأعمى أبصارهم فصاروا في ظلمات بعضها فـوق بعض وقوله تعالى: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حـوله﴾ أي صفتهم كصفة الذين استوقدوا ناراً فلما أضاءت مـا حولهم. والتعبير بالذي الموضـوع في الأصل للواحد على وتيرة قوله عـز وجل: ﴿والذي جاء بالصدق وصـدق به أولَئك هم المتقون﴾ وقول الأشهب بن رميلة:

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كلّ القوم يا أم خالد

وقوله تعالى: ﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ وقوله عز وجل ﴿ومن يعص الله ورسوله فإن له نارَ جهنم خالدين فيها أبداً﴾ فهذا أسلوب من أعلى أساليب البلاغة، ومعنى استوقد أوقد، ومعنى ﴿ذهب الله بنورهم﴾ أي أطفأ نارهم فلم يبق لهم نور، قال بعض أهل العلم: إن الضوء أبلغ من النور ولذلك قال الله عز وجل: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً﴾ فلو قيل: ذهب الله بضوئهم ربما خطر ببال أحد أنه لم يزل لديهم نور فلما قال عز وجل: ﴿ذهب الله بنورهم﴾ عُلِمَ أنه لم يبق لهم ضوء من باب أولى، وفي قوله عز وجل: ﴿وتركهم في ظلمات لا يبصرون﴾ إشارة إلى خذلان الله لأعدائه من المنافقين والكافرين، ومن خذله الله فلن تجد له نصيرا ولا هاديا. أما المثل الثاني وهو المثل المائي فهو قوله عز وجل: ﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مَشَوْا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير﴾ وقوله: ﴿أو كصيب من السماء﴾ أي أَوْ كمطر نازل من السحاب وقوله تعالى: ﴿فيه ظلمات ورعد وبرق﴾ أي في السحاب ظلمات لشدة كثافة السحاب حتى صار الجو مظلماً فما بالك إذا كان الوقت ليلاً وفيه رعد وبرق، والرعد هو الصوت الذي يسمع من السحاب كأن أجرام السحاب تضطرب وتنتقض وترتعد، والبرق هو الذي يلمع من السحاب عند حدوث الرعد، ولا شك أنه إذا اجتمعت الظلمة الداجية والرعد القاصف والبرق الخاطف وتخللتها الصواعق وهي شدة صوت الرعد وقد يصحبها نار تسقط من السماء فإن الإنسان الذي يحدث له هذا يحس أن الموت قريب منه ولذلك وصفهم الله

عز وجل بأنهم يجعلـون أصابعهم يعني أطرافهـا في آذانهم خوف الموت حيث يقول عز وجل: ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت﴾ ثم بين الله عز وجل أن من كفر به لا يفلت من عقابه، حيث قال: ﴿والله محيط بالكافرين﴾ فـلا سبيل لهم إلى الفرار من عقابه لأن قدرته تـامة وعلمه محيط بكل شيء. وقوله عز وجل ﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم﴾ أي إن هذا البرق لشدة قـوته يَقْرُبُ من اختلاس أبصـارهم واختطافها بسرعـة فهم لا يكادون يستفيدون من ضوئه لشدتـه وقوته ولا سيما إذا كان في ظلمات غير أنهم لشدة حاجتهم إلى السير يغتنمون فرصة البرق ليتحركوا من مكانهم غير أنه لا يلبث أن يزول فيقفوا في أماكنهم جامدين لا يتحركون من شدة الظلام ولا سيما بعد البرق فإن العيون تتأثر في هذا الحال وتعجز عن الإبصـار وقوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لـذهب بسمعهم وأبصارهم﴾ أي ولو أراد الله تعـالى وسبقت مشيئته أن يُصِمَّهم ويُعْمِيَ أبصارهم الظاهرة كما عميت أسماعهم وأبصارهم الباطنة لفعل ذلك لأنه لا يعجزه شيء ولهذا ذَيَّل ذلك بقوله: ﴿إن الله على كل شيء قديـر﴾ وهذا المثـل المائي قد ضربه الله عـز وجل للمنافقين الـذين لم يـؤمنوا عندما أعلنوا أنهم دخلوا في دين الإسـلام، لكنهم كانوا مترددين شاكِّين، قد يرى الواحـد منهم بصيصاً من نور يتسرب إلى قلبه لكنَّ هذا النـور سرعان ما يزول ويـذهب عنه ويُغَلِّفُ قلبـهُ الظلامُ الدامـسُ، ولا شك أن المقصود من ضرب الأمثال هـو تأثيرها العظيم في القلـوب، وأنها أبلغ في تقريـب الحقائق وإيضاحهـا من الوصف وحده، والنفـس تحرص على معرفة مـا احتواه المثل وينتقش فيهـا؛ لأن الغـرض من المثل هـو تشبيـه الخفي بـالجليِّ والغـائب بالشاهـد فيتأكد الوقوف على ماهيتـه، ويصير الحِسُّ مطابقاً للعقل، وذلك أبلغ في الإيضاح فالترغيب في الإيمان مُجَرَّداً عن ضرب مثل لـه بالنور لا يعمل في النفس الإنسانيـة كما يعمل المثل الذي ضربـه الله عز وجل في قولـه تبارك

وتعالى: ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري يُوقَد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شئ عليم﴾ ولو رُهِّبَ من الكفر بمجرد الذكر من غير ضرب مَثَل له بالظلمة لم يتأكد قُبْحُهُ في العقول كما يتأكد بتشبيهه بالظلمات والضياع في مثل قوله عز وجل: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب * أو كظلمات في بحر لُجِّيٍّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلماتٌ بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾ ولو أراد واعظ أن ينبه إلى أن التعلق بغير الله لا يجدي صاحبه شيئاً فإن ذلك لا يقع في النفس الإنسانية مؤثراً فيها كما يؤثر ضربُ مثل لذلك بنسج العنكبوت في قوله تعالى: ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون * إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم * وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يا أيها الناس ضُربَ مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذبابُ شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾ ولهذا أكثر الله تبارك وتعالى في القرآن العظيم من ضرب الأمثال للناس لعلهم يتذكرون.

كما أن رسول الله ﷺ كان يكثر من ضرب الأمثال لتنتقش مدلولاتُها في النفوس كقوله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: مَثَلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفةٌ طيبة قَبِلت الماءَ فأنبتت الكلأ

والعُشْبَ الكثير وكان منها أجـادبُ أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فَشَرِبُوا منها وسَقَـوْا وزرعوا وأصاب طائفـة منها أخرى إنما هي قيعـان لا تُمسك ماءً ولا تنبت كَلأً فذلك مَثَلُ مَن فَقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فَعَلِمَ وعلَّم ومَثَلُ من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به .

قال تعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون﴾

بعد أن قَسَّمَ الله تبارك وتعالى المكلفين من بني آدم إلى ثلاثة أقسام وأوضح صفات كل قسم وبيَّن مآله، من فلاح المؤمنين وخيبة الكافرين والمنافقين وجَّه الخطاب لجميع المكلفين من بني آدم، وأمرهم أن يُفْرِدُوا الله تبارك وتعالى بالعبادة ويخصوه بالتوحيد الذي من أجله خلقوا، وقد لفت انتباههم إلى أمرٍ يكادون يطبقون على الإقرار به، فجميع الأمم على مرِّ العصور واختلاف الأجناس وتباين الألسنة واللغات معترفون بالخالق العظيم، قد ورثوا ذلك من عهد آدم وتتابعت اعترافاتهم به إلى أمة محمد ﷺ ولذلك كَثُر في القرآن العظيم توجيه الأسئلة للمشركين بأنهم ما داموا مقرين بأن الله هو وحده خالق السموات والأرض وما فيها فلما ذا يشركون به ويعبدون معه غيره؟ حيث يقول عز وجل: ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل أفلا تذكَّرون * قل من رب السماوات السبع وربُّ العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كلِّ شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل فأنَّى تُسْحرُون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولئن سألتهم من خلق السمٰوات والأرض ليقولنَّ خلقهن العزيز العليم﴾ وقال عز وجل: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولُنَّ الله فأنَّى يؤفكون﴾ وحتى فرعون كان مقراً برب السموات والأرض في قرارة نفسه وإن جحد ذلك كما أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في قوله عز وجل: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسئل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا * قال: لقد علمتَ ما أنزل هٰؤلاء إلا ربُّ

السمٰوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورا﴾ ففي قول موسى عليه السلام لفرعون: ﴿لقد علمت ما أنزل هٰؤلاء إلا ربُّ السمٰوات والأرض﴾ دليل جَلي على أن فرعون وقومه كانوا مقرين بخالق السموات والأرض كسائر الأمم التي تُقِرُّ به رباً وتعبد معه غيره أو تجعل العبادة لغيره. وكما قال عز وجل: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمَّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولئن سألتهم من خلق السمٰوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولُن الله فأنى يؤفكون * الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم * ولئن سألتهم من نَزَّلَ من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولُن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون﴾ وهؤلاء مع إقرارهم بخالقهم وخالق السموات والأرض واعترافهم بربوبيته قد عبدوا غيره معه زاعمين أنهم إنما عبدوا هؤلاء مع الله ليكونوا شفعاء لهم عنده وليقربوهم إلى الله زلفى كما قال عز وجل: ﴿ألَا لله الدين الخالص،والذين اتخذوا من دونه أولياءَ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾ فالإقرار بربوبية الله مركوز في النفوس وإن كانت تحجبه أحياناً سُحُبُ الزندقة والإلحاد، فقد أثر أن بعض الزنادقة أنكر الخالق عند جعفر الصادق رحمه الله فقال له جعفر: هل ركبت البحر ؟ قال: نعم، قال: هل رأيت أهواله ؟ قال: بَلَى: هاجت يوما رياح هائلة فكسَّرت السفن وغرَّقت الملاحين، فتعلقت أنا ببعض ألواحها ثم ذهب عنّي ذلك اللوح فإذا أنا مدفوع في تلاطم الأمواج حتى دُفِعْتُ إلى الساحل، فقال جعفر: كان اعتمادك من قبل على السفينة والملاح ثم على اللوح حتى تنجيك. فلما ذهبت هذه الأشياء عنك هل أسلمتَ نفسك للهلاك أم كنتَ ترجو السلامةَ بعد ؟

قال: بل رجوت السلامة، قال: ممن كنتَ ترجوها فسكت الرجلُ، فقال جعفر: إن الصانع هو الذي كنتَ ترجوه في ذلك الوقت، وهو الذي أنجاك من الغرَق، فأَسْلَمَ الرجلُ على يده. كما أثر أن بعض الدهرية كانوا ينتهزون الفرصة لقتل أبي حنيفة رحمه الله فبينما هو يوما قاعد في مسجده إذ هجم عليه جماعة بسيوف مسلولة وهموا بقتله فقال لهم: أجيبوني عن مسألة ثم افعلوا ما شئتم، فقالوا له: هات، فقال: ما تقولون في رجل يقول لكم: إني رأيت سفينة مشحونة بالأحمال. مملوءة بالأثقال، قد احْتَوَشَها في لجة البحر أمواج متلاطمة، ورياح مختلفة وهي من بينها تجري مستوية ليس لها ملاح يُجْرِيها ولا متعهد يدفعها، هل يجوز ذلك في العقل ؟ فقالوا: لا، هذا شيء لا يقبله العقل، فقال أبو حنيفة: يا سبحان الله إذا لم يجز في العقل سفينةٌ تجري في البحر مستوية من غير متعهد فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتَغَيُّر أعمالها وسَعَةِ أطرافها وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ ؟ فبكَوْا جميعاً وقالوا: صدقتَ وأغمدوا سيوفهم وتابوا. كما أُثِر أن بعض الزنادقةِ سألوا الشافعي رحمه الله: ما الدليل على وجود الله ؟ قال: ورقة الفِرْصَاد (يعني التوت) طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد عندكم ؟ قالوا: نعم. قال: فتأكلُها دودة القز فيخرج منها الإبريسَمُ (يعني الحرير) وتأكلها النحل فيخرج منها العسل، وتأكلها الشاة فيخرج منها البَعْر. وتأكلها الظباءُ فينعقد في نوافجها المسكُ، فمن الذي جعل هذه الأشياء كذلك مع أن الطبع واحد ؟ فاستحسنوا منه ذلك وأسلموا على يده وكانوا سبعة عشر رجلا. وضرب أحمد بن حنبل رحمه الله مثلا للدلالة على الحكيم الخبير بقلعة حصينة ملساء لا فُرجةَ فيها، ظاهرها كالفضة المذابة وباطنها كالذهب الإبريز، ثم انشقت الجدران وخرج من القلعة حيوان سميع بصير فهل خرج من غير فاعل ؟ وقد أراد رحمه الله بالقلعة الحصينة البيضة وبالحيوان الفرخ،

ولا شك أن خروج الفرخ من البيضة آية عجيبة فقد ذكر أنه يختار موضعاً معيناً من البيضة كأنه باب لها فينقره بمنقاره الضعيف فتنشق البيضة ويخرج، كما أن ما تحمله الحوامل يستمر على وضع معين إلى قرب خروجه من بطن أمه فيتهيأ للخروج بطريقة هداه إليها الحكيم الخبير، وقد أثر أن مالكا رحمه الله استدل على الحكيم العليم باختلاف الأصوات وتردد النغمات وتفاوت اللغات ولا شك أن القرآن العظيم أعلن ذلك في قوله عز وجل: ﴿ومن آياته خلق السمٰوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذٰلك لآيات للعالمين﴾ وقد سئل أعرابي: بم عرفتَ ربك؟ قال: البعرة تدل على البعير والرَّوْثُ على الحمير وآثار الأقدام على المسير، فسماءٌ ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج أما تدل على الصانع الحليم العليم القدير؟ كما استدل أعرابي لما قيل له: بم عرفت ربك قال: عرفته بنحلة بأحد طرفيها تَعْسل وبالآخر تلسع والعسل مقلوب اللسع، فالإقرار والاعتراف بربوبية الله مركوز في النفوس مُقَرَّرٌ عند جميع الأمم، لكن من انحرفت فطرته، عبد غير الله، فأرسل الله الرسل وأنزل الكتب لتحقيق أنه لا إله إلا الله وأنه وحده المستحق لأن يُفْرد بالعبادة ويُخَصَّ بالتوحيد ولذلك كان أولُ أمر بالعبادة في كتاب الله هو الأمر هنا في هذا المقام من سورة البقرة بعبادة الله حيث يقول عز وجل: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ وقد عبَّرَ بعنوان الربوبية التي يقرون بها لتكون دليلاً جلياً على وجوب إخلاص العبادة له وحده، الذي ربَّى خلقه بنعمه وجوده وإحسانه حيث لا تَمُرُّ طرفة عين في ليل أو نهار إلا ولله على خلقه نِعَمٌ ظاهرة وباطنة، فكأنه يقول لهم: مادمتم أقررتم بربوبيتي فلما ذا تشركون معي غيري في ألوهيتي، ولذلك كانت مهمة المرسلين والأنبياء تقرير توحيد الألوهية، وصار كلُّ رسول يأتي قومه يبدؤهم بقوله: اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره، وقد لفت الله عز وجل انتباه الناس في هذا المقام إلى دليلين

ظاهـرين بارزين أمـام الأعين يشهدان أنـه لا إله إلا الله، الأول: في الأنفس والثاني في الكون والآفاق، وقد أكثر القرآن الكريم من لفت الانتباه إلى هذين الـدليلين وهما النظـر في الأنفس وفي الآفـاق وفي ذلك يقـول: ﴿وفي الأرض آيــات للمــوقنين * وفي أنفسكم أفــلا تبصرون * وفي السماء رزقكم ومــا توعدون﴾. وكما قال عز وجل: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيـد﴾ وقد نبه اللهعز وجل في هـذا المقـام إلى النظـر في جعل الأرض فراشـاً أي مهـاداً و مستقـراً وأودعهـا جميع مـا يحتـاجه النـاس، والنظـر في جعل السماء بنـاء أي سقفـا محفوظـاً، وأنزل من السماء أي السحاب ماء فـالسماء تطلق بإطلاقين: الأول السماء المبنية المحفوظة التي جعلهـا الله سكنا لملائكته، والثاني السماء بمعنى العلـو والارتفاع فكـل ما عـلاك من سقف أو سحـاب أو غيره يسمى سماءً لغة، فقوله أنزل من السماء ماء أي أنـزل من السحاب مطرا يسوقه إلى الأرض الجرز فيخرج بـه زرعاً تأكل منـه أنعامهم وأنفسهم، ومع أن الماء واحـد ينزل على الأرض الواحدة والقطع المتجـاورة فيخرج ثمرات مختلفاً ألـوانها ومنافعها من قوت وفاكهة ودواء وجميع ما يحتـاجه الناس وإلى ذلك يشير الله عز وجل حيث يقـول: ﴿الله الـذي رفع السمٰوات بغير عمد تـرونها ثم استـوى على العـرش وسخر الشمس والقمـر كل يجري لأجل مسمى يـدبر الأمـر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون * وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمـرات جعـل فيهـا زوجين اثنين يُغْشي الليلَ النهـارَ إن في ذٰلك لآيات لقوم يتفكرون * وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ وغيرُ صنوانٍ يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكُل إن في ذلك لآيـات لقوم يعقلـون﴾ ولله در أبي نُوَاسٍ حيث يقـول:

تأمـــل في نبات الأرض وانظـــــر | إلى آثار ما صنع المليـــك
عيـــون من لُجَين شاخصـــاتٌ | وأزهارٌ كما الذهبُ السبيك
على قُضُب الزبرجـد شـــاهداتٌ | بأن الله ليس له شريـــك

وما أحسن قولَ ابن المعتز:

فيا عجبا كيف يعصى الإلـــــه | أم كيف يجحده الجاحدُ
وفي كل شيء له آيـــــة | تدل على أنه الواحـــــــــد

وقد ذيَّل الله تبـارك وتعالى الآية الأولى بقولـه: ﴿لعلكم تتقون﴾ أي عسى أن تحجبوا عن وجوهكم النـار إذا أخلصتم العبادة لله وحده وتبرأتم من جميع ما عبدِ من دونه، ولعلكم تفوزون بعز الدنيا وسعادة الآخرة. كما ذيل الله عز وجل الآية الثانية بقوله: ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ أي فلا تشركوا بـالله شيئاً ولا تتخـذوا لله نـدا ولا نظيرا ولا شبيهـا ولا شريكا في جميع ألـوان العبادة فإنه هو وحده المستحق لأن يعبد وحده لا شريك له فالله تبارك وتعالى لا يقبل من العمل إلا ما كـان خالصًـا لوجهه الكـريم، من توحيـد وصلاة وصيام وحج وزكاة ونذر وطواف وخوف السر وأكمل الحب، وأقصى الذل، والتوكل والرجاء والرغبة والاستعاذة والاستغاثة وسائر مراسيم العبادة فإن الله عز وجل لا يقبل العمـل إلا بشرطين: أن يكون خالصـاً لوجهـه الكريم وأن يكون على منهج محمد رسول الله ﷺ.

قال تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزَّلنا على عبدنا فأْتُوا بسورة من مثله وادعُوا شُهَدَاءَكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وَقُودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾

بعد أن قرر الله عز وجل دلائل ألوهيته على أكمل وجه وأوضحه وأدقه وأبرزه للخاصة والعامة والعرب والعجم شرع في تقرير نبوة ورسالة عبده ورسوله محمد ﷺ، وقد كان من حكمة الله عز وجل أن يؤيد أنبياءه ورسله بمعجزات يؤمن على مثلها البشر، وقد كانت معجزات كل نبي تناسب أعلى ما وصل إليه قومه من العلم ليعرفوا أن هذه المعجزة تفوق كل ما وصلوا إليه وأنها ليست من قدرة البشر وإنما هي من مالك القوى والقُدَر، فقد علمنا أن قوم فرعون قد بلغوا في السحر شأوا لم يصل إليه من قَبْلَهم ولم يصل إليه من بعدهم فبعث الله عز وجل موسى عليه السلام بمعجزات تشبه ما بَرَعُوا فيه لكنهم يعلمون أنها ليست منه فأعطاه اللهمعجزة العصا واليد ومهَّد لذلك حينما ناداه من جانب الطور الأيمن من الشجرة المباركة بالوادي المقدس طُوَى: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى * قال: هي عصاي أتوكؤُا عليها وأهُشُّ بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى * قال: أَلْقِهَا يا موسى * فألقاها فإذا هي حية تسعى* قال: خذها ولا تخف سنعيدها سيرَتَها الأولى * واضمم يدك إلى جناحك تخرجْ بيضاء من غير سُوءٍ آيةً أخرى * لنريك من آياتنا الكبرى * اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ فلما جاء موسى إلى فرعون ودعاه إلى الله عز وجل وأعلمه أنه رسول من رب العالمين، قال له فرعون: ﴿لئن اتخذت إلَهاً غيري لأجعلنك من المسجونين. قال: أَوَ لو جئتك بشيء مبين، قال: فأت به إن كنت من الصادقين، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين. قال للملإ حوله: إنَّ هٰذا لساحر عليم،

يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ، قالوا : أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحار عليم ، فَجُمع السحرة لميقات يوم معلوم . وقيل للناس : هل أنتم مجتمعون ، لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ، فلما جاء السحرة قالوا لفرعون : أئنَّ لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين . قال نعم وإنكم إذًا لمن المقربين ، قال لهم موسى ألقوا ما أنتم مُلْقُون . فألقَوْا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ، فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون . فَأُلْقِى السحرةُ ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون ﴾ وإنما كان السحرة هم أول المؤمنين لأنهم أعرف بضروب السحر وفنونه وأيقنوا أن ما جاء به موسى ليس في مقدور السحرة مهما أوتوا من علم السحر وأن ما جاء به موسى هو معجزة مؤيدة له من رب العالمين ، كما علم أن من بُعث إليهم عيسى عليه السلام كانوا أبصر الناس في عصرهم بالطب فجعل الله عز وجل معجزة عيسى عليه السلام من جنس ما برعوا فيه فكانت معجزته أنه يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ويُصَوِّر من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله .

ولما كانت قريش ومن حولهم من سكان الجزيرة العربية هم أعلى الناس بياناً وأعظمهم فصاحة وبلاغة ، وكان من تمهيد الله تعالى لرسوله محمد ﷺ قبيل بعثته أن جعل العرب يهتمون بلسانهم أشد اهتمام ، ويجعلون للكلام الفصيح من الشعر والنثر منابر في أسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز يتحدث من فوقها الشعراء والخطباء ، ويجلس لهم الحكام ، ليُقَدِّرُوا لهم ما يستحقون من التقدير حتى كانت تُعلَّق أشعارهم التي بلغت القمة في الفصاحة على الكعبة ، فلذلك اختار الله تبارك وتعالى معجزة رسوله محمد ﷺ لتكون من جنس ما بَرَعَ فيه العرب الذين يشهد لهم بالفصاحة العجم ، فجعل معجزته الكبرى وآيته العظمى القرآن الكريم ، وإن كان رسول الله ﷺ قد أعطاه الله وأيده

بمعجزات حسية كثيرة كالمعجزات الحسية التي أعطاها لإخوانه الأنبياء إلا أن المعجزات الحسية إنما ينتفع بها من يشاهدها غالباً، ولابقاء لها ولا دوام لما علم أن رسالة كل رسول قبل محمد ﷺ كانت لقوم مخصوصين ولزمان مخصوص ولم تكن شريعتهم باقية إلى يوم القيامة، أما محمد ﷺ فبعثه الله عز وجل بالشريعة الشاملة الكاملة التامة الباقية ما بقى الليل والنهار والشمس والقمر، لا تنسخ حتى تقوم القيامة. لذلك جعل الله تبارك وتعالى معجزته الكبرى معجزة معنوية هي كلام الله وحجته البالغة ولذلك روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من الأنبياء نبي إلا أُعْطِيَ ما مِثْلُهُ آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» وقد أشارت الكتب السماوية السابقة إلى أن الله تعالى يبعث محمدًا ﷺ وتكون معجزته كلام الله ففي التوراة: سأقيم لبني إسرائيل من إخوتهم مثلك يا موسى، أُنْزِل عليه توراةً وأجعل كلامي على فيه، والمراد بالتوراة في اللغة الشريعة، فقد نص على أن معجزة هذا النبي هي كلام الله على فمه، ولم يأت نبي قط بعد موسى عليه السلام بدعوى أن معجزته كلام الله سوى محمد ﷺ، وقوله عز وجل: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا﴾ الخ أي وإن كنتم في شك من أن القرآن المنزَّل على عبدنا ورسولنا محمد ﷺ أنه من عند الله فأتوا بسورة من مثل ما جاء به إن زعمتم أنه من عند غير الله وعارضوه بمثل ما جاء به وقد بلغتم في الفصاحة مبلغاً لم يصل إليه سواكم فأنتم أفصح الخلق وأعلمهم بالبلاغة والبيان فإني أتحداكم أن تأتوا بسورة من مثل هذا القرآن البليغ الفصيح الوجيز المحتوى على علوم الدنيا والآخرة المشتمل على الأخبار الصادقة من علوم الغيب الماضية والآتية، الآتي بأعدل الأحكام والسلوك والعقيدة الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد كان

تحداهم أن يأتوا بمثـل القرآن كما قال عـز وجل : ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هـٰذا القرآن لا يأتون بمثله ولـو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ فلما عجزوا تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله حيث يقول : ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثلـه مفتريات وادْعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ فلما عجزوا عن الإتيان بعشر سـور من مثله تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله حيث قال في هـذا المقام من سورة البقرة : ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسـورة من مثله﴾ وقوله عز وجل : ﴿وادْعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صـاقين﴾ أي واستنصروا أعوانكم وشهداءكم الذين يشاهـدونكم ويعاونونكم على تكذيبكم لله ورسولـه ويظاهرونكم على كفركم ونفاقكم إن كنتم محقين في جحودكم أن مـا جاء به محمد ﷺ اختلاق وافتراء فهاتوا سورة واحدة من مثل القرآن فإن عجزتم فكيف تظنون أن محمداً يأتي به وحده من عند نفسـه . ثم قطع كل أمل عندهم في التفكير في الإتيان بمثل سورة واحـدة منه حاضراً ومستقبـلاً فقال : ﴿فإن لم تفعلـوا ولن تفعلوا فاتقـوا النار التـي وقودها النـاس والحجارة أعـدت للكافـرين﴾ وقد كـانت قـريش تـؤمن في قـرارة قلـوبها أن محمداً رسـول الله وأن القـرآن من عنـد الله لعلمهم أن محمـدا أمي لم يقـرأ ولم يكتب وأنهم كـانـوا يلقبـونـه قبل البعثـة بالصـادق الأمين فمن أين لـه أخبار الماضين والقـادمين ، والدنيـا والآخرة في نظام دقيق من الأحكام التي لم تعـرف الإنسانية أعدل ولا أدق ولا أشمل ولا أحسن منها ، مع صلاحها لكل عصر ومصر وجيل وقبيل ، ولذلك يقول الله عز وجل : ﴿قـد نعلم إنه ليحـزنك الذي يقـولون فإنهم لا يُكَذِّبـونك ولَٰكنَّ الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ أي فهم يعلمون علم اليقين أنك لست بشاعر ولا سـاحر ولا كـاهن ولا كـذاب ، وإنما جحـدوا مـا علموا ظلما وفسـاداً في الأرض كقوم فرعون لما جاءهم موسى بالبينات أيقنوا أنها من عند الله ولكنهم

مع ذلك جحدوا على حد قوله تبارك وتعالى: ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرةً قالوا هٰذا سحر مبين * وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعُلُواً فانظر كيف كانت عاقبة المفسدين﴾ ولم ينقل عن أحد من العرب أنه حاول معارضة القرآن وإذا كان قد علم قطعاً عجز العصر الأول من أرباب الفصاحة وأساطين البلاغة عن الإتيان ولو بسورة من مثله فإن عجز من يجيء من بعدهم إلى يوم القيامة من باب أولى، وقد أُثِر أن عمرو بن العاص قد كان صديقاً لمسيلمة الكذاب، فاجتمع به مرة وقال له: يا مسيلمة ماذا نزل عليك من القرآن؟ فقال مسيلمة: يا ضفدع يا ضفدعين نقِّي كم تنقين، نصفك في الماء ونصفك في الطين، لنا نصف الأرض ولقريش نصفُها ولكن قريشاً قوم يجهلون. فضحك عمرو بن العاص وقال له: والله إني أعلم أنك تعلم أنك كاذب. ولما ارتد بنو حنيفة بعد رسول الله ﷺ وانحازوا إلى مسيلمة الكذاب قال لهم الصحابي الجليل ثمامةُ بن أُثال الحنفي رضي الله عنه: يا قوم أين عقولكم؟ أما سمعتم قول مسيلمة: يا ضفدع يا ضفدعين نقي كم تنقين نصفك في الماء ونصفك في الطين. أيخرج هذا من إلّ يعني من إلٰه أين هذا من قول الله عز وجل: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ وقد أثر أن الوليد بن المغيرة أرسلته قريش ليفاوض رسول الله ﷺ في الكف عن دعوته وإعطائه ما يريد فجاء الوليد إلى رسول الله ﷺ وقال: يا ابن أخي، إنك فرّقت بين الابن وأبيه والرجل وزوجته فإن كان الذي يأتيك من الجن عالجناك وإن كنت تريد المال جمعنا لك المال حتى تصير أغنانا وإن كنت تريد الملك ملكناك علينا وإن كنت تريد الزواج زوجناك أجمل امرأة في قريش، فلما انتهى من كلامه أثر أن رسول الله ﷺ قال له: انتهيت يا عم قال: نعم فقرأ رسول الله ﷺ ﴿حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * بشيراً و نذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا: قلوبنا في

أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وَقْر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون * قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلٰهكم إلٰه واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون * قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذٰلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواءً للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهًا قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سمٰوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذٰلك تقدير العزيز العليم * فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ فلما بلغ رسول الله ﷺ إلى هذا المقام في التلاوة وضع الوليد بن المغيرة يده على فمه وقال: ناشدتك الرحم أن تكف فلما سكت رسول الله ﷺ رجع الوليد إلى قومه فلما أبصروه أيقنوا أنه جاءهم بوجه غير الوجه الذي ذهب به وقالوا له: ما وراءك قال: إني والله أعرف السحر والشعر والكهانة والله إن محمداً ليس بشاعر ولا ساحر ولا كاهن، إن للكلام الذي سمعته منه لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه وإنه ليس من كلام البشر. فلم يتركوه حتىَ قال: دعوني أنظر وكان منه ما حكى الله عز وجل حيث قال: ﴿ذرني ومن خلقت وحيدًا * وجعلت له مالاً ممدوداً * وبنين شهوداً * ومهدت له تمهيداً * ثم يطمع أن أزيد * كلا إنه كان لآياتنا عنيداً* سأرهقه صَعُودا * إنه فكر وقدَّر * فقتل كيف قدّر * ثم قتل كيف قدر * ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر * فقال: إن هٰذا إلا سحر يؤثر * إن هٰذا إلا قولُ البشر * سأصليه سقر﴾ ومعنى قوله عز وجل ﴿وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾ . أي حطبها الكفار والحجارة التي عبدوها وغيرها. وقد هيئت النار لهؤلاء الجاحدين.

قال تعالى: ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رُزِقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا: هٰذا الذي رُزِقنا من قبل، وأُتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون﴾

في الآية السابقة حذر المعاندين المكذبين من أنهم إذا لم ينيبوا إلى الله ويؤمنوا بمحمد ﷺ وبالقرآن الذي أنزل عليه بعد أن تحداهم بعجزهم عن معارضة سورة واحدة من مثله أنهم يُعَرِّضون أنفسهم لِنَارٍ وَقُودُها الناس والحجارة قد رَصَدَها الله وأعدها لأعدائه الكافرين الجاحدين، وفي هذه الآية الكريمة بدأها بأمر رسوله وحبيبه محمد ﷺ أن يبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار. وهذا الأسلوب القرآني في الترهيب والترغيب يأخذ بالنفس الإنسانية كلَّ مأخذ ليحذِّر أعداءه مما يوقعون أنفسهم فيه من العذاب والبلاء في العاجلة والآجلة وليبشر أولياءه بالسعادة في العاجلة والآجلة. والتبشير الإخبار بما يظهر أثره على البشرة ــ وهي ظاهر الجلد ــ حيث تنطلق الأسارير فرحا عند سماع الخبر الذي يسرها كما تنكمش عند سماع الخبر الذي يَسوؤها. وفي الغالب أن تستعمل البشارة في السرور مقيداً بالخير المبشِّر به وأن تستعمل مطلقة من غير قيد أما البشارة بالخبر الذي يسوء فإنها لا تستعمل إلا مُقَيَّداً منصوصاً على الشر المبَشَّر به كقوله عز وجل: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ وإذا وردت النذارة والبشارة متعاطفتين كان الإنذار للتخويف والتحذير من الشر وكانت البشارة للخير كقوله تعالى: ﴿بشيراً ونذيراً﴾ وكقوله تعالى: ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ وقد أخرج البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: احتجت النار والجنة فقالت هذه: يدخلني الجبارون والمتكبرون، وقالت هذه: يدخلني الضعفاء والمساكين

فقال الله عـز وجل لهذه: أنتِ عذابي أعذب بك من أشـاء وقال لهذه: أنت رحمتي أرحم بك من أشـاء ولكل واحـدة منكما ملـؤهـا. كما روى البخـاري ومسلم من حديـث أبي هريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال: قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، واقـرءوا إن شئتم: ﴿فـلا تعلم نفـس مـا أخفي لهم من قـرة أعين﴾ كما روى البخـاري ومسلم من حـديث أبي هـريـرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال: موضع سوط في الجنـة خير من الدنيا وما فيها. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن في الجنة شجرةً يسير الراكب في ظلها مـائة عام لا يقطعها، ولقَابُ قوسِ أحدكم في الجنة خير مما طلعت عليـه الشمس أو غربت. كما روى البخاري في صحيحه من حـديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال: غَدْوَةٌ في سبيل الله أو رَوْحَةٌ خير من الدنيا وما فيهـا، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما. ولملأت ما بينهما ريحا، ولَنَصيفها على رأسها خير من الدنيا ومـا فيها. كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن للمؤمن في الجنة لخيمةً مـن لؤلؤة واحدة مُجَوَّفةٍ عَـرضها ستون ميلا في كـل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين، وجنتان من فضة آنيتُها وما فيهما. وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ومـا بين القوم وبين أن ينظـروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عَدْنٍ. كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال: إن أول زمرة يدخلـون الجنة على صـورة القمـر ليلة البـدر، ثم الـذين يلـونهم كأشـد كـوكب دري في السماء إضاءة، قلوبهم على قلب رجل واحد، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، لكل امـرئ منهم زوجتـان من الحور العين، يُـرَى مُخُّ سـوقهما من وراء العظم

واللحم من الحُسن، يسبحون الله بكرةً وعشياً، لا يسقَمون ولا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يتفلون، ولا يمتخطون، آنيتهم الذهب والفضة وأمشاطهم الذهب، وَوَقُودُ مجامرهم الأَلُوَّةُ، ورشحهم المسك، على خَلْق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعاً في السماء، وفي رواية لمسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون، ولا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يمتخطون قالوا: فما بالُ الطعام؟ قال: جُشَاءٌ ورشح كرشح المسك، يُلهَمون التسبيح والتحميد كما تُلْهَمُون النَّفَس، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن أهل الجنة يتراءَوْن أهل الغُرف من فوقهم كما تتراءَوْن الكوكب الدري الغابر في الأفق من المغرب أو المشرق لتفاضل ما بينهم قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين، كما روى مسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حُسنا وجمالاً فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا فيقولُ لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حُسنا وجمالاً، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حُسناً وجمالاً. وقوله عز وجل: ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي وأخبر المؤمنين المصدقين بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره المؤدين شرائع الإسلام من الشهادتين والصلاة والصيام والزكاة والحج الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، أخبر هؤلاء خبرا يدخل السرور والبهجة على قلوبهم بأن الله تبارك وتعالى وعدهم من فضله جنات تجري من تحتها الأنهار. والجنات جمع جنة وهي في اللغة البستان من النخل والشجر المتكاثف المظَلِّل بالتفاف

أغصانه، وقوله عز وجل: ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ قال ابن جرير في تفسيره: وإنما عنى جل ذكره بذكر الجنة ما في الجنة من أشجارها وثمارها وغروسها دون أرضها فلذلك قال عز ذكره ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ لأنه معلوم أنه إنما أراد جل ثناؤه الخبر عن ماء أنهارها أنه جار تحت أشجارها وغروسها وثمارها لا أنه جار تحت أرضها لأن الماء إذا كان جارياً تحت الأرض فَلاَحَظَّ فيها لعيون مَنْ فَوقَها إلا بكشف الساتر بينها وبينه اهـ وقد وصف الله تبارك وتعالى أنهار الجنة بأنها أنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من عسل مصفى وأنهار من ماء غير آسن وأنهار من خمر لذة للشاربين حيث يقول عز وجل: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم﴾ وقال عز وجل: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أُكُلُها دائم وظلها﴾ وقد وصف الله تبارك وتعالى الجنة في سورة الرحمن حيث يقول: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان* فبأي آلآء ربكما تكذبان* ذواتا أفنان* فبأي آلآء ربكما تكذبان* فيهما عينان تجريان* فبأي آلآء ربكما تكذبان* فيهما من كل فاكهة زوجان* فبأي آلآء ربكما تكذبان* متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجَنى الجنتين دان* فبأي آلآء ربكما تكذبان* فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان* فبأي ألآء ربكما تكذبان* كأنهن الياقوت والمرجان* فبأي آلآء ربكما تكذبان* هل جزاء الإحسان إلا الإحسان* فبأي آلآء ربكما تكذبان* ومن دونهما جنتان* فبأي آلآء ربكما تكذبان* مدهامتان* فبأي آلآء ربكما تكذبان* فيهما عينان نضاختان* فبأي آلآء ربكما تكذبان* فيهما فاكهة ونخل ورمان* فبأي آلآء ربكما تكذبان* فيهن خيرات حسان* فبأي آلآء ربكما تكذبان* حور مقصورات في الخيام* فبأي آلآء ربكما تكذبان* لم

يطمثهن إنس قبلهم ولا جان* فبأي آلآء ربكما تكـذبان* متكئين على رفرف خضر وعبقـري حسـان* فبأي آلآء ربكما تكـــذبـان* تبـارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾ وقد أخبر رسول الله ﷺ أن في الجنـة جناتٍ منها الفردوس الأعلى فقد روى البخـاري في صحيحه من حـديث أنس رضي الله عنه أن أم حـارثة بن سراقـة أتت النبي ﷺ فقالت: يـا نبي الله ألا تحدثني عن حارثـة وكان قُتل يوم بدر أصابه سهم غَـرْب ـ فإن كان في الجنة صبرت و إن كان في غير ذلك اجتهدت عليه في البكـاء قال: يا أم حارثـة إنها جِنانٌ في الجنة و إن ابنك أصـاب الفردوس الأعلى، كما روى البخاري ومسلـم أن رسول الله ﷺ قال: إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تَفَجَّر أنهار الجنة وفوقه عرش الـرحمن. وقوله عز وجل: ﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هٰذا الذي رزقنا من قبل وأُتُوا به متشابها﴾ أي كلما أطعموا من تلك الجنـات من نوع مـن أنواع ثمارهـا التي لا تخطـر على البال ولا تـدور في الخيال، ومن ألـوان فواكههـا التي ليس لها من فواكه الـدنيا إلا الأسماء قـالوا هـذا الذي رُزقنـا وقُـدِّم لنـا في الجنة قبل ذلك، وذلك مـن شدة الشبـه بين فواكهها في الحسن والجمال، ومعنى قوله تعالى: ﴿وأُتُوا به متشابها﴾ أي يشبه بعضه بعضاً في الحسن و إن كانت الطعوم مختلفـة فكلما أكلوا من فاكهة تشبه الأخرى وجدوا طعمها كأنهم يطعمونه لأول مـرة، وقولهم هذا الذي رزقنا من قبل على وجه التعجـب لما يرونه من حسـن الثمرة وعِظَم خلقها، وأنـه ليس فيها شيء لا تشتهيه الأنفـس ولا تلَذُّ منه الأعين بل كل فاكهـة تقدم لهم فيها تشتهيها النفس وتلذ منها العين. وقـوله تعالى ﴿ولهم فيها أزواج مطهرة﴾ أي ولهم في الجنة نساء من الحور العين ومن نسائهم المؤمنات غير أنهن لا يحضن ولا يَبُلْن ولا يتغوطن ولا يبصقن محفـوظات من كل قذر وأذى وقولـه تعالى: ﴿وهم فيها خالدون﴾ أي باقون دائمون لا يموتون ولا يهرمون، وهذا من تمام

النعمة وكمال اللذة فإن الإنسان لو جلس في أفخم القصور وأجملها وسيق له من كل ما تشتهيه نفسه وتلذ عينـه ولكنه يعلم أن وراءه الموت ما تلذذ بها فيه إلا حين غفلته عن ذلك، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة ينـادي منادٍ: إن لكم أن تَحْيَوْا فـلا تموتوا أبداً وإن لكم أن تصحـوا فلا تَسْقَمُوا أبداً وإن لكم أن تَشِبُّوا فلا تَهْرَمُـوا أبداً وإن لكم أن تَنْعَمُوا فلا تبأسوا أبداً.

قال تعالى: ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون: ماذا أراد الله بهذا مثلا؟ يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولَئك هم الخاسرون﴾.

قد ذكرت في تفسير قوله تعالى: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾ عند الكلام على المثلين المضروبين للمنافقين أن المقصود من ضرب الأمثال هو تأثيرها العظيم في القلوب، وأنها أبلغ في تقريب الحقائق وإيضاحها من الوصف وحده لحرص النفس على معرفة ما احتواه المثل، وأنه ينتقش فيها لأن الغرض من المثل هو تشبيه الخفي بالجلي والمعنوي بالحسى فيتأكد الوقوف على ماهيته ويصير الحسُّ مطابقا للعقل. وقد بين الله عز وجل أن الأمثال التي يضربها للناس لا يعقلها إلا العالمون، ولذلك كان بعض السلف يبكي إذا مرَّ به مَثَلٌ في كتاب الله ولم يفهمه، غير أن الذين في قلوبهم مرض من المنافقين ومن طبع الله على قلوبهم من الكافرين كانوا إذا سمعوا مثلاً من أمثلة القرآن أخذوا يتساءلون: ماذا أراد الله من هذا المثل؟ ولا سيما إذا كان المثل المضروب لشيء حقير كالذباب مثلا الوارد في قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الناس ضُرِبَ مثل فاستمعوا له، إن الذين تدعون من دون الله لَنْ يَخْلُقُوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب * ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز﴾ مع أن هذا المثل يتطامن أمام بلاغته البلغاء في بيان عجز معبوداتهم الباطلة وحقارتها، وتمام قدرة الله عز وجل وكمالها الذي جعل هذه الذبابة الضعيفة الحقيرة تُعْجز أصنامهم وتَسْلُبُ آلهتهم وهم عاجزون حائرون أمامها فبين الله عز

وجل هنا أن ضَرْبَهُ المثَلَ بالبعوضة فما فوقها حق يلفت انتباه ذوي العقول إلى عظيم قدرة الله في خلق هذه البعوضة التي يعجز كل بني آدم عن خلق مثلها و إعطائها هذه الطبيعة التي طبعت عليها. وقوله عز وجل: ﴿إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها﴾ يبين أن الله عز وجل لا يستحي من الحق، وقد أثبت رسول الله ﷺ صفة الحياء لله عز وجل فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد قال: فوقفا على رسول الله ﷺ فأما أحدهما فرأى فُرْجة في الحلقة فجلس فيها وأما الآخر فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهباً، فلما فَرَغَ رسول الله ﷺ قال: ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ؟ أمَّا أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه.

وقاعدة أهل السنة والجماعة أنهم يثبتون لله ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء الحسنى والصفات العُلَى وينفون عن الله ما نفاه الله عز وجل عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ ويعتقدون أن ما ثبت لله من الأسماء والصفات لا يشاركه فيها أحد من خلقه فهي تليق بالله وحده، وما ثبت للمخلوقين من الصفات والأسماء تليق بالمخلوقين، فالله سمى نفسه حفيظاً عليماً ووصف عبده يوسف بأنه حفيظ عليم وشتان بين الرب الحفيظ العليم والعبد الحفيظ العليم، كما سمى نفسه رؤوفاً رحيماً وسمى عبده ورسوله محمد ﷺ رؤوفاً رحيماً وشتان بين الرب الرؤوف الرحيم وبين عبده الرؤوف الرحيم، ولذلك جاء في قصة الخضر وموسى الواردة في الصحيح: فركبا في السفينة قال: ووقع عصفور على حرف السفينة فَغَمَسَ منقاره في البحر فقال الخضر لموسى: ما عِلْمُكَ وعلمي وعلمُ الخلائق في علم الله إلا مقدار ما

غَمَسَ هذا العصفور منقاره. فالحياء الذي يوصف الله عز وجل به يليق بالله ولا يتصف به البشر، والحياء الذي يوصف به البشر لا يليق بالله ولا يتصف بـه تنزه عن صفـات المخلوقين، والحيـاء في البشر هو تَغَيُّرٌ وانكسـار يعتري الإنسان من خـوف ما يُعَابُ به ويُـذَم، وقد نفى الله تبارك وتعـالى عن نفسه المقدسة أنه يستحي من الحق وقـد سمع رسول الله ﷺ قولَ أمِّ سُليم رضي الله عنها: إن الله لا يستحي من الحق وأقـرها رسـول الله ﷺ على ذلك فقد روى البخاري ومسلم واللفـظ للبخاري من طريق زينـب بنت أم سلمة رضي الله عنهـا عن أم سلمة قـالت: جـاءت أُمُّ سُلَيْم إلى رسـول الله ﷺ فقالت: يـا رسـول الله إن الله لا يستحي من الحق فهـل على المرأة من غُسْل إذا احتلمت قال النبي ﷺ: إذا رأت الماء فَغَطَّت أُمُّ سلمة تعني وجهها وقالت: يا رسول الله وتحتلم المرأة؟ قال: نعم، تَرِبَتْ يَمينُكِ، فَبِمَ يُشْبِهُهَا ولـدُها؟ وقوله عز وجل: ﴿مثلا مَّا﴾ أيْ أيَّ مثلٍ كـانَ لأن كل مثل يضربه الله عز وجل يلفت انتبـاه الخلق إلى آيـة من آيـات الله، يعي ذلك ذَوُو العقل والعلم وإن جهل المرادَ منه مرضى القلوب من المنافقين والكافرين. وقوله عز وجل: ﴿بعوضة فما فـوقهـا﴾ أي بعـوضة فما زاد عليهـا في الجثـة أو في الغـرض المقصـود من التمثيل كجناحها، والبعوضة واحدة البعوض وهو صغار البق، والبَقُّ يطلق على حيـوان صغير شديـد اللَّسع منتن الـرائحة ضعيف جـداً قد يقتلـه مجرد اللَّمْس، ويكـون بجـدران بعض الـدور وفي فُـرُشِهـا، وإذا ضُغِط عليـه بضاغط انفجر دما. كما يطلق البَقُّ على النـاموس وهو من عجيب خلق الله تعالى فإنـه في غايـة الصغر، ولـه ستة أرجل وأربعـة أجنحة وذَنَبٌ وخـرطوم مُجَوَّفٌ، وهو مـع صغره يَغُوصُ خـرطومـه في جلد الفيل والجامـوس والجمل فيبلغ منه الغاية حتى إن الجمل قد يموت من قرصتـه السَّامَّة أحياناً وقوله عز وجل: ﴿فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾ أي فأما الذين صدَّقوا

الله ورسوله فيعـرفون أن المَثَلَ الذي ضربه الله هو قَمِنٌ بأن تتنبَّـه له النفوس، وتَعِيهُ القلوب، وتَتَدارَسَهُ لما اشتمل عليه من الحِكَم الباهرة والآيات القاهرة، الشاهـدة بأن الله هو الحق وأن قولَه الحقُ وأن مـا يضربه من الأمثال هـو مَنَارٌ على الطـريق يهدي بـه الله من يشاء إلى صراط مستقيـم، وقولـه عـز وجل: ﴿وأما الـذين كفـروا فيقولون مـاذا أراد الله بهذا مَثَلاً﴾ أي وأمـا الذيـن كفروا فَلِفَـرْطِ جهلهم، وشدة عمى قلـوبهم فإنهم يقولـون: ما الفـائدة من ضرب هذا المثَل؟ كما قال الله تبارك وتعالى عنهـم في سورة المدثر عن سقر: ﴿عليها تسعـة عشر﴾ فقال الـذين في قلـوبهم مـرض والكـافرون: مـاذا أراد الله بهذا مثـلاً، وظن بعض السفهاء أنهم بجمعهم يغلبـون التسعة عشر خـزَنَةَ النـار فقال عز وجل: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكةً وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للـذين كفروا ليستيقن الذين أوتـوا الكتاب ويزداد الذين آمنـوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقولَ الذين في قلوبهم مرض والكافرون مـاذا أراد الله بهذا مثلاً، كـذلك يضل اللهُ من يشـاءُ ويهدي من يشاء، ومـا يعلم جنود ربك إلا هو، وما هي إلا ذكرى للبشر﴾ وقوله عز وجل: ﴿يُضِلُّ به كثيراً ويهدي بـه كثيراً وما يُضِل به إلا الفـاسقين﴾ أي يفترق الناس في فهم مـا يَضْرِبُه الله عـز وجل في القرآن من المثل فيخـذل الله كثيراً من الناس فـلا يعقلون هـذا المثل، ويُكَذِّبون بـه وهم الكافرون والمنـافقون، ويؤيـد ويُسَدِّدُ ويوفق كثيراً من النـاس وهم المستجيبون لله ولـرسوله فيعقلـونه ويعلمـون أنه الحق من ربهم وأهل الهدى وإن كـانوا قليـلاً بـالنسبة للنـاس فهم كثيرون في أنفسهم وإضلال الله لمن يشاء يكون بخذلانهم وعدم إعانتهم ولا يظلم ربك أحداً، وهدايـة الله تعالى لمن يشاء تكون بتأييدهـم وإعانتهم وتوفيقهم للحق فضلاً منه وإحساناً، وفي قوله عز وجل: ﴿وما يضلُّ به إلا الفاسقين.﴾ أي ولا يخذل الله عـز وجل إلا من استحوذ عليهم الشيطـان فأنساهم ذكـر الله،

وانخرطوا في سلك جنده، وقد وصفهم الله تبارك وتعالى بالفسق وهو الخروج عن طاعة الله، وأصل الفسق في كلام العرب هو الخروج عن القَصْد قال في القاموس المحيط: (الفِسْقُ) بالكسر التَّرك لأمر الله تعالى والعصيان والخروجُ عن طريق الحق أو الفُجُور كالفُسُوق، فَسَقَ كنَصَرَ وضَرَبَ وكَرُمَ فِسْقاً وفُسوقا، وإنه لفِسْقٌ خروج عن الحق، وفَسَقَ جَارَ وعن أمر ربه خرج، والرُّطَبَةُ عن قشرها خرجت كَانْفَسَقَتْ قيل: ومنه الفاسقُ لانسلاخه عن الخير، ورَجُلٌ فُسَقٌ كَصُرَدٍ وسِكِّيت دائمُ الفِسْق، والفُوَيْسِقَةُ الفأرة لخروجها من جُحرها على الناس، ويا فَسَاقِ كقطام يافاسقةُ، ويا فُسَقُ كزفر يا أيها الفاسقُ، وليس في كلامٍ جاهلي ولا شعرهم فاسق على أنه عربي والتفسيق ضد التعديل اهـ. وقد حكى القرطبي في تفسيره عن أبي بكر الأنباري في كتابه (الزاهر) أنه لما تكلم عن معنى الفسق أورد قول الشاعر:

يَذْهَبْنَ في نجدٍ وغَوْراً غائرا   فَوَاسِقاً عن قصدها جوائرا

وقول الشاعر: وغوراً غائرًا أي ويَسْلكْنَ غورا. وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث الصديقة بنت الصديق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: خمسٌ فواسقُ يُقْتَلْنَ في الحِل والحرم الفأرةُ والعقربُ والغرابُ والحدأة والكلبُ العَقُورُ. ولفظ الفاسق يطلق على الكافر وعلى المسلم العاصي إلا أن المراد في هذا المقام هو المنافق والكافر بدليل قوله عز وجل بعد هذا الوصف مباشرة: ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يُوصَل ويفسدون في الأرض أولَئك هم الخاسرون﴾. وقد وصف الله تبارك وتعالى أصحاب هذه الصفات بالعَمَى واللعنة وسوءِ الدار حيث يقول في سورة الرعد: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحقُّ كمن هو أعمى﴾ وبعد أن وصف الفريق السعيد قال في أهل العَمَى: ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن

يـوصل ويفسـدون في الأرض أولَئك لهم اللعنـة ولهم سُوءُ الـدار. ﴾ والعهـد الذي ينقضه هـؤلاء من بعد ميثاقه أي توكيده عليهم هـو وصية الله عز وجل بالإيمان بـه وبرسلـه وبكتبه وبـاليوم الآخـر ويشمل كذلك مـا يعاهـدون به غيرهم ويوثقون ذلك بالأيمان ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون إذ من أبـرز صفـات هـؤلاء أنهم إذا عـاهدوا غـدَرُوا ومعنى قـولـه عـز وجل: ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ أي ويقطعون أرحامهم، ولا يَصلُونَها، وهذا من أخبث أعمال النـاس أن يقطعوا أرحامهـم فإن من قطع رحمه كان لما سـواهـا أقطع ولـذلك تعهـد الله عـز وجل بقطـع من قَطَعَ رحمه ووصل من وصلها، كما جـاء في حديث الصحيحين عن جُبَيْر بن مطعـم رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال: لا يدخل الجنـة قاطع أي قاطع رحم. كما روى البخاري ومسلم من حـديث أبي هريـرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال: إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فَـرَغَ منهم قامت الرحم فقالت: هـذا مقام العائذ بك من القطيعـة قـال: نَعَم أمـا تَـرْضِينَ أن أصلَ مـن وصلك وأقطعَ من قطعك، قالت: بلى: قال: فذلِك لكِ قال رسول الله ﷺ: اقرءوا إن شئتم: ﴿فهل عسيتم إن تـوليتم أن تفسـدوا في الأرض وتُقَطِّعـوا أرحـامكم. أولَئك الـذين لعنهم الله فأصمهم وأعمـى أبصـارهـم. ﴾. وقـولـه عـز وجل: ﴿ويفسدون في الأرض﴾ أي يقفـون في وجه شريعة الله ويحاربـونها فيُضَيِّعُون على الناس أعدل المناهج ويصرفونهم إلى الجَوْر والظلم. وقوله: ﴿أولَئك هم الخاسرون﴾ أي هـؤلاء هم الذين ضيَّعُـوا على أنفسهم أحسن الحظوظ وأوفـر الأرباح. وقـد أشار الله عز وجل إلى أن من يحارب دين رسـول الله محمد ﷺ إنما يحارب رحمه وقرابته حيث يقول عز وجل: ﴿قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القـربي﴾ أي لا أسألكم على تبليغ الـرسـالة إلا أن تَـودُّوا أقـاربكم وتحبوهم، وكما قـال في الآية المشار إليهـا قريبـاً: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾.

قال تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون* هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم.﴾

بعد أن وجَّهَ الله تبارك وتعالى عباده إلى دلائل التوحيد والنبوة والمعاد، شرع يشرح لهم نعمه، ويبين لهم آياته في أنفسهم وفي الآفاق، وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون﴾ ذكرت في تفسيرها أن الله تبارك وتعالى لفت انتباه الناس في هذا المقام إلى دليلين ظاهرين بارزين أمام الأعين يشهدان أنه لا إله إلا الله، الأول في الأنفس والثاني في الكون والأفاق، وأن القرآن الكريم أكثر من لفت الانتباه إلى هذين الدليلين وهما النظر في الأنفس وفي الأفاق، وقد بدأ هذا المقام هنا بقوله عز وجل: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون.﴾ والاستفهام للتوبيخ والإنكار والتبكيت والتعنيف، أي كيف يقع منكم الكفر بالله وكيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره وقد أقام لكم الدلائل، ونصب أمام أعينكم البراهين في أنفسكم وفي السموات والأرض الشاهدة على أن الله وحده هو رب كل شيء وسيده ومليكه وأنه لا إله غيره ولا رب سواه فكيف تغفلون عن التبصر في أنفسكم وفي السموات والأرض؟ وقد قرر الله تبارك وتعالى هنا أن الناس كانوا أمواتا فأحياهم ثم يميتهم ثم يحييهم ويشير عز وجل بذلك إلى أن الإنسان كان في طور من أطواره جماداً كالموات لا أثر فيه للحياة حيث كان أغذية ثُمَّ هضمها فتحولت إلى المنى، الذي لو وضَعْتَهُ تحت (المجهر) ما

رأيت أيَّ أثر لصورة الإنسان فيه، وقد أخرج الله تبارك وتعالى هذا المني من الإنسان ماء دافقاً يخرج من بين الصلب والترائب منْدَفِعًا إلى قرار الرحم ثم يتحول بعد مدة معينة إلى علقة أي قطعة دم حمراء مستطيلة لا أثر للتخطيط الإنساني فيها، ثم بعد مدة تتحول العلقة إلى قطعة لحم لا شكل فيها للإنسان ولا تخطيط فلا رأس ولا رقبة ولا أنف ولا أذنين ولا عينين ولا يدين ولا رجلين ثم بعد مدة معينة يجري فيها الرسم والتخطيط ويجعل المضغة عظاما ويكسو العظام لحما، وهو في هذه الأطوار كلها كأنه ميت أو جماد ثم يَنْفُخُ فيه الروحَ فيتحرك ويصير خلقاً آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة، على أن هذا التخطيط يتم في ظلمات ثلاث وهي ظلمةُ البطن وظلمةُ المشيمة وظلمةُ الرحم، ويطبعه الله عز وجل على صورة لم يخلق قبلها مثلها من كل وجه ولم يخلق بعدها مثلها من كل وجه فجميعُ صُوَر بني آدم تتفاوت ومهما تشابهت فإن الله عز وجل يجعل فيها علامة فارقة تميز بين الشخص وغيره ليتعارفوا، ومع خلقه للإنسان على هذه الصورة التي ينفرد بها عن غيره من الناس فإن الله عز وجل يطبعه كذلك في بطن أمه على أخلاق من يشاء الله من آباء الجنين أو أمهاته، وإلى ذلك يشير الله عز وجل حيث يقول: ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إلٰه إلا هو العزيز الحكيم﴾ وكما قال: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذٰلكم الله ربكم له المُلْك لا إلٰه إلا هو فأنى تُصْرفون﴾ ولا يستطيع أحد أن يدعي أن الأب أو الأم أو غيرهما يتمكن من فعل شيء من ذلك فكم من رجل قوي نشيط لا يولد له، وكم من امرأة صحيحة نشيطة لا تلد. وكم من امرأة تتمنى بنتًا فلا تلد إلا الذكور وكم من إنسان يتمنى أن يولد له ذكر فلا يجيئه إلا الإناث كما قال عز وجل: ﴿لله مُلْك السمٰوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور* أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل

من يشاء عقيما إنه عليم قدير﴾ كما أن لون الإنسان لا يستطيع أحد أن يتحكم فيه لا الأب ولا الأم ولا الطبيب وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن اللون قد ينجذب لعرق من عروق آبائه الأولين فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل من بني فزارة إلى النبي ﷺ فقال: إن امرأتي ولدت غلاما أسود فقال النبي ﷺ: هل لك من إبل ؟ قال: نعم، قال: فما ألوانها ؟ قال: حُمْرٌ، قال: هل فيها من أورق ؟ قال: إن فيها لَوُرْقاً، قال: فأنّى أتاها ذلك؟ قال عسى أن يكون نزعه عرق، قال: وهذا عسى أن يكون نزعه عرق. وإذا تأمل الإنسان قليلا فيما احتواه الجسم الإنساني من دلائل وَجَدَ الآيات البينات والحجج الظاهرات، فجميع البشر في مشارق الأرض ومغاربها مع اختلاف ألوانهم وتباعد بلادهم ولغاتهم وحاجاتهم وأطعمتهم تجد التركيب العضوي الواحد فلكل واحد منهم عينان ولسان وشفتان وأذنان وحُلقوم وأجهزة هضمية وأجهزة تنفسية وأجهزة دموية إلى غير ذلك مع اتحاد التركيب والتكوين للقلب والكبد والرئتين والأمعاء الغلاظ والأمعاء الدقاق وأجهزة الإخراج، وتشابه ما بين هذه الأجهزة في الإنسان والحيوان، وهداية كل جهاز من هذه الأجهزة إلى أداء وظيفته دون تدخل من أحد إلا الله الذي لا إله إلا هو ولا معبود بحق سواه، ولما كان الإنسان هو المكلف من بين الخلق بعمارة الأرض هداه سُبُلَ ذلك مع عجزه وضُعفه، فإن الإنسان خلق ضعيفاً كما قال عز وجل: ﴿وخلق الإنسان ضعيفا﴾ وهو الوحيد من بين المواليد الذي ينزل من بطن أمه بلا أسنان، ولا يستطيع أن يتناول بيده شيئا ولا يستطيع أن يرفع رأسا مدة طويلة بخلاف سائر مواليد الحيوانات فإنها بعد ولادتها بقليل تقوم وتمشي وتجري وتتبع أمها، والفرخ عندما يخرج من البيضة ينطلق باحثا عن طعامه، وجميع هذه السمات للإنسان وللحيوان واحدة مع تباعد الديار واختلاف أحوال الأقطار،

والأعصار. وفي قوله عز وجل: ﴿وكنتم أمواتا فأحياكم﴾ يعني بنفخ الروح في الجنين وفي قوله: ﴿ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ أي ثم يقضي عليكم بالموت بعد انقضاء أجلكم في الحياة الدنيا وقد قَهَرَ الله العبادَ بالموت ولم يجعل لأحد فيه سلطانا فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، ثم يحيي الموتى بالبعث والنشور ويرجعون إلى الله ليضع لهم الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ولا يضيع من عملها شيء، كما قال عز وجل: ﴿وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ والتعبير بالفاء في قوله عز وجل: ﴿فأحياكم﴾ للإشعار بأن إحياء الموتى لا يحتاج إلى زمن. والتعبير بثُم للإشعار بالتراخي وهو الزمن الممتد بين نفخ الروح والموت الذي يحصل بعد الحياة الدنيا وانتهاء الآجال، وكذلك التراخي في الزمن بين وقت الموت ومدة البرزخ إلى البعث والنشور، ثم إلى جنات النعيم أو عذاب الجحيم أعاذنا الله منه، وفي قوله عز وجل: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾ أي أوجد لكم الأرض وما فيها من الخيرات والبركات والأقوات، فكلها خلقت من أجل الإنسان وقد جعل فيها الطيب والخبيث ليمتحن بذلك عباده، حيث أباح لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والمراكب والملابس وسائر الشهوات والملذات المباحة، وحرم عليهم الخبائث من المطاعم والمشارب والملابس والمراكب وسائر الشهوات والملذات المحرمة. وقوله عز وجل: ﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم﴾ أي ثم قصد إلى السماء وقال الإمام البغوي في تفسير قوله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ قال ابن عباس وأكثر مفسري السلف أي ارتفع إلى السماء وقال ابن كيسان والفراء وجماعة من النحويين أي أقبل على خلق السماء وقيل قصد لأنه خلق الأرض أولاً ثم عَمِدَ إلى خلق السماء اهـ وقوله عز وجل: ﴿فسواهن سبع سمٰوات﴾ أي

خلقهن مستوياتٍ لا فُطُورَ فيها ولا صُدُوع . وقد فصَّل الله تبارك وتعالى قوله هنا ﴿هـو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استـوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات﴾ في سـورة فُصلت حيث يقول : ﴿قل أئنكم لتكفرون بـالذي خلق الأرض في يـومين وتجعلـون له أنـداداً ذلك رب العـالمين * وجعل فيهـا رواسي من فوقها وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواءً للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طـوعا أو كرهاً قالتَا : أتينا طـائعين * فقضاهن سبع سمٰـوات في يومين وأوحى في كل سماء أمـرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظًا ذٰلك تقدير العزيز العليم﴾ ومعنى قوله تعالى : ﴿في أربعـة أيام﴾ أي في يومين تُكمـلان مع اليومين السـابقين أربعة أيام ، فخلقُ الأرض بما فيها من جبال وجعلُ بركـاتها فيها وتقديرُ أقواتها فيها تَمَّ في أربعـة أيـام ، وخلقُ السمـوات السبع تَمَّ في يـومين فجميع أيـام خلق السموات والأرض كان ستة أيـام كما قال عز وجل﴿إن ربكم الله الذي خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام﴾ وقال عز وجل : ﴿الله الذي خلق السمٰوات والأرض وما بينهما في سـتـة أيام﴾ وقـال عز وجـل : ﴿ولقد خلقنـا السمٰوات والأرض ومـا بينهما في ستة أيـام وما مسنـا من لغوب﴾ وفي قـوله عـز وجل : ﴿وما مسنا من لغوب﴾ أي من تعب بسبب خلق السموات والأرض ، فيه ردٌّ على اليهود قبحهم الله الذين حرفوا كـلام الله وكتبوا في التوراة كَذِباً على الله في الإصحاح الثاني من سفر التكوين : فَأُكْمِلت السموات والأرض وكلُّ جندها وفَرَغ الله في اليوم السابع من عمله الـذي عمل ، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل ، وبـارك الله اليوم السابع وقدسـه لأنه فيه استراح من جميع عملـه الذي عمل الله خـالقا . اهــ وهذا من أكـذب مفتريات اليهـود وتحريفهم للتوراة تعالى الله عما يقولون علـوا كبيراً ، هذا وقد ظن بعض الناس في قولـه تعالى : ﴿أأنتم أشد خلقا أم السماء بنـاها * رفع سَمْكها فسـواها *

وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذٰلك دحاها﴾ حسبوا أنه يدل على أن الأرض مخلوقة بعد السماء وهو فهم خاطئ لأن قوله عز وجل: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ أي مع ذلك لأن قوله هنا: ﴿بعد ذٰلك﴾ أي مع ذلك، فبَعْد تستعمل بمعان منها مع الذي هو المراد هنا وكأنه يقول: إن في خلق السموات آيةً بينةً كافيةً شافيةً في قدرة الله على كل شيء ومع ذلك فقد خلق الأرض فهي آية أخرى كافية شافية وقد استعمل القرآن كلمة بعد بمعنى مع في قوله عز وجل: ﴿عتل بعد ذٰلك زنيم﴾ أي غليظٍ جافٍ ومع ذلك هو زنيم أي دَعِيٌّ. ولا شك أن هذا الوصف بكونه زنيماً عرف فيه قبل وصفه بالأوصاف السابقة إذ نسب إلى ذلك عندما جاءت به أمه لعنه الله، وصريح القرآن ناطق بأن الله خلق الأرض قبل خلق السموات في أكثر من مقام في الذكر الحكيم. ومعنى قوله عز وجل: ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ أي وعلمه محيط بجميع الأشياء لا تخفي عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

قال تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكـة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾.

إن الله تبارك وتعـالى بعد أن وبَّخ الكـافرين على كفـرهم بالله وجحـودهم لنعمـه التي تتـوالى عليهم من فضلـه وجـوده وإحسانـه مُقبِّحـا إليهم سُـوءَ فِعالهم، واستمرارهم على ضـلالهم، وكان من نعمه التي عددهـا عليهم أنه خلق لهم ما في الأرض جميعـا وسخر لهم ما في السمـوات من الشمس والقمر والنجـوم وغيرهـا وكأنـه يقـول لهم: اذكـروا نعمتـي التي أنعمت عليكم إذ خلقتكم ولم تكونوا، وأوجدتكم مـن العدم وخلقت لكم ما في الأرض جميعاً وسويت لكم ما في السموات، شرع هنا يُـذَكِّرُهم بتكريمه لأبيهم آدم، وينبه عباده إلى حكمته التامة في إيجاد الإنسان على الأرض مع مـا قد يوجد منه من الشر والكفر؛ لأن إيجاد مـا يغلب خيره على شره تقتضيه الحكمة التـامة، ولا سيما أن الإنسان قد رُكِّب من تراب الأرض، وركبت فيه الشهوات البهيمية، ومع ذلك لا يـزال منهم من يذكـر الله عز وجل ويسبح بحمـده ويقدسـه، فللّه الحكمة البـالغة. والملائكة جمع ملك ومعناه في اللغـة مأخوذ من الملأك وهي الرسالـة، تقول العرب: أَلِكْنِي إليه أي أرسلني إليه قـال عدي بن زيد العبادي:

أَبْلِغ النعمانَ عني مَلْأَكاً أنه قد طال حبسي وانتظارْ

والملائكـة هم رسل الله بينـه وبين أنبيـائه وعبـاده وفي الاصطـلاح: هم أجسام نـورانية لطيفـة لها قدرة على التشكل بالأشكـال الجميلة أولـو أجنحة مثنى وثـلاث وربـاع يـزيـد في الخلق مـا يشـاء شأنهم الطـاعـة ومسكنهم السموات لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون منهم جبريل الذي رآه

رسول الله ﷺ على صورتـه الحقيقية جالسا على كـرسي بين السماء والأرض له ستمائة جناح فقـد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حـديث عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح، كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ لمسلم من طـريق مسروق قال: قلت لعائشة: فأين قوله: ﴿ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ قـالت: إنما ذاك جبريل ﷺ كان يأتيه في صـورة الرجال وإنه أتـاه في هذه المرة في صورته التي هـي صورته، فَسَدَّ أُفُقَ السماء وقـد ذكر الله تبارك وتعـالى خلقه للملائكـة في مطلع سورة فاطـر حيث حمد نفسه على هذه النعمة العظيمة حيث قال: ﴿الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث وربـاع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قـدير﴾ والإقـرار بالملائكـة ركن من أركان الإيمان كما جـاء في حديث أبي هريرة عند البخاري أن النبي ﷺ كان بارزاً يوما للناس فأتاه رجل فقال: مـا الإيمان قال الإيمان أن تـؤمن بالله ومـلائكته وكتبـه ورسله وتـؤمن بالبعث. الحديث وفي آخـره: ثم أدبر فقال ردوه فلم يَرَوْا شيئـا، فقال: هذا جبريل جـاء يعلم النـاس دينهم، وقــد رواه مسلم من حـديث عمـــر بن الخطاب رضي الله عنـه قال: بينما نحن عنـد رسول الله ﷺ ذات يـوم إذ طلع علينا رجل شديد بيـاض الثياب شديدُ سواد الشعر لا يُـرَى عليه أثر السفر، ولا يعرفـه منا أحـد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيـه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمـد أخبرني عن الإسلام قال: الإسلام أن تشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمـدا رسـول الله وتُقيمَ الصـلاة وتُؤتي الـزكـاة وتصـوم رمضـان وتحجَّ البيتَ إن استطعت إليه سبيـلاً. قال: صـدقت، فعجبنا لـه يسأله ويُصَدِّقُـه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بـالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتـؤمن بالقَدَر خيره وشره. قال: صدقت الحديث

وفي آخره: قال: ثم انطلق فلبثت مَلِيًّا ثم قال لي: يا عمر أتدري من السائل؟ قلتُ: الله ورسولُه أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم. وقد بين الكتاب والسنة كثيرا من أعمال الملائكة ووظائفهم كما بين رسول الله ﷺ أصل خلقهم، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله ﷺ الحصان الرزان أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال خُلِقَت الملائكة من نور وخلق الجانُ من مارج من نار وخُلق آدمُ مما وصف لكم.

وقد جعل تبارك وتعالى الملائكة رسلا وجعلهم حفظة لعباده حيث يقول عز وجل: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ أي يحرسونه ويصونونه بسبب أمر الله لهم بذلك.

ومن وظائف الملائكة قبض أرواح الناس فملائكة الرحمة يقبضون أرواح المؤمنين وملائكة العذاب يقبضون أرواح الكافرين وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿قل يتوفاكم ملَكُ الموت الذي وكل بكم﴾ ويقول جَلَّ مِن قائل ﴿وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموتُ توفته رسلُنَا وهم لا يُفَرِّطُون . ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولو ترى إذ يَتَوَفَّى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ ومن وظائف الملائكة كتابة أعمال الناس، مَلَك عن اليمين وملك عن الشمال كما قال عز وجل: ﴿إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يعلمون ما تفعلون ﴾ وقد وصفهم الله عز وجل بصفات تشير إلى أعمالهم حيث يقول: ﴿والصافات صفا﴾ وكما قال: ﴿وإنا لنحن الصافون * وإنا لنحن المسبحون ﴾ وقال في وصف ملائكة الرحمة وملائكة العذاب الموكلين بقبض الأرواح: ﴿والنازعات غرقا * والناشطات نشطا﴾

وقد ذكر رسول الله ﷺ أن لله ملائكـة يسيحون في الطرقات يلتمسون مجالس الذكر فإذا رأوا مجلسا من مجالس الذكر تنادوا : هلموا إلى حاجتكم فيحفونهم بأجنحة الـرحمة إلى السماء الدنيا ، في وظائف كثيرة ، وقـد سمى الله عز وجل من الملائكة جبريل وميكائيل ووصف الله عز وجل جبريل بأنه شديدُ القُوى حيث يقول عز وجل : ﴿علَّمـه شديد القُوَى * ذو مِرَّة فاستـوى ﴾ وقال عز وجل فيه أيضاً : ﴿إنه لقول رسـول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين * مُطاَعٍ ثَمَّ أمين ﴾ وسماه الله عز وجل الرُّوحَ الأمين كما سماه روحَ القُدُسِ حيث يقولُ عـز وجل : ﴿وإنـه لتنزيل رب العـالمين * نزل بـه الرُّوح الأمين * على قلبك لتكـون من المنذرين ﴾ ويقـول عز وجل : ﴿قل نَـزَّلَهُ روح القـدس من ربك بـالحق ليثبت الـذين آمنـوا وهـدى وبشرى للمسلمين﴾ وقـال في حق عيسى عليـه السلام ﴿إذ أيـدتك بـروح القـدس﴾ حيث كان جبريل عليـه السلام هو رسول الله إلى جميع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ، وقد بين الله عز وجل أن الملائكة جنود الله وأنـه لا يعلم عددهم وكيفياتهم إلا الله عـز وجل حيث يقـول : ﴿وما يعلم جنـود ربك إلا هـو﴾ ومعنى قـوله عـز وجل : ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ أي إني خالق في الأرض جِنْساً يخلف بعضهم بعضاً قـرناً بعـد قرن وجيـلاً بعد جيل وقبيـلاً بعد قبيل كما قـال عز وجل : ﴿وهـو الـذي جعلكم خـلائف الأرض﴾ وكما قـال عـز وجل : ﴿ويجعلكم خلفـاء الأرض﴾ وكما قال عز وجـل : ﴿ولو نشاء لجعلنـا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعـد قوم نـوح﴾ وقال عـز وجل : ﴿واذكـروا إذ جعلكم خلفاء من بعـد عاد﴾ ولا شك أن قوله عز وجل : ﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدمـاء﴾ يدل على أن المراد ذريـة آدم لا آدم نفسه وإن كـان هو والـد هؤلاء جميعا والخليفةُ قد يطلق على معانٍ منها الإمام الأعظم كأبي بكر وعمر وعثمان

وعلى رضي الله عنهم وسـائر من يُلَقَّبُ بالخليفـة من الحكام وليس هـذا مراداً هنا، ولكنـه مراد في قوله عـز وجل: ﴿يا داود إنا جعلنـاك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾ أي جعلناك وصيرناك إمـاماً وحاكماً وليس المراد أنه خليفـة الله؛ لأن الله عز وجل لم يَغِبْ حتى يتخـذ خليفة لـه، وقد سُمِّيَ أبـو بكر رضي الله عنـه خليفة لأنـه صار الحاكم بعد رسول الله ﷺ لما غاب بالموت ﷺ، وكـذلك كانت وظيفةُ هارون عليه السلام بعـد ذهاب موسى لميقات ربه حيث قـال لهارون عليه السلام: ﴿اخلفني في قـومـي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسـدين﴾ ولم يثبت في خبر صحيح عن رسـول الله ﷺ تسميـة الحاكم خليفـة الله ولا تسميـة ذريـة آدم خلفاء الله في الأرض فإن الله مع عبـاده بعلمه أينما كـانوا كما قـال عز وجل: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ ولـو جاز إطـلاق كلمة خليفة الله على أحـد لكان أبو بكـر الصديق وعمـر الفاروق رضي الله عنهما أولى النـاس بها ولم يثبت أن واحداً من أصحـاب رسول ﷺ ــ وهم أعلم بـالألفاظ الشرعية واللغويـة ــ سمى أبا بكر أو عمـر خليفة الله وإنما كانوا يقولون لأبي بكـر رضي الله عنه يا خليفة رسول الله ويقـولون لعمر رضي الله عنه يا خليفـة خليفة رسول الله ﷺ حتى خشي عمر رضي الله عنـه أن يطول الأمر فيقـال للخليفة من بعـده: يا خليفة خليفة خليفة رسول الله ﷺ فسمَّى نفسه أمير المؤمنين، وليس قوله عز وجل عن الملائكـة: ﴿أتجعل فيهـا من يُفْسـد فيها ويسفك الـدمـاء ونحن نسبح بحمـدك ونُقـدِّس لك؟﴾ سـؤالَ اعتراض وإنما هـو سـؤال استعـلام واستكشافٍ عـن الحكمة في ذلك كأنهم قـالوا: يـا ربنا ما الحكمـة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يسفك الدماء ويفسد في الأرض ونحن نسبح بحمدك ونصلي لك ولا يصدر منا شيء من سفك الدماء أو الفساد في الأرض؟ فقال الله عـز وجل: ﴿إني أعلم ما لا تعلمـون﴾ أي إني أعلم في خلق هـؤلاء من

المصالح الراجحة المُقَدَّمَةِ على المفاسد التي ذكرتموها فيهم فإني سأجعل فيهم الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء والصالحين، المستجيبين لله ورسله مع ما ركب فيهم من الشهوات، ولذلك تسارع الملائكة بالشهادة بالخير للمؤمنين والاستغفار لهم كما جاء في الصحيح: أن الملائكة الذين يتعاقبون في المؤمنين ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر حيث تمكث ملائكة الليل من العصر إلى الفجر وملائكة النهار من الفجر إلى العصر فإذا صعدوا إلى الرب سألهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي فيقولون: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون فاغفر لهم يوم الدين. وكما قال عز وجل: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم * ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم* وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم﴾

قال تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال: أنبئوني بأسماء هٰؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال: يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال: ألم أقل لكم إني أعلم غيب السمٰوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾

إن الله تبارك وتعالى قد ذكر في الآية السابقة مشهداً من مشاهد الغيب التي جرت في الملأ الأعلى وأعلم الله تبارك وتعالى عباده بها ليعلموا أن الغيب لله وحده لا يعلمه ملك مُقَرَّبٌ ولا نبي مرسل إلا ما تقتضيه الحكمة من إعلامه للملائكة أو المرسلين أو الأنبياء، وإذا كانت الملائكة لا يعلمون الغيب فمن باب أولى لا يعلمه الجن والكهنة والعرافون والدجالون الذين يدعون معرفة الغيب وأن الجن يأتونهم بأخبار ما كان وما يكون، وقد نص الله تبارك وتعالى في محكم كتابه أن الجن لا يعلمون الغيب حيث قال: ﴿ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير * يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور* فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾ وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ الخ الآيات الثلاث مشهدٌ آخر من مشاهد الغيب التي يقصها الله تبارك وتعالى فيما أنزله من القرآن على النبي الأمي الذي بعثه في الأميين لتعليم الناس الكتاب والحكمة وليزكيهم، ولا شك أن قوله عز وجل: ﴿وعلَّم آدم الأسماء كلها﴾ كان بعد الأمر بسجود الملائكة لآدم، وإنما قدَّمه في الذكر هنا

لاتصاله بقوله عز وجل في ختام الآية السابقة: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ ولتقرير ما قدمه في الآية السابقة ممَّا يقتضي أن الغيب كلَّه لله، وهو وإن كان المقصودُ منه بيان شرف آدم وعُلُوِّ منزلته فإنه تقريع لمن تَرَدَّدَ في الإيمان بالنبي الأمي الذي أعلمه الله عز وجل بأخبار الملأ الأعلى وأعلمه ما لم يكن يعلمُهُ هو ولا قومه من قبل كما عَلَّم أباه آدم الأسماء كلها فَعَرَفَ ما لم تعرفه الملائكة منها، والمراد بالأسماء كلها ما لا غِنًى لآدم عنه مما يحتاج لمعرفته ومنها أسماء الملائكة الذين يُعَرفهم بأسمائهم. وهذا كقوله في ملكة سبإ: ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ يعني مما لا غنى لمثلها عنه، وكذلك قوله تعالى في ريح عاد: ﴿تدمر كل شيء بأمر ربها﴾ أي تدمر كل شيء أمرت بتدميره بدليل أنها لم تدمر السموات والكواكب وما خرج عن دائرة أرض عاد، وقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استَشْفَعْنَا إلى ربنا ؟ فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعَلَّمَك أسماءَ كلِّ شيء فاشفع لنا عند ربك حتى يُرِيحَنَا من مكاننا هذا فيقول: لستُ هناكم. إلخ الحديث. فقوله في هذا الحديث المتفق عليه وعلمك أسماء كل شيء هو كما وصفتُ في معنى: ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ وقَوْلِه: ﴿تدمر كل شيء بأمر ربها﴾ وآدم هو أبو البشر وأبو الناس كلهم قيل هو مأخوذ من أديم الأرض وهو وجهها، ومنها خُلِقَ، وقيل: هو مأخوذ من الأُدْمَة وهي السُّمْرَة وقد روى أحمد وأبو داود والترمذي وقال الترمذي: حسن صحيح من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والسَّهْلُ والحَزْنُ وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك. ولا شك أن ما أورده القرآن الكريم من قصة آدم هذه

يقطع بكذب (داروين) ونظـريته الإلحادية في «التطـور والارتقاء» . وقولـه عز وجل: ﴿ثم عـرضهم على الملائكــة﴾ أي عـرض المسميـات التي علم آدم أسماءها على الملائكة والظـاهر أن المسميات المعروضـة كان منها لما يعقل ولما لا يعقل، وغلَّب العاقل تكريماً له فقال: «عرضهم» ولم يقل عَرَضَهَا، وقوله عز وجل: ﴿فقال أنبئوني بأسماء هـٰؤلاء إن كنتم صادقين﴾ أي قال الله تبارك وتعالى للملائكة: أخبروني بأسماء هذه المسميات المعروضة عليكم إن علمتم أنكم تكونون صادقين في هذا الإعلام، فَسَارَعُوا إلى إظهار عجزهم عن معرفة أسماء هـؤلاء وبَـرَّءُوا أنفسهم أن يقـولوا على الله قـولاً بـلا علم، ونـزهـوا الله وسبحوه وقَدَّسُوه بين يَدَيْ جوابهم حيث قالوا: ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنــت العليم الحكيم﴾ وهذا منهم اعتراف بعجزهـم وقصورهم، وفيه إشعار بأن سؤالهم كان استفسارًا وليس اعتراضا، وهذه صورة أخرى من صـور تقريـر أن الغَيْبَ لله وحـده وأنه تبـارك وتعـالى عنده مفـاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، وأنه لن يصل إلى أحد شيء من علم الغيب إلا من الله وحده كما قال عز وجل: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسـول فإنـه يسلك من بين يـديـه ومن خلفه رصـدا * ليعلم أن قـد أبلغـوا رسـالات ربهم وأحاط بما لـديهم وأحصى كلَّ شيء عددا﴾ وفي هـذا الذكـر تقريع لليهود والمنافقين والكافرين الذين عَمُوا وصَمُّوا عما جاء في هذه القصة من علوم الغيب التي قصهـا الله تبارك وتعـالى في هذا المقام على رسـوله النبي الأمي محمـد ﷺ وإذا كانت الملائكـة الكرام يقـرون بأنهم لا يعلمون إلا مـا علمهم الله عز وجل فهل يليق بعاقل أن يقـول على الله بغير علم؟ وقوله عز وجل: ﴿قال يـا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال: ألم أقل لكم إني أعلم غيب السمـٰوات والأرض وأعلم ما تبـدون وما كنتم تكتمـون﴾ أي عندمـا أعلن الملائكة أنهم لا يعـرفون أسماء المسميـات التي عرضهـا عليهم

لأنهم لا يعلمون شيئا إلا ما علمهم الله عز وجل وأنهم لا يقولون على الله بغير علم قال الله تبارك وتعالى لآدم عليه السلام: أخبر الملائكة بأسماء هذه المعروضات ولا مانع من أن يكون من بين الأسماء التي يتحدث بها آدم للملائكة تعريفُ كل ملك باسمه، فيقول آدم لكل مَلَك من الملائكة الحاضرين: اسمك كذا. وبعد أن أخبر آدم عليه السلام الملائكة بأسمائهم قال الله عز وجل: ﴿ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ أي قد أخبرتكم وقلت لكم إني أعلم السر في السموات والأرض ولا تخفى عليَّ خافية، فالغائب والشاهد في علمي سواء، وأعلم ما يظهره العباد وما يكتمونه، كما قال عز وجل: ﴿قل إن تُخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله، ويعلمُ ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير﴾ وكما قال عز وجل عن عيسى عليه السلام: ﴿إن كنتُ قلتُه فقد علمتَه تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب﴾ وكما قال عز وجل: ﴿قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبةٍ في ظلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلا في كتاب مبين * وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليُقْضَى أجلٌ مسمًّى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ألا إنهم يَثْنُون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستَغْشون ثيابهم يعلم ما يُسِرُّون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور﴾ وكما قال عز وجل: ﴿والله يعلم ما تسرون وما تعلنون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿لا جرم أن الله يعلم ما يُسِرُّون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾ وكما قال عز

وجل : ﴿قل أنزله الذي يعلم السرَّ في السمٰوات والأرض إنه كان غفورا رحيما﴾ وكما قال عز وجل : ﴿قل لا يعلم من في السمٰوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وإن ربك ليعلم ما تكِنُّ صدورهم وما يعلنون . وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين﴾ وكما قال عز وجل : ﴿هو الله الذي لا إلٰه إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم﴾ وكما قال عز وجل : ﴿إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ويوم يناديهم أين شركائي قالوا : آذناك ما منا من شهيد﴾ ولذلك كان أنبياء الله ورسله يعلنون أنهم لا يعلمون الغيب وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى في حق حبيبه ونبيه ورسوله وسيد خلقه محمد ﷺ : ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إليَّ ، قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾ وقال في حق نوح عليه السلام : ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذاً لمن الظالمين﴾ وقد ختم الله تبارك وتعالى سورة هود عليه السلام بقوله : ﴿ولله غيب السمٰوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون﴾ .

قال تعـالى : ﴿وإذ قلنا للمـلائكة اسجدوا لآدم فسجـدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ .

هذه صورة أخرى من صور تكريم آدم عليه السلام حيث أمر الله ملائكته بـالسجـود لآدم ، وقد ذكـر الله تبـارك وتعـالى قصة خلق آدم وأمـر الملائكـة بالسجـود له في سبع سـور من القرآن الكـريم ، فذكـرها في سـورة البقرة وفي الأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه وص حيث قـال في سورة البقرة هنا : ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافـرين﴾ وقال في سورة الأعراف : ﴿ولقـد خلقناكم ثم صورنـاكم ثم قلنا للملائكـة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجـدين * قال : ما منعك ألاَّ تسجـد إذ أمرتك قال أنـا خير منه خلقتني من نـار وخلقته من طين* قـال : فـاهبط منهـا فما يكـون لـك أن تتكبر فيهـا فـاخـرج إنك من الصاغرين * قال : أنظرني إلى يوم يبعثون * قال إنك من المنظرين * قال فبما أغـويتني لأقعـدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينَّهم من بين أيـديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثـرهم شـاكريـن * قال اخـرج منها مَـذْءُوماً مدحُوراً لَمَن تَبِعَك منهم لأمـلأنَّ جهنم منكم أجمعين﴾ وقال في سورة الحجـر : ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصـال من حمإ مسنون * والجانَّ خلقناه من قبلُ من نار السَّمُوم * وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصـال من حمإ مسنـون * فإذا سـويته ونفخت فيـه من رُوحي فقعـوا لـه سـاجـدين * فسجد الملائكـة كلُّهم أجمعـون * إلا إبليس أبى أن يكـون مع الساجـدين * قال يـا إبليس مالك ألاَّ تكـونَ مع الساجديـن * قال لم أكُنْ لأسجد لبشر خلقته من صلصـال من حمإ مسنون * قال فاخـرج منها فإنك رجيم * وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين * قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون *

قــال فإنك من المنظـرين * إلى يـوم الوقـت المعلوم * قـال رب بما أغـويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغـــوينهـم أجمعين * إلا عبـــادك منهم المخلصين﴾ وقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجـد لمن خلقت طينا * قـال: أرأيتك هٰذا الـذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامـة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً * قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا * واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشـاركهم في الأمـوال والأولاد وعـدهم ومـا يعدهم الشيطان إلا غرورا * إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا﴾ وقـال تعالى في سـورة الكهف: ﴿وإذ قلنـا للملائكـة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عـدوٌّ بئس للظالمين بدلاً﴾ وقـال عز وجل في سـورة طه: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجـدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى * فقلنا يا آدم إن هٰذا عدو لـك ولزوجك فـلا يخرجنكما من الجنـة فتشقى * إن لك ألا تجوع فيها ولا تعـرى * وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحـى﴾ وقال عز وجـل في سورة ص: ﴿إذ قـال ربك للمـــلائكـة إني خـالق بشرا من طين * فإذا ســـويتـه ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين * قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أَستكبرت أم كنت من العـالين* قال أنـا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين * قال فـاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين * قال ربِّ فأنظرني إلى يـوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يـوم الـوقت المعلـوم * قـال فبعـزتك لأغـوينهم أجمعين * إلا عبـادك منهم المخلصين﴾ وفي تكـريـر هـذه القصة في هـذه السُّـور، وفي تصريفهـا هـذا التصريف البلاغي المعجز حجةٌ قاهرةٌ وآية باهرة شاهدة ناطقة بأن القرآن من

عند الله، وفيه تنبيـه أيُّ تنبيه وتحذيرٌ أشدُّ التحذيـر من إبليس عدوِّ أبينا آدم وعَدُوِّنا، إذ المقصود من تصريف هذه القصة تأكيدُ العداوة بين إبليس وذرية آدم وأن كل فساد في الأرض إنما هو من عمـل إبليس وجنوده، وفي ذلك ذكر لمن كـان له قلب أو ألقى السمع وهـو شهيد. وقـد وصف الله تبارك وتعـالى خَلق آدم في هذه الصُّـوَر المشرقة المبثوثة في كتاب الله في هـذه المواضع السبعة بأنه خلقه من طين من صلصـال من حمإ مسنون، وذلك أن الله تبارك وتعالى قبض قبضة من تـراب الأرض وبلَّها بالماء فصـارت طينا ثم مرت عليهـا مدة حتى تحجرت فصـارت صلصالاً والصلصال هـو الطين المتحجر لأن الطين إذا طبخ بالنار سُمِّيَ فخَّارًا وإذا لم يطبخ بـالنار لكنه تُرِك حتى تحجر يسمى صلصالا، فقـوله تعـالى: ﴿خلق الإنسان مـن صلصال كالفخـار﴾ أي من طين تحجر حتى صار شبيها بالفخَّار وهو المطبوخ بالنار في تحجره وصلصلته إن قلنا: إنـه من صلصل بمعنى صوت وإن قلنـا: إنه من صَلَّ بمعنى تغير فإن الطين إذا مضت عليه مدة أَنْتَنَ واسْوَدَّ فيصير حمأً مسنونا أي أسودَ متغيرا له رائحة خاصة فإذا يَبِسَ وتحجر صار كالفخار، والطين اللازب هو اللاصقُ ويقال أيضـاً: لَزِبَ الطين إذا صَلُبَ. والسجود في قـوله تعالى للمـلائكة: ﴿اسجدوا لآدم﴾ قال القرطبي في تفسيره: واختلـف الناس في كيفية سجود الملائكة لآدم بعد اتفـاقهم على أنه لم يكن سجود عبادة فقـال الجمهور: كان هذا أمراً للملائكة بوضع الجبـاه على الأرض كالسجود المعتاد في الصلاة لأنه الظاهـرُ من السجود في العرف والشرع، وعلى هذا قيل: كـان ذلك السجود تكريما لآدم وإظهـارًا لفضله وطـاعة لله تعـالى وكان آدم كـالقبلة لنـا ومعنى لآدم: إلى آدم كما يقـال: صلى للقبلة أي إلى القبلـة. اهـ وأصل السجـود في كلام العـرب بمعنى التذلـل والخضوع قال ابـن فارس: سـجد إذا تطـامن، وكلُّ ما سَجَدَ فقد ذَلَّ. اهـ وقـال في القاموس: سَجَدَ خضع وانتصب ضِدٌّ

. اهـ وقال ابن منظور في لسان العرب: الساجدُ المنتصب في لغة طيء . اهـ
وقوله تعالى: ﴿فسجدوا إلا إبليس﴾ أي فسارع الملائكة ممتثلين أمر الله عز وجل إلا إبليس فإنه لم يسجد، وإبليس قيل هو مشتق من الإبلاس وهو اليأس من رحمة الله ومنه قوله عز وجل: ﴿فلما نَسُوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ أي آيسون من رحمة الله وإنما مُنِعَ من الصرف تشبيها له بالأسماء الأعجمية لأنه لا نظير له في أسماء العرب، وإبليس لم يكن من الملائكة وإنما كان من الجن، وكان له ذرية وليس للملائكة ذرية فهم لا يتناسلون، وقد نصَّ القرآن الكريم على ذلك في قوله عز وجل في سورة الكهف: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا﴾ ولا شك أن العرب يستثنون من المتصل ومن المنقطع فيقولون: قام القوم إلا زيدا فَيَسْتَثْنُون من الجنس إذ أن زيدا من جنس القوم، ويقولون قام القوم إلا حمارا فَيَسْتَثْنُون من غير الجنس وهو المعروف بالاستثناء المنقطع لأن الحمار ليس من جنس القوم، وهذا لا اختلاف فيه عند علماء العربية، ولم يثبت — ولله الحمد — خبر واحد عن رسول الله ﷺ أن إبليس كان من الملائكة. وقد وصف الله عز وجل الملائكة بأنهم: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ وقال عز وجل: ﴿يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الجن خلقوا من النار وأن الملائكة خلقوا من نور وقال الله تبارك وتعالى في شأن إبليس لعنه الله: ﴿قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ فهذه أدلة قطعية يقينية في أن إبليس لم يكن من الملائكة، وشمول الأمر له بالسجود في قوله عز وجل: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق من أمر ربه﴾ وإن

كان متوجها في اللفظ للملائكة فإنه من غير الممتنع في العقل واللسان أن يأمر الآمر أجناساً مختلفة ممن يُعْقَلُ توجُّهُ الأمر لهم ويكونَ اللفظ لأعلى هذه الأجناس قدرا، لأنه إذا أُمِرَ الأعلى بالعمل فإن دخول الأدنى تحت هذا الأمر من باب أولى، كما يشمل المُسَاوِيَ لو وُجِدَ كما قال رسول الله ﷺ للأنصار عندما أقبل سعد بن معاذ رضي الله عنه يوم قريظة: قوموا إلى سيدكم. والمقطوع به أن سعد بن معاذ رضي الله عنه كان سيد الأوس. كما كان سعد ابن عبادة سيد الخزرج رضي الله عنهم جميعاً. كما جاء في لفظ البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه يقول: نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ فأرسل النبي ﷺ إلى سعد فَأَتَى على حمار فلما دنا من المسجد قال للأنصار: قوموا إلى سيدكم أو خيركم. الحديث. وقوله عز وجل: ﴿أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ أي امتنع عن السجود لآدم واستعظم وقد سبق في علم الله أنه سيكفر ويصير شر خلقه، وفي هذا تنبيه وتحذير من خطر الكبر وشره ولذلك روى مسلم في صحيحه من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبْرٍ، قال رجلٌ: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حَسَناً ونعلُه حسنةً؟ قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكِبْرُ بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس. ومعنى بَطَرُ الحق أي دَفْعُهُ وردُّهُ، ومعنى غمط الناس أي احتقارهم وقد جرَّ هذا الكبرُ على إبليس الخزي والحسرة في الدنيا والآخرة فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إذا قرأ ابن آدم السجدة فَسَجَدَ اعتزل الشيطان يبكي يقول: يَا وَيْلَهُ — وفي رواية: يا وَيْلي — أُمِرَ ابنُ آدم بالسجود فسجد فله الجنةُ وأُمِرْتُ بالسجود فأبيتُ فَلِيَ النار. نعوذ بالله من إبليس ونفثه ونفخه وهمزه ولمزه.

قال تعالى: ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزجك الجنة، وكلا منها رغدا حيث شئتما، ولا تقربا هٰذه الشجرة فتكونا من الظالمين* فأزلَّهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌّ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين. فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم * قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا أولٓئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

إن الله تبارك وتعالى بعد أن حكى ما جرى بينه وبين الملائكة من أمرهم بالسجود لآدم تكريما له وامتناع عدو الله إبليس عن السجود لآدم عليه السلام غرورا واستكبارا وما حكم الله عز وجل به على إبليس، عطف على ذلك قصة أخرى من قصص تكريم آدم عليه السلام وحسد إبليس له لتكون ذريةُ آدم على أشد الحذر من عدو الله وعدوهم وعدو أبيهم آدم إبليس لعنه الله، وفي هذه القصة إشارة إلى أول الأوامر والنواهي التي صدرت من الله عز وجل لآدم عليه السلام في أول تكليف كَلَّفَهُ الله عز وجل به حيث قال عز وجل له: ﴿يا آدمُ اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هٰذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ ولا شك أن هذا الأمر إنما صدر من الله عز وجل لآدم بعد أن خلق الله له زوجه حواء، حيث خلقها من ضلع من أضلاع آدم عليه السلام ليسكن إليها كما قال عز وجل: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «استوصوا بالنساء خيرا، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه فإن ذَهَبْتَ تقيمُه كسرته، وإن تركتَه لم يزل

أعـوج ، فاستـوصوا بـالنساء خيرا» والظـاهر أن سجـود الملائكة لآدم وتَـأَبِّي إبليس لعنـه الله عن السجـود كـان قبل خلق حـواء وكان قبل أن يـؤمـر آدم وزوجُه بأن يسكنا الجنة ، ولا شك أن إبليس بعد تَأَبِّيه عن السجود طُردَ من رحمة الله ، فـامتـلأ حقـداً وحسداً لآدم عليـه السـلام ، وقـد أذن الله لآدم أن يسكن هو وزوجـه الجنة وأبـاح لهما ما في الجنة يأكـلان منه رغـدا حيث شاءا ونَهَاهُمَا عن الأكل من شجرة معينـة وحذرهما من إبليس ، غير أن حكمة الله البالغـة اقتضت أن يَنْسى آدمُ هذا التحـذير ، وأن يعمل إبليـس بما يستطيعه من وسوسـة ومن أَيْمَانٍ كاذبة بأنـه ناصح لآدم ولزوجـه حتى أكل آدم وزوجُه من الشجرة عن غير قصد وإنما عن نسيان كما قـال عز وجل : ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فَنَسِيَ ولم نجد له عزمـا﴾ وليس في القرآن أو في السنة النبوية مـا يدل على أن هـذه الوسـوسـة كانت في الجنـة ، وظـاهر القـرآن أن إبليس وسـوس لآدم وحواء قبل دخـول الجنـة لمجيء ذكـر الوسـوسـة بعـد قولـه : ﴿اسكن أنت وزوجك الجنـة وكـلا منهـا رغدا حيـث شئتما ولا تقربـا هٰـذه الشجـرة فتكونـا من الظالمين * فـأزلهما الشيطان عنهـا﴾ وفي سورة الأعـراف ﴿فوسـوس لهما الشيطان ليبدي لهما مـا وُورِيَ عنهما من سوءاتهما وقـال : ما نهاكما ربكما عن هٰذه الشجـرة إلا أن تكونـا ملكين أو تكونـا من الخالدين ﴾ وفي سـورة طه : ﴿فـوسوس إليـه الشيطان قـال يا آدم هل أدلك على شجـرة الخلد وملك لا يبلى﴾ وهـذ يفسر قوله : ﴿إلا أن تكـونا ملكين أو تكـونا من الخالـدين﴾ أي ما نهاكما ربكما عن الأكـل من هذه الشجـرة إلا لئـلا تكونـا ملكين أو لئلا تكـونا من الخالدين ، وأنكما لو أكلتما من هـذه الشجرة صرتما ملكين أو صرتما من الخالدين . كما قال : هـل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . والعرب تترك لا في كلامهـا أحيانا لدلالة السياق عليهـا كما قال عز وجل : ﴿ولا يأتل أُوْلواْ الفضل منكم والسعة أن يـؤتوا أولى القربى والمساكين

والمهاجرين في سبيل الله﴾ إذ المراد: أن لا يؤتوا أولى القربى الخ وكما قال عز وجل: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ فقد قال بعض أهل العلم بالتفسير والتأويل: المراد: وعلى الذين لا يطيقونه فدية طعام مسكين. وكما قال عز وجل: ﴿قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف﴾ أي قالوا تالله لا تفتأ تذكر يوسف لأن فَتِئَ وبَرِح لا تستعمل إلا منفية كما هو مقرر عند علماء اللغة العربية، وقد قال الشاعر:

فقلت يَمِينَ الله أبرح قاعدا ... وإن قطعوا رأسي لديك وأوصالي

أي لا أبرح قاعدا. والمقصود أن الله تبارك وتعالى لحكمته البالغة مكَّن إبليس من الوسوسة لآدم ليعرف بنوه أن إبليس حريص على حرمانهم من كل خير لعداوته لأبيهم آدم ولهم، وأنه كما حَرَصَ على إخراج آدم من الجنة فهو كذلك حريص على حرمان أبناء آدم من دخول الجنة كما قال عز وجل: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ قال القرطبي رحمه الله: في قوله تعالى ﴿اسكُن﴾ تنبيه على الخروج لأن السكنى لا تكون ملكا. اهـ. وقوله: ﴿وزوجك﴾ الزوج بغير هاء للأنثى هي لغة القرآن الكريم يقال لامرأة الرجل زوجُه ويقال لرجل المرأة زوجُها قال الأصمعي: ولا تكاد العرب تقول زوجة اهـ ولا شك أن كلمة زوجة وردت على لسان رسول الله ﷺ في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان مع إحدى نسائه فَمَرَّ به رجل فدعاه فجاء فقال: يا فلان هذه زوجتي فلانة. الحديث. والرغد هو الواسع من العيش الهنيء الذي لا يتعب صاحبه في تحصيله وقوله: ﴿حيث شئتما﴾ أي في أي مكان من الجنة أردتما. وقوله: ﴿ولا تقربا هٰذه الشجرة﴾ أي لا تَدْنُوَا منها واجْتَنِبَاهَا، ولم يصح عن رسول الله ﷺ خبر

في تعيين الشجرة التي نهى الله آدم عن الأكل منها، ولـو كان في تعيينها خير لَعَيَّنَها الله عز وجل وبينها، ومـا دام أن الله تبارك وتعالى لم يُبَيِّن نوع الشجرة، ولم يُبَيِّنه رسـول الله ﷺ فلا حـاجة إلى تَكَلُّـفِ تعيينها ولا إلى معـرفةِ نـوعها، وقولـه عز وجل: ﴿فـأزلهما الشيطان عنهـا﴾ أي فوسوس لهما الشيطـان حتى نسيا نصيحة الله لهما وأكلا من الشجرة، وقوله: ﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾ أي تسبب في إخراجهما من العيش الهنيء الـرغيد في الجنة، وقـد اقتضت حكمة الله أن يأكل آدم من الشجرة، والله يعلم أنه آكل منهـا لا محالة لأنه لا بد وأن يُسْكِنَه الأرض ويَعْمُـرَها هـو وذريته من بعـده ويجعل فيهم خيراً كثيرًا وعبادًا صالحين وأنبياء ومرسلين، والله قـد أعلم الملائكة قبل خلق آدم أنه جاعل في الأرض خليفـة، وإن كـان لا بـد من الابتلاء والامتحـان والاختبـار في هـذه الأرض، وقد كـانت الصورةُ الأولى لـلامتحان والابتـلاء أن يَنْهَى الله آدم عن الأكل من الشجرة وينسى آدم ذلك النَّهي ويأكل آدم منها، ليعود إلى الأرض كما قـال عز وجـل: ﴿منها خلقنـاكم وفيهـا نعيـدكم ومنها نخـرجكم تـارة أخرى﴾ وأكثـر السلف من هـذه الأمة المحمـدية على أن الجنة التـي قال الله لآدم: ﴿اسكن أنت وزوجك الجنـــة﴾ هي جنـة المأوى لأن الصفـــات التي وصف الله عـز وجل بها هـذه الجنـــة في قـولـه: ﴿إن لك ألا تجوع فيهـا ولا تعـرى* وأنك لا تظمأ فيهـا ولا تضحى﴾ تـدل على أنها جنـة النعيم كما أن الحديث الصحيح في قصة الشفاعة يوم القيـامة أن آدم يقول للذين طلبوا منه الشفـاعـة: وهل أخرجكم من الجنـة إلا خطيئـة أبيكم؟ وقـد ذهب بعض السلف إلى أنها جنة في مكان عـال من الأرض، والراجح عند أهل العلم أنها جنـة المأوى لما وصفتُ. فلو قـال قـائل: إذا كانت هي جنـةَ المأوى فكيف يخرج آدم منها، ومن سكن جنـة المأوى لا يخرج منها؟ فـالجواب هو أن من يسكن جنـة المأوى ولا يخرج منها هو مـن يدخلهـا جزاء على عمله الصـالح

بعد أن يقضي عمره في الدنيا إذا مات على دين الأنبياء والمرسلين وتفضل الله عليه بدخول الجنة فإنه لا يخرج منها ولا يتحول عنها؛ لأنها دار جزاء المتقين. أما كون آدم يسكنها قبل أن يعمل شيئا فهذا للامتحان والابتلاء والاختبار لتكون هذه الصورةُ ماثلةً أمام أعين ذريته دائما ليحذروا من طاعة الشيطان الذي أخرج أبويهم من الجنة. وقوله تعالى: ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌّ ولكم في الأرض مُستقر ومتاع إلى حين﴾ أي وأمرنا آدم وحواء و إبليس بالهبوط إلى الأرض وسكناها حالة كونهم متعادين يحمل إبليس وذريته العداوة لآدم وذريته كما قال عز وجل محذراً بني آدم من إبليس وذريته: ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا﴾ ومعنى: ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ أي ولكم في الأرض منازل ومساكن تستقرون فيها وتستمتعون بما أخرجت لكم منها وما جعلت لكم فيها من المعاشِ والرياش والزينة والملاذ إلى انقضاء آجالكم في الحياة الدنيا، وقوله: ﴿فتلقى آدم من ربه كلماتٍ فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾ أي فَأَلْهَمَ الله عز وجل آدم كلمات يعتذر بها إلى الله فاعتذر هو وزوجه إلى الله عز وجل وقالا: ربنا ظلمنا أنفسنا و إن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين، فتاب الله عليه واجتباه وهداه. وقوله عز وجل: ﴿قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدًى فمن تَبعَ هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولَئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي أمرنا آدم وحواء عليهما السلام بالهبوط إلى الأرض بما اشتملا عليه من الذرية، وأعلن الله عز وجل أنه سيرسل إلى بني آدم الرسل ويُنْزل الكتب لتكون نبراسا للناس يهتدون بمنارها، وأن من اتبع هدى الله عاش عزيزاً ومات سعيداً ورجع إلى الجنة لا يخرج منها ولا يتحول عنها، ومن كفر بالله وكتبه ورسله وحارب هُدَى الله الذي أرسلت به الرسل وأنزلت

به الكتب فهو من أهل النار الملازمين لها الـذين لا يتحولـون عنها مـا داموا ماتوا على الكفر. والخوف غم يَلْحَقُ الإنسان مـن توقع أمر يؤذيه في المستقبل والحزن غم يلحقه من فوات أمر في الـزمن الماضي. وقد ذكر الله تبارك وتعالى قصة أمره لآدم وزوجه بأن يسكنا الجنة ولا يـأكلا من الشجرة المعينة وما كان من إبليس ومن آدم وزوجـه وما أهبطهم الله بسببه إلى الأرض في مـواضع من كتابه الكريم مُوجَزَةً ومطنبة ومُسَاوِيةً حسب مقتضيات الأحوال حيث يقول في سورة الأعراف: ﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هٰذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هٰذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونـا من الخالدين * وقاسمهما إني لكما لمن النـاصحين* فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ونـاداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقـل لكما إن الشيطان لكما عـدو مبين * قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفـر لنا وترحمنا لنكونَنَّ من الخاسرين * قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين * قال فيها تحيون وفيهـا تموتون ومنها تخرجون﴾ وقال في سورة طـه: ﴿فوسوس إليه الشيطـان قال يـا آدم هل أدلك على شجرة الخلـد وملك لا يبلى* فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقـا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فَغَوَى * ثم اجتباه ربـه فتاب عليه وهدى * قال اهبطـا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإمـا يأتينكم مني هدًى فمن اتَّبَعَ هُـداي فلا يضل ولا يشقى* ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: خير يوم طلعت فيه الشمس يومُ الجمعة فيه خلق آدم وفيه أُدخل الجنة وفيـه أخـرج منهـا. وفي هـذا الحديث دليل صريح على أن آدم خلق خـارج الجنة.

قـال تعالى: ﴿يـا بني إسرائيل اذكـروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفـوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون * وآمنوا بما أنزلت مصدقًا لما معكم ولا تكونوا أول كـافر به ولا تشتروا بآيـاتي ثمنا قليلا وإياي فـاتقون * ولا تلبسوا الحق بـالباطل وتكتمـوا الحق وأنتم تعلمون * وأقيمـوا الصلاة وآتـوا الزكـاة واركعوا مع الراكعين﴾

قد كـان الكلام من قـوله عز وجل: ﴿يـا أيها الناس اعبـدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ إلى هذا المقام من القرآن الكريم في دعـوة الناس عمـوما إلى إخـلاص العبادة لله وحـده، وبيان نعمـه عليهم، ومواقفهم من دعوة الله عز وجل، وبيـان خَلْق آدم وتكريمه، وحسد إبليس له، ومـا جرى بسبب ذلك شرع هنـا في توجيه الخطـاب لبني إسرائيل حيثُ دعاهم إلى ذكـر نعمة الله عليهم، وقـد استمر الخطـاب مع بني إسرائيل من هذه الآيـة الأربعين من سورة البقرة إلى الآيـة السابعـة والأربعين بعد المائة من هذه السورة الكريمة حيث قال عز وجل: ﴿ الـذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فـريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون * الحق من ربك فـلا تكونَـنَّ من الممترين﴾ قال ابن جُـزَيّ الكلبي في تفسيره: لماَّ قـدَّم دعوة النـاس عموما وذكر مبـدأهم دعا بني إسرائيل خصوصـا وهـم اليهود، وجَرَى الكـلامُ معهم من هنـا إلى حزب: ﴿سيقـول السفهاء﴾ فتارةً دعـاهـم بالملاطفة وذكَـر الإنعام عليهم وعلى آبائهم، وتارةً بالتخويف، وتـارةً بإقامة الحجة وتوبيخهم على سـوء أعمالهم وذَكَر عقوباتهم التي عـاقبهم بها، فَذَكَر من النعم عليهم عشرة أشيـاء وهي: إذ نَجَّيناكـم من آل فرعـون، وإذ فَرَقْنَـا بكم البحر، وبَعَثْنَاكم من بعد موتكم، وظَلَّلْنا عليكم الغمام، وأنزلنا عليكم المن والسلوى، وعفونا عنكم، ونغفر لكم خطـاياكم، وآتينا موسى الكتاب

والفـرقان لعلكم تهتـدون، وانفجـرت منه اثنتـا عشرة عينـا، وذكر من سـوء أفعالهم عشرة أشيـاء: قولَهم سمعنـا وعصينا، واتخذتم العجل، وقـولهم أرنا الله جهـرة، وبـدَّل الذيـن ظلموا، ولن نصبر على طعـام واحـد، ويحرفـون الكلم، وتـوليتم من بعـد ذلـك، وقست قلـوبكم، وكفـرهم بـآيـات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حـق، وذكر من عقوبتهم عشرةَ أشيـاءَ: ضربت عليهم الذلـة والمسكنة، وباءوا بغضب من الله، ويُعطوا الجزيـة، واقتلوا أنفسكـم، وكونـوا قردة، وأنزلنا عليهم رجـزا من السماء، وأخذتكم الصاعقـة، وجعلنا قلوبهم قاسيـة، وحرمنا عليهم طيبات أحلت لهم. وهذا كُلُّـه جَرَى لآبائهم المتقـدمين وخُـوطِبَ بـه المعاصرون لمحمـد ﷺ لأنهم مُتَّبِعُـون لهم، راضُـون بأحوالهم، وقد وبَّخَ الله المعاصرين لمحمـد ﷺ بتوبيخات أُخَرَ وهي عشرة: كتمانهم أمر محمد ﷺ مع معـرفتهم به، ويُحرفون الكلم، ويقولـون: هذا من عند الله، وتقتلـون أنفسكم، وتُخرجون فريقا منكم من ديـارهم، وحِرْصُهُم على الحياة، وعـداوتُهم لجبريل، واتِّبَاعُهـم السحر، وقولهم نحـن أبناء الله، وقـولهم يد الله مغلولة. اهــ. وإسرائيل هو يعقـوب بن إسحاق بن إبـراهيم عليهم السلام. ومعنى إسرائيل عبـدالله قال ابن جـرير الطبريُّ وغيرُه: إيل هـو الله وإسرا هـو العبد. اهـ والتعبير بقـولـه: يـا بني إسرائيل لحضهم على الطـاعة والامتثـال والمسـارعة إلى الـدخـول في دين الله الـذي بعث به عبـده ورسوله محمـدًا ﷺ وكأنه يقول لهم: يا أبنـاء العبد الصالح والرسـول الكريم يعقوب سـارعوا إلى الإيمان بمحمد رسـول الله ﷺ وكونـوا مثل أبيكم يعقوب في متابعـة الحق والإقرار بالإسلام الـذي وصَّى به يعقوب بنيـه عند الموت كما وصَّى به أبو الأنبياء خليل الرحمن بنيه كذلك كما قال الله عز وجل: ﴿ووصَّى بها إبراهيمُ بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تَمُوتُنَّ إلا وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوبَ الموتُ إذ قال لبنيه ما تعبدون من

بعدي قالوا: نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون﴾ وقد أمر الله عز وجل بني إسرائيل هنا بثمانية أمور ونهاهم عن أربعة أمور، فقد أمرهم بأن يذكروا نعمة الله التي أنعم عليهم، وأن يُوفُوا بعهد الله، وأن يَرْهبوا الله وحده دون سواه وأن يؤمنوا بالقرآن الذي أنزله الله مصدقا لما يعلمونه من وصايا أنبيائهم ورسلهم، وأن يتقوا الله وحده ليحرزوا أنفسهم من النار، وأن يقيموا الصلاة وأن يؤتوا الزكاة وأن يركعوا لله عز وجل مع الراكعين أتباع محمد ﷺ وقد نهاهم أن يكونوا أول كافرٍ بالقرآن وأن يشتروا بآيات الله ثمنا قليلا وأن يلبسوا الحق بالباطل، وأن يكتموا الحق وهم يعلمون. وقوله عز وجل: ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ أي لا تَنْسَوْا نِعَمَ الله التي أنعم بها على آبائكم وامتدت آثارها إليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين، وخَلَّصَ بني إسرائيل من العذاب المهين من فرعون وقومه، ومن التمكينُ لهم في الأرض وتفجير عيون الماء من الحَجَر، وإطعامِهِم المنَّ والسلوى، وقَوْلُهُ تعالى: ﴿وأوفواُ بعهدي أوف بعهدكم﴾ أي وأدُّوا ما في ذمتكم من العهد ليثيبكم الله على ذلك بما وعدكم به في قوله تعالى: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرنَّ عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل﴾. فَمِنَ العهد الذي أخذه الله على بني إسرائيل أن يسارعوا إلى الإيمان بمحمد ﷺ ويؤيدوه وينصروه وَيبْذُلُوا أموالهم في سبيل نشر الإسلام، وقوله عز وجل: ﴿وإيايَ فارهبونِ﴾ يُشْعر بجملتين كأنه قال: إياي ارهَبُوا فارهبونِ أي إياي خافوا واخشوا أن تَحِلَّ بكم عقوبة جبار السموات والأرض، والرَّهبةُ خوف معه تَحَرُّزٌ، وَيَتَضَمَّنُ الأمر به معنى

التهديد، وقوله عز وجل: ﴿وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم﴾ أي وصَدِّقُوا بالقرآن الذي أنزلت على محمد ﷺ المشتمل على الحق المصَدِّق لما بين يديه من التوراة، ففي تصديقه تصديق للتوراة وفي تكذيبه تكذيب للتوراة إذ هو مطابق لها في القصص الحق والدعوة إلى توحيد الله والأمر بعبادته وحده لا شريك له، والعدل بين الناس والنهي عن المعاصي والفواحش، والإقرار برسالة الرسل وبالبعث بعد الموت وبالجنة والنار وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ يعني: ولا تصيروا أسرع الناس إلى تكذيبه فإن وظيفتكم واللائق بكم أن تكونوا أول من آمن به لما أنكم تعرفونه كما تعرفون أبناءكم وقد كنتم تستفتحون به على الأوس والخزرج قبل مجيئه وتبشرون بزمانه وتعدون بنصرته، وليس المراد أنهم أولُ الكفار على الاطلاق لما عُلِمَ بالضرورة أن كفار قريش أسبق منهم بالكفر لكنهم يكونون أسبق الناس إلى الكفر بالكتاب الذي جاء مصدقاً لما معهم، وقوله عزل وجل: ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلاً﴾ أي ولا تعتاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها من حب الرياسة وجمع الحطام فإن جميع ما في الدنيا من متاع لا يساوي شيئا من حُظوظ الآخرة وجنات النعيم، وقوله عز وجل: ﴿وإياي فاتقون﴾ أي وإياي خافوا فاحذروا أن تحل بكم عقوبتي ولا تَخْشَوْا أحدًا غيري فإن حياتكم وموتكم ونفعكم وضركم بيدي وقوله تعالى: ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾ أي ولا تخلطوا الحق المُنَزَّل من الله بالباطل الذي تَفْتَرُونَه على الله مما تكتبونه بأيديكم وتقولون هو من عند الله وما هو من عند الله، ولا تكتموا الحق الذي تعرفونه من كتبكم غير المحرفة في وصف محمد ﷺ، وأنتم تعلمون في قرارة أنفسكم أن محمدا رسول الله وأن دينه هو الدين الحق. وقوله تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾ أي وسارعوا إلى الانضمام والدخول تحت لواء محمد رسول الله ﷺ

والالتزام بشريعتـه في الصلاة والزكـاة واحرصوا على صـلاة الجماعة فإن ذلك يجلب لكم خير الـدنيـا والآخـرة، هـذا وفي أمـر بني إسرائيل بـالـركـوع مع الراكعين لفـت انتباه المسلمين إلى الحرص على الجماعـة، وقد أكـد رسول الله ﷺ ذلك فقـد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما مـن حديث عبـدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قال: صلاة الجماعـة أفضل من صلاة الفذِّ بسبع وعشريـن درجة. كما روى البخاري ومسلم واللفـظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: صلاةُ الرجل في جماعة تضْعُفُ على صـلاته في بيته وفي سـوقه خَمْسـاً وعشرين ضِعْفاً وذلـك أنه إذا توضأ فأحسن الوُضُوء ثم خرج إلى المسجد لا يُخْرجه إلا الصلاة لم يَخْطُ خَطْوَةً إلا رُفِعَتْ له بها دَرَجة وَحُطَّتْ عنه بها خطيئةٌ فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مُصلاه ما لم يُحْدِثْ تقول: اللهم صل عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال في صـلاة ما انتظـر الصلاة. كما روى البخاري ومسلـم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال: والذي نفسي بيده لقد هَمَمْتُ أن آمُرَ بِحَطبٍ فَيُحْتَطَبَ ثم آمُرَ بالصلاة فَيُـؤَذَّنَ لها ثم آمُرَ رجلا فَيَؤُمَّ الناس ثم أخالف إلى رجال فَأحَرِّقَ عليهم بُيُـوتَهم. كما روى أبو داود بإسناد حسن عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقـول: ما مِن ثلاثة في قرية ولا بَدْوٍ ولا تُقَامُ فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليكم بالجماعـة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصيـة. كما روى مسلم في صحيحه عن عبـدالله بن مسعود رضي الله عنـه قال: من سرَّه أن يلقى الله غـدا مسلما فليحـافظ على هـؤلاء الصلـوات حيث يُنـادَى بهنَّ فإن الله شرع لنبيكم سُنَنَ الهُدَى وإنهن من سُنَن الهُدَى ولـو أنكم صليتم في بيـوتكـم كما يصلي هـذا المتخلف في بيته لتركتم سنـة نبيكم ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم ولقـد رَأَيْتُنَا وما يتخلف عنها إلا منافق معلومُ النفاق ولقد كان الرجل يؤتى به يُهَادى بين

الـرجلين حتى يُقَـامَ في الصف . بل قـد أشـار رسـول الله ﷺ إلى أن اعتيـاد المساجـد من أمارة الإيمان فقـد روى الترمذي بسنـد حسن أن رسول الله ﷺ قال : إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فـاشهدوا له بالإيمان قال الله عز وجل : ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشَ إلا الله فَعَسَى أولَئك أن يكـونوا من المهتدين﴾ بـل جعل رسول الله ﷺ كثرة الخُطـا إلى المساجـد بأنها رِبَاطٌ في سبيـل الله وأن الله يرفع بها الـدرجات ويمحو بها الخطايـا فقد روى مسلم في صحيحه من حديـث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ألا أدلكم على ما يمحـو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ! قالوا : بَلَى يا رسـول الله قال : إسباغ الوُضوء على المكاره وكثرةُ الخُطَـا إلى المساجـد وانتظـار الصـلاة بعد الصـلاة فـذلكم الربـاط فـذلكم الرباط .

قال تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون * واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين * الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون﴾

قد وصف الله تبارك وتعالى هنا رؤساء بني إسرائيل المعاصرين لرسوله وحبيبه محمد ﷺ بأنهم يأمرون الناس بالبر ويَنْسَوْن أنفسهم فلا يحملونها على البر حالة كونهم يقرءون التوراة ويعلمون عقوبة الله عز وجل لمن نهى عن المنكر وهو يفعله، ويأمر بالمعروف وهو لا يفعله، وهذا من أبرز الأدلة على أن صاحب هذه الصفة غير متصف بالعقل إذ لو كان له عقل ما حذَّر الناس من الشر ووقع فيه، والاستفهام في قوله عز وجل: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتَنْسَوْن أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب﴾ للتوبيخ والتقريع والإنكار، ومدار التوبيخ والإنكار والتقريع هو ما تدل عليه الجملة الثانية من هذه الجمل الثلاث وهو نسيان أنفسهم من البر، فالجملة الأولى من الجمل الثلاث وهي: أتأمرون الناس بالبر ليست محلَّ توبيخ فإن أمر الناس بالبر من أحسن ما يتقرب به العبد إلى الله عز وجل، والجملة الثالثة وهي قوله: ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ ليست محل تقريع وتوبيخ لذاتها فإن تلاوة كتاب الله عز وجل من أفضل ما يتقرب به العبد إلى الله عز وجل كذلك، فالتقريع والتوبيخ والإنكار مُنْصَبٌ على أن يَحْرِمَ الإنسان نفسه من البر في الوقت الذي يرشد فيه الناس إلى عمل البر وفي الوقت الذي يقرأ فيه كتاب الله وما فيه من الوعيد الشديد على أن يكون قولُ الإنسان مخالفا لفعله إذ أن ذلك من أشد ما يمقت الله عز وجل الناس عليه كما قال تبارك وتعالى في كتابه الكريم: ﴿كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ والبر اسمٌ جامع لجميع أنواع الخير والطاعات وهو يشمل البر في طاعة الله وطاعة رسله كما

يشمل البِرَّ في معاملة الأقارب، والبرَّ في معاملة الأجانب، وقد بيَّن الله تبارك وتعالى أنواع البر في قوله عز وجل: ﴿ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، وأقام الصلاة وآتى الزكاة، والمُوفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، أولَئك الذين صَدَقُوا وأولَئك هم المتقون﴾ وكما ختم هذه الآية الكريمة بما يفيد أن ثمرة البر الصدق والتقوى حتى حصر البرَّ في التقوى في قوله عز وجل: ﴿ولكنَّ البرَّ من اتقى﴾ وأشار رسول الله ﷺ إلى أن ملازمة الصدق تهدي إلى البر، وأن البِرَّ يهدي إلى الجنة، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يُكتبَ عند الله صديقا، وإن الكَذِبَ يهدي إلى الفجور وإن الفُجُورَ يهدي إلى النار وإن الرجل لَيَكْذِبُ حتى يكتب عند الله كَذَّابا. ومن أبرز سمات البررة أنهم يأمرون بالمعروف وينهَون عن المنكر كما قال الله عز وجل: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولَئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾ وقوله عز وجل: ﴿وتَنْسون أنفسكم﴾ أي وتتركون أنفسكم فلا تحملونها على الخير، ولا تسلكون بها سبيل السلام والنجاة، حيث تأمرون الناس بما فيه مرضاة الله وطاعته وأنتم مقيمون على معصيته سادرون في غيكم وضلالكم وتكذيبكم لمحمد رسول الله ﷺ الذي تعلمون صفته من كتبكم وتعرفونه كما تعرفون أبناءكم، وقد بيَّن رسول الله ﷺ مآل من يأمر بالمعروف ولا يفعله وَيَنْهَى عن المنكر وهو يفعله. فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أسامة بن زيد رضي الله

عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقـول : يُؤْتَى بالرجل يـوم القيامة ، فَيُلْقَى في النار فتنـدلق أقتابُ بطنه ، فَيَدُورُ بها كما يـَدُور الحمارُ في الرَّحَى ، فيجتمع إليه أهلُ النار، فيقولون : يا فلانُ ! مَالَكَ ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بَلَى كنتُ آمُرُ بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه . وفي رواية لمسلم من حـديث أسامة رضي الله عنه أنه سمـع رسول الله ﷺ يقول : يُجَاءُ بالرجل يوم القيامة فَيُلْقَى في النار، فَتَنْدَلق أقتابه ، فيدور كما يدور الحمارُ برحاه ، فَيَجْتَمِعُ أهلُ النار عليه ، فيقولون : يا فلان : ما شأنك ؟ أَلَيْسَ كنتَ تأمر بـالمعروف وتنهى عن المنكـر ؟ فيقول : كنتُ آمُـرُكمْ بالمعـروف ولا آتيه . وأنهاكم عن الشر وآتيــه ، ومعنى : تنــدلق أي تخرج سريعــا والأقتــاب : الأمعاءُ ، وما أحْسَنَ قول أبي الأسود الدؤلي رحمه الله :

تصف الدواء لـذي السقام وذي الضَّنَى ... كيما يصحَّ بـــــه وأنـت سقيـم
لا تنــــه عـن خُلُق وتـأتي مثلـــه ... عـــــارٌ عليك إذا فعلت عظيـم
وابـــدأ بنفسك فـانهها عن غيِّهــا ... فإذا انتهـت عنـــه فأنـت حكيم
فهنـــاك يُقْبَلُ مـــا تقـول ويهتــدى ... بـــالقـــول منك وينفـعُ التعليم

وقولـه تعالى : ﴿وأنتم تتلـون الكتاب﴾ أي وأنتم يـا أحبار اليهـود تقرءون التـوراة وتعرفـون أن محمدا رسـول الله ، ولا تسارعـون إلى الإيمان به وتأييـده ، وهذا توبيخ وتقريع وتبكيت لمن عَلِمَ شيئا من العلم ولم يعمل به وأن الجاهل الذي لم يَدْرُسْ ولم يَعْلَمْ خير منـه ، وقوله تبارك وتعـالى : ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أذَهَبَتْ عقولكم فلا تفقهون ولا تفهمون؟ وهل ترضون أن تكونوا كالحيوانات العجماوات والحمير التي تحمل الأسفار والكتب ولا تعى مـا تحمل ولا تدري عما فوق ظهـرها ؟ وقد انطبق على هؤلاء قـوله عز وجل : ﴿مثل الـذين حملوا التوراة ثم لم يحملوهـا كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الـذين كذبوا بـآيـات الله والله لا يهدي القـوم الظـالمين ﴾ والعقل في الأصل هــو المنع

والإمساك ومنه العقال الذي يُشَدُّ به وَظيفُ البعير إلى ذراعه لحبسه عن الحرَاك وفي الاصطلاح هو لطيفة ربانيـة أودعها الله عز وجل في قلب الإنسان ليُميِّز بها بين الخير والشر والنافـع والضار وبها يمتاز الإنسـان عن سـائر الحيوان، وسميت هذه اللطيفة عقلا لأنها تَحْجُر الإنسان وتحبسه عن تعاطي ما يَقْبُح، وتَعْقِلُه على ما يَحْسُنُ ومحلها القلبُ وشُعَاعُهَا متصل بالدماغ كالنور المنعكس بالمرآة، وإذا فَقَد الإنسـان عقله صار أَخَسَّ الحيوانـات ولذلك حرَّم الله على الإنسـان كلَّ ما يُنْقِصُ العقـلَ أو يزيلـه، وقـد وصف الله عز وجل الكفـار بقوله: ﴿لهم قلوبٌ لا يفقهون بها﴾ وقال عز وجل: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكـون لهم قلـوب يعقلـون بها أو آذان يسمعـون بها فإنها لا تعمى الأبصـار ولكن تعمى القلوبُ التي في الصدور﴾ وقولـهُ عز وجل: ﴿واستعينوا بالصبر والصـلاة﴾ أي واطلبـوا المعـونـة على أموركـم ومنها الـوفـاءُ بعهـدي الـذي عاهـدتموني في كتابكم من طاعتي واتبـاع أمري والإيمان برسـولي محمد ﷺ، وتـرك مـا تحرصـون عليـه من الـريـاسـة والشهـوات التي تحول بينكم وبين الإسلام، والصبر في الأصل هو منع النفس عن شر محابِّها وكفها عن هواها، وبالصبر واليقين تُنـالُ الإمامة في الـدين، ولذلك يقول الله عـز وجل: ﴿إنه من يتق ويَصْبِرْ فإن الله لا يضيع أجـر المحسنين﴾ والاستعانـة بالصـلاة من أعظم العَوْنِ على القيام بأمـر الله والوفاء بعهد الله ولذلك أمـر الله رسوله ﷺ بـالصبر والصـلاة لـلاستراحـة من أذى المشركين حيث يقـول عـز وجل: ﴿فاصبر على مـا يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلـوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى﴾.

وقد كرَّرَ الله عز وجل أمر بني إسرائيل بـالصلاة في هذا المقام حيث قال: ﴿وأقيموا الصلاة وآتو الزكـاة﴾ ثم قال: ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ أي وصلوا مع المصلين من أمة محمد ﷺ، وإنما عبرَّ عن الصلاة بالركوع لتنبيه اليهود إلى

أن صلاتهم التي يصلونها لا قيمة لها لأنهم كانوا لا يركعون في صلاتهم، فَبَيَّنَ لهم أن الصلاة المعتبرة النافعةَ هي صلاة المسلمين التي من أهم أركانها الركوع، ثم قال هنا: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾. وقوله عز وجل: ﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ أي وإن الصلاة لثقيلة إلا على الخاضعين لله عز وجل، الخائفين سطوته، المتواضعين المستكينين المتذللين لله عز وجل، ولا شك أن الصلاة يفرح بها المؤمنون وهي عليهم سهلة يسيرة، ويَسْتَثْقِلُهَا المنافقون ولا سيما صلاة الفجر وصلاة العشاء فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ليس صلاةٌ أثقلُ على المنافقين من صلاة الفجر والعشاء ولو يعلمون ما فيهما لَأَتَوْهُمَا ولو حَبْوًا. وقوله عز وجل: ﴿الذين يظنون أنهم مُلَاقُواْ رَبِّهِم وأنهم إليه راجعون﴾ هو وصف للخاشعين الذين يُحِبُّون الصلاة ويفرحون بها ويستريحون بأدائها أي الذين يعلمون أنهم محشورون إلى الله يوم القيامة وموقوفون بين يديه ومسئولون عن أعمالهم إذ أن من أيقن بالمعَاد والجزاء سَهُل عليه فِعْلُ الطاعات وترك المنكرات. فقوله ﴿يظنون﴾ أي يتوقعون لقاء الله وأن مصيرهم ورجوعهم إليه أو يتيقنون ذلك قال ابن جرير الطبريُّ رحمه الله: إنَّ العربَ قد تُسمي اليقين ظنا والشَّكَّ ظنا، نظير تسميتهم الظُّلْمَةَ سدفة والضياء سدفة والمُغِيثَ صارخا، والمستغيثَ صارخاً، وما أشبه ذلك من الأسماء التي تُسَمِّي بها الشيء وضدَّه ومما يدل على أنه يُسَمَّى به اليقين قولُ دُرَيد بن الصِّمة:

فقلت لهم ظُنُّوا بألْفَيْ مُدَجَّج سَرَاتُهُمُوا في الفارسِيِّ المُسَرَّدِ

يعني بذلك تيَقَّنُوا ألْفَيْ مُدَجَّجٍ تأتيكم، وقولُ عُمَيْرَةَ بن طارق:

بأن يَعْتَزُوا قَوْمِي وأقعد فيكموا وأَجْعَلُ مني الظَّنَّ غَيْباً مُرَجَّمَا

يعني: وأجعل مني اليقين غيبا مُرَجَّماً. والشواهد من أشعار العرب

وكـلامِها على أن الظـنَّ في معنى اليقين أكثر من أن تُحْصَـى، وفيما ذكرنـا لمن وُفِّقَ لفهمه كفاية، ومنه قول الله جل ثناؤه: ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مُوَاقِعُـوها﴾. اهــ وقد استشهـد العلماءُ كذلك على أن الظن هنـا على معنى اليقين بقـوله تبـارك وتعالى: ﴿إني ظننت أني مـلاق حسابيـه﴾ أي علمتُ، وقول ابن جرير: تسميتهم الظلمةَ سدفة والضياءَ سدفة قال الفيروزآبادي في القامـوس المحيط: (السَّدْفـةُ) ويُضَمُّ الظُّلْمَةُ تميميـةٌ والضَّوْءُ قَيْسِيَّـةٌ ضدٌّ ثم قال: والسَّدَفُ مُحَرَّكَةً الصُبحُ و إقبالُه وسوادُ الليل كالسُّدْفة اهـ ولا شك عند أهل العلم أن من شكَّ في لقـاء الله فهـو كـافر، ولا ينفع في هـذا البـاب إلا الإيمان واليقينُ، فقد روى مسلم في صحيحـه، من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: أَشْهَـدُ أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يَلْقَى الله بهما عبدٌ غَير شَاكٍّ فيهما إلا دخل الجنة.

قال تعالى: ﴿يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين * واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون﴾.

كرر الله تبارك وتعالى هنا نداءه لبني إسرائيل بقوله عز وجل: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ في الآية الأربعين من هذه السورة وأردف هذا النداء هناك بقوله: ﴿وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم وإياي فارهبون﴾ وأردف هذا النداء هنا بقوله عز وجل: ﴿وأني فضلتكم على العالمين﴾ وكرر هذا بعينه في الآية الثانية والعشرين بعد المائة من هذه السورة حيث قال: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين﴾ وقد أردف الآية الأولى بقوله: ﴿وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم وإياي فارهبونِ﴾ وأردف الآية التي هنا بقوله عز وجل: ﴿واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون﴾ وأردف الآية الثانية والعشرين بعد المائة بنفس المعنى الذي أردف به الآية التي هنا وإن تفاوتت العبارة حيث قال هناك: ﴿واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يُقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾ وهذا التكرير بهذه المثابة هو أحد معاني كون القرآن متشابها مثاني حيث يقول الله عز وجل في وصفه: ﴿الله نـزَّل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جُلُودُ الذين يَخْشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذُلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فماله من هاد﴾ إذ معنى كونه متشابها أي يشبه بَعْضُه بعضا في البلاغة والفصاحة والصدق والإحكام والإتقان واستتباع منافع الخلق في المعاش والمعاد، ومعنى كونه: ﴿مثاني﴾ أي يردد المعنى ويكرره في مقامات متباعدة دون أن يلحقه تناقض أو

اختلاف، بحسب مقامات الأحوال، مع اشتماله على القصص الحق، والإيفاء بالقصد والتأكيد على المعاني التي تَرد في هذا التكرير، ولما كان بنو إسرائيل قبل مجيء الإسلام يعتبرهم العرب المشركون أفضل منهم لأنهم أهل كتاب وإن كانت قريش وغيرها من العرب والأوس والخزرج بخاصة كانوا يرون أن اليهود والنصارى مقصرون في القيام بشريعة أنبيائهم فكانوا يقسمون بالله جَهْد أيمانهم لو جاءهم منذرٌ دون موسى ودون عيسى لسارعوا إلى الإيمان به وصاروا أسعد به من اليهود والنصارى، وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونُنَّ أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا * استكبارا في الأرض ومَكْرَ السَّيِّئ ولا يَحِيق المكرُ السَّيِّئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾ فهم كانوا يَتَمَنَّوْنَ نذيرا أيَّ نذير فلما جاءهم شيخ المُنذرين وسيد المرسلين محمد ﷺ ما زادهم مجيئه إلا نفورا، فبين الله عز وجل أن بني إسرائيل لم يعرفوا نعمة الله عليهم، إذ لو عرفوها لسارعوا إلى الإيمان بمحمد ﷺ. وتكرير ندائهم بقوله: ﴿يا بني إسرائيل﴾ للَفت الانتباه إلى بلادة مشاعرهم وقصور أحاسيسهم، إذ لو كانوا ذوي فَهْم وعقل رشيد ما احتاجوا إلى هذا التكرير، أمَّا مَا وَصَفَهُم الله عز وجل به من أنه فضلهم على العالمين فقد أشار الله عز وجل إلى المقصود منه في غير موضع من القرآن الكريم حيث يقول: ﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين﴾ فلم يُعْرَفْ شَعْبٌ من الشعوب ولا أمة من الأمم تكاثرت فيها الأنبياء والملوك كبني إسرائيل، فقد كانوا تسوسهم الأنبياء كلما مات نبيٌّ بعث الله لهم نبيا آخر كما جاء في رواية البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هَلَكَ نبيٌّ خَلَفَهُ نبيٌّ وإنه لا نبيَّ

بعدي . الحديث . ولذلك ذكرهم موسى عليه السلام بهذه المزية التي فُضِّلوا بها على العالمين كما حكى الله عز وجل ذلك في قوله : ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدًا من العالمين﴾ كما أنزل الله عليهم المنَّ والسلوى، ولا شك أن المراد بالعالمين في قوله : ﴿وأني فضلتكم على العالمين﴾ هم عَالَمو زمان آبائهم قبل تحريفهم للكلم من بعد مواضعه والعالمون جمع عالَم والعالَم جمعٌ لا واحد له من لفظه كالأنام والرهط والجيش ، والعالَم اسم لكل صنف من أصناف الأمم والمخلوقات ، فالإنس عالَم ، وكلُّ أهلِ جيل منهم عالَم ذلك الزمان ، والجن عالَم ، وكذلك سائر أجناس الخلق كلُّ جنس منها عالَم ، كالطير وكلُّ نوع منه عالم ، وسائر الحيوانات كل نوع منها عالم ، وكذلك الحشرات كعالَم النمل وعالَم النحل وعالم الذباب وعالَم البعوض وسائر أجناس وأصناف وأنواع المخلوقات ، فقوله عز وجل : ﴿فضلتكم على العالمين﴾ لَفْظُهُ لفظُ العموم والمراد به الخصوص كالناس في قوله عز وجل : ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم﴾ فالمراد به الخصوص وإن كان اللفظ للعموم ، ولا شك أن أمة محمد ﷺ أفضلُ من بني إسرائيل لقوله عز وجل : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ وخير أمة محمد ﷺ قَرْنُهُ ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم . وقوله عز وجل : ﴿واتقوا يوما﴾ أي واخْشَوْا يوما واستعدوا له والمراد به يوم القيامة كما قال عز وجل : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوْا يوما لا يجزي والدٌ عن ولده ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ والمقصود من اتقاء اليوم هو الخوف من أهواله وعظائمه إذ هو يومٌ يجعل الولدان شيباً كما قال عز وجل : ﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيباً﴾ وكما قال عز وجل : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم

ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كلُّ ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولٰكن عذاب الله شديد﴾ وقوله : وما هم بسكارى أي ما شربوا خمرا ولا تعاطَوْا مسكراً في هذا المقام ولكنها أهوال يوم الدين نسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العُلَى أن يلطُف بنا فيه وأن يعاملنا بفضله وإحسانه وجُودِه. وقد وصف الله تبارك وتعالى قولَه ﴿يوما﴾ بأربع صفات في أربع جمل : الأولى : ﴿لا تجزي نفس عن نفس شيئاً﴾ والثانية قوله : ﴿ولا يقبل منها شفاعة﴾ والثالثة قوله : ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾ والرابعة قوله : ﴿ولا هم ينصرون﴾ ومعنى قوله : ﴿لا تجزي نفس عن نفس شيئا﴾ أي لا يغني فيه أحد عن أحد كما قال عز وجل : ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾ وقال : ﴿ لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا﴾ وإذا كان الوالد والولد لا يغني أحدهما عن الآخر يوم القيامة شيئا فما بالك بغيرهم؟ وكما قال عز وجل : ﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ولا يقبل منها شفاعة﴾ أصل الشفاعة في اللغة يدور على معنى الازدواج والزيادة والإعانة فالشفع الزوج وهو ضد الوتر وتقول : شفع ناظري إذا صار يرى الخط خطين والشخص شخصين، ويقال : شفع لي فلان إلى فلان أي طلب منه أن يقضي حاجتي، فكأنه ضمَّ صوته إلى صوت المشفوع له فصار بعد أن كان صوته واحدًا صار له صوتان صوتُه وصوت الشافع، ومن المقرر في شريعة الإسلام أن الشفاعة قسمان : شفاعة مثبتة وشفاعة منفية، فالشفاعة المثبتة النافعة يوم القيامة هي ما تحقق فيه شرطان : الأول إذنُ الله عز وجل للشافع في الشفاعة، والثاني : رضا الله عز وجل عن المشفوع له ولا يرضى الله عز وجل عن الشفاعة إلا في المؤمنين وقد أكد الله تبارك وتعالى هذا المعنى في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول عز وجل : ﴿من ذا الذي

يشفع عنده إلا بإذنه﴾ ويقول عز وجل: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون * إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم﴾ وقد ثبتت الشفاعة لرسول الله ﷺ وهي الشفاعة العظمى فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في دعوة فرُفِعَ إليه الذراع فكانت تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ منها نَهْسَةً وقال: أنا سيد الناس يوم القيامة هل تَدْرُونَ مِمَّ ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فينظرهم الناظر ويسمعهم الداعي وتدنو منهم الشمس فيبلغ النَاسَ من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما أنتم فيه إلى ما بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم، فيأتونه فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى إلى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فقال: إن ربي غضب غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه نهاني عن الشجرة فعصيتُ، نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحا فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض وقد سماك الله عبدا شكورا ألاَ ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك؟ فيقول: إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى إبراهيم فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإني كنت

كذبت ثـلاث كذبـات نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبـوا إلى موسى فيقولـون يا موسى أنت رسول الله فضلك الله بـرسالاته وبكلامـه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيـه ؟ فيقول ؛ إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبلـه مثله ولن يغضب بعـده مثلَه وإني قتلت نفسـا لم أومر بقتلهـا نفسي نفسي نفسي اذهبـوا إلى غيري اذهبـوا إلى عيسى فيأتـون عيسى فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه وكلمتَ النَاسَ في المهـد اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيـه فيقول عيسى : إن ربي قـد غضب اليوم غضبـا لم يغضب قبله مثلـه ولن يغضب بعده مثلـه ولم يذكـر ذنبا ، نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبـوا إلى محمد ﷺ ــ وفي رواية ــ فيأتوني فيقولون : يـا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخـر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فأنطلق فـآتي تحت العـرش فأقع سـاجدا لـربِّي ثم يفتح الله عليَّ من محامـده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك سَلْ تُعْطَـهُ واشفع تُشَفَّعْ . الحديث . وقـول إبـراهيم : ثـلاث كـذبـات هي معاريض وليست من الكـذب المحرم . كما روى البخاري من حديث جـابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال : من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته حلت له شفاعتي يـوم القيامة . أما الشفاعة المنفية فهي الشفاعـة للكفار لقـوله تعـالى : ﴿فما تنفعهم شفاعـة الشافعين﴾ ولقـوله في الكفـار: ﴿فما لنا من شـافعين * ولا صديق حميـم﴾ وعليه يحمل قـوله عـز وجل : ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيعٌ فيـه ولا خُلَّةٌ ولا شفاعة﴾ ومعنى قـوله : ﴿ولا يؤخـذ منها عـدل﴾ أي بدل وفـدية ولـو جاءت بمثل الأرض ذهبـا ما تقبل منهـا . قـولـه : ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي ولا يجرؤ أحـد أن يُنقـذهم من عذاب الله .

قال تعالى: ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم * وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾

شرع الله تبارك وتعالى هنا في تعداد نعمه على بني إسرائيل التي أجملها في قوله عز وجل: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين﴾ فعدَّد لهم في هذا المقام عشر نعم أولها قوله عز وجل: ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون﴾ وتنتهي هذه النعم العشر المذكورة في هذا المقام من القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾ وقد كانت الحالة السائدة بمصر عند ميلاد موسى عليه السلام أن يوقع فرعون ببني إسرائيل أقسى أنواع الظلم وأشدَّ ألوان العذاب، وقد بلغ بغي فرعون وطغيانه على بني إسرائيل وفساده في الأرض أقصى حدود البغي والطغيان وقد علاَ فرعون في الأرض وجعل أهلها شيعا يقرب بعضهم، ويستضعف طائفة منهم — وهم بنو إسرائيل — حيث بلغ الحال من البغي أن صار يُذَبِّحُ أبناءهم ويَسْتَبْقِي نساءهم ويستعمل معهم صنوف الذلة وأنواع الهَوَان والعذاب، وقد كان الحقد والبُغْض لبني إسرائيل قد اشتعل في قلب فرعون وهامان وجنودهما بسبب ما ألقي في روعهم من أن زوال ملكهم وتدميرهم سيكون على يد رجل من بني إسرائيل، ومع أن فرعون أنزل ببني إسرائيل أقسَى أنواع العذاب، فإن الحذَر لا ينجي من القدر، وَوُلد موسى عليه السلام، وشاء الله عز وجل أن ينشأ في بيت فرعون، ولما بلغ أشده وأرسله الله عز وجل إلى فرعون ودعاه إلى الإيمان بالله وحده، وتخليص بني إسرائيل من العذاب المهين ازداد فرعون في تعذيب بني إسرائيل وتقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم وقد

وصف الله تبارك وتعالى ما أصاب بني إسرائيل على يد فرعون وجنوده في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول هنا : ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذٰلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ ويقول في سورة الأعراف : ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾ وقال عز وجل في سورة الأعراف أيضا : ﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذٰلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ وقال تعالى في سورة إبراهيم : ﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذٰلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ وقال تعالى في سورة الدُّخان : ﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين * من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين﴾ وقوله عز وجل : ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل نعمتنا عليكم حين أنجيناكم أي أنجينا آباءكم إذ أن تنجية الآباء هي تنجية للأبناء، فلو هَلَكَ الآباء تحت التعذيب ما وُجد هؤلاء الأبناء المخاطبون بقوله : ﴿وإذ نجيناكم﴾ قال ابن جرير: كما يقول القائل لآخر: فعلنا بكم كذا، وفعلنا بكم كذا، وقتلناكم وسبيناكم، والمُخْبِرُ إما أن يكون يعني قومه وعشيرته بذلك أو أهل بلده ووطنه، كان المقول له ذلك أدرك ما فُعِل بهم من ذلك أو لم يدركه كما قال الأخطل يُهَاجي جرير بن عطية :

ولقد سَمَا لَكُمُ الهُذَيلُ فنالَكُمْ ... بِإِرَابَ حيث يُقَسِّم الأنفالا
في فَيْلَقٍ يدْعو الأراقِمَ لم تكُنْ ... فُرْسَانُهُ عُزْلاً ولا أكفالاَ

ولم يلق جريرٌ هُذَيْلاً ولا أدركه ولا أدرك إِرَابَ ولا شهِدَه ولكنه لما كان يوما من أيام قوم الأخطل على قوم جرير أضاف الخطاب إليه وإلى قومه . فكذلك

خطاب الله عـز وجل من خَاطَبَهُ بقـوله : ﴿وإذ نجيناكم من آل فـرعون﴾ لما كان فعله مـا فعل من ذلك بقوم من خاطبه بالآية وآبـائهم أضاف فعله ذلك الذي فعله بآبائهم إلى المخاطبين بالآية وقومهم اهـ والآل أصله الأهل أبدلت الهاء همزة بـدليل تصغيره على أُهَيْل . . واستعمله العـرب مضافـا إلى الأسماء المشهـورة كقـولك : آل النبي ﷺ وآل علي وآل العبـاس ، وآل سعـود ولا يَسْتَحِبُّ العـربُ استعمال كلمة آل مع المجاهيـل وغير المشهورين , وفـرعون لقب لملـوك مصر في الجاهلية من العمالقـة وغيرهم كما أن كسرى لقب لملـوك الفرس وقيصر لقب لمن ملك الروم ، وخـاقان لقب لمن ملك الترك ، وتُبَّع لمن مَلَكَ اليمن ، والنجـاشي لمن ملك الحبشـة ، والمراد بـآل فـرعـون : فِـرْعَـوْنُ وأتباعـه ، كما قال عز وجل عن فـرعون : ﴿يقدم قـومه يوم القيـامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود﴾ وقـال في مؤمن آل فرعون : ﴿فوقـاه الله سيئات ما مكروا وحاق بـآل فرعون سوء العـذاب * النار يُعْرَضون عليهـا غُدُوًّا وعشيا ويوم تقـوم الساعة أدخلـوا آل فرعـون أشد العذاب﴾ ولا شك أن فـرعون في مقدمـة أهل النار هـؤلاء ، ومعنى : ﴿نجيناكم﴾ أي خلصنـاكم وأنقذنـاكم ورفعناكم يقال : نجاه وأنجاه إذا ألقـاه على نجوة من الأرض أي مكان مرتفع ليسلم من الغرق والآفات ثم سمي كل فـائز ناجيا وإن لم يُلق على نجوة من الأرض . وقـولـه عـز وجل : ﴿يسـومونكم سـوء العـذاب﴾ أي يـذيقـونكم ويولـونكم ويوردونكم أفظع العذاب وأشـده يقال : سامـه خطَّة خَسْفٍ إذا أولاه ذلك وأذاقه ومنه قول عمْرو بن كلثوم :

إذا ما المَلْكُ سَامَ الناس خَسفاً ... أَبَيْنَا أَنْ نُقِرَّ الخسف فينا

قـال في القـامـوس المحيط : والخسف النقيصـةُ ثم قـال : والإذلال وأن يحمِّلك الإنسان ما تكره يقال : سامـه خسفاً ويضمُّ إذا أولاهُ ذُلاًّ اهـ وقد قال عمرو بن سالم الخزاعي في وصف رسول الله ﷺ :

فانصـــر هـــداك الله نصـــرا أيِّدا وَادْعُ عـــباد الله يأتـــوا مَدَدا
فيهـم رســـولُ الله قـــد تجَرَّدا أبيـــضُ مثل البـــدر يَسْـمُو صُعُدا
إن ســـيمَ خَسْـــفاً وَجْهُهُ تَرَبَّدَا في فيـــلق كالبحـــر يَجْرِي مُزْبِـدا

وقوله عز وجل: ﴿يُذبِّحُون أبناءكم ويستحيُون نساءكم﴾ تفسير لقوله عز وجل: ﴿يسومـونكم سوء العـذاب﴾ وفي سورة إبـراهيم ﴿يسُومـونكم سوء العذاب ويذبحـون أبناءكم﴾ بالعطف بـالواو للإشارة إلى أن فـرعون وجنده كانـوا يوقعون ببني إسرائيل ألوانـا من العذاب المهين وكان منهـا قتل أبنائهم واستحياء نسائهم، فعطف بالواو في سورة إبـراهيم لبيان أنهم كانوا يعذبونهم بالـذَّبح وغيره، إذ كانـوا يُكَلِّفُون الـذكور بـالأعمال القذرة والشاقـة من قطع الحجارة من الجبال وحملها ونقلها لبناء قصـور آل فرعون ومن الحراثة والزراعة وحمل القـاذورات، والتعبير بـالتـذبيح لإفـادة كثـرة الـذبح في بني إسرائيل والمبـالغـة في قطع رقـابهم، ومعنى ﴿ويستحيـون نسـاءكم﴾ أي ويستبقـون الإناث فلا يذبحونهنَّ لاستخدامهن في الأعمال غير الكريمة وفي خدمة نساء آل فرعـون مبالغة في إذلال بني إسرائيل وشدة إيـذائهم، ولفظ النساء يطلق على الإنـاث صغيراتٍ أو كبيراتٍ، وقـوله عـز وجل: ﴿وفي ذٰلكم بـلاء من ربكم عظيم﴾ الإشـارة فيه إلى مـا ذكر من تـذبيح الأبناء واستحيـاء النساء، والمراد بـالبـلاء المحنة والبليـة، وإنما كـان استحيـاء النساء محنـة وبليـة لأن استبقـاءهن كـان لقصـــد استعمالهن في الأعمال غير الكـريمـة، وفي الأعمال الشاقة زيادة في إهانة بني إسرائيل، وفي قوله: ﴿بلاء من ربكم﴾ إشعار بأن كلَّ ما يصيـب العباد من خير أو شر إنما هو مـن الله عز وجل لرفـع درجات الطـائعين، وتكفير خطـايـا العـاصين من المؤمنين، وتنبيـه الغـافلين، وإذا عصى اللهَ من يعرفـه سلَّط عليه من لا يعرفـه، وقوله عز وجل: ﴿وإذ فـرقنا بكم البحر فأنجينـاكم وأغرقنا آل فرعـون وأنتم تنظرون﴾ بيان للنعمة الثـانية

من النعم التي أنعم الله عــز وجل بها على بني إسرائيل أي واذكـروا إذ فلقنـا بسببكم البحـر حتى صرتم تمشـون في طـريق يبس بين فـرقين من الماء فصل أحدهما عن الآخر حتى صار كل فرق كـالطود العظيم وشهد تم غرق فرعون وقومه. وقد كانت مهمـة موسى عليه السلام ذاتَ شقين: الشق الأول دعوةُ فرعون وقومه إلى إخلاص العبادة لله وحده والشق الثاني تخليص بني إسرائيل من العذاب المهين من فـرعون. وإلى ذلك يشير الله عـز وجل حيث يقول في سورة طه: ﴿إنـا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعـذبهم قد جئناك بـآية من ربك والسـلام على من اتبع الهدى﴾ وكما قـال في سـورة الدخـان: ﴿ولقد فتنا قبلهم قوم فرعـون وجاءهم رسول كريم * أن أدوا إليَّ عباد الله إني لكم رسول أمين * وأن لا تعلوا على الله إن آتيكم بسلطان مبين﴾ ومع أن الله تبـارك وتعالى أيـد موسى وهـارون عليهما السـلام بالمعجـزات وسلط على آل فرعـون الطوفان والجراد والقمل والضفادع والـدم في آيات بينات فإن فـرعون رأى أنـه لا بـد من إعـلان الحرب على مـوسى ومن معـه من المؤمنين وأرسل فـرعون في المدائن مـن يجمع العُدَّةَ والسـلاح والـرجال للقضـاء على مـوسى وهـارون ومن معهما من بني إسرائيل وقـد أوحى الله عز وجل إلى مـوسى أن يخرج من مصر ليلا ببني إسرائيل مسرعين إلى سيناء وأعلمه أن فرعون وجنوده سَيَتْبَعُـونَهم فسـارع مـوسى عليه السـلام إلى امتثـال أمـر ربـه، وسرى ببني إسرائيل، ولما اجتمع جنـد فرعون سـارعوا إلى اللحـاق بموسى عليـه السلام يقـودهم فرعـون لعنـه الله فأتبعوهم مشرقين أي وقت شروق الشمس، وكـان مـوسى عليه السـلام ومن معه قـد وصلـوا إلى مكانٍ عسير فـالبحر أمـامهم والعـدو خلفهم والجبـال عن يمينهـم وشمالهم، فلما تـراءى الجمعـان قـال أصحاب موسى: إنا لمدركون أي سيكون هـلاكنا على يد فرعون وجنده هنا، فأجابهم موسى عليـه السلام وقال لهم: كلا لن يدركونـا ولن يصلوا إلينا لأن

الله وعدني بـذلك يعني بذلك أنه لما قـال عندما بعثـه الله لفرعون : ربنـا إننا نخـاف أن يفرط علينـا أو أن يطغى قال : لا تخافـا إنني معكما أسمع وأرى ، لذلك قـال موسى لما قال لـه أصحابـه إنا لمدركون ، قـال : كلا إن معي ربي سيهدين . فأوحى الله إلى موسى : أن اضرب بعصاك البحر فلما ضرب موسى البحـر بعصـاه انفلق فكان كـل فرق كـالطـود العظيم أي كـالجبل العظيم ، فجعل الله لهم طريقا في البحر يبسا فصار موسى ومن معه يمشون على أرض صلبة يابسـة على كل جانب من جوانب طريقهم جـدار من الماء كأنه صخر منحوت ، وجـاوز الله ببني إسرائيل البحر، فأتبعهم فرعـون وجنوده فغشيهم من اليم مـا غشيهم حتى إذا أدرك فـرعون الغـرقُ قـال :آمنت أنه لا إلـه إلا الذي آمنت بـه بنو إسرائيل ولم ينفعه إيمانـه وأضل فرعـون قومه ومـا هدى ، وكان ذلك في اليوم العـاشر من المحرم يوم عاشـوراء ، وفي ذلك يقول الله عز وجل هنـا : ﴿وإذ فـرقنـا بكم البحـر فأنجيناكـم وأغرقنـا آل فـرعـون وأنتم تنظرون﴾ وقـال عز وجل في سورة الأعـراف : ﴿فانتقمنا منهم فأغـرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانـوا عنها غافلين﴾ وقال عز وجل في سورة يونس : ﴿وجاوزنـا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فـرعون وجنوده بغيـا وعَدْوًا حتى إذا أدركه الغـرق قال آمنت أنـه لا إلَه إلا الـذي آمنت به بنـو إسرائيل﴾ وقال في سورة طـه : ﴿ولقد أوحينا إلى مـوسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طـريقا في البحر يبسـا لا تخاف دركا ولا تخشى * فأتبعهم فرعـون بجنوده فغشيهم من اليم مـا غشيهم وأضل فرعـون قومـه وما هَـدَى﴾ . وقال عز وجـل في سورة الشعراء : ﴿وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبـادي إنكم متبعون * فأرسل فرعون في المدائن حاشرين * إن هـٰؤلاء لشرذمة قليلون * وإنهم لنا لغـائظون * وإنا لجميع حـاذرون * فأخرجنـاهم من جنـات وعيون * وكنـوز ومقام كـريم* كذالك وأورثناها بني إسرائيل * فأتبعوهم مشرقين * فلما تراءى الجمعان قال

أصحاب موسى إنــا لمدركون * قال كلا إن معي ربي سيهــدين * فأوحينا إلى موســى أن اضرب بعصاك البحر فــانفلق فكان كــلُّ فرق كالطــود العظيم * وأزلفنا ثَمَّ الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين﴾ كما ذكــر الله عز وجل هــذه النعمــة في سورة الإسراء وفي ســورةالقصص وفي سورة الزخرف .

قـال تعالى : ﴿وإذْ واعـدنـا موسى أربعين ليلـةً ثم اتخذتم العجل من بعـده وأنتم ظـالمون . ثم عفـونـا عنكم من بعـد ذٰلك لعلكم تشكـرون . وإذ آتينـا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون﴾ .

قد كان مـوسى عليه السلام عندمـا بعثه الله عز وجل إلى فـرعون إنما بعثه بأصـول الدين من التـوحيـد ، وإقامـة الصلاة لـذكر الله ، ووجـوب الإيمان بالبعث بعد الموت ولم يكن قد أنزل عليه التوراة فلما انتهت مهمة موسى عليه السلام الخاصـة بفرعـون وملئه ، وأغـرق الله فرعـون وجنده ، فـاستراح عليه السلام من متـاعب فرعـون وملائه وبـدأت متاعب موسى وهـارون من بني إسرائيل ، فلما خلص مـوسى إلى سيناء ، وصار مختصـا ببني إسرائيل وهم في حاجة ماسة إلى نظام يشمل حوائجهم في معاشهم ومعادهم ويفرق لهم بين الحق والبـاطل ، ويبين لهم الحلال والحرام هيّـأ الله عـز وجل مـوسـى عليـه السلام ليلقـي عليه التوراة المشتملـة على الأحكام التي تسلك بـأهلها صراط الله المستقيم ، وحالـةُ موسى عليـه السلام هذه تشبـه حالـة رسول الله ﷺ في حياته النبوية قبل الهجرة وبعدها فـإن القرآن المكي كان ينزل لتقرير التوحيد والرسـالة والإيمان بـالبعث بعد الموت أمـا القرآن المدني فإنـه زيادة على ذلك جاء بتقـرير نظـام الدولـة الإسلاميـة والمجتمع السعيد ومـا يحتاجه كـلّ فرد لصلاح معاشه ومعاده ولذلك سـاق القرآن العظيم ما أوصى الله عز وجل به موسى عليه السلام عندما بعثه بالتوحيد والصلاة والإيمان بالبعث بعد الموت حيث يقول عز وجل في سـورة طه : ﴿فلما أتاها نودي يـا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى * وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى* إنني أنا الله لا إلٰـه إلا أنا فاعبدني * وأقم الصـلاة لذكري * إن الساعـة آتية أكاد أخفيها لتجزى كلّ نفس بما تسعى * فلا يصدّنّك عنها من لا يؤمن بها

واتبع هـواه فتردى﴾ وكما قـال عـز وجل في سورة النـازعـات : ﴿ هل أتـاك حديث مـوسى * إذ ناداه ربّه بالـواد المقدّس طُوى * اذهب إلى فرعـون إنه طغى* فقل هل لك إلى أن تـزكّى * وأهـديك إلى ربك فتخشى . فأراه الآيـة الكبرى * فكـذّب وعصى * ثم أدبـر يسعى ، فحشر فنـادى * فقـال أنـا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخـرة والأولى﴾ ولما أغرق الله فرعون ونجّى بني إسرائيل صـار لموسى عليه السـلام دولـة في حاجـة إلى النظام الشـامل ، والنور الـذي يسلكه موسى والمؤمنـون ليهتدوا بـه إلى الصراط المستقيم ، وقد أمر الله عـز وجل موسى عليه السـلام بأن يستعد لتلقي الشريعة عنـد الطور وواعـده ربه أربعين ليلـة يتهيأ فيهـا موسى لتلقي الشريعـة ، وعنـدما جـاء الميقـات قال مـوسى لأخيـه هـارون : أنت خليفتي على بني إسرائيل فأصلح أمورهم ولتكن سياستك لهم سياسةً رشيدة ، واحذر دعاة الضلالة المفسدين في الأرض ، ومـا أن انطلق مـوسى لتلقـي الشريعـة عنـد الطـور حتى أضل السـامري بني إسرائيل . فصنع لهم عجـلا من الذهب لـه خوارٌ أي صـوتٌ يسمع وصلصلةٌ شبيهة بصوت الثور ، وقال لهم : هذا إلهكم وإله موسى ، قد نسيه موسى هنا وذهب يطلب إلهه عند الطور ، فعبده جملة من بني إسرائيل ، وحاول هارون عليه السلام صرفهم عن عبادة العجل . وكان اللّين يغلب على هـارون ﷺ ، وخشي إذا شـدّد عليهم أن يتفـرقوا ، وقـد بـارزه عبّـاد العجل العداوة وكادوا يقتلـونه عندما كان يحذّرهم مـن عبادة العجل ولم يكن مأذوناً له في قتالهم ، فانتظر مجيء موسى عليـه السلام بالشريعة من عند الله ، وكان موسى عليه السلام عنـد ما جاء لميقات ربه قد اختـار من قومه سبعين رجلا لهذا الميقات وقد سأله بعض المتنطعين المتعنتين من بني إسرائيل أن يريهم الله جهرة وأن يسأل ربه ذلك ، وبعد أن أعطـى الله عز وجل موسى ﷺ التوراة أخبره أن قومـه عبدوا عجلا صنعـه لهم السامريّ فـرجع موسى عليـه السلام

بالتوراة إلى قومه غضبان حزيناً على ما فعله قومه، وأخذ يؤنبهم ويوبّخهم على عبادة العجل، وقال لهم بئس ما خلفتوني من بعدي ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا بإنزال التوراة نورا لكم؟ أفطالت غيبتي عليكم؟ أم أحببتم أن ينزل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم وعدكم إياي بالثبات على الإيمان وإخلاص العبادة لله وحده؟ فحاولوا الاعتذار بأنهم ما استطاعوا ردّ ضلال السامري فإنه سوّل لهم ما سوّل وغلب على عقولهم وزعم لهم أنه إله موسى فقال موسى لهارون عليه السلام: يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا ألا تتبعني أفعصيت أمري بأن تقضي على سبيل المفسدين. وقد بلغ الغضب بموسى عليه السلام مبلغا فألقى ألواح التوراة وأخذ برأس أخيه هارون ولحيته يجره إليه فقال هارون: يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين، وقد أخذ موسى هذا العجل وحرّقه ونسفه في اليم نسفا. وقوله عز وجل: ﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة﴾ أي واذكروا ما حدث من آبائكم وقت أن واعدنا موسى أربعين ليلة لإعطائه بعد تمامها التوراة، وقوله: ﴿واعدنا موسى﴾ أي وعد الله عز وجل موسى عليه السلام الطور في وقت معين فاستجاب موسى عليه السلام لميعاد ربه، فكان الوعد من الله عز وجل والاستجابة من موسى عليه السلام فالمواعدة على بابها وقيل: هذا من باب داويت العليل وعاقبت اللص، والميعاد هو المواعدة والوقت والموضع، وموسى هو ابن عمران من سبط لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام قيل وسمّي ﴿موسى﴾ أخذًا من كلمتين بالقبطية أو العبرية وهما ماءٌ وشجر فمو هو الماء وشا هو الشجر واستعمله العرب بالسين بدل الشين فقالوا: موسى. وقد زعم مدّعو ذلك أنه سُمّي بذلك لأنه وجد في التابوت بين الماء والشجر عندما التقطه آل فرعون فأطلقوا عليه هذا الاسم،

وقوله عـز وجل: ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾ أي ثم اتخذتم العجل الذي صاغه لكم السامري إلها مـن بعد ذهاب موسى ومضيه لميقات ربـه وأنتم مـرتكبـون أفحـش الظلم بعبـادة غير الله لأن الشرك ظلم عظيم، وأصل الظلم وضع الشيء في غير مـوضعـه. وقولـه عـز وجل: ﴿ثم عفونـا عنكم من بعـد ذلك لعلكم تشكـرون﴾ أي ومع ارتكـابكم هـذه الجريمـة البشعة وهذا الظلم العظيم لم نعاجلكم بالعقوبة لكي تشكروا الله عز وجل، والمخاطب بقوله عـز وجل: ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون * ثم عفـونـا عنكم من بعد ذلك لعلكـم تشكرون﴾ هم بنـو إسرائيل المعـاصرون لرسول الله ﷺ المعادون له، والمقصود إخبارهم بما فعل آباؤهم من معصية الله ومخالفة المرسلين، وبيان أن هؤلاء الأبنـاء من جنس هؤلاء الآباء، والأولى بهم أن يسـارعوا إلى الإيمان بمحمـد ﷺ وأن يشكروا نعمـة الله التي أنعم بها على الإنسانية كلهـا حيث لم يعاجل العاصين بالعقوبة. وقـوله عز وجل: ﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون﴾ أي واذكروا نعمة الله عليكم إذ أعطينا موسى عليه السلام الكتاب وهو التوراة وأعطيناه الفرقان وهو ما يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلالة، والعطف في قوله عز وجل: ﴿الكتاب والفرقان﴾ هو عطف تفسير فكأنه وصف الكتاب بأنه الفرقان وقد سمى الله عز وجل ما آتاه مـوسى وهارون بأنه فرقانٌ وضياء وذكـر حيث يقول في سورة الأنبياء: ﴿ولقد آتينا موسى وهـارون الفرقان وضياءً وذكرا للمتقين﴾ والعرب يعطفون عطف التفسير لتأكيد المعنى كما قال عدي بن زيد:

وقـدّدت الأديـــم لراهشَـــيْه   وألفـى قولهـا كذبـا ومينـــا

والمين هو الكذب وتقـديد الأديم تقطيعه والأديم الجلد والراهشـان عرقان في باطن الذراع. ومن العطف للتفسير أيضا قول عنترة:

حييــت من طـلل تقادم عهـده   أقـوى وأقفـــر بعـد أمِّ الهـيثم

وأقوى وأقفر بمعنى واحد. ومن ذلك أيضا قول الحطيئة :

ألا حبّذا هندٌ وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأي والبعد

فعطف البعد على النأي وهما بمعنى واحد. وقد ساق الله تبارك وتعالى مواعدته موسى عليه السلام لإعطائه التوراة وعبادة قومه العجل من بعد ذهابه لميقات ربه، وموقف هارون من ذلك، ورجوع موسى إلى قومه غضبان أسفا وما حدث بينه وبين هارون عليه السلام، وما صنع موسى بعجل السامري وذكر ذلك في مواضع من كتابه الكريم حيث قال في سورة البقرة أيضا : ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾ ويقول في سورة الأعراف : ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلةً وأتممناها بعشر فتمّ ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأَصلح ولا تتبع سبيل المفسدين * ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولَكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين * قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين * وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين * سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كلّ آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذٰلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون * واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين* ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين * ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما

خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال: ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين * قال رب اغفرلي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين * إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين * والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم * ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾ وقال تعالى في سورة طه: ﴿يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى * كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحلَّ عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى * وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى * وما أعجلك عن قومك يا موسى * قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى * قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري * فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحلّ عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي * قالوا ما أخلفنا موعدك بمَلكنا ولٰكنا حمّلنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذٰلك ألقى السامري * فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هٰذا إلٰهكم وإلٰه موسى فنسي أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا * ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتّبعوني وأطيعوا أمري * قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى * قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا * ألاّ تتّبعن أفعصيت أمري * قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي * إني خشيت أن تقول فرّقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾ الآيات إلى قوله: ﴿إنما إلٰهكم الله الذي لا إلٰه إلا هو وسع كل شيء علما﴾.

قال تعالى :﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم * وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾ .

قد ذكر الله عز وجل في الآية الواحدة والخمسين والثانية والخمسين السابقتين ما يفيد أن بني إسرائيل اتخذوا العجل إلهاً بعد ذهاب موسى عليه السلام لميقات ربه وأن الله عز وجل عفا عنهم من بعد ذلك لعلهم يشكرون ثم ذكر الله عز وجل في هذه الآية الثالثة والخمسين ما قضى به موسى عليه السلام بأمر من الله عز وجل على الذين عبدوا العجل وارتدوا عن الدين بأن يقتل بعضهم بعضاً تحقيقاً للتوبة من هذه الجريمة البشعة، وهو يدل على أن شريعة موسى عليه السلام وشريعة محمد ﷺ متفقتان على أن من بدَّل دينه يقتل فقد روى البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : من بدَّل دينه فاقتلوه . ولا معارضة بين قوله تعالى في الآية الثانية والخمسين : ﴿ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون﴾ وقوله عز وجل هنا : ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم﴾ لأن قوله ﴿عفونا عنكم﴾ لا يدل على أنه لا عقاب عليهم في الدنيا وذلك لجواز اجتماع العفو مع العقوبة الدنيوية . ولهذا فإن من قتل شخصا عمدا بغير حق وعفا أولياء القتيل أو أحدهُم عن القاتل فإنه يُنْتَقَلُ من القصاص إلى الدية وفي هذا يقول الله عز وجل : ﴿فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان﴾ وهذا يظهر الفرق بين العفو وبين المغفرة فإن العفو قد يجتمع مع العقوبة

بخلاف المغفرة فإنها لا تكون مع عقوبة، على أن العفو في قوله: ﴿عفونا عنكم﴾ يشمل عُبَّاد العجل وغيرهم من بني إسرائيل الذين لم يُغَيِّرُوا هذه المعصية عند ظهورها، وسكتوا عليها، إذ المعروف أن المعصية التي لم يستتر أهلها تستجلب سَخَط الله وعقوبته على مرتكبها وعلى من لم يغيرها ولم ينهَ عنها على حد قوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ وقد تفضل الله تبارك وتعالى على من قُتل من عُبَّاد العجل وتابوا إلى الله وندموا على ما فعلوا أن لا يجمع لهم بين عقوبة القتل في الدنيا وعذاب الله في الآخرة وقد أخبر النبي محمد ﷺ أن من ابتلى بشيء من هذه القاذورات وأُخِذَ بها كان كفارةً له وإن تَابَ تاب الله عليه، وقد أخبر الله عز وجل أنه تاب على هؤلاء الذين قُتِلُوا من عُبَّادِ العجل حيث يقول في هذه الآية المباركة: ﴿فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم.﴾ وعبَّر بالماضي لتحقيق ذلك فله الحمد وله الشكر وله المنة، والقوم في قوله عز وجل: ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم﴾ أصل القوم في الاستعمال العربي يطلق على جماعة الرجال الذين ليس فيهم امرأة ويدل على ذلك قوله عز وجل: ﴿لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيرا منهن﴾ فجعلَ القومَ في مقابلة النساء. ومن ذلك قول زهير:

وما أدري وسوف إخال أدري أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أم نِساءُ

ولا يجوز إطلاق لفظ القوم على النساء وحدهن ألبتة، وأما قوله تعالى: ﴿كذبت قوم نوح﴾ وقولُه ﴿كذبت قوم لوط﴾ وهو لا شك يشمل الرجال والنساء فإنما ذلك من باب التغليب. وقوله: ﴿فتوبوا إلى بارئكم﴾ أي فارجعوا إلى الله واندموا على خطيئتكم واعزموا على أن لا تعودوا لمثلها أبداً. والبارئ هو الله عز وجل يقال بَرَأَ الله الخَلْقَ أي خلقهم وأوجدهم من

العدم. وأصل مادة بَرَأَ يدل على انفصال شيء عن شيء وتَمَيُّزِه عنه يقال: برأ المريض من مرضه إذا زال عنه المرض وانفصل، وبرأ المدينُ من دينه إذا زال عنه الدين وسقط عنه، ومنه البارىء في أوصاف الله عز وجل لأن مَعْنَاهُ الذي أخرج الخلق من العدم وفَصَلَهم إلى الوجود، ومنه البرية أي الخليقة لانفصالهم من العدم إلى الوجود، وقوله: ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ أي فليقتل بعضكم بعضا، والأمر مُوَجَّهٌ إلى من عَبَدَ العجل واتخذه إلهاً من دون الله. وقوله: ﴿ذٰلكم خير لكم عند بارئكم﴾ أي قَتْلُ أَنْفُسِكُمْ امتثالا لأمر الله وتحقيقاً للتوبة أنفع لكم عند الله يوم القيامة فإنكم إن لم تتوبوا خسرتم الدنيا والآخرة لأنكم مفارقون للدنيا لا محالة ومرجعكم إلى الله فيذيقكم عذاب السعير لأن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، فلا مغفرة للمشرك إلا بتوبة نصوح. وقوله عز وجل: ﴿فتاب عليكم﴾ أي قبل توبة التائبين الذين استجابوا لما أمرهم الله عز وجل به لتحقيق توبتهم وهذا لتذكير المخاطبين بما حصل من آبائهم وما أنعم الله عليهم به من قبول توبتهم، وليس قتلُ المُذْنِب نفسه شرطا في تحقيق التوبة من الذنب عند جميع الديانات السماوية السابقة بل هذا الأمر خاص بهذه الحادثة حيث قضى الله به على عُبَّاد العجل من بني إسرائيل وقد جاءت الأخبار الصحيحة عن رسول الله ﷺ بما يدل على قبول توبة التائبين من بني إسرائيل من معاص كبار كالقتل ونحوه دون أن يؤمر المذنب بقتل نفسه فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض فَدُلَّ على راهب فأتاه، فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله فكمَّل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فَدُلَّ على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟

فقـال : نَعَم ومَنْ يَحُولُ بينه وبين التـوبـة ، انطلق إلى أرض كذا وكـذا فإِنَّ بها أنـاساً يعبـدون الله تعالى فـاعبد الله معهم ، ولا تـرجع إلى أرضك فإنها أرضُ سَوْء . فـانْطَلَقَ حتى إذا نَصَّفَ الطـريق أتاه الموت فـاختصمت فيه مـلائكة الرحمة وملائكة العـذاب فقالت ملائكة الرحمة : جاء تـائباً مُقْبِلا بقلبه إلى الله تعالى وقالت ملائكة العـذاب : إنه لم يعمل خيرا قط ، فأتاهم مَلَكٌ في صورة آدمي فجعلـوه بينهم أي حَكَماً فقال : قيسـوا ما بين الأرْضَين فإلى أيتهما كـان أدنى فَهُـوَ لَه ، فقـاسوا فـوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضتـه ملائكـة الرحمة . كما روى البخـاري في صحيحه من حـديث أبي هريـرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ بينما كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّـةٍ كاد يقتله العَطَشُ ، إذ رأتْه بَغِيٌّ من بغايا بني إسرائيل ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لها به ، وقوله : يطيف بركية أي يُـدِيمُ المرور حول بئـر ليحاول الشرب منهـا ولا يتمكن من ذلك ، وقولـه بَغيٌّ أي امرأة تحترف الـزنا والدعارة وقـوله فَنَزَعت مُوقَهـا أي خلعت خُفَّها ، ففي هــذين الحديثين الصحيحين دليل جَلِيٌّ على أن قبـول التـوبــة في بني إسرائيل لم يكن يُشْتَرَطُ فيـه أن يقتل التائب نفسه كما بينـت ، وأن قتل التائب نفسه إنما جاء في تـوبة عُبَّاد العجل خاصـة ، ولا معارضة بين قولـه عز وجل هنا : ﴿فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم﴾ وبين قوله : ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دمـاءكم﴾ لأن القتل المأمور به هنـا هو قتل عُبَّـاد العجل تحقيقا لتوبتهم من هذه الجريمة البشعة ، وأمـا القتل المنهي عنه الذي حرمه عليهم بقـوله : ﴿لا تسفكـون دمـاءكم﴾ فهو القتل بغير حق . وقـولـه : ﴿إنه هـو التواب الـرحيم﴾ أي إن الله هـو الكثير الفضل على عباده بكثـرة قبول تـوبة التائبين وهـو أرحم الراحمين فله الحمد ولـه الشكر. وقولـه عز وجل : ﴿وإذ قلتم يا مـوسى لن نؤمـن لك حتى نرى الله جهـرة فأخذتكم الصـاعقة وأنتم تنظـرون . ثم بعثنـاكم من بعـد موتكم لعلكم تشكـرون ﴾ أي واذكـروا أيها

اليهود المعاصرون مـا طلبتموه من كليم الله موسى عليه السـلام أن يريكم الله عيانـا وقد طلب مـوسى عليه السـلام من ربه أن يتجلى لـه حتى يراه عنـدما كلمه ربه فأخبره الله أنه لو تجلى له لأحرقه وقال لموسى عليه السلام: انظر إلى الجبل فإن استقر مكـانه إذا تجلى الله لـه فإنك سوف تـراني فلما تجلى الله تعالى للجبل جعله دكًّـا وأخذت الصـاعقة مـوسى عليه السـلام ومن معه وكـانوا سبعين رجلا قد اختـارهم موسى عليه السلام من بنـي إسرائيل ليشهدوا معه الميقـات، ثم بعثهم الله من صعقتهم وكان أول من أفـاق منهم هو مـوسى عليه السـلام وقـد رآهم بعينه وهم صَرْعَى فأخذ مـوسى عليه السلام يتضرع إلى الله ويقـول: رب إن شئـت أهلكتهم من قبل وإيـاي، أتهلكنـا بما فعل السفهـاء منا ؟ وإنما كـان هـذا الخطاب في هـذا المقام كغيره من الخطابـات السابقة والـلاحقة في هذا السياق لليهـود المعاصرين للنبي ﷺ تذكيرا لهم بما فعل آباؤهم وأسلافهم وهم منهم مع موسى عليه السلام ليلفت انتباههم إلى أن من لم يسـارع من بني إسرائيل إلى الإيمان بمحمد ﷺ فإنـه يكون قـد سار على نهج السفهاء من آبائهم وأسلافهم ففيه تسليـة لرسول الله ﷺ ومواساة له وتبكيتٌ للمعـاصرين من بني إسرائيل. وقـد كـان قـول بعض سفهـاء بني إسرائيل لموسى عليه السـلام: أرنا الله جهرة قبيل ذهـابه لميقات ربـه، وكان ذلك قبل عبـادة بعضهم لعجل السامـري وقد بين الله ذلك في سـورة النساء في سياق تعـداد بعض جرائم بني إسرائيل ومواسـاة رسوله وعبـده محمد ﷺ وحَضِّـه على الصبر على تعنتهم معـه حيث طلبـوا منـه ﷺ أن يُنَـزِّل عليهم كتابًا من السَّماء مختصا بهم موجَّهاً إليهم بأعيانهم من الله يخبرهم فيه أن محمدًا رسول الله حيث يقول عز وجل: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تُنَزِّل عليهم كتابا من السماء فقد سألـوا موسى أكبر من ذُلك فقـالوا: أرنا الله جهـرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثـم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينـات فعفونا عن

ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا﴾ وقوله: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ أي قالوا لموسى عليه السلام: لن نصدق أنك رسول الله حتى نبصر الله بأعيننا عيانا وقوله عز وجل: ﴿فأخذتكم الصاعقة﴾ أي فأصابتكم الرجفة عندما اندك الجبل لما تجلى الله له، وقوله: ﴿وأنتم تنظرون﴾ أي وقد أبصرتم ذلك عند وقوعه حيث كان الذي يفيق منهم قبل الآخر يشهد مصرعه. وقوله عز وجل: ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ أي رددنا لكم الحياة من بعد ما أخذتكم الصاعقة. وهذا أول مقام من المقامات التي ذكرها الله عز وجل في سورة البقرة الشاهدة بقدرة الله على إحياء الموتى المنكرة على منكر البعث بعد الموت وكأنه يقول لهم: قد أحييت الموتى فعلاً، وكلُّ ما وقع فعلا فهو ممكن عقلا فكيف ينكر عاقل البعث بعد الموت؟ والمقام الثاني في قوله عز وجل في قصة البقرة وقتيل بني إسرائيل: ﴿فقلنااضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ والمقام الثالث في قوله: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾ والمقام الرابع قصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنَّى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام، وأحيا أمامه حماره الذي كان قد مات معه. وقال له: انظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما. والمقام الخامس في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى قال أوَلم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال: فخذ أربعة من الطير فَصُرْهُنَّ إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم﴾. هذا ولا شك عند علماء أهل السنة والجماعة أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وإن كانوا يعتقدون أن البشر لن يروْا ربهم حتى يموتوا وإن كانت الرؤية ممكنة في الدنيا، ولذلك سألها موسى عليه السلام

ولو كـانت مستحيلة ما سألها ، وقـد أخبر الله عز وجل أن الكفار محجـوبون عن رؤية الله يوم القيامة ، وقد أشار الله عز وجل إلى أن رؤية المؤمنين ربهم في جنات النعيم هي أعظم لذات الجنة حيـث يقول : ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيـادة﴾ فقد فسَّر رسـول الله ﷺ الـزيـادة في الآية بـأنها النظر إلى وجـه الله الكريم وأنه ما أعطاهم شيئا هو أحبُّ إليهم من النظر إليه كما رواه مسلم في صحيحه من حديث صهيب رضي الله عنه وكما قال عز وجل : ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ . وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن ناسا قـالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيـامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : هل تضارُّون في رؤية القمر ليلة البـدر ؟ قالوا : لا. قال : هل تضارُّون في الشمس ليس دونها سحـاب ؟ قـالـوا : لا. قال : فإنكـم ترونـه كـذلك» وبنحـــوه . من حـــديث أبي سعيـــد الخدري في الصحيحين أيضـــا كما روى البخاري ومسلم من حديث جـرير بن عبدالله البجلي قال : كنا جلـوسا عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة فقـال : إنكم ستَرَوْن ربكم عيانا كما تـرون هذا لا تضـامون في رؤيتـه . وقد حكم غير واحـد من أهل العلم بأن أحاديث الرؤيـة متواترة وقد روى أحـاديث الرؤية نحو ثـلاثين صحابيا عن رسول الله ﷺ ، وقـد ادعى بعض أهل الأهـواء المنحرفين عن سنـة رسول الله ﷺ أن رؤية الله مستحيلة في الدنيا والآخرة مستدلا بقوله تعالى : ﴿لن تراني﴾ على أن (لن) تقتضي النفي على التأبيـد ، وهـو خطأ في فهم اللسان العـربي ، ولذلك قال ابن مالك صاحب الألفية رحمه الله :

وَمَنْ رأى النفـــي بلــــن مؤبَّـــدا　　فقـــوله ارْدُدْ وســـواه فاعْضُـــدَا

وقد أشار القرآن الكـريم إلى أن لن لا تفيد النفي على التأبيد حيث قال في اليهـود : ﴿ فَتَمَنَّـوا الموت إن كنتم صـادقين * ولن يتمنـوه أبـــدا بما قـدمت أيديهم﴾ وقـد أكد هـذا النفي بقوله : ﴿أبـــدا﴾ ومعلوم قطعـا أن الكفار بما

فيهم اليهـود يتمنون الموت وهم في جهنم حيث أشـار الله إلى ذلك في قولـه : ﴿ونـادَوْا يـا مالك ليقض علينـا ربك﴾ نسأل الله بأسمائه الحسنى وصفـاتـه العلى أن يمتعنا بالنظر إلى وجهه الكريم في جنات النعيم .

قال تعالى: ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المَنَّ والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رَغَدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين * فبدلَّ الذين ظلَموا قولا غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون * وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾.

إن النِّعم التي عدَّدها الله تبارك وتعالى وتفضل بها على بني إسرائيل من قوله عز وجل: ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون﴾ إلى هذا المقام كان معظمها نعما لدفع نقم حلَّت ببني إسرائيل، ومن هنا تعداد لنعم أسبغها الله عز وجل على بني إسرائيل، وقوله عز وجل: ﴿وظللنا عليكم الغمام﴾ أي وجعلنا الغمام فوق رؤوسكم كالظلة يقيكم حر الشمس وأنتم في الصحراء، والمقصود آباؤهم الذين شهدوا هذه النعمة وتناقلها أبناؤهم جيلا بعد جيل ومع ذلك لا يشكرون نعمة الله عليهم وعلى آبائهم، والغمام جمع غمامة، قال الفيروزآبادي في القاموس المحيط: والغمامة السحابة أو البيضاء اهـ وإنما قيل للسحاب غمام لأنه يَغُمُّ السماء أي يسترها، وقوله عز وجل: ﴿وأنزلنا عليكم المن والسلوى﴾ أي وألقينا عليكم المن والسلوى والمن هو صمغة حلوة شبيهة بعسل النحل والظاهر أنه لم يكن نوعا واحدا بل كان المنُّ أنواعا منها نوع يشبه خبز الرّقاق حلو ومنها نوع يشبه الترَّنجبين قال ابن البيطار في مفرداته: الترَّنجبين طلٌّ يقع من السماء وهو نَدًى شبيه بالعسل جامدٌ مُتَحَبِّبٌ. وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الكمأة من المن الذي أنزله الله على بني

إسرائيل فقد روى البخاري في صحيحه من حديث سعيد بن زيد قال: سمعت النبي ﷺ يقول: الكمأة من المنِّ وماؤها شفاء للعين، ورواه مسلم في صحيحه من طريق عبدالملك بن عمير عن عمرو بن حُريث عن سعيد ابن زيد بن عمرو بن نُفيل عن رسول الله ﷺ باللفظ الذي أخرجه به البخاري ثم رواه مسلم من طريق الحسن العرني عن عمرو بن حريث عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل قال: قال رسول الله ﷺ: الكمأة من المنِّ الذي أنزل الله تبارك وتعالى على بني إسرائيل وماؤها شفاء للعين وفي لفظ لمسلم من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: الكمأة من المن الذي أنزل الله على موسى وماؤها شفاء للعين. أما السَّلوى فهو طير قال البخاري في صحيحه في كتاب التفسير: وقوله تعالى: ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولَٰكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾. وقال مجاهد: المَنُّ صَمْغَةٌ والسَّلْوى طير اهـ قيل هو المعروف بالسُّمّاني وقيل هو يشبه السماني وقيل هو مثل الحمامة وهذه الطيور التي فُسِّرَ بها السلوى متقاربة. وفي قوله عز وجل: ﴿وأنزلنا عليكم المن والسلوى﴾ رَدٌّ على من زعم أن (أنزل) تكون في ما نزل جملة وأن (نزّل) تكون في ما نَزَلَ على التدريج لأنه لا نزاع أن المن والسلوى كانت تنزل على التدريج وهم يضطرون إلى تأويل نحو قوله عز وجل: ﴿وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم﴾ بأن القرآن نزل جملة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ثم نزل على التدريج في ثلاث وعشرين سنة منجَّما بحسب الوقائع، وهو مذهب غير سديد ذهب إليه الذين ينكرون كلام الله من أهل الأهواء، وقد ردَّ عليهم مفتي الديار السعودية السابق العلامة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله في رسالة مطبوعة، وقال القرطبي في تفسير سورة القدر بعد أن ذكر ما قيل من أن القرآن نزل جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ

إلى سماء الدنيا إلى بيت العـزة وأملاه جبريل على السَّفَرة ثم كان جبريـل يُنَزِّله علي النبي ﷺ نجوما نجـوما ثم قال القرطبي : قال ابن العـربي : وهذا باطل ليس بين جبريل وبين الله واسطـة ولا بين جبريل ومحمـد عليهما الســلام واسطة اهـ ومما يؤيد أنه لا فـرق بين أنزل ونَزَّل إلا في تلوين الأسلوب ما ذكره الله عز وجل عن العرب وهم أهل اللسان حيث قالوا : «لولا نُزِّلَ عليه القرآن جملة واحدة» فهم أعـرف خلق الله باللسان العربي وسألـوا : لماذا لم ينزل عليه القرآن جملة واحدة ؟ فاستعملـوا نزَّل في نزول الشئ جملة لا في التدريج مع أن الأمر في ذلـك واسع كما بينت آنفا . وقـوله عز وجـل : ﴿كلوا من طيبـات ما رزقناكم﴾ أي تَمَتَّعُوا بـالأكل من مستلذات ومشْتَهيَاتِ ما تفضلنـا به عليكم من المن والسلـوى . وقولـه عـز وجل : ﴿وما ظلمـونـا ولٰكن كانـوا أنفسهم يظلمون﴾ أي لم يشكروا هـذه النعمة العظيمة الجليلة وقـالوا : لن نصبر على طعام واحد يا موسى ادع لنا ربك يخرج لنـا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلهـا . وهم بكفرهم هذه النعمة لن يَضُرُّوا الله شيئا وإنما يضرون أنفسهم بارتكابهم ما يجلب لهم خزي الدنيا وعذاب الآخرة فإن العباد لـو كانـوا على أتقى قلب رجل مـا زاد ذلك في ملك الله شيئا ولـو كانـوا على أفجـر قلب رجل ما نقص ذلك من ملك الله شيئـا ، وإنما أفعال العبـاد من الخير والشر راجعة إليهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره . وقـوله عز وجل : ﴿وإذ قلنـا ادخلوا هٰذه القرية فكلـوا منها حيث شئتم رغـدا﴾ أي واذكروا إذ أمـرنا بني إسرائيل بـدخول بين المقـدس وسُميَّ قـريـة لما فيه مـن التقري والسكـون والاجتماع ، من قـولهم : قَـرَيتُ الماء في الحوض أي جمعته وقـد سمى الله عز وجل مكة قـرية في قوله تبـارك وتعالى : ﴿وكأيِّن من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾ كما سمى رسول الله ﷺ المدينة المنورة قريـة في قوله ﷺ : «أمرت بقرية

تأكل القـرى» وقد رواه البخـاري ومسلم في صحيحيهما . وقـوله : ﴿فكلـوا منهـا حيث شئتم رغـدا﴾ أي فقـد يسَّرتُ فيها ألـوان العيش الـرغيـد الكثير الـواسع ، والأمر في قـولـه : ﴿فكلوا﴾ لـلإبـاحة . وقـولـه : ﴿رغدا﴾ صفـة لموصـوف محذوف تقـديره : أكـلا رغـدا أي واسعـا لا حجْـر فيه ، وقـولـه : ﴿وادخلوا الباب سجدا﴾ أي وادخلوا باب هذه القرية واسجدوا لله عز وجل شكرا على نعمائه . وقـوله عز وجل : ﴿وقـولوا حطـةٌ﴾ أي واطلبوا من الله أن يحط عنكم خطايـاكم ويغفر لكم سيئاتكـم ، وقوله عـز وجل : ﴿نغفر لكم خطاياكم وسنـزيد المحسنين﴾ أي إذا فعلتم ما أمرناكم غفـرنا لكم سيئاتكم ومحونـا عنكم ذنوبكـم وزدناكم من الخيرات والحسنـات على حـد قـوله عـز وجل : ﴿وإذ تأذن ربكم لئـن شكـرتم لأزيـــدنكم ولئن كفـرتـم إن عـذابي لشديـد﴾ ، وقولـه عز وجل : ﴿فبدل الـذين ظلموا قـولا غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجـزا من السماء بما كانوا يفسقون﴾ أي فحرَّف هؤلاء الظالمون لأنفسهم وغيَّرُوا الأمـر الذي أمـرهم الله به فَبَـدَلَ أن يدخلـوا الباب سجدا دخلوا يزحفون على أستاههم ، وبَدَل أن يقولوا حطة قالوا : حنطة فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : قيل لبني إسرائيل : ادخلوا البـاب سجدا وقولوا حطة فدخلـوا يزحفون على أستاههم فبدلوا وقالـوا : حطّةٌ حبّةٌ في شَعَرةٍ ورواه مسلم من حديث أبي هـريـرة رضي الله عنه قـال : قـال رسـول الله ﷺ : قيل لبني إسرائيل ادخلـوا الباب سُجَّدًا وقولوا حطةٌ يُغْفَر لكم خطايـاكم فبدَّلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وقالوا : حبَّةٌ في شَعَرَةٍ . وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي الحرص على تأديـة الألفـاظ والأفعـال التي يطلبهـا الشرع من العبـاد من غير تبـديل ولا تحريف بقدر الاستطاعة لقـول رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذي بسند صحيح من حـديث عبدالله بن مسعـود رضي الله عنـه قال : سمعت رسـول الله ﷺ

يقول : نَضَّر الله امرأً سمع منا شيئا فبلَّغه كما سمعه فَرُبَّ مُبَلَّغ أوعى له من سامع . كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : إذا أتيت مَضْجَعَك فتوضأْ وُضُوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ، وقل : اللهم أسلمت نفسي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رهبة ورغبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلتَ ، ونبيك الذي أرسلتَ فإن مُتَّ مُتَّ على الفطرة ، فاجْعَلْهُنَّ آخر ما تقول ، فقلت أسْتَذْكِرُهُنَّ : وبرسولك الذي أرسلت ، قال لا: وبنبيك الذي أرسلت . فهذا الحديث يدل على أنه لا ينبغي تغيير الألفاظ الشرعية ولا سيما في الدعاء ، ولذلك لما غيرَّ بنو إسرائيل وبدلوا قولا غير الذي قيل لهم عاقبهم الله عز وجل ، وقوله تعالى : ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون﴾ أي فَسَلَّطْناَ على بني إسرائيل عذابا وأرسلناه عليهم من السماء بسبب فسقهم وخروجهم على أوامر الله ، فلما بدلوا نعمة الله كفرا أنزل عليهم بدل المن والسلوى عذابا ، وقوله : ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا﴾ فوضع الظاهر موضع الضمير إذ الأصل أن يقال : فأنزلنا عليهم لتسجيل هذه الصفة القبيحة عليهم وهي الظلم والتعدي ووضع الأمور في غير موضعها .

وقد ساق الله تبارك وتعالى في مواضع من كتابه الكريم قصة أمرهم بدخول القرية وأن يأكلوا منها حيث شاءوا وما كان منهم من مخالفة الأوامر الشرعية وتحريفهم للكلم من بعد مواضعه حيث ذكر هذه القصة في سورة البقرة ، وذكرها كذلك في سورة المائدة حيث يقول عن حديث موسى عليه السلام معهم : ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسةَ التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين * قالوا : يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون * قال رجلان من

الـذين يخافون أنعـم الله عليهما : ادخلوا عليهم البـاب فإذا دخلتمـوه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلـوا إن كنتم مؤمنين* قالوا يا موسى إنـا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون * قال : رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافـرق بيننا وبين القوم الفاسقين * قـال : فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ وقال عز وجل في سورة الأعراف : ﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هٰذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقـولـوا حطة وادخلـوا البـاب سجَّـدا نغفـر لكم خطيئاتكم سنـزيـد المحسنين * فبدَّل الذين ظلموا منهم قـولا غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانـوا يظلمون﴾ وقوله عـز وجل : ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فـانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كلُّ أناس مشربهم﴾ وهذا تـذكير لنعمة أخرى من نعم الله التي أنعم بها على بني إسرائيل وقد كفروها ولم يشكروا الله عليها مع أنها معجـزة ظاهرة، وآية قاهرة وحجـة بـالغـة ، أي واذكـروا يـا بنـي إسرائيل نعمـة الله عليكم إذ أصـابكم العطش واحتجتم للشرب فطلب مـوسى عليـه السلام من ربـه السُّقْيـا لكم فأمره الله عز وجل أن يضرب بعصاه الحجر فضرب موسى عليه السلام الحجر بعصاه . فانفجـرت وانبجست منه اثنتا عشرة عينا بعـدد أسباط بني إسرائيل لكل سبط منهم عين حتى لا يتشاحنـوا ولا يتنازعـوا على الماء حيث قد علم كل سبط من أسبـاط بني إسرائيـل العين التي اختصَّ بها ، وقـد قطَّعَهُم الله اثنتى عشرة قبيلـة كل قبيلة تنتمي إلى ولـد من أولاد يعقوب عليـه السلام كما قـال عز وجل : ﴿وقطعنـاهم اثنتى عشرة أسبـاطا أممـا﴾ وقـوله عـز وجل : ﴿كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسـدين﴾ أي قد يسرنا لكم طعامكم وشرابكم رزقا من عندنا وفضلا تفضلنـا به عليكم فاعرفوا نعمة الله ولا تكفروهـا ولا تفسدوا في الأرض متعمـدين الإفساد فيهـا . فالعيـث شدة

الفسـاد يقال: عثِي يَعْثَى عُثِيًّا وعثَـا يَعْثُـو عُثُواً وعَـاثَ يَعِيثُ عَيْثاً وعُيُوثـاً ومَعَاثاً، ويقـال أيضا عَثَّ يَعُثُّ ومنه العُثَّةُ وهي سُوسَةٌ تفسـد الصوف. وما أشبه اليهـود بهذه السوسة لعنهم الله. وقـوله عز وجل: ﴿مفسـدين﴾ حال مؤكـدة لمعنى عاملهـا كقولـه: ثم وليتم مدبرين كـأنه قيل لهم: لا تتمادوا في الفساد حـال كونكم مفسـدين. هذا وليـس هناك دليل على أن هـذا الحجر الذي ضربـه موسى عليه السـلام بعصاه هو حجـر كان يحمله مـوسى عليه السلام معـه، بل الظاهر أنه حجـر كا ن قريبـا منه عندما أمـره الله عز وجل بضربـه لتنبيه بنـي إسرائيل إلى أن قلوبهم قـد تقسـو فتكون أشـد قسـوة من الحجارة إذ أن بعض الحجـارة قد تتفجر منـه الأنهار وليس هو الحجـر الذي وضع موسى عليـه ثيابه لما أراد أن يغتسل فهرب الحجر بثيـابه حتى وقف بها على ملإ بني إسرائيل لدفع أذى عن موسى عليه السلام، فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن موسى عليه السلام كـان رجلا حَيِيًّا ستيرا لا يـرى من جلده شيء استحياء منـه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالـوا: ما يتستر هذا التستر إلا من عيب في جلـده إما برص وإمـا أدرة وإما آفة وإن الله عـز وجل أراد أن يبرئه مما قالـوا لموسى عليه السلام فخلا يوما وحـده فخلع ثيابه على حجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثـوبي حجر ثوبي حجر حتى انتهى إلى مـلإ بني إسرائيل فرأوه عريـانا أحسن ما خلق الله. الحديث. فذلـك قوله: ﴿يا أيها الذين آمنـوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها﴾.

قال تعالى: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، اهبطوا مصرا فإنَّ لكم ما سألتم، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله، ذٰلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق، ذٰلك بما عصوا وكانوا يعتدون * إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

هذا تذكير آخر لجناية أخرى من جنايات بني إسرائيل من كفرانهم لنعم الله، ومَعْصِيَتهم لرسل الله وإخلادِهم للدناءة والخسَّة، مع اتصافهم بأكبر الجنايات بعد عبادتهم للعجل وهي قتل الأنبياء، وقد وُجِّه الخطاب هنا للمعاصرين لرسول الله ﷺ لاتحادهم مع آبائهم في الخسة والدناءة وعداوة الأنبياء والمرسلين، وقوله عز وجل: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل ما قال آباؤكم لموسى عليه السلام: لن نرضى بالاستمرار على تناول طعام واحد ولن نحبس أنفسنا على المن والسلوى. وسُمي المنُّ والسَّلوى طعاما واحدا مع أنهما نوعان لتكرارهما كلَّ يوم وفي كل غذاء على وتيرة واحدة، ومن الأساليب العربية أنك تقول لمن يداوم على الصلاة والصيام وأعمال البر الكثيرة: هو على أمر واحد، ولو أن الإنسان قُدِّ م له في مائدته لأيام متطاولة ألوان كثيرة مُعَيَّنَةٌ لا يتخلف منها شيء ولا يُزَادُ عليها شيء لَصَحَّ له أن يقول: نحن نعيش على طعام واحد. أي ما نتناوله من الطعام ثابت على وتيرة واحدة. والعَجِيبُ أن المنَّ والسلوى مضرِبُ المثل في ألذ أنواع الأطعمة وأشهاها وأنفعها فإن هؤلاء أعلنوا لموسى

عليه السلام أنهم لن يصبروا عليها، فأنت تقول للئيم الذي لا يُقَدِّرُ النعمة: لو أطعمته المنَّ والسلوى ما أثمر فيه، وكذلك طِباعُ هؤلاء، والطعام قد يُطْلَقُ على ما يؤكل ويُشربُ، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في كتابه الكريم في قصة طالوت رحمه الله حيث يقول: ﴿إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده﴾ فسمى تناول ماء النهر طعاما. وكذلك قال الله تبارك وتعالى في قصة من مات من المؤمنين قبل تحريم الخمر ممن كانوا يشربونها: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين﴾ فسمى شرب الخمر طعاما، وقد وصف رسول الله ﷺ ماء زمزم بأنه طعامُ طُعْم كما أثر الإمام أحمد رحمه الله ذلك في مسنده، وقوله تعالى: ﴿فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها﴾ أي قالوا لموسى عليه السلام: فاسأل ربك وقل له أخرج لنا من نبات الأرض المحبوب لنا يخرج من بقلها وقثائها وفومِها وعدسها وبصلها، والبقل ما تنبته الأرض من الخضر كالكراث والكرفس والنعناع، والقثَّاء معروف ومنه الخيار، والفوم هو الثوم عند كثير من أهل العلم، وقد استدل من ذهب إلى أن الفوم هو الثُّوم ببيت لحسان رضي الله عنه يقول فيه:

وأنتم أُناسٌ لِئَامُ الأصول طعامكموا الفُوم والحَوْقَلُ

قال القرطبي رحمه الله: يعني الثوم والبصل وقيل هو الحنطة. والعدس معروف وكذلك البصل، وقد كان رسول الله ﷺ يمتنع عن أكل البصل ونحوه كالكراث والفجل ولكنه أباحه ﷺ لأصحابه في غير وقت الصلاة، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: من أكل ثوما أو بصلا فليعتزلنا

— أو قال : — فليعتزل مسجدنا أو ليقعُدْ في بيته ، وإن النبي ﷺ أتي بِقِدْرٍ فيه خَضِرَاتٌ من بقول . فَوَجدَ لها ريحا ، فقال : قرِّبُوها إلى بعض أصحابه وقال : كلْ فإني أناجي من لا تناجى ، كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي أيوب رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتي بطعام أكلَ منه وبعث بفضله إليَّ ، وإنه بعث إليَّ يوما بقصعة لم يأكل منها لأن فيها ثوما . فسألته : أحرامٌ هو ؟ قال : لا ولكن أكرهه من أجل ريحه . قال : فإني أكره ما كرهت . وقوله تعالى : ﴿أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير﴾ أي أتأخذون لأنفسكم وتختارون لها الذي هو أخس خطرا وقيمة وقدراً من العيش بَدَلاً بالذي هو خير منه خطرا وقيمةً وقدرا ، وترغبون في الثوم والبصل والعدس والبقول بَدَل المن والسلوى ، وأصل الاستبدال هو ترك شيء لآخر غيره مكان المتروك ، ومعنى أدنى أي أخس وأوضع وأصغر قدرا وخطرا يقال : رجل دَنِيٌّ إذا كان خسيساً أو يتبع الأمور الخَسيسةَ . قال ابن جرير رحمه الله : ولا شك أن من استبدل بالمن والسلوى البقل والقثاء والعَدَسَ والبصلَ والثُّومَ فقد استبدل الوضيع من العيش بالرفيع منه . اهـ وقوله تعالى : ﴿اهْبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم﴾ أي انزلوا الأرض المقدسة وادخلوا بيت المقدس فإنكم تحصلون فيه على ما تشتهون من البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل ، والمصر في اللغة المدينة ، وقوله تعالى : ﴿وضربت عليهم الذِّلَّةُ والمسكنة وباءوا بغضب من الله﴾ أي فأبدلهم الله عز وجل بالعز ذلا وبالنعمة بؤسا وبالرضا عنهم غضبا فمعنى ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾ أي وجعلت عليهم وألزموها وقضي عليهم بهما . والذِّلة الذُّلُّ والهوان والصَّغار والمسكنة أثر الفقر من السكون والخضوع والخزي فهي لازمة لهم محيطة بهم ولو كانوا أغنياء فلا يوجد يهودي على الأرض غنيَّ النفس ولا ترى أحدا من أهل الأديان أذل ولا أحرص على المال من اليهود قبحهم الله

ولعنهم، ومعنى: ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ أي رجعـوا وانقلبوا بسخط من الله، وباء بالشيء ألزم نفسه به، ولا تستعمـل إلا موصولة بخير أو شر كقوله عـز جل: ﴿إني أريـد أن تبوء بإثمـي و إثمك﴾ أي تنصرف وترجع حـامـلا لإثمي و إثمك، وكقول رسول الله ﷺ: «أبـوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي فـاغفـرلي فإنـه لا يغفـر الـذنـوب إلا أنت» قـال بعض أهل العلم من أهل التفسير والتأويل: إن الكـلام من قـولـه تعـالى: ﴿وضربت عليهم الـذلـة والمسكنة وباءوا بغضب من الله﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ معترض في خلال القصص المتعلقة بحكاية أحوال بني إسرائيل الذين كانوا في عهد موسى، يدل على هـذا قوله: ﴿ذٰلك بأنهم كانوا يكفرون بآيـات الله ويقتلون النبيين﴾ فإن قتل الأنبياء لم يكن من الموجـودين في عهد موسى عليه السلام وإنما كان من فـروعهم وذريتهم اهـ وقوله تعالى: ﴿ذٰلك بأنهم كـانوا يكفـرون بآيـات الله ويقتلون النبيين بغير الحق، ذٰلك بما عصـوا وكانوا يعتدون﴾ أي ذلك الجزاء الذي جزينـاهـم به من ضرب الذلة والمسكنة عليهم ورجوعهم بغضب الله وسخطه وقع عليهم بسبب كفرهم بآيات الله، وتكـذيبهم للمرسلين، وقتلهم أنبيـاء الله المعصومين من الخطـايا والمعـاصي والسيئات الذين لا يصدر عنهم شيء يستحقـون به أدنى عقوبة فمن قتلهم كان أبشع القتلـة وأعظمهم جرمـا وإثما، فشر الناس على الإطـلاق هم قتلة الأنبياء، والنبي من بعثه الله بشريعة جديدة يدعو إليها أو بعثه لتقرير شريعة سابقة والرسـول من بعثه الله بشريعة جديدة يدعـو إليها، والنبي أعـم مطلقا بالنسبـة للرسـول، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسـولا، وقولـه عز وجل: ﴿بغير الحق﴾ للتشنيع على اليهود لعنهم الله إذ أنَّ منْ سلمت فطرته لا يخطر على بـالـه أن نبيا من أنبيـاء الله يستحق أن يقتل، قـال الإمـام أحمد رحمه الله حدثنا عبـدالصمد حدثنا أبان حدثنـا عاصم عن أبي وائل عن عبدالله يعني

ابن مسعـود رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قـال: «أشدُّ النـاس عـذابا يـوم القيامة رجل قتله نبيٌّ أو قتل نبيا وإمام ضلالة، وممثل من الممثلين» وقد أكد الله تبارك وتعالى فظاعة جرم قتلـة الأنبياء في كتابه الكريم حيث يقول: ﴿إن الذيـن يكفرون بآيـات الله ويقتلون النبيين بغير حـق ويقتلون الذي يـأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعـذاب أليم * أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيـا والآخرة ومالهم من ناصريـن﴾ كما أكَّد أن اليهود رعاديـد جبناء وأنهم ضربت عليهم الذلـة والمسكنة في أي مكـان كانـوا من الأرض إلا ما يصيبهم أحيانا من عون بعض أعداء الله لهم حربا للإسلام والمسلمين في بعض فترات التاريخ حيث يقول: ﴿لن يضروكم إلا أذًى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون * ضربت عليهم الـذلة أين ما ثقفـوا إلا بحبل من الله وحبل من النـاس وبـاءوا بغضب من الله وضربت عليهـم المسكنـة ذُلك بأنهم كـانـوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبيـاء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ والحبل الذي قـد يمدون به من الله إنما يكـون بسبب تقصير من يسلَّط اليهودُ عليهم بسبب تقصير هــؤلاء المسلمين في حق الله وتفــريطهم في جنب الله، فهم لم ينتصروا على المسلمين ويحتلـوا بيت المقـدس في عصرنا بشجـاعتهم، وإنما بذنـوبنا وتفـرق كلمتنا لأنـه إذا عصى الله من يعرفه سلـط عليه من لا يعرفه، وقوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صـالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ هذه قاعدة قضى الله عز وجل بها وهي تشمل جميع أجناس المكلفين في جميع الأعصـار والأمصـار وهي أنــه لا يستحق أجـر الله وحسن مثوبتـه والنعيم المقيم في جنات النعيم إلا مـن آمن بالله واليوم الآخـر وعمل الصالحات، فآمن بجميع النبيين وصدَّق جميع المرسلين وعلى رأسهم شيخهم وإمامهـم وسيدهم محمد بـن عبدالله ﷺ الذي قضـى الله بأنه بعد بعثتـه لن

يدخل الجنة أحد إلا من طريقه واتباع منهجه وسنته والعمل بشريعته كما جاء في الأثر القدسي: «وعزتي وجلالي لو جاءوا من كل طريق واستفتحوا من كل باب ما فتحت لهم إلا أن يجيئوا من طريقك» ولا شك أن عيسى ابن مريم عليه السلام عندما ينزل في آخر الزمان يلتزم الحكم بمنهج محمد رسول الله ﷺ، وقوله عز وجل: ﴿إن الذين آمنوا﴾ يعني المسلمين من أمة محمد ﷺ وقوله: ﴿والذين هادوا﴾ قال البخاري في صحيحه: هادوا: صاروا يهوداً، والنصارى هم المُدَّعون أنهم على دين المسيح منسوبون إلى نصرانة قرية المسيح عليه السلام فإنها يقال لها الناصرة ويقال لها: نصرانة والصابئون هم عبدة النجوم والكواكب والملائكة، وقد كان العرب يطلقون اسم الصابئ على المائل عن دين إلى دين آخر حتى كانوا يلقبون أفضل الخلق بعد الأنبياء أصحاب محمد ﷺ بالصباة ويسمون خاتم المرسلين : الصابئ لأنه خالف دينهم ﷺ، وقوله عز وجل: ﴿من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي لا سعادة ولا فلاح ولا فوز لأي طائفة من الطوائف ولا لأي فرد من الأفراد المكلفين إلا إذا حقَّقُوا الإيمان بالله في أنفسهم وآمنوا بالبعث بعد الموت، والتزموا بالعمل الصالح، وقد اشترط الله عز وجل لصحة العمل وصلاحه شرطين أساسيين الأول أن يكون خالصا لوجه الله والثاني أن يكون صوابا أي على منهج رسول الله محمد ﷺ ولذلك قال عز وجل: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ فمن حقق هذ الأمور فإنه يكون من أولياء الله الذين قال فيهم: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ وكما قال: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾.

قال تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون * ثم توليتم من بعد ذٰلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين * ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين * فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين﴾.

هذه حكاية جناية أخرى من جنايات بني إسرائيل ونقضهم للعهود والمواثيق وأنهم لا يستقرون على عهد ولا يستقيمون على ميثاق على حد قوله تبارك وتعالى فيهم: ﴿أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ وقوله عز وجل: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل وقت أخذنا عليكم العهد الموثق بأن تحافظوا على الشريعة وأن تؤيدوا المرسلين، وأن تؤمنوا بما يبعث الله من نبي وما يرسل من رسول، وجعلنا لكم آية حسية للدلالة على قدرتنا عليكم وأنكم لا تستطيعون الإفلات من عقوبة الله إن عصيتم أمره وكذبتم رسله إذ رفعنا الجبل فوق رءوسكم كأنه سحابة تظللكم، حتى صرتم في رعب وفزع تخشون أن يسقط عليكم فيهلككم، وأمرناكم والحالة هذه أن تحافظوا على الشريعة وأن تلتزموا بأحكام التوراة ووصاياها وأن تجتهدوا في تنفيذ أوامر الله وطاعة المرسلين لكي تجعلوا لأنفسكم وقاية من عذاب النار وسخط الجبار، وأخذ الميثاق في قوله تعالى: ﴿أخذنا ميثاقكم﴾ هو إلزامهم بالعهد الموثق، والتزامهم به، وقوله: ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ أي نتقنا فوقكم الجبل حتى صار كأنه ظلةٌ، والطور الجبل كما فسرته آية الأعراف في قوله تعالى: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة﴾ وبعض أهل اللغة يخصون الطور بالجبل الذي ينبت، فإنه يسمى

جبلا ويسمى طورا، أما الجبل الذي لا ينبت فإنه يسمى طَوْدا، وقوله عز وجل: ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ أي خذوا ما أنزلنا عليكم من الشريعة بجدٍّ وعزيمة ونشاط واجتهاد. وقوله عز وجل: ﴿واذكروا ما فيه﴾ أي احفظوه ولا تنسوه واجعلوه دائما على ذُكْرٍ منكم بالعمل به وتطبيق ما فيه على شئون معاشكم ومعادكم. وقوله عز وجل: ﴿لعلكم تتقون﴾ أي لكي تجعلوا لأنفسكم وقاية من سخط الله وعذابه ولتنتظموا في عداد عباده المتقين وقوله عز وجل: ﴿ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾ أي ثم نقضتم الميثاق وأعرضتم عن الوفاء بها التزمتم به من بعد توكيده، فلولا إحسان الله وجودُه وفضله عليكم بإمهالكم وعدم معاجلتكم بالعقوبة ولولا حلم الله ورحمته لكنتم من الهالكين الذين ضيعوا دنياهم وأخراهم، وخسروا العاجلة والآجلة. وقوله عز وجل: ﴿ولقدعلمتم الذين اعتدوْا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ أي ولقد علمتم وعرفتم قصة أهل القرية التي كانت حاضرة البحر إذ ابتلاهم الله عز وجل وامتحنهم فكانت الحيتان ترفع رءوسها فوق الماء مقبلة على الساحل يوم السبت ويسهل على من يريد صيدها أن يَصيدَها. والصيد محرم عليهم يوم السبت فإذا ذهب يومُ السبت اختفت من الماء القريب منهم فلا يرونها إلى السبت الآخر فاحتالوا على صيدها بوسائل كأن يحفروا حياضا كبيرة تتصل بالبحر فتدخلها الحيتان يوم السبت ولا تستطيع الرجوع إلى البحر فيصيدونها يوم الأحد والأيام الأخرى غير السبت ثم تجاهروا بالمعصية وصاروا يصيدون يوم السبت، فوعظهم بعض الواعظين وذكروهم وخوفوهم عقوبة الله فلم يتعظوا، وقالت طائفة من بني إسرائيل: لم تعظون هؤلاء وهم مستحقون لعقوبة الله؟ فقال الواعظون: إنها وعظناهم معذرة إلى الله ولعلهم يرجعون عن ضلالهم، فلا نيأس من رحمة الله، فلما عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عنه قال الله

للمعتدين: كونوا قردة خاسئين، فمعنى قوله عز وجل: ﴿علمتم﴾ أي عرفتم يا بني إسرائيل، والخطاب لمعاصري رسول الله محمدﷺ من بني إسرائيل وقوله تعالى: ﴿الذين اعتدوا منكم في السبت﴾ أي الذين تجاوزوا الحدَّ الذي وجب عليهم أن ينتهوا عنده فلم ينتهوا بل انتهكوه والمراد بالسبت يوم السبت، وكان قد حرم عليهم الصيد فيه، وقوله عز وجل: ﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ أي فصيرناهم قردة صاغرين مطرودين من شرف الإنسانية إلى أخوة القردة والأمر هنا في قوله تعالى: ﴿كونوا﴾ هو أمر كوني أي إنما قلنا لهم كونوا قردة فصاروا قردة، ويعبر البلاغيون عنه بأنه أمر تسخير وتكوين، والأمر الكوني لا يتخلف على حد قوله تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾ وقد هلك هؤلاء الممسوخون بعد ذلك ولم يبق لهم نسل كما روى مسلم في صحيحه من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قالت أمُّ حبيبة: اللهم مَتِّعْنِي بزوجي رسول الله ﷺ وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية، فقال لها رسول الله ﷺ: إنك سَأَلْتِ الله لآجال مضروبة وآثار مَوْطوءَةٍ وأرزاقٍ مقسومة، لا يُعَجِّلُ شيئا منها قبل حِلِّه ولا يؤخر منها شيئا بعد حِلِّه، ولو سألت الله أن يعافيك من عذابٍ في النار وعذابٍ في القبر لكان خيراً لك، قال: فقال رجل: يا رسول الله، القردةُ والخنازيرُ هي مما مُسِخَ ؟ فقال النبي ﷺ: إن الله عز وجل لم يُهْلِكْ قوما أو يُعَذِّبْ قوما فَيَجْعَلَ لهم نَسْلاً وإنَّ القردةَ والخنازيرَ كانوا قبل ذلك اهـ أما ما يدعيه الملحد الزنديقُ (داروين) في نظريته الإلحادية في (التطور والارتقاء) بأن الإنسان نفسه من سلالة القرود، فهو قول كاسد فاسد عاطل باطل مردود، ولا يرضى به إلا الزنادقة الملاحدةُ الدهريون المنتكسون. وكَوْنُ القرود أقدر الحيوانات العجماوات على تقليد الإنسان في بعض الحركات لا يفيد أنها أصل الإنسان، والناس يشاهدون في جهات شتى من العالم ألوانا من القرود

يعتني بها ويلبسها أصحابها الديباج ومع ذلك لم تخرج عما عرفت به من آلاف السنين، وما ثبت في صحيح البخاري الذي أورده في باب أيام الجاهلية من حديث عمرو بن ميمون رحمه الله قال: رأيت في الجاهلية قردة اجتمع عليها قِرَدة قد زنت فرجموها. فإن هذا لا يدل على رابطة بين الإنسان والقرود، وقد أشار الله عز وجل إلى أنه أعطى كل شيء خَلْقَه ثم هدى، وقال تبارك وتعالى: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾.

وقوله عز وجل: ﴿فجعلناها نكالا﴾ أي فصيرنا هذه العقوبة بمسخ هؤلاء المعتدين قردةً عبرة ورادعا وزاجرا، فالنَّكالُ الزجر والعقاب، والنَّكالُ والنُّكْلَةُ والمَنْكَلُ ما نكَّلْتَ به غيرَكَ والنِّكْلُ القَيْدُ الشديد، ويقال: نكَّل به تنكيلا أي صنع به صنيعا يُحَذِّرُ به غيره. وقوله عز وجل ﴿لما بين يديها وما خلفها﴾ أي عبرة لمن عاصرهم ولمن يجيء بعدهم ممن يعلم خبرهم ويعرف قصتهم، فلا يقعون في مثل ما وقعوا فيه من معصية الله ومخالفة أمره والاحتيال في نقض شرعه، وكما قال عز جل في فرعون لعنه الله ﴿فأخذه الله نَكَالَ الآخرة والأولى﴾. وقوله عز وجل: ﴿وموعظةً للمتقين﴾ أي عبرة وزاجرا وتخويفاً للمتقين الذين يخافون الله ويخشَوْنَ عقوبته، وخَصَّ المتقين بالذكر لأنهم هم الذين يعتبرون ويحرصون على سلامة أنفسهم ووقايتها من عذاب الله، وصيانتها من أسباب سَخَطِه. وكما قال عز وجل: ﴿إن في ذلك لعبرةً لمن يخشى﴾ وقد ساق الله تبارك وتعالى قصة أخذ الميثاق على بني إسرائيل. ورفع الجبل فوقهم وما كان منهم من نقض الميثاق، ومعصيتهم للأنبياء والاعتداء في السبت في غير موضع من كتابه الكريم بحسب مقتضيات الأحوال من الإيجاز والإطناب والمساواة فقال تبارك وتعالى في سورة البقرة أيضا: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا: سمعنا وعصينا، وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل

بئسما يأمركم بـه إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾ وقـال عز وجل : ﴿ورفعنـا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سُجَّدا وقلنا لهم : لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظـا * فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلـوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فـلا يؤمنون إلا قليلا﴾ وقال عز وجل : ﴿وإذ نتقنا الجبل فـوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا مـا آتينـاكـم بقوة واذكروا مـا فيه لعلكم تتقـون﴾ وقال عـز وجل : ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتـانهم يوم سبتهم شُرَّعـا ، ويوم لا يسبتـون لا تأتيهم ، كذلك نبلـوهم بما كانوا يفسقـون * وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قـوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابـا شديـدا قالوا معـذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون * فلما نسـوا ما ذكـروا به أنجينا الـذين ينهون عن السوء وأخذنـا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كـانوا يفسقون * فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين * وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يـوم القيامـة من يسـومهم سوء العـذاب ، إنَّ ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ ولقد ابتلى الله تبارك وتعالى أصحاب محمد ﷺ في نحو مـا ابتلى به بني إسرائيل فنجح أصحـاب محمد ﷺ في الامتحـان وفازوا فيه ، حيث حرَّم على المسلمين صيد البَرِّ وهم حُرُمٌ وقد خرج أصحاب رسول الله ﷺ عام الحديبية يريـدون البيت الحرام وهم محرمون فجعل الصيد يسقط عليهم تنالـه أيديهم ورماحهم فعصمهم الله عز وجل من تنـاوله وحماهم من معصية أمره سبحانه وتعالى وفي ذلك يقول الله عز وجل في سورة المائدة : ﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تنـاله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بـالغيب فمن اعتدى بعد ذلـك فله عذاب أليم﴾ هـذا وتذييل قوله عز وجل : ﴿وإذ أخـذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خـذوا ما آتيناكم بقـوة واذكروا مـا فيه﴾ بقـولـه : ﴿لعلكم تتقون﴾ وتـذييل قـوله عـز وجل :

﴿فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها﴾ بقوله عز وجل: ﴿وموعظة للمتقين﴾ تأكيد ولفت انتباه إلى وجوب الحرص على تقوى الله عز وجل وملازمة الخوف منه والوقوف عند حدوده بتحليل ما أحلَّ وتحريم ما حرَّم، ولذلك جعل الله هدى القرآن للمتقين في صدر سورة البقرة حيث قال عز وجل: ﴿ذٰلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾ وبيَّن أن صلاح الأعمال واستجلاب فرج الله والانتصار على الأعداء إنما يكون بتقوى الله عز وجل حيث يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ وقال عز وجل: ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرًا * ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا﴾ وقال عز وجل ﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم﴾.

قال تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ؟ قال: إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذٰلك فافعلوا ما تؤمرون * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ؟ قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ؟ إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون * قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها، قالوا الآن جئت بالحق، فذبحوها وما كادوا يفعلون * وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون * فقلنا اضربوه ببعضها، كذٰلك يحي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾.

هذه قصة أخرى من قصص بني إسرائيل مع موسى عليه السلام لتسجيل تَعَنُّتِهم، وتَنَطُّعِهم وجَفَائهم وسُوء أخلاقهم في التعامل مع كليم الله موسى ابن عمران عليه السلام أحد أولى العزم من المرسلين عليهم صلواتُ الله وسلامه، وفيها كذلك معجزة من المعجزات الحسية التي جعلها الله عز وجل لموسى عليه السلام في إحياء قتيل بني إسرائيل الذي ادَّارَءُوا فيه وتخاصموا وتدافعوا، وفي هذه القصة توبيخ وبَّخَ الله به بني إسرائيل المعاصرين لرسول الله محمد ﷺ الزاعمين أنهم أولى بالرسالة من النبي العربي الأمي حبيب الله ورسوله وسيد خلقه وأفضل رسله عليهم جميعا الصلاة والسلام وتذكيرٌ لهم بجنايات أسلافهم، وإذا كان هذا التنطع والتعنت يصدر من أسلافهم أصحاب موسى عليه السلام فما بالكم بهؤلاء الأخلاف الوارثين لجهالات آبائهم وأحقاد أسلافهم الذين وضعوا لهم التلمود المملوء بالازدراء والحقد والكراهية لجميع بني آدم عدا بني إسرائيل، وسياق هذه الآيات الكريمة

يدل على أنه حـدث أن قُتِلَ قتيلٌ من بني إسرائيل ولم يعرفوا القـاتل وتدافعوا وتنازعـوا واختلفوا فيـه وكلٌّ فريق منهم يدرأ عن نفسـه أن يكون هـو القاتل حتى سألـوا كليـم الله مـوسى عليـه السـلام أن يطلـب من الله كشفـه لهم، فأخبرهم مـوسى عليه السـلام أن الله يأمـرهم أن يذبحـوا بقرة فبـدأ تَنَطُّعُهم وتعنتهم وجفاؤهم بالنَّيل من موسى عليه السلام وأنه يسخر منهم ويستهزئ بهم ثم التشديد في صفات البقرة المطلوب ذَبْحُهَـا ما هي ؟ ما لونها ؟ ما هي ؟ وهكذا شـدَّدوا فشدَّدَ الله عليهم حتى كـادوا يعجزون عن الحصـول عليها قال شيـخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : استفـاض عن السلف من الصحـابة والتابعين لهم بإحسـان من أنهم أمروا ببقرة مطلقـةٍ فلو أخذوا بقـرة من البقر وذبحوهـا أجزأ عنهم ولكن شـدَّدُوا فشَدَّدَ الله عليهم اهــ وقولـه عز وجل : ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ أي إن الله تبـارك وتعالى يطلب منكم لمعرفة القاتل أن تـذبحوا بقرة. والبقرة اسم لـلأنثى ويقال للذكر من جنسهـا ثور، كناقةٍ وجمل وامرأة ورجل، وقيل البقرة اسم جنس جمعي وهو يفرَّق بينه وبين واحده بالتاء المربوطة وتكون في المفـرد غالبا كبقرة وبقر وشجرة وشجر، وعلى هذا فهي تشمل الذكر والأنثى، والتعبير بقـوله : ﴿اذبحوا﴾ يفيد أن الأصل في البقر أن تـذبح كالغنم كما أن الأصل في الإبل أن تنحر أي تُـذَكَّى بالطعن في منحرها قال ابن المنذر رحمه الله : لا أعلم أحدا حـرَّم أكل ما نحر مما يُذْبَحُ أو ذُبِحَ مما يُنْحَـرُ اهـ وفي قوله عـز وجل : ﴿إن الله يأمركم أن تذبحـوا بقرة﴾ بتصديـر الآية بإسناد الأمـر بذبح البقرة إلى الله عـز وجل وأنه تعالى هـو الآمر بذلك غـايةٌ في وجوب المسـارعة إلى الامتثال، ومع ذلك فإن هـؤلاء السفهاءَ يقولون لموسى عليه السلام : ﴿أتتخذنا هزوا﴾ وهو يشعر باستخفافهم بخبره واستبعادهم لقوله وهو الذي أنقـذهم الله به من العذاب من فرعون وملائه، ومعنى : ﴿أتتخذنـا هزوا﴾ أي أتسخر منا وتستهزئ بنـا ؟ وهذا من جهلهم

بمقام الأنبياء وعدم معرفتهم أخلاق المرسلين، وجَهْلِهِم بحِكَم التشريع قال الماوردي: وإنما أمروا ــ والله أعلم ــ بذبح بقرة دون غيرها لأنها من جنس ما عبدوه من العجل، لِيُهَوِّنَ عندهم ما كانوا يرونه من تعظيمه ولِيُعْلَمَ بإجابتهم ما كان في نفوسهم من عبادته، وهذا المعنى عِلَّةٌ في ذبح البقرة وليس بعلة في جواب السائل ولكنَّ المعنى فيه أن يحيا القتيل بقتل حي فيكون أظهر لقدرته في اختراع الأشياء من أضدادها. اهـ وقوله عز وجل: ﴿قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ أي قال موسى عليه السلام: أستجير بالله وأتحصن به وألتجئ إليه أن يعصمني من هذه الصفة القبيحة التي لا تليق بعوام المؤمنين فهل يتَّصف بها أحد أولى العزم من المرسلين؟ وقد أثبت موسى عليه السلام بهذا القول أن الاستهزاء بالناس إنما هو من أخلاق الجاهلين السفهاء. وقوله عز وجل: ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي؟﴾ أي قالوا لموسى عليه السلام: اسأل لأجلنا ربك أي خالقك ومعبودك يوضِّح لنا صفة البقرة وكم سنها؟ وقولهم: ﴿ربَّك﴾ يشعر بنوع من السفاهة في نفوسهم وعُلُوٍّ في الأرض بغير حق ولو كانوا مستكينين لله عز وجل لقالوا: ربَّنَا ولو قالوا ذلك لشملهم وشَمِلَ موسى عليه السلام، وهذا مثال من أوائل أمثلة تعنتهم مع أنهم في أمس الحاجة إلى الامتثال، لكنها أخلاق بني إسرائيل وتنطُّعُهم. وقوله عز وجل: ﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا فارضٌ ولا بكر عوان بين ذُلك﴾ في قوله ﴿قال إنه يقول﴾ تنصيص لهم على أن هذا الطلب من الله عز وجل وأن موسى إنما عليه البلاغ، وقوله ﴿لا فارض﴾ أي لا مُسِنَّةٌ هَرِمَةٌ على حد قول علقمة بن عوف:

لعَمْرُكَ قد أَعْطيتَ جَارَكَ فَارِضاً … تُسَاقُ إليه ما تَقُوم على رِجْلِ

قال الفيروز آبادي في القاموس المحيط: وفَرَضَت البقرةُ كَضَرَبَ وكَرُمَ فُرُوضاً وفَرَاضَةً طَعَنَتْ في السِّن اهـ وقوله تعالى: ﴿ولا بكر﴾ أي وليست

صغيرة لم تحمل وقولـه : ﴿عوان بين ذُلك﴾ أي وسط ونصَف قد ولـدت بطنا أو بطنين وهي أقوى ما تكون من البقر وأحسنه . قال الجوهري في الصحاح : العـوان النَّصَف في سِنِّها من كل شيء اهـ والإشـارة في قولـه : ﴿بين ذُلك﴾ للمذكور من السِّنَّيْنِ . وقوله عز وجل : ﴿فافعلوا ما تؤمرون﴾ أي فسارعوا إلى امتثـال أمـر الله واذبحـوا البقـرة التـي وصفت لكم ولا تُشَـدِّدُوا فَيُشَـدِّد الله عليكم . وقوله عز وجل : ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها؟﴾ أي فتعنتوا وتنطعوا وقالـوا لموسى عليه السلام : اسأل لنا ربك يوضح لنـا لونها ، واللون واحد الألوان وهـو هيئة كالسواد والبياض والحمرة والصفـرة ، ويقال : فلان مُتَلَوِّنٌ إذا كان لا يثبت على خُلُق واحد ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقعٌ لونها تَسُرُّ الناظرين﴾ فيـه تكرير قوله ﴿قال إنه يقول﴾ للتأكيد على سفاهتهم حيث يُخبَرون أن الأمر بـذلك من الله العلي القدير ومع ذلك لا يسارعون إلى الامتثـال والمبادرة بفعل ما أمروا بفعلـه ، ومعنى ﴿فاقع لونها﴾ أي شديدة الصفرة ، يقال عنـد تأكيد اللون : أصفر فاقع ، كما يقال : أسود حـالك ، وأحمر قانئ وأبيض نـاصع ، ومعنى : ﴿تسر النـاظـرين﴾ أي تـدخل البهجـة والسرور على نفس من ينظـر إليها من حسن لـونها وصفـائه وقوتـه . وقوله : ﴿قـالوا ادع لنا ربـك يبين لنا ما هي؟﴾ أي فَتَعَنَّتُـوا وتَنَطَّعُوا وتَشَدَّدُوا وطلبوا منه أن يسأل ربـه ليبين لهم حَقِيقَتَها حتى تتميز عن جميع ما عداها . وقوله : ﴿إن البقر تشابه علينا﴾ أي الْتبَسَ علينا ، وقوله : ﴿وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾ أي وإنـا إن أراد الله عز وجل هدايتنـا لمهتدون أي لمُوَفَّقُون لمعرفـة صفة البقـرة المطلوبـة من كل وجه . وكـان هذا القـولُ منهم أولَّ قول يُشْعِرُ بقرب عجزهم عن متابعـة السَّيْر في طريق التعنت والتنطع والتشديد . وقوله تعـالى : ﴿قال إنه يقول إنها بقـرةٌ لا ذَلُولٌ تُثيرُ الأرض ولا تسقى الحرثَ مسلمةٌ لاشيـة فيها﴾ قـد كرر قولـه : ﴿قال إنـه يقول﴾ لتأكيـد التأكيد على

سفاهتهم وقوله: ﴿لا ذَلُولٌ تُثيرُ الأرض ولا تَسْقِي الحرثَ﴾ أي هذه البقرة المطلوب ذبحها متصفةٌ بأنها غير مُذَلَّلَةٍ لجَرِّ المحراث لحراثة الأرض وغير صالحة لِسَقْي الأرض المحروثة المهيَّأة للزراعة فهي كأنها وحشية لا تُسْتَخْدَمُ في كِرَابِ الأرض وحرثها ولا يُسْنَى عليها لسقي الزراعة. وقوله تعالى: ﴿مسلمة لاشية فيها﴾ أي سليمة من العرج وسائر العيوب الخِلْقية، ولا علامة فيها فليس فيه لون يخالف لونا بل كلها لونٌ واحد لا سواد فيها ولا بياض ولا حمرة، والشية مأخوذة من وشي الثوب إذا نُسِجَ على لونين مختلفين وثورٌ موشًّى أي في وجهه وقوائمه سَوَادٌ. وقوله تعالى: ﴿قالوا: الآن جئت بالحق﴾ هذا أيضا لون من ألوان سفاهتهم فكأنهم يقولون له: ما جئت بالحق إلا الآن أي إلا في هذا الوقت وبهذا الوصف، حيث عينت لنا البقرة المطلوبة والآن عبارة عما بين الماضي والمُسْتَقْبَل. وقوله تعالى: ﴿فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ أي فذبح قوم موسى عليه السلام البقرة التي وصفها الله لهم وأَمَرَهم بذبحها وقد قَارَبُوا أن يَدَعُوا ذَبْحَها إما لغَلَاء ثمنها أو نُدْرة الحصول على بقرة في مثل أوصافها التي وصف الله عز وجل لهم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإذ قتلتم نفسا فادَّارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ الخطاب فيه لليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ وإسناد القتل والتَّدَارُؤ إليهم لما أشرت إليه سابقاً من نسبة جنايات أسلافهم إلى أبنائهم لأنهم منهم توبيخا وتقريعا وتبكيتا لهؤلاء المعاصرين الذين يَدَّعُون أنهم أحقُّ بالدين من العرب الذين جاء منهم أفضل الخلق محمد ﷺ وقوله تعالى: ﴿قتلتم نفسا﴾ يُسَجِّل عليهم أن القاتل إسرائيلي من بينهم وليس أجنبيا عنهم، وقوله تعالى: ﴿فادارأتم فيها﴾ أي فتدافعتم وتخاصمتم في شأن قاتلها مَنْ هو؟ وكل فريق منهم يتهم الفريق الآخر بأنه هو الذي قتلها. وقوله ﴿فادارأتم﴾ أي تدافعتم مأخوذ من الدَّرْءِ وهو الدفع وهو مأخوذ من قول القائل: دَرَأْتُ هذا الأمر عني أي دفعته ومنه

قوله تعالى: ﴿ويدرأ عنها العذاب﴾ أي ويدفع عنها إقامة الحد عليها. وقوله تعالى: ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ أي والله معلن ما في نفوسكم من طوية وخليقة فإن هذه القصة المشتملة على قولكم لموسى عليه السلام: أَتَتَّخِذُنَا هزوا، وتنطعكم وتعنتكم في عدم المسارعة إلى امتثال أمر الله قد كشف الله بها بعض خفايا نفوسكم من عدم توقير الأنبياء وعدم سرعة الامتثال لما يأمركم به المرسلون. وقوله عز وجل: ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ أي فقلنا لقوم موسى الذين ادَّارءُوا في القتيل: اضربوا القتيل ببعض البقرة التي ذبحتموها، قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: هذا البعض أيُّ شيء كان من أعضاء هذه البقرة فالمعجزة حاصلة به، وخَرْقُ العادة به كائن، وقد كان مُعَيَّناً في نفس الأمر، فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين والدنيا لبينه الله تعالى لنا، ولكنه أبهمه، ولم يجئ من طريق صحيح عن المعصوم بَيَانُهُ فنحن نُبْهِمُهُ كما أبهمه الله اهـ وقوله تعالى: ﴿كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ أي فضربوه ببعضها فأحياه الله عز وجل وأخبر عن قاتله، وبهذا نبههم الله عز وجل إلى قدرته على بعث الموتى وعَرَفُوا قاتلَ قتيلهم، فجعل ذلك الصنيع حجة لهم على المعاد وفاصلا ما كان بينهم من الخصومة والعناد، لعلهم يعقلون حِكَم الله وأحكامه، ويبادرون إلى امتثال أمره وطاعة رسله عليهم السلام وقد حث رسول الله ﷺ المسلمين على سرعة المبادرة لامتثال أمر الله ورسوله ﷺ وحذرهم أن يَقَعُوا في مثل ما وقع فيه بنو إسرائيل فقد روى النسائي بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ الناس فقال: إن الله عز وجل قد فرض عليكم الحَجَّ، فقال رجل: في كل عام؟ فسكت عنه حتى أعاده ثلاثا فقال: لو قلت نعم لوجبت، ولو وَجَبَتْ ما قمتم بها، ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بالشيء فخذوا به ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه.

قال تعالى: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله، وما الله بغافل عما تعملون. أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾

إن الخطاب لا يزال مع بني إسرائيل لذم الماضين منهم وتبكيت أخلافهم المعاصرين الذين يسيرون على منهاج هؤلاء المذمومين، وقوله: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك﴾ أي ثم صلبت قلوبكم وتحجرت من بعد رؤية هذه الآيات من فلق البحر وإنزال المن والسلوى وانفجار اثنتى عشرة عينا من الحجر وتظليل الغمام، وإحياء القتيل الإسرائيلي مما يوجب لين القلوب وخشوعها، والتعبير بثم لاستبعاد القَسْوَة عادةً بعد مشاهدة مثل هذه الآيات، والقَسْوَةُ عبارة عن الغِلَظِ والصلابة والجفاء قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وقد ذم الله قسوة القلوب المنافية للخشوع في غير موضع فقال تعالى: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوةً﴾ قال الزجاج: قَسَتْ في اللغة: غَلُظَتْ ويَبِسَتْ وعَسِيَتْ، فَقَسْوَةُ القلب ذهابُ اللِّينِ والرحمة والخشوعِ منه والقاسي والعَاسِي: الشديدُ الصلابة، وقال ابن قُتيبةَ: قَسَتْ وَعَسَتْ وعتت أي يَبِسَتْ، وقُوَّةُ القلب المحمودةُ غيرُ قسوته المذمومة، فإنه ينبغي أن يكون قويا من غير عُنْفٍ ولَيِّناً من غير ضُعْفٍ، وفي الأثر: القلوبُ آنية الله في أرضه فأحبها إلى الله أصلَبُهَا وأَرَقُّها وأصفاها. وهذا كاليد فإنها قَوِيَّةٌ لَيِّنَةٌ بخلاف ما يَقْسُو من العَقِبِ فإنه يابسٌ لا لين فيه وإن كان فيه قوةٌ. وهو سبحانه ذكر وَجَلَ القلب من ذكره، ثم ذَكَرَ زيادة الإيمان عند تلاوة كتابه عِلْماً وعَمَلاً اهـ وأوْ في قوله تعالى: ﴿أو أشدُّ قسوة﴾ للتنويع

بمعنى أن قلوبهم على قسمين، قُلُوبٌ كالحجارة قسوة، وقُلُوبٌ أشدُّ قسوةً منها، ولَمْ تُشَبَّهْ بالحديد وإن كان أصْلَبَ لأنه يلين إذا وُضِعَ في النار بخلاف الحجارة فإنها لو وُضِعَتْ في النار لا تلين ولذلك جعلها الله وَقُوداً للنار نعوذ بالله منها. وقوله تعالى: ﴿وإن من الحجارة لَمَا يَتَفَجَّرُ منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماءوإنَّ منها لَمَا يَهْبطُ من خشية الله﴾ أي وإنَّ من الحجارة ما هو أَلْيَنُ من قلوبكم، فمنها حجارة تتفجر منها الأنهار أي تتفجر منها المياه التي تُكَوِّنُ الأنهار، ومنها حجارة تَتَصَدَّعُ فتخرج منها العيون، ومنها حجارة تَنْحَطُّ من عُلُوِّها وتندك بسبب خشيتها من الله عز وجل كما حصل للطور عندما تجلى الله له، وقوله عز وجل: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ أي وما الله بناسٍ ولا تاركٍ ولاساهٍ عن شيء من أعمالكم الخبيثة وأفعالكم الشريرة وتكذيبكم لخير الخلق وأفضلهم وجحدكم لنبوته ورسالته مع معرفتكم به كما تعرفون أبناءكم وتقرون في قرارة نفوسكم أنه رسول من رب العالمين كما وصفه لكم أنبياء بني إسرائيل وإن الله لكم بالمرصاد مسجل عليكم سائر أعمالكم وخلجات صدوركم يا ذوي القلوب المتحجرة ولن يضيع على الله شيء من أعمالكم فالله يحصى عليكم أعمالكم وسيجازيكم بها، فالأجدر بكم يا أحبار بني إسرائيل أن تسارعوا إلى الإيمان بمحمد ﷺ لتفوزوا بعز الدنيا وسعادة الآخرة. وقوله عز وجل: ﴿أفتطْمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾ أي أفَتَرْجُونَ يا معشر المسلمين أن ينقاد لدينكم وشريعتكم أحبار اليهود ويُصَدِّقُوكم بما جاءكم به نبيكم محمد رسول الله ﷺ من الدين الحق والشريعة الكاملة الشاملة والحال أنهم كاذبون مفترون على الله غارقون في تقليد آبائهم وأسلافهم، متماثلون معهم في الأخلاق الذميمة ومحاربة الأنبياء ومعاداتهم، وقد وصف الله تبارك وتعالى أحوال هؤلاء اليهود بما يفيد أنهم أربع فرق في كل

فـرقة منهم صفـةٌ تحسم مادة الطمع في إيمانها إن قلنـا : إن جملة ﴿وإذا لقـوا الذين آمنوا قـالوا آمنا﴾ مستأنفة لكشف حال فريق آخـر من اليهود . أما إذا قلنا : إن الجملة حاليـة معطوفة على الجملة الحالية قبلها فتكـون الفرق ثلاثا فـالفرقـة الأولى وصفهـا الله تبـارك وتعالى بقـولـه : ﴿وقد كـان فـريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد مـا عقلوه وهـم يعلمون﴾ والفرقة الثانية وصفها الله تبارك وتعـالى بقوله : ﴿و إذا لقوا الـذين آمنوا قالـوا آمنا و إذا خلا بعضهم إلى بعض قـالـوا أتحدثـونهم بما فتح الله عليكم ليحـاجوكم بـه عنـد ربكم ، أفلا تعقلون﴾ والفرقة الثالثة وصفها الله تبارك وتعالى بقوله : ﴿ومنهم أميـون لا يعلمـون الكتاب إلا أمـانيَّ و إن هم إلا يظنـون﴾ والفـرقة الـرابعـة وصفها الله تبـارك وتعالى بقوله : ﴿فـويل للذين يكتبون الكتـاب بأيديهم ثم يقولون هٰذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ ثم وصفهم بوصف جامع لجميعهم وهو اعتقادهم الفاسد وغرورهم بزعمهم أنهم إن عُذِّبـوا بالنار فلن يكون عذابهم فيها أبـديا سَرْمَدِيا كغيرهم من الأمم بل لن تمسهم النـار إلا أيـاما معـدودات بقـدر أيام عبـادة آبائهم للعجل ، ومن كانت هذه هي صفاتهم فكيف يطمع في إيمانهم؟ وقوله عز وجل : ﴿وقـد كان فريق منهم﴾ أي وقـد كانت طـائفة من بني إسرائيل وهو فعيل من التفـرق كما سميت الجماعة بالحزب من التحـزب ، قال أعشى بني ثعلبة :

أُخِذُوا فلما خِفْتُ أن يتفرقوا   فريقين منهم مُصْعِدٌ ومُصَوِّبُ

والفـريق اسم جمع لا واحد لـه من لفظه كـالـرهط والقوم وقـوله تعـالى : ﴿يسمعون كلام الله﴾ أي يستمعون التوراة ثم يحرفـونه أي يغيرونه إما بتبديل حروفه أو صرف معانيه وتأويله على غير وجهـه وقوله : ﴿من بعد ما عقلوه﴾ أي من بعد ما فهموا المراد منه ، فهم أحبار سوء يتعمدون تغيير الحق بتحريفه

أو تأويلـه، وهم يحرفـون كـلام الله ويبــدلـونـه ويـردُّون المعنى الحق الـذي سمعوه. وقـوله تعالى: ﴿وهم يعلمـون﴾ أي يعرفون الحق لكنهم يَنْحَـرِفُون عنه، وأصل التحريف من انحراف الشيء عن جهتـه وميله عنها إلى غيرها، فهؤلاء الأحبار بَيَّنَ الله عز وجل أن تحريفهم للكلم من بعد مواضعه لم يحصل لهم عن جهل ونقص في معـرفـة الحق بل كانـوا يعـرفـون الحق ويعقلونـه ثم يبـدلونـه وهم واثقون في أنفسهم أنهم في تحريف مـا حرَّفـوا كاذبـون على الله مفترون مبطلـون. ولا شك أن هـذا الفـريق من بني إسرائيل هم شرُّ النـاس وأضرُّهم على الإنسـانيـة كلهـا فإن من يحرف كـلام الله عن جهل وقصـور في الفهم و إن كـان مستحقـا لغضب الله وسخطه لجرأتـه على تحريف كـلام الله وعلى القـول على الله عـز وجل بغير علم فإن من حـرَّف كلام الله بعـد فهمـه وعقله ومعـرفته يكون أعظم إثما وأفحـش جرما، وقـد اتفق المسلمون على أن اليهـود حرَّفـوا التوراة وغيَّروا فيهـا وبـدَّلوا إمـا في ألفـاظها و إمـا في معانيهـا وأحكـامهـا بسبب انحـرافهم، كتغييرهم حكم رجم الـزاني إلى تسخيمـه وتسويد وجهه وفضحه إن كـان من الأغنياء وأعيان بني إسرائيل ووجوههم، ورجمه إن كان من الفقراء، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخـاري من حـديث عبـدالله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهـود جـاءوا إلى النبي ﷺ فذكـروا له أن رجـلا منهم وامرأة زنيـا فقال لهم رسـول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نَفْضَحُهُم ويجلدون قال عبد الله بن سلام رضي الله عنـه: كذبتم إن فيها الرجمَ، فـأَتَوْا بالتوراة، فنشروهـا فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبدالله بن سلام رضي الله عنه ارفع يدك، فـرفع يده، فإذا آية الرجم فقالوا: صَـدَقَ يا محمد، فيها آية الرجم، فَأَمَرَ بهما رسـول الله ﷺ فَرُجِمَا، فرأيت الرجل يَحْنِي على المرأة يقيها الحجارة، وفي لفظ للبخاري: قـال رسول الله ﷺ لليهود: ما تصنعون

بهما ؟ قالوا: نُسَخِّمُ وُجُوهَهُمَا ونُخزيهما قال: ﴿فَأْتـوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صـادقين﴾ فجاءوا فقـالوا لـرجل منهم مِمَّن يـرضَوْن أعـورَ: اقرأ، فقـرأ حتى انتهى إلى موضع منها فوضع يده عليه، فقال: ارفع يدك فَرَفَع فإذا آية الرجم تَلُوحُ قال يـا محمد: إن فيها آية الـرجم ولكنا نتكاتَمُهُ بيننا، فـأمر بهما فَرُجِما، وفي لفظ مسلم: أن رسول الله ﷺ أُتِيَ بيهوديٍّ ويهودية قد زنيا، فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود فقـال: ما تجدون في التوراة على من زنى؟ قالـوا نُسَوِّدُ وجُـوهَهما ونُحَمِّمُهُما ونَحْمِلُهما ونخـالف بين وجـوههما ويُطـاف بهما قـال: ﴿فأتوا بـالتوراة فاتلوهـا إن كنتم صادقين﴾ فجاءوا بها فقرءوهـا حتى إذا مرَّ بآية الـرجم وضع الفتى الذي يقرأ يـده على آية الرجم، وقرأ مـا بين يديها وما وراءها فقال له عبدالله بن سلام وهو مع رسول الله ﷺ: مُرْهُ فليرفع يده فَرَفع يده فإذا تحتها آيـة الرجم فأمر بهما رسول الله ﷺ فَرُجِما. قـال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: كنت فيمن رجمهما فلقد رأيته يقيهـا من الحجارة بنفسه. وقد وصف الله تبارك وتعالى هـؤلاء المحرفين لكلام الله بعد سماعـه وفهمه في جملة من الصفـات الـذميمـة حيث يقـول: ﴿يـا أيها الـرسـول لا يحزنك الـذين يسارعون في الكفر من الذين قالـوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكـذب سماعون لقوم آخرين لم يأتـوك يحرفون الكلم من بعد مواضعـه يقولون إن أوتيتم هـٰذا فخذوه وإن لم تُـؤْتَوْهُ فاحـذروا، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا، أولَـٰئك الـذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خـزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ والشواهـد على تحريف اليهود للتـوراة كثيرة من واقع الأسفـار الخمسـة التي تتكـون منها مجمـوعـة التـوراة عندهم ولا يستطيع أن ينكرها اليهود ولا غيرهم، فاليهود يعتقدون أن موسى كتب أسفـار التوراة الخمسة بيـده، مع أن فيها وصـف موت موسـى ودفنه، فكيف كتب موسى هـذا بيده؟ ففي الفصل (الإصحـاح) الحادي والثلاثين

من سفر التثنية ما نصه : (٢٤) فعندما كمَّل موسى كتابة كلمات هذه التوراة بيده في كتاب إلى تمامها (٢٥) أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلا : (٢٦) خذوا كتاب التوراة هذا وضَعُوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهدا عليكم (٢٧) لأني عارف تَمَرُّدكم ورقابكم الصُّلْبَة، هو ذا وأنا بعد حي معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحري بعد موتي. (٢٨) اجمعوا إليَّ كل شيوخ أسباطكم وعرفاءكم لأنطق في مسامعهم بهذه الكلمات وأشهد عليهم السماء والأرض (٢٩) لأني عارف أنكم بعد موتي تفسدون وتزيغون من الطريق الذي أوصيتكم به. وفي الفصل (الإصحاح) الرابع والثلاثين من سفر التثنية : (٥) فمات هناك موسى عبدالرب في أرض موآب حسب قول الرب (٦) ودفنه في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى اليوم اهـ فهذه شواهد ثابتة لا يستطيع أحدٌ من كهنتهم وأحبار السُّوء فيهم أن ينكر أنها من صميم التوراة عندهم. وهي شاهد عدل على أنهم قد حرَّفوا الكلم من بعد مواضعه، وأنهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون.

قال تعالى: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم، أفلا تعقلون. أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون. ومنهم أُمِّيُّون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون. فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هٰذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون.﴾

قد ذكرت في تفسير قوله تعالى: ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله﴾: أن جملة ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا﴾ يمكن أن تكون مستأنفة لكشف حال فريق آخر من اليهود وعليه فإن الفرق اليهودية التي ذكرها الله في هذا المقام تكون أربع فرق أما إذا قلنا: إن الجملة حالية معطوفة على الجملة الحالية قبلها فتكون الفرق ثلاثا، وقد جَنَحَ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إلى أن الفرق ثلاث فقد قال في قوله تعالى: ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ وإن هم إلا يظنون﴾: فذمَّ هؤلاء الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ كما ذمَّ الذين يحرفون معناه ويكذبون فقال تعالى: ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلُوهُ وهم يعلمون.﴾ إلى قوله: ﴿أفلا تعقلون.﴾ فهذا أحد الصنفين، ثم قال تعالى: ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني﴾ أي تلاوة ﴿وإن هم إلا يظنون﴾ ثم ذمَّ الذين يفترون كتبا يقولون هي من عند الله وما هي من عند الله، فقال: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ إلى قوله: ﴿يكسبون﴾ وهذه الأصناف الثلاثة تستوعب أهل الضلال والبدع، فإن أهل البدع الذين ذمهم الله ورسوله نوعان: أحدهما: عالم بالحق يتعمد خلافه، والثاني جاهل مُتبع لغيره فالأولون: يبتدعون ما يخالف كتاب الله،

ويقـولون : هـو من عند الله : إمـا أحـاديثُ مُفْتَرَيَاتٌ ، وإمـا تفسيرٌ وتأويل للنصوص باطل ، ويُعضدون ذلك بما يدَّعـونه من الرأي والعقل ، وقصدهم بذلك الرياسة والمأكلُ فهؤلاء يكتبـون الكتاب بأيديهم ليشتروا به ثمنا قليلا ، فـويل لهم مما كتبت أيـديهم من البـاطل وويل لهم مما يكسبـون من المال على ذلك ، وهؤلاء إذا عورضوا بنصوص الكتب الإلهية ، وقيل لهم : هذه تخالفكم حرَّفوا الكلم عن مواضعه بالتأويلات الفاسدة ، قال الله تعالى : ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقـد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونـه من بعد ما عقلوه وهم يعلمـون﴾ وأما النـوع الثاني : الجُهَّـالُ ، فهؤلاء الأمِّيـون الذين لا يعلمـون الكتاب إلا أمـانيَّ ، وإن هم لا يظنـون . فعن ابن عباس وقتـادة في قولـه : ﴿ومنهم أميـون﴾ أي غيرُ عارفين بمعـاني الكتاب ، يعلمـونها حفظا وقراءة بلا فهم ، ولا يـدرون ما فيه ، وقولـه : ﴿إلا أمانيَّ﴾ أي تلاوة ، فهم لا يعلمـون فقـه الكتـاب ، إنما يقتصرون على ما يسمعـونـه يتلى عليهم ، قـالـه الكسائي والـزجاج ، وكذلك قـال ابن السائب : لا يحسنون قـراءة الكتاب ، ولا كتابته إلا أمـاني ، إلا ما يحدثهم به علماؤهم . وقال أبـو روق وأبو عبيدة : أي تلاوة وقـراءة عن ظهر القلب ، ولا يقـرأونها في الكتب ، ففي هـذا القول جَعْلُ الأمـاني التي هي التـلاوة تـلاوة الأميين أنفسهم ، وفي ذلك جعلـه مـا يسمعونه من تـلاوة علمائهم ، وكلا القولين حق . والآية تعمهما فإنـه سبحانه وتعـالى قال : ﴿لا يعلمـون الكتـاب﴾ لم يقل : لا يقرأون ولا يسمعـون ، ثم قال : ﴿إلا أمـانيَّ﴾ وهذا استثنـاء منقطع ، لكن يعلمـون أمانيَّ إمـا بقراءتهم لها ، وإما بسماعهم قراءة غيرهم ، وإن جَعَلَ الاستثناء متصـلا كان التقديرُ: لا يعلمون الكتاب إلا علم أماني ، لا علم تـلاوة فقط بلا فهم ، والأماني جمع أمنية وهي التلاوة ومنه قولـه تعالى : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقي الشيطان في أمنيته ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم

الله آياته والله عليم حكيم﴾ قال الشاعر:

تمنى كتاب الله أول ليله وآخره لاقى حمام المقادر

والأميون نسبة إلى الأمة، قال بعضهم إلى الأمة وما عليه العامة، فمعنى الأمي العاميُّ الذي لا تمييز له، وقد قال الزجاج هو على خلق الأمة التي لم تتعلم، فهو على جِبِلَّته، وقال غيره: هو نسبة إلى الأم، كأن الكتابة كانت في الرجال دون النساء ولأنه على ما ولدته أمه، والصواب: أنه نسبة إلى الأمة كما يقال عامي نسبة إلى العامة التي لم تتميز عن العامة بما تمتاز به الخاصة، وكذلك هذا لم يتميز عن الأمة بما يمتاز به الخاصة من الكتابة والقراءة، ويقال: الأميُّ لمن لا يقرأ ولا يكتب كتابا ثم يقال لمن ليس لهم كتاب مُنزَّل من الله يقرأونه وإن كان قد يكتب ويقرأ ما لم ينزل، وبهذا المعنى كان العرب كلهم أميين، فإنه لم يكن عندهم كتاب منزل من الله، قال الله تعالى: ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾ وقال: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم﴾ وقد كان في العرب كثير ممن يكتب ويقرأ المكتوب وكلهم أميون فلما نزل القرآن عليهم لم يبقوا أميين باعتبار أنهم لا يقرأون كتابا من حفظهم، بل هم يقرأون القرآن من حفظهم، وأناجيلهم في صدورهم لكن بقوا أميين باعتبار أنهم لا يحتاجون إلى كتابة دينهم، بل قرآنهم محفوظ في قلوبهم، كما في الصحيح عن عياض بن حمار المجاشعي عن النبي ﷺ أنه قال: «خلقت عبادي يوم خلقتهم حنفاء ــ وقال فيه ــ إني مبتليك ومبتل بك، وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظانا» فأمتنا ليست مثل أهل الكتاب الذين لا يحفظون كتبهم في قلوبهم بل لو عدمت المصاحف كلها كان القرآن محفوظا في قلوب الأمة، وبهذا الاعتبار فالمسلمون أمة أمِّية بعد نزول القرآن وحفظه. كما في الصحيح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا أمةٌ أمية لا نحسب ولا نكتب الشهر

هكذا، وهكـذا، فلم يقل: إنَّا لا نقرأ كتابـا ولا نحفظ، بل قال: لا نكتب ولا نحسب فـديننا لا يحتـاج أن يكتب ويحسب، كما عليه أهل الكتـاب من أنهم يعلمـون مـواقيت صـومهم وفطـرهم بكتـاب وحسـاب ودينهم معلق بالكتب لـو عدمت لم يعـرفوا دينهـم، ولهذا يوجـد أكثر أهل السنـة يحفظون القرآن والحديث أكثر من أهل البدع وأهل البدع فيهم شبهٌ بأهل الكتاب من بعض الـوجوه. وقـوله: ﴿فـآمنـوا بالله ورسـوله النبي الأمي﴾ هـو أمي بهذا الاعتبار لأنه لا يكتب ولا يقرأ ما في الكتب، لا باعتبار أنه لا يقرأ من حفظه بل كـان يحفـظ القـرآن أحسن حفظ والأميُّ في اصطـلاح الفقهــاء خـلاف القارئ؛ وليس هو خلاف الكاتب بـالمعنى الأول، ويعنون به في الغالب مَنْ لاَ يُحسن الفاتحة، فقوله تعالى: ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني﴾ أي لا يعلمـون الكتاب إلا تـلاوة لا يفهمـون معنـاها، وهـذا يتنـاول من لا يحسن الكتـابـة ولا القـراءة من قبـل، وإنما يسمع أمـاني علما، كما قـال ابن السائب ويتناول من يقـرأه عن ظهر قلبه ولا يقرأه من الكتـاب، كما قال أبو روق، وأبو عبيدة ــ وقد يقال: إن قوله: ﴿لا يعلمون الكتاب﴾ أي الخط، أي لا يحسنون الخط، وإنما يحسنـون التلاوة، ويتنـاول أيضا من يحسن الخط والتلاوة ولا يفهم مـا يقرأه ويكتبه، كما قـال ابن عباس وقتـادة: غَيْرُ عارفين معاني الكتاب يعلمـونها حفظا وقراءة بلا فهم، ولا يدرون مـا فيه، والكتاب هنا المراد به الكتاب المنزل. وهو التوراة ليس المراد به الخط، فإنه قال: ﴿وإن هم إلا يظنـون﴾ فهذا يدل على أنـه نفى عنهم العلم بمعـاني الكتاب، وإلاَّ فَكَوْنُ الرجل لا يكتب بيده لا يستلزم أن يكون لا علم عنده، بل يظن ظنا؛ بل كثير ممن يكتب بيـده لا يفهم ما يكتب، وكثير ممن لا يكتب يكـون عالما بمعاني ما يكتبـه غيره، وأيضا فإن الله ذكر هذا في سيـاق الذم لهم، وليس في كـون الـرجل لا يخط ذمٌّ إذا قـام بالـواجب، و انـا الـذم على كـونـه لا يعقل

الكتاب الـذي أنزل إليـه سواء كتبـه وقرأه أو لم يكتبـه ولم يقرأه كما قـال النبي ﷺ: «هذا أوانُ يُـرْفَعُ العِلمُ. فقال له زيـاد بن لبيد: كيف يـرفع العلم وقد قرأنا القرآن فـوالله لَنَقْرَأَنّهُ ولَنُقْرِئَنَّهُ نساءنـا فقال: إنْ كنت لأحْسبكَ من أفقه أهل المدينـة أو ليست التـوراة والإنجيل عنـد اليهـود والنصـارى فماذا تغني عنهم؟» وهـو حديث معـروف، رواه الترمذي وغيره. ولأنـه قال تعـالى قبل هذا: ﴿وقد كـان فريق منهم يسمعون كلام الله، ثم يحرفونه من بعـدما عقلوه وهم يعلمون﴾ فأولئك عقلـوه ثم حرَّفوه وهم مذمـومون سواءٌ كانـوا يحفظونه بقلوبهم ويكتبـونه ويقرأونـه حفظاً وكتابـةً، أو لم يكونوا كـذلك، فكان من المنـاسبِ أن يذكـر الذين لا يعقلـونه وهم الـذين لا يعلمون إلا أمـاني، فإن القرآن أنزله الله كتابا متشابها مثـانى، ويذكر فيه الأقسام والأمثال فيستوعب الأقسام، فيكون مثـانى، ويذكر الأمثال فيكون متشابها، وهـؤلاء وإن كانوا يكتبون ويقرأون فهم أمِّيُّون من أهل الكتـاب، كما نقول نحن لمن كان كذلك هـو أمي وسـاذج وعاميٌّ وإن كـان يحفظ القـرآن ويقـرأ المكتوب إذا كـان لا يعرف معنـاه. وإذا كان الله قد ذم هؤلاء الـذين لا يعرفون الكتـاب إلا تلاوة دون فهم معانيه، كما ذم الذين يحرفون الكلم عن مـواضعه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون. دلَّ على أن كلا النوعين مذموم: الجاهلُ الذي لا يفهم معاني النصوص، والكاذب الذي يحرف الكلم عن مـواضعه وهذا حال أهل البدع فإنهم أحد رجلين: إما رجل يحرف الكلم عن مواضعه ويتكلم برأيه، ويؤَوِّله بما يُضِيفُهُ إلى الله، فهـؤلاء يكتبون الكتاب بأيـديهم ويقولون هـو من عند الله ويجعلـون تلك المقالات التي ابتـدعوهـا هي مقـالة الحق وهي التي جـاء بها الـرسـول والتي كان عليهـا السلف ونحـو ذلك ثم يحرفـون النصـوص التي تعارضها فهـؤلاء إذا تعمدوا ذلك وعلموا أن الذي يفعلونـه مخالف للرسول، فهم من جنس هؤلاء اليهـود، وهذا يـوجد في كثير من الملاحدة، ويـوجد في

بعض الأشياء في غيرهم .

فإن قيل : فقد قال بعض المفسرين : ﴿إلا أمانيَّ﴾ إلا ما يقولونه بأفواههم كذبا وباطلا وروي هـذا عن بعض السلف واختاره الفراء وقال ﴿الأماني﴾ الأكاذيب المفتعلة ، قال بعض العرب لابن دأب ـــ وهو يحدث ـ أهذا شيء رَوَيْتَهُ أم تمنيته أي افْتَعَلْتَهُ؟ فأراد بالأماني التي كتبها علماؤهم من قِبَل أنفسهم ثم أضافوها إلى الله من تغيير صفة محمد ﷺ ، وقال بعضهم : ﴿الأماني﴾ يتمنون على الله الباطل والكذب كقولهم : ﴿لن تمسنا النار إلا أياما معدودة﴾ وقولهم : ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى﴾ وقولهم : ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ وهذا أيضا يروى عن بعض السلف . قيل : كلا القولين ضعيف ، والصواب الأول ، لأنه سبحانه قال : ﴿ومنهم أمِّيُّونَ لا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ﴾ وهذا الاستثناء إما أن يكون متصلا أو منقطعا ، فإن كان متصلا لم يجز استثناء الكذب ولا أمانيِّ القلبِ من الكتاب . وإن كان منقطعا فالاستثناء المنقطع إنما يكون فيما كان نظير المذكور وشبيها له من بعض الوجوه ، فهو من جنسه الذي لم يذكر في اللفظ ليس من جنس المذكور ولهذا لا يصلح المنقطع حيث يصلح الاستثناء المفرَّغُ ، وذلك كقوله : ﴿لا يذوقون فيها الموت﴾ ثم قال : ﴿إلا الموتة الأولى﴾ فهذا منقطع . لأنه يَحْسُنُ أن يقال : لا يذوقون إلا الموتة الأولى . وكذلك قوله تعالى : ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم﴾ لأنه يحسن أن يقال : لا تأكلوا أموالكم بينكم إلا أن تكون تجارةً . وقوله : ﴿وما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾ يصلح أن يقال : وما لهم إلا اتباع الظن . فهنا لما قال : ﴿لا يعلمون الكتاب إلا أمانيِّ﴾ يحسن أن يقال : لا يعلمونه إلا أمانيِّ ، فإنهم يعلمونه تلاوة يقرءونها ويسمعونها ، ولا يحسن أن يقال : لا يعلمون إلا ما تتمناه قلوبهم أو لا يعلمون إلا الكذب فإنهم قد كانوا يعلمون ما هو صدق

أيضا، فليس كلُّ ما عَلِمُوهُ من علمائهم كان كذبا، بخلاف الذي لا يعقل معنى الكتاب، فإنه لا يعلم إلا تلاوة وأيضا فهذه الأماني الباطلة التي تمنوها بقلوبهم، وقالوها بألسنتهم كقوله تعالى: ﴿تلك أمانيهم﴾ قد اشتركوا فيها كلُّهم، فلا يُخَصُّ بالذم الأميُّون منهم، وليس لكونهم أميين مدخل في الذم بهذه، ولا لنفى العلم بالكتاب مدخل في الذم بهذه، بل الذمُّ بهذه مِنْ مَنْ يَعْلَمُ أنها باطل أعظم من ذمٍّ من لا يعلم أنها باطل، ولهذا لما ذَمَّ الله بها عَمَّمَ ولم يخص فقال تعالى: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم﴾ الآية. وأيضا فإنه قال: ﴿وإن هم إلا يظنون﴾ فدلَّ على أنه ذمَّهم على نفي العلم، وعلى أنه ليس معهم إلا الظَّنُّ.

وهذا حال الجاهل بمعاني الكتاب، لا حال من يعلم أنه يكذب فظهر أن هذا الصنف ليس هم الذين يقولون بأفواههم الكذب والباطل، ولو أريد ذلك لقيل: لا يقولون إلا أمانيَّ. لم يقل: لا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ بل ذلك الصنف هم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، ويَلْوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويكتبون الكتاب بأيديهم ليشتروا به ثمنا قليلا، فهم يُحرِّفون معاني الكتاب، وهم يُحرفون لفظه لمن لم يعرفه ويَكذبون في لفظهم وخطهم. اهـ هذا ومعنى قوله تعالى: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خَلا بعضهم إلى بعض قالوا: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون﴾ أي وكان من شأن هؤلاء الأحبار اليهود أنهم ربما يجتمعون بالمؤمنين فَيسبِق من لسانهم وينفلت منها بعض ما يحرصون على كتمانه من صفات رسول الله ﷺ في كتبهم وأنهم يعلمون من هذه الكتب صفات رسول الله ﷺ كما عايَنوها فيه لما اجتمعوا به وشاهدوه، فإذا رجع هؤلاء وجلسوا مع اليهود في مجالسهم الخاصة بهم تلاوموا على ما بَدَر من

بعضهم في إخبار المؤمنين بأن محمدا ﷺ موصوف في الكتب التي بأيديهم بنفس الوصف الذي شاهدوه لما أبصروا رسول الله ﷺ وقالوا لمن بَدَرَ منهم هذا الكلام: أتحدثون المؤمنين بمحمد بما عرفتم في التوراة من وصف محمد وأنتم بذلك تعطون المسلمين حجة عليكم ليخاصموكم بها عند الله عز وجل، ويقيموا عليكم البرهان في ترك اتِّباعه مع علمكم بصدقه. وقوله ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أفلا تفهمون أنكم تعطونهم حجة عليكم. وفي هذه الآية الكريمة إشارة إلى تشابه أخلاق اليهود وأخلاق المنافقين الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خَلَوا إلى شياطينهم قالوا: إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾ كما أن في قوله تبارك وتعالى في حق اليهود: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء﴾ إشارة إلى تشابه أخلاق اليهود وأخلاق الكفار من المشركين الذين حكى الله عز وجل عنهم أنهم قالوا: ﴿ولن نؤمن لرُقيّك حتى تُنَزِّلَ علينا كتابا نقرؤه﴾ وهذا يشعر أن اليهود كانوا يتلاقون مع المنافقين والمشركين في الكفر والأخلاق الرذيلة. وقوله عز وجل: ﴿أَوَلَا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ أي ألم يَدْرُسْ هؤلاء في كتبهم أن الله يعلم ما يخفونه سواء حدَّثوا به أو لم يحدثوا فهو عز وجل يعلم السرَّ وأخفى ويعلم ما لا يتكلمون به كما يعلم ما يتكلمون به، والاستفهام للإنكار والتوبيخ، فأيُّ فائدة لهم في لومهم من يُحَدِّثُ منهم بصفات رسول الله ﷺ وأنبياؤهم قد عَرَّفوهم بأن علم الله عز وجل محيط بجميع الكائنات، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السموات، وتقديم الإسرار على الإعلان للإيذان بافتضاحهم ووقُوع ما يحذرونه، إذ الأشياء البارزة والأشياء الكامنة كلها في علم الله عز وجل سواء كما قال تعالى: ﴿إن تُخْفوا ما في صدروكم أو تبدوه يعلمه الله، ويعلم ما في السمٰوات وما في الأرض والله على كل شيء قدير﴾ وقوله عز وجل: ﴿وإن هم

إلا يظنـون﴾ أي مـا هم إلا قَـوْم قُصَـارى أمـرهم الظنُّ والتقليـد من غير أن يصلـوا إلى مرتبـة العلم، ولما بيَّن حـالَ هؤلاء المخـدُوعين المتَّبعين للظن أتبع ذلك ببيـان عاقبـة فـريق آخر من اليهـود وهم الـدعاة إلى الضـلالـة بالـزور والكذب على الله عز وجل الذين يختلقـون أشياء من عند أنفسهم يفترونها ثم يزعمون لعَوام اليهود ورَعَاعِهم أنها من عند الله وما هي من عند الله ليأكلوا بها أموال النـاس بالباطل، ويحصلـوامن عوامهم ورعاعهم على الهدايـا والهبات والسُّحْت وقوله تعالى: ﴿ليشتروا به ثمنا قليلا﴾.

قال الرازي في تفسير قوله: ﴿ليشتروا به ثمنا قليلا﴾ فهو تنبيه على أمرين الأول: أنـه تنبيه على نهايـة شقـاوتهم لأن العـاقل يجب أن لا يرضـى بالـوزر القليل في الآخـرة لأجل الأجـر العظيم في الـدنيـا فكيف يليق بـه أن يـرضى بالعقاب العظيم في الآخرة لأجل النفع الحقير في الدنيا، الثاني: أنه يدل على أنهم ما فعلوا ذلك التحريف ديانة بل إنما فعلوه طلبا للمال والجاه، وهذا يدل على أن أخذ المال على البـاطل و إن كـان بالتراضي فهـو محرم لأن الذي كـانوا يُعْطـونه من المـــال كـان على محـبة ورضا، ومـع ذلك فقــد نبَّه تعالـى على تحريمـه اهــ وقـولـه تعـالى: ﴿فـويـل لهم ممـا كتبت أيـديهم وويل لهم ممـا يكسبون﴾ هذا وعيد شديد على أن يكتب الإنسان بيده شيئا ينسبه إلى الله عز وجل كذبا وزورا مهما كـان الأمر سواء كان الباعث على ذلك دينيـا أو دنيويا والعاقل لـو أعطي الدنيـا بحذافيرها ثمنـا على أن يقول على الله زورا ويفترى على الله كذبا ما رضي بذلك فما بالك بمن يخطه بيده ويُسَجِّلُه على نفسه، ولله در القائل:

وما مـــن كـــاتب إلا سَـيَبْلَى	ويُبلي الدهرُ ما كتبَتْ يَدَاهُ
فلا تكتبْ بخطك غير شيء	يَسُـــرُّكَ في القيامة أن تراه

وهؤلاء اليهـود يكتبون ما يسـوؤهم ويسوِّد وجـوههم عند الله يوم القيـامة ﴿يوم لا ينفع مـال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ وكـذلك في هذا

وعيد شديد لمن اكتسب المال من غير طريق شرعي فما بالك بمن اكتسبه بالافتراء على الله . وقد جمع الله تبارك وتعالى بعض صفات هؤلاء اليهود القبيحة في القول على الله كذبا وزورًا حيث يقول عز وجل : ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعُلِّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون . وهٰذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أمَّ القرى ومن حولها ، والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون . ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إليَّ ولم يوح إليه شيء ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله ، ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهُون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ والويل هو الهلاك والدمار، وقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتاب الله الذي أنزله على نبيه أحدث أخبار الله ، تقرءونه غضا لم يشب وقد حدثكم الله تعالى أنَّ أهل الكتاب قد بدَّلوا كتاب الله وغيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلاً ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذي أنزل عليكم . اهـ وقوله تعالى : ﴿مما كتبت أيديهم ﴾ ومعلوم أن الكتابة لا تكون إلا باليد إذ المقصود تحقيق مباشرتهم بأنفسهم لما يفترونه ، ففي تقييد الكتابة هنا باليد زيادةٌ في تقبيح فعلهم ، والعرب قد يقيدون بمثل هذا القيد للتحقيق والتأكيد ولفت الانتباه ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿يقولون بأفواههم﴾ مع أن الطيران إنما يكون بالجناح والقول إنما يكون بالأفواه .

قال تعالى: ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة، قل أَتَّخَذْتُمْ عند الله عهدًا فلن يُخْلِفَ الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون * بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾.

هذه حكاية أخرى من حكايات قبائح أقوال اليهود لعنهم الله، وهو جَزْمُهُم بأن الله تعالى لا يعذبهم في النار يوم القيامة إلا أياما معدودةً قليلةً، وهم في هذه المقالة مفترون على الله مختلقون كاذبون لا دليل على مقالتهم من نقل أو عقل، أما من جهة العقل فلأن الله هو المالك لهم والمسيطر عليهم يعذب من عصاه عدلا ويرحم من يشاء فضلا، فالله هو المالك وحده وهو المتصرف وحده ليس ذلك لملك مقرب ولا لنبي مرسل، وهم مستوُون في البشرية مع سائر البشر فلماذا يقررون أن العذاب الدائم الأبديَّ السَّرْمَديَّ لغير بني إسرائيل، وأن اليهود إن عُذِّبوا يوم القيامة فلن يُعَذَّبوا إلا أياما قليلةً بقدر أيام عبادة آبائهم لعجل السامري وقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاةٌ فيهاسُمٌّ فقال رسول الله ﷺ: اجمعوا لي من كان هنا من اليهود، فجُمِعوا له، فقال لهم رسول الله ﷺ: إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقوني عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، فقال لهم رسول الله ﷺ: من أبوكم؟ قالوا: أبونا فلان، فقال رسول الله ﷺ: كذبتم بل أبوكم فلان، فقالوا: صَدَقْتَ وبَرِرْتَ، فقال: هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذَبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، قال لهم رسول الله ﷺ: مَنْ أهلُ النار؟ فقالوا: نكونُ فيها يسيراً، ثم تخلُفوننا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ اخْسَئُوا فيها، والله لا نخلُفكم فيها

أبدا ثم قال لهم: فهل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم فقال: هل جعلتُم في هذه الشاة سُمًّا؟ فقالوا: نعم، فقال: ما حملكم على ذلك؟ فقالوا: أَرَدْنَا إن كنت كذَّاباً أن نستريح منك، وإن كنت نبيا لم يَضُرَّكَ. اهـ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن غرور اليهود وما مَردوا عليه من حُبِّ الافتراء في الدين هو الذي حملهم على هذه المقولة الكاذبة من أنهم لن يعذبوا في النار إلا أياما معدودات حيث يقول عز وجل عنهم في سورة آل عمران: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يُدْعَوْنَ إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون * ذٰلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات وغرَّهم في دينهم ما كانوا يفترون * فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ وقد افترى لهم أحبار السُّوء منهم مبادئ التمييز العنصري فكتبوا لهم التلمود زعما منهم أنه شرح للتوراة واستنباط من أصولها مع أن بعض نصوص التلمود قد يخالف بعض نصوص التوراة فزعموا لهم في التلمود أن اليهود أحبُّ إلى الله من الملائكة وأنهم من عنصر الله فهم أبناء الله وأحباؤه، وأطلقوا اسم «الأُمَمِيِّ» على كل من ليس بيهودي وقرَّرُوا لهم أن الموت جزاء الأُمَمِيِّ إذا ضرب اليهوديَّ وأنه لولا اليهودُ لارتفعت البركة من العالم واحتجبت الشمسُ وانقطع المطر، وأن اليهود يَفْضُلُونَ الأمميين كما يَفْضُلُ الإنسانُ البهيمة، وأن الأمميين جميعا كلابٌ وخنازير، وأن بيوتهم كحظائر الماشية نجاسةً، وأنه يحرم على اليهودي العطف على الأممي؛ لأنه عدوه وعدُّو الله، وأن التَّقِيَّةَ أو المداراة معه جائزة للضرورة تجنبا لأذاه، وأن كل خير يصنعه يهودي مع أَمَمِيٍّ هو خطيئة عظمى، وأن كلَّ شر يعمله معه هو قربان لله يُثيبه عليه، وأن الربا غير الفاحش يجوز مع اليهودي ونسبوا هذا القول إلى موسى وصموائيل، وأنَّ الربا الفاحش جائز مع الأممي، وأن كلَّ ما على الأرض ملك لليهود فما تحت أيدي

الأميين من الأموال مغتصب من اليهود وعليهم استرداده بشتى الوسائل، وهذه المبادئ التلمودية هي التي كونت نفسية اليهود الممتلئة بالغرور والافتراء. وقد ذكر عبدالله بن سلام رضي الله عنه ــ وكان سيِّد أحبار اليهود وابن سيِّدهم ــ أن اليهود قوم بُهتٌ فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه قال: سمع عبدالله بن سلام بقدوم رسول الله ﷺ وهو في أرض يَخْتَرِفُ، فأتى النبيَّ ﷺ فقال: إني سائلكَ عن ثلاثٍ لا يعلمهن إلا نبيٌّ، فما أَوَّلُ أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزعُ الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: أخبرني بهن جبريل آنفاً، قال: جبريل؟ قال: نعم، قال: ذاك عدوُّ اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿من كان عَدُوًّا لجبريل فإنه نَزَّلَه على قلبك بإذن الله﴾ أمَّا أَوَّلُ أشراط الساعة فنارٌ تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبدِ حوت، وإذا سبق ماء الرجل ماءَ المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نَزَعَتْ. قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، يا رسول الله، إن اليهود قومٌ بُهتٌ، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تَسأَلَهُم يَبْهَتُوني، فجاءت اليهود، فقال النبي ﷺ: أيُّ رجلٍ عبدالله فيكم؟ قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيِّدُنا وابن سيِّدنا، قال: أرأيتم إن أسلم عبدالله بن سلام فقالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبدالله، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدا رسول الله فقالوا: شرُّنا وابن شرِّنا، وانتقصوه، قال: فهذا الذي كنت أخاف يارسول الله. اهـ وقوله تعالى: ﴿وقالوا: لن تمسنا النار﴾ أي قالوا: لن تلمسنا النار ولن تصيب أجسامنا ولن نعذب بها. وقوله: ﴿إلا أياما معدودة﴾ أي إلا أياما قليلة يسيرة، كقوله تعالى: ﴿وشروْه بثمن بخس دراهم معدودة﴾ أي قليلة. وكقوله تعالى عن أيام الصيام: ﴿أياما معدودات﴾ أي قلائل. وقوله تعالى: ﴿قل أتخذتم عند الله عهدًا فلن يخلف

الله عهده أم تقـولون على الله ما لا تعلمـون﴾ أي قل يا محمـد لهؤلاء الزاعمين أنهم لن تَمَسَّهُم النار إلا أيامـا معدودة : أأخذتم بما تقولـون من دعواكم هذه ميثاقا وعهدا من الله ، وحصلتم منه على حجة وبرهان؟ فإن الله تبارك وتعالى لا ينقض ميثـاقـه ولا يخلف وعـده . كما قـال عـز وجل : ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ أَمْ لم تتخـذوا عهدا من الله بما تقـولون بل تقولـونه وتفترونـه من عند أنفسكم جهـلا وغرورا وضـلالا بلا حجـة ولا بـرهان ولا عِلْم ؛ لأن الميثـاق الذي جاء بـه النبيون والمرسلون أن من أطاعـه أدخله الجنة ومن عصـاه عذَّبه بالنـار، فالجنـة للمؤمنين المنقادين لله ورسلـه مهما كانت أجنـاسهم وألوانهم وأعصـارهم وأمصـارهم والنـارُ للكافـرين المحـادِّين لله ورسلـه مهما كـانت أجناسهم وألوانهم وأعصارهم وأمصارهم فإن الله تبارك وتعالى ليس بينه وبين أحد من خلقه وعباده نسب ، ولذلـك لما قال اليهود : نحن أبناء الله وأحباؤه ردَّ عليهم افتراءهم هذا بأنهم لـو كانوا أبنـاء الله وأحباءه ما عذبهم بـالنار ولا أخذهم بذنوبهم فإن الحبيب لا يعـذب حبيبه في النار وفي ذلك يقول الله عز وجل : ﴿وقالت اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفـر لمن يشاء ويعـذب من يشاء ولله ملك السمٰوات والأرض ومـا بينهما وإليــه المصير﴾ ولـذلك قـال عـز وجـل هنـا رداً عليهم افتراءهم ، ومؤكدا عهـده الوثيق ووعده الحق بأن الناس عنـده سواء وأن من ارتكب الجرائم وأحـاطت به السيئات حتـى مات على غير الإسلام فهـو من أهل النار، وأن الذين آمنوا وعملـوا الصالحات حتى ماتوا على ذلك فهم من أهل الجنة ، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خَطِيئَتُـهُ فأولَئك أصحاب النـار هم فيها خـالدون * والـذين آمنوا وعملـوا الصالحات أولَئك أصحـاب الجنة هم فيها خـالدون﴾ وقوله تبـارك وتعالى : ﴿بلى﴾ هو حرف جوابٍ مختصٌّ بنفي شيء متقـدم كأنه قيل لا عهد لكم من

الله بما تفترونـه وتدعـونـه من أنكم لن تمسكم النار إلا أيـامـا معدودة. وقـد وضعت العـربُ كلماتِ أجـوبـةٍ منهـا: بلى ونَعَمْ وجَيْر وأَجَلْ وإِي، ولكل واحدة منها مقامها، فإذا قال قائل: أليس زيد قائما؟ فقلت: بلى صار معناه أنه قائم ولو قلت نعم صار معناه أنـه ليس بقائم قال تعالى: ﴿ألست بربكم قالوا: بلى﴾ أي أنـت ربنا، وقد أُثِر عن ابن عبـاس رضي الله عنهما أنه قال: لو قالوا: نعم لكفروا، يعني لأنه يصير معنـاه: لستَ ربَّنا، وهذا كفر وقوله تعـالى: ﴿من كسب سيئـة﴾ أي اقترف ذنبـا وارتكب معصيـة وعمل سـوءاً وقوله: ﴿وأحاطت به خطيئته﴾ أي واستولت عليه معصيته وأحدقت به من كل جانب حتى مات كافرا، وقـوله عز وجل: ﴿فأولٰئك أصحاب النار هم فيهـا خالـدون﴾ أي فهـؤلاء الـذين استولت عليهم المعـاصي وأحـدقت بهم جـرائمهم من كل جانب حتى مـاتوا على الكفـر هم أهل النار الملازمـون لها المخلَّدُون فيهـا، وليس في هذه الآية الكريمـة دليل على أن أهل الكبائر التي دون الشرك والكفر يخلَّدون في النار لأن خَيْرَ ما يُفَسِّرُ القرآن هو القرآن والسنة وقد قال الله تبـارك وتعالى: ﴿إنَّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفـر ما دون ذٰلك لمن يشـاء﴾ في مـوضعين من القرآن الكـريم، كما روى البخـاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي ذر رضي الله عنه قـال: أتيت النبي ﷺ وهو نائم وعليه ثوب أبيض، ثم أتيتـه وقد استيقظ فقال: ما من عبـد قال: لا إله إلا الله ثم مـات على ذلك إلا دخل الجنـة، قلت: وإن زنى وإن سرَقَ؟ قـال: وإن زنى وإن سَرَقَ، قلتُ: وإن زَنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قـال: وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر. وكان أبو ذر إذا حـدث بهذا قال: وإن رغم أنف أبي ذر. وليس المقصود من حديث أبي ذر تهوين أمر الزنى والسرقـة بل المقصود أن مرتكبهما تحت مشيئة الله إن شاء الله عذبه وإن شاء عفا عنه، بخلاف من مات على الشرك والكفر

فإنه مُخلَّـدٌ في النار لقوله تعالى: ﴿إنـه من يشرك بالله فقد حـرم الله عليه الجنة ومأواه النار ومـا للظالمين من أنصـار﴾ وقوله تعـالى: ﴿والذين آمنـوا وعملوا الصالحات أولَئك أصحـاب الجنة هم فيها خالـدون﴾ أي وكلٌّ من آمن بالله وكتبه ورسله ومـلائكته واليوم الآخر وبالقـدر وعمل صالحا على منهج محمد ﷺ فهؤلاء هم أهل الجنة الملازمون لها لا يريمـون عنها ولا يتحولون منها وهم فيها خالـدون، مهما كانت أجناسهم وألوانهم وأعصـارهم وأمصارهم جعلنا الله بفضله منهم.

قال تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون﴾ .

هذا هو النص الثاني في هذه السورة الكريمة بأخذ الميثاق على بني إسرائيل، سوى ما تكرر من مطالبتهم بالوفاء بالعهد وكان النص الأول موجَّهاً إلى بني إسرائيل على طريق الخطاب للمعاصرين لرسول الله ﷺ من بني إسرائيل ببيان فضائح أسلافهم من إعراضهم وتوليهم بعد أخذه الميثاق عليهم ونقضهم له، توبيخًا للمعاصرين الذين يقلدون أباءهم في كل شر ولا يحرصون على اتباع وصايا المرسلين، أما هذا النص الثاني بأخذ الميثاق عليهم فقد جاء بتعميمه نصاً لجميع بني إسرائيل الماضين والحاضرين؛ لأنهم جميعا مشتركون في هذه المخالفات التي وبخهم الله عليها في حيز أخذ الميثاق، حيث قال في النص الأول: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون * ثم توليتم من بعد ذٰلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾ وقال في النص الثاني هنا: ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله﴾ الآية ثم قال في النص الثالث بعده مباشرة: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم﴾ الآيات إلى قوله: ﴿فلا يُخَفَّف عنهم العذاب ولاهم يُنْصَرون﴾ وفي قوله عز وجل: ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل: لا تعبدون إلا الله﴾ الآية شروع في بيان مواد الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل الشامل للماضين منهم والمعاصرين ــ وهو في الواقع ميثاق الله على جميع المكلفين من سائر أتباع النبيين والمرسلين ــ ويتكون هذا الميثاق من التكليف بثمانية أشياء لا سعادة لمجتمع من المجتمعات إلا بالاستمساك بها ومن طبّقها كان من أهل جنات

النعيم ومن كفر بها كان من أصحاب الجحيم وهذه التكاليف الثمانية جاءت بعد القاعدة الكلية التي اشتملت عليها الآيتان السابقتان وهما قوله تعالى: ﴿بلى من كَسَبَ سيئةً وأحاطت به خطيئته فأولَئك أصحاب النار هم فيها خالدون * والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولَئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ والتكليف الأول من هذه التكاليف الثمانية هو قوله تعالى: ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ وهو يقتضي الأمر بعبادة الله وحده والتحذير من عبادة غيره، وهي الحقيقة الكبرى التي من أجلها خلق الله الجنَّ والإنس، والسموات والأرض وأقام سوق الجنة والنار، وهذا الأمر يقتضي أيضا وجوب معرفة الله وتوحيده في ربوبيته وألوهيته وأسمائه الحسنى وصفاته العُلى، كما يقتضي هذا الأمر معرفة كيفية عبادته ولا سبيل لمعرفتها إلا بالوحي والرسالة، فهو يقتضي الإيمان بالله وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر والقَدَر خيره وشرِّه، أما التكليف الثاني وهو قوله تعالى: ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ أي وأن تحسنوا بالوالدين إحسانا ومقتضاه وجوبُ بِرِّهما والقيام بحقهما، ودفعِ كل أذى عنهما، وطاعتِهما في غير معصية الله حتى ولو كانا كافرين؛ لأنهما هما السبب في وجود الولد بعد الله عز وجل ولذلك قرَن الله تبارك وتعالى وجوب الإحسان إلى الوالدين بوجوب عبادته وحده في مقامات كثيرة من كتابه الكريم وأكَّد ذلك رسول الله ﷺ في أحاديث شتى، وفي ذلك يقول عز وجل في هذا المقام: ﴿لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا﴾ ويقول عز وجل: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا﴾ ويقول عز وجل: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إمَّا يَبْلغَنَّ عندك الكبرَ أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جَنَاحَ الذُّلِّ من الرحمة وقل ربِّ ارحمهما كما ربياني صغيرا * ربُّكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوَّابين غفورا﴾ ويقول عز وجل:

﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علمٌ فلا تطعهما إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ ويقول عز وجل: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهْنا على وَهْنٍ وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصيرُ * وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تُطِعْهُما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتَّبعْ سبيل من أناب إلي ثم إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ ويقول عز وجل: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرْها وَوَضَعَتْهُ كُرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشُدَّهُ وبَلَغَ أربعين سنةً قال ربِّ أوزعْني أنْ أشكُرَ نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والدَيَّ وأن أعملَ صالحًا ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين * أولَئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وَعْدَ الصدق الذي كانوا يوعَدون﴾ وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبيَّ ﷺ: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله تعالى؟ قال: الصلاة على وقتها، قلتُ: ثم أيُّ؟ قال: برُّ الوالدين، قلت: ثم أيُّ؟ قال: الجهاد في سبيل الله. كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: رَغِمَ أَنْفُ ثم رَغِمَ أَنْفُ ثم رَغِمَ أَنْفُ من أدرك أبويه عند الكبر أحدُهُما أو كِلاَهُما فلم يدخل الجنة. كما روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: أقبل رجل إلى نبي الله ﷺ فقال: أُبايِعُكَ على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله تعالى، فقال: هل لك من والدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟ قال: نَعَمْ بل كلاهما، قال: فتبتغي الأجر من الله تعالى؟ قال: نَعَمْ قال: فارجع إلى والدَيْكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُما، وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث عبدالله ابن عمرو رضي الله عنهما قال: جاء رَجُلٌ فاستأذنه في الجهاد قال؟ أحَيٌّ

والـداكَ؟ قـال: نعم، قـال: ففيهما فَجَـاهِــدْ. أمـا التكليفُ الثـالث من التكاليف الثمانية فهو قوله تعالى: ﴿وذي القربي﴾ وهو يقتضي الأمر بوجوب الإحسان إلى الأقارب، ولـذلك نَبَّه الله تبارك وتعـالى إلى وجوب الإحسان إلى الأقـارب في غير موضع مـن الكتاب الكـريم حيث يقـول في بيـان مقاصـد الشريعة التي تكـوِّنُ المجتمع المثالي: ﴿إن الله يأمر بالعـدل والإحسان وإيتاء ذي القـربى وينهى عن الفحشاء والمنكـر والبغي يعظكم لعلكم تذكـرون﴾ وقد اعتبر الإسـلام قطيعة الرحم من أفظع الجرائم وأوجب على قـاطع الرحم لعنة الله حيث يقول عز وجل: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتُقَطِّعُـوا أرحامكم * أولَئك الـذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصـارهم﴾ وقال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة قاطع» أي قاطع رحم كما رواه البخاري ومسلم من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه. ولا شك أن الذي لا يصل رحمه لن يصل من سـواهم فهـو قـريب من كل شر بعيـد عن كل خير. أمـا التكليف الرابع فهو قوله تعالى: ﴿واليتامى﴾ والإحسان إلى اليتامى أَمَارةٌ من أبـرز أمـارات المجتمع السعيـد، وهـو صـورة مشرقـة من صـور التكـافل الاجتماعي والمعنى الأصلي لليتم هـو الانفراد يقال: صَبِيٌّ يتيـم أي منفرد من أبيه، ودُرَّةٌ يتيمـة أي ليس لها نظير واليتيمُ من بني آدم من مـات أبوه قبل أن يبلغ الحلم أما اليتيم من سـائر الحيوانات فهو من مـاتت أمه قبل أن يتمكن من القيام بحـاجة نفسه، وقد وصَّـى الله تبارك وتعالى بوجـوب الإحسان إلى اليتامى في مقامات كثيرة من القرآن الكريم ونهى عن قهر اليتيم حيث يقول: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر.﴾ وجعل إيذاء اليتيم عـلامة التكذيب بالدين حيث يقول: ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين * فـذٰلك الذي يدع اليتيم﴾ أي يدفعه دفعا عنيفـا. وقد بشَّر رسـول الله ﷺ كافل اليتيم بـالجنة في منزل قـريب من منـزل رسـول الله ﷺ فقد روى البخـاري في صحيحـه من حـديث سهل بن

سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنـا وكافل اليتيم في الجنة هكذا. وأشـار بـالسَّبَّابـةِ والـوسطـى وفَـرَّجَ بينهما». والتكليف الخامس من هـذه التكاليف الثمانية هو قولـه عز وجل: ﴿والمساكين﴾ وهو جمع مسكين. وهو مأخوذ من السُّكُـونِ كأن الفقر أسكنه من الحرَاكِ وأَثخَنَـهُ عن التَّقَلُّب، وقد جعل الله تبـارك وتعـالى الفقـراء والمسـاكين مَصْرِفَيْن من مصـارف الـزكـاة في الإسلام، والقاعـدة عند أهل العلم: أن المسكين إذا ذكر وحده كـالذي هنا فإنه يشملُ الفقير كذلك، كما أن الفقير إذا ذكـر وحده يشمل المسكين أيضا أما إذا عطف أحـدهما على الآخر كقـوله في مصـارف الصدقـات: ﴿للفقراء والمسـاكين﴾ فإن المسكين يراد بـه من يملك دون النصـاب وأن الفقير من لا يملك شيئا ألبتة فهما إذا اجتمعا افترقـا و إذا افترقا اجتمعا. والمسكين أحسن حالا من الفقير إذ الفقير أصلـه مَنْ كُسِرَ فَقَارُهُ. والفَقَـارُ جمع فَقَارَةٍ وهـو ما انْتَضَدَ من عظـام الصُّلْب من لَدُنِ الكاَهِلِ إلى العَجْبِ، وقـد وصف الله عز وجل أهل السفينة بأنهم مساكين حيث يقول: ﴿أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر﴾ أما التكليف السادس من هذه التكاليف الثمانية فهو قوله عـز وجل: ﴿وقـولـوا للنـاس حُسْنـا﴾ أي وخـاطبـوهم بـاللِّيِّن من القـول واستعملوا معهم الرِّفْقَ في الحديث مهما كانت أحوالهم، وقد وصَّى الله تبارك وتعالى موسى وهارون عليهما السلام أن يقولا لفرعون قولا لينا حيث يقول عز وجل: ﴿فقُولا له قولا لينا لعله يتـذكر أو يخشى﴾ والرِّفْق ما كان في شيء إلا زانه والفُحْشُ ما كـان في شيء إلا شانه، ولذلك كثرت وَصَـاياَ رسول الله ﷺ بـالحضِّ على الـرفق والإحسـان في القـول، فقـد روى البخـاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمـر كله» كما روى مسلم من حـديثهـا رضي الله عنها أن رسـول الله ﷺ قـال: إن الله رفيق يحب الرفق، ويُعْطي على الـرفق مـا لا يعطي على العُنْف

ومـا لا يُعْطِي على ما سـواه . كما روى مسلم من حـديثها رضي الله عنهـا أن رسول الله ﷺ قال : «إن الرفق لا يكـون في شيء إلا زانه ولا يُنْزَعُ من شيء إلا شَانَهُ» كما روى مسلم من حديث جـرير بن عبدالله رضي عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقـول : مَنْ يُحْرَم الرفقَ يُحْرَمِ الخيرَ كلَّـه . أما التكليف السـابع والثامن فهو قـوله تعالى : ﴿وأقيموا الصلاة وآتـُوا الزكـاة﴾ وقد تقدم الحديث على هذين التكليفين عند قـوله تعالى : ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الـزكاة واركعوا مع الراكعين﴾ وهذه التكاليف الثمانية هي الأساس لكل مجتمع مثاليٍّ سعيد . وقوله تبـارك وتعالى : ﴿ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتـم معرضون﴾ أي نَكَثْتُم يا بني إسرائيل العهدَ ، ونقضتم الميثاق ، وبـدَّلْتُم نعمة الله كفراً وخالفتم أمر الله في هـذه التكاليف الثمانيـة ، وأعـرضتم عن طـاعة الله وَدَاوَمْتُم على هـذا الإعراض حتى صار طبيعةً من طبائعكم وسَجِيَّةً من سجاياكم يرثها خلفكم عن سلفكم سوى عـدد قليل منكم استمسكوا بـالعهد ولم ينقضـوا الميثاق ، ولذلك قال الله عـز وجل : ﴿ليسوا سواءً ، من أهل الكتاب أمة قـائمة يتلون آيات الله آنـاء الليل وهم يسجدون﴾ وقـد كان من هـؤلاء القائمين على الحق عبدالله بن سلام رضي الله عنه .

قال تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون* ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب، وما الله بغافل عما تعملون. أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون﴾.

إن الله تبارك وتعالى بعد أن بيَّنَ مَوَادَّ الميثاق المأخوذ على جميع بني إسرائيل من أَسْلاَفِهِم وأخلافهم، والذي هو في الواقع ميثاق الله تبارك وتعالى على جميع المكلفينَ من سائر أتباع النبيين والمرسلين، وبعد أن بيَّن نقض بني إسرائيل لجميع مَوَادِّ هذا الميثاق وإعراضهم عن العمل به إلا من هَدَاهُ الله وهم قليل منهم، شرع في بيان مواد الميثاق الخاص ببني إسرائيل دون غيرهم من أتباع النبيين والمرسلين، ووبَّخَهم وأنَّبَهم على أنهم لم يُحَرِّمُوا حرامه ولم ينزجروا عما نُهُوا عنه إلا ما وافق منه هَوَاهُم في بعض الأحيان، ولما كان هذا الميثاق خاصاً ببني إسرائيل كما أسلفت فَصَلَهُ عن موادِّ الميثاق الذي قبله، ولم يُدْخِلْهُ فيه وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل العهد الموثَّق الذي أخذناه عليكم، لحماية نفوسكم، وصيانة دمائكم، ووضع أسباب استقراركم في دياركم، والظاهر والعلم عند الله عز وجل ــ أن هذا الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل في هذا المقام إنّما نَقَضهُ المعاصرون لرسول الله ﷺ من بني إسرائيل، فقد استفاض أن سكان يثرب كانوا من الأوس والخزرج ويَهُود بني النضير ويهود بني قريظة ويهود بني

قينقـاع، وكـانت العـداوة بين الأوس والخزرج قد بلغت مـداهـا. فكـانت الحروب لا تكـاد تنقطع بين الأوس والخزرج، ولهم أيـام مشهـورةٌ منهـا يـومُ بُعَاثَ وهي وقعة كانت بين الأوس والخزرج في مزرعة عند بني قريظة بالقرب من حصـونهم. وقد روى البخـاري في صحيحه عن عـائشة رضي الله عنهـا قالت: كان يـومُ بُعَاثَ يوماً قـدَّمَهُ الله لرسوله ﷺ، فَقَـدِمَ رسول الله ﷺ وقد افترق مَلَؤُهُم وقُتِلَتْ سَرَوَاتُهُم وَجُرِّحُوا، فقَدمَّـهُ الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام اهـ. وكـان يهود بني النضير وبني قينقاع قد حالفـوا الخزرج وكانت بنو قريظة قد حالفوا الأوس، فإذا وقعت حرب بين الأوس والخزرج قاتل كلُّ فـريق مع حلفـائه فيقتل اليهـوديُّ حليفُ الأوس اليهـوديَّ حليف الخزرج، ويقتل اليهوديُّ حليف الخزرج اليهوديَّ حليف الأوس، وقـد يدخل الفريقُ الغالبُ بيوتَ الفريق المغلوب فيخرجونهم من ديارهم، وينتهبون ما فيها من الأمـوال والأمتعة والأثـاث. وقـد يقع بعض اليهـود أسرى في يد العـرب من الأوس والخزرج، وكـان الميثاق المأخـوذ على بني إسرائيل أن لا يقتل إسرائيلي إسرائيليا ولا يجوز لإسرائيلي أن يُخْرِجَ إسرائيليـا من داره قهرا، وأنـه متى وَجَدَ إسرائيليٌّ إسرائيليا في الأسْر وجب عليه تخليصه من الرِّقِّ ومُفاداته. فكانوا إذا وضعت الحربُ أوزارهـا بين الفريقين اجتهـد اليهود سـواءٌ كـانوا من حلفـاء الأوس أو من حلفـاء الخزرج في فكِّ الأسَـارَى اليهـود بِغَضِّ النظـر عن قبائلهم، فقد يفتدي اليهوديُّ النضيريُّ الأسيرَ القُـرَظِيَّ ويفُكُّهُ من يد عدوه ويُحَرِرهُ، كما قـد يفك اليهـودي القـرظي الأسير النضيري ويفتـديـه ويحرره بدعوى أن الميثاق المأخـوذ عليهم من الله يوجب عليهم فكَّ أُساراهم. وهذا من التناقضـات العجيبة والسفاهـة في الرأي أن يَسْتَحِلَّ أحـدهم قَتْلَ الآخر وهو محرم عليه ويشهد بذلك، ويُخْرِجُـهُ من داره وهو مُحَرَّمٌ عليه، وهو يشهد بذلك أيضا ويُقَرِّرُ أنه حرام، ثم يَفُكُّ أساراهم زاعماً أنه لا يُحِبُّ أن يرى أَحَدَ

أتبــاع مِلَّتِـه أسيرا. فــوبَّخهم الله تبـارك وتعــالى على ذلك، وفضحَهم في تنـاقضاتهم، وفي ذلك يقـول الله عــز وجــل: ﴿وإذ أخـذنا ميثــاقكم لا تسفكـون دماءكم﴾ أي واذكـروا يـا بني إسرائيل أننـا أخذنـا عليكم العهـد الموثَّق: ﴿لا تسفكون دماءكم﴾ أي لا يُرِقْ إسرائيلي دَمَ إسرائيلي وقوله: ﴿لا تسفكون دماءكم﴾ هو نفي بمعنى النَّهي أي لا تسفكوا دماءكم، والمقصود: لا يقتل بعضكم بعضا وإضـافة الدمـاء إليهم لتأكيد الـرابطة بينهم كأن دَمَ أخيـه في الدين هـو دَمُهُ، وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿ولا تخرجـون أنفسكم من ديــاركم﴾ أي ولا يحل لإسرائيلي أن يُخْرِجَ إسرائيليــاً من داره قهــراً وظلماً. وإضافة الأنفس والـديار إليهم لنفس المعنى الموجود في إضافـة الدماء إليهم كأن من أخـرج أخاه في الـدين من داره إنما أخرج نَفْســه من دَاره هو، وهــذا يُشعر بفظـاعة جـرم من يُخْرج غيرَهُ من داره بغير حق لا سيما إذا كـان أخا في الدين. وقوله تعالى: ﴿ثم أقررتم وأنتم تشهدون﴾ أي ثم اعترفتم بهذا الميثاق والتـزمتم به اعتقـادا، ولازلتم تقرون وتشهـدون أنه لا يحل لأحـدكم أن يقتل أخاه بغير حق كما لا يحل لأحـدكم أن يُخْرِج أخاه من داره قهـراً وبغياً وظلماً، وقوله تعالى: ﴿ثم أنتم هٰؤلاء تقتلـون أنفسكم﴾ إلخ الآية هو خطاب خاص بهؤلاء اليهود المعتدين على الميثـاق فيه توبيخ شديد واستبعـاد قويٌّ لما ارتكبوه بعـد الإقرار بـالميثاق والشهـادة على أنه حق، والتعبير بثَمَّ لإفـادة تماديهم في الباطل، وقولـه: ﴿هٰؤلاء﴾ أي يا هؤلاء والعرب قد يتركـون حرف النداء وهو مراد كقوله تعالى: ﴿يوسف أعـرض عن هٰذا﴾ أي يا يوسف أعرض عن هذا كأنه قيل: ثم أنتم يا هؤلاء اليهود بعـد اقراركم بالميثاق يقتل بعضكم بعضا، ويخرج بعضكم بعضا مـن ديارهم تتعاونـون عليهم بالإثم والعـدوان، وأنتم مع قتلكم من تقتلـون وإخراجكـم مَنْ تخرجون إذا وجـدتم الأسير منكم في أيدي غيركم من الـوثنيين قمتم بفدائه وتحريره من أيـديهم، ألا تخجلون من

تناقضكم هـذا؟ وأنتم موقنـون بأن قهركم لبعضكم وإخراجهـم من ديارهم مُحَرَّمٌ عليكم، أفتصدقـون ببعض ما في التوراة وتُكَذِّبون ببعـض أحكامها فما تستحقون على فعلكم هـذا، وتلاعبكم بكتابكم إلا الـذُّلَّ والصغار والخزي والعار في حياتكـم الدنيا، ويوم تقوم السـاعة يُرَدُّ من فعل ذلك مع مـا ناله من خزي الحيـاة الدنيـا إلى أفظع العذاب الـذي أعده الله لأعـدائه الناقضين لميثاقـه المتلاعبين بكتـابه، ولا يخفى على الله تبـارك وتعالى شيء من أعمالكم فالله مُنَزَّهٌ عـن السَّهْوِ والنسيان، كما قال موسى عليـه السلام: «لا يضل ربي ولا ينسى» فيما حكى الله عز وجل عنـه. ومعنى قوله: ﴿تظـاهرون عليهم﴾ أي تتعـاونون عليهم، فـالتظاهـر هـو التعاون، لما في المتعـاونين من تقويـة بعضهم ظهر بعض، والإثم المعصيـة والعدوان هـو تجاوز الحد ظلما وبغيا، والأسَـارَى جمع أسير وهو من يـؤخـذ قهـرا، ويقال لـه: الأخيـذ أيضا قـال الفيروز آبـادي في القامـوس المحيط: والأسير الأخيذ والمقيَّـدُ والمسجون اهـ وقوله: ﴿تفادوهم﴾ أي تُنْقِذُوهم وتُخَلِّصُوهُم من الأسْر، وقوله تعالى: ﴿وهو محرم عليكم إخراجهم﴾ قولـه: ﴿هو﴾ يحتمل أن يكون ضمير الشأن والحال والقصة أي والحالُ والشأنُ أن إخراجهم من ديارهم محرم عليكم. ويحتمل أن يكون قوله: ﴿هو﴾ كنايةً عن الإخراج الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿وتخرجون فريقـا منكم من ديارهم﴾ كقـوله تعـالى: ﴿اعدلـوا هو أقـرب للتقوى﴾ أي اعدلـوا، العدل أقرب للتقـوى، وهو من دلالـة الفعل على الحدث وحده إذ هو موضوع للحدث والزمان، وتسمى هـذه الدلالة الدلالة التضمنية، وقوله تعالى: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفـرون ببعض﴾ الاستفهام فيه للتوبيخ على هذا التناقض الواقع منهم باستباحة قتل بعضهم وإخراجهم من ديارهم وهو محرم عليهم، وهم مع ذلك يفكون مـن يقع في الأسر منهم بدفع الفداء لتحريرهم من الرق، وقولـه تعالى: ﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي

في الحياة الـدنيا، ويوم القيـامة يُـرَدُّون إلى أشد العذاب﴾ أي فما عُقُـوبَةُ من يتـلاعب بالكتـاب فَيُحَـرِّمُ منه مـا يشتهي تحريمـه ويـرفض تحريم ما حـرَّم الكتابُ إذا لم يكن يشتهي تحريمـه إلا خزي أي هوان وذِلةٌ وصغـار في الحياة الدنيا، وقد أوقع الله ذلك بهم فأخـرج رسول الله ﷺ بني النضير من ديارهم لأول الحشر وقتل مقاتِلَةَ قُريظـة وسبي ذراريِّهم، ثم أخرج عمر رضي الله عنه جميع اليهود من جزيرة العـرب ولا يزال الخزي يلاحقهم حتى وصل الذروة في ذلك إبَّان القرن التـاسع عشر الميلادي حيث كان اليهودي يستحـي أن يذكر في أوروبا أنـه يهودي وقد قـام كثير منهم بترك اليهوديـة هَرَبـاً من هذا الخزي وكان من بين هـؤلاء عدوُّ الله وعدو الإنسانيـة كارل ماركس داعية الشيـوعية فقد انتقل هو وأبوه وأمه وأختـه من اليهودية إلى النصرانية ثم انتقل إلى الإلحاد والكفر بفـاطر السموات والأرض لعنـه الله ولعن أتباعـه إلى يوم الدين وقـوله تعالى: ﴿ويوم القيامة يُرَدُّون إلى أشـد العذاب﴾ أي ويوم تقوم الساعة يُحْشَرُ اليهود مع الملاحدة والـدهريين وفرعون وملائه في أفظع العـذاب وهو عذاب جهنم نعوذ بالله منها. وقوله تعالى: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ أي وما الله بِسَاهٍ أو ناسٍ أو تـاركٍ شيئا من أعمالكم، وهو مُجازيكم بها، ولا يظلم ربك أحدا، وقـوله تعالى: ﴿أولَئِك الـذين اشتَرَوا الحياةَ الـدنيا بالآخـرة فلا يُخَفف عنهم العـذابُ ولا هم يُنْصَرون﴾ أي هـؤلاء الذيـن حرَّمـوُا من شريعتهم مـا اشْتَهَـوا تحريمـه واستباحـوا من محرمـات شريعتهم مـا اشْتَهَوا استبـاحتـه، وحَرَصُـوا على رياستهم على الضعفاء وأهل الجهـل والغباء من أهل ملتهم، واشتَرَوْا بعض مَلاَذِّ الحيـاة الدنيا الفانية وبعض شهـواتهم الجامحة فيها بثمن هو النعيم المقيم في جنات النعيم، فما أشـد خسارتهم في صفقتهم؟ وما أشد فـداحة مصيبتهم ومـا أقبح مـا فعلوا بـأنفسهم، وقد أعـدَّ الله لهم في جهنم عذاباً لا يخطر على البال، ولا يدور في الخيال، حيث يُنادُون يا مالك ليقض

علينا ربك قال إنكم ماكثون، لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون كلما نضجت جلودهم بدلهم ربهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب، فلا تُخَفَّفُ عنهم شدته، ولا يَجْرؤ أحد أن يدفع شيئا من عذاب الله عنهم، نعوذ بالله أن نسير سيرتهم، أو نَنْهَجَ مَنْهَجَهم، أو نَنْسِج على منوالهم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقفّينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيّدناه بروح القدس، أفكلّما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذّبتم وفريقا تقتلون* وقالوا: قلوبنا غلفٌ بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون﴾.

هذا بيان آخر لبعض نعم الله الجليلة وآلائه العظيمة التي تفضل بها على بني إسرائيل حيث أرسل لهم موسى عليه السلام كليم الله وأعطاه التوراة فيها هدى ونور، وأتبعه بالرسل الكرام كداود وسليمان و إلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وعيسى وغيرهم عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام وكيف قابل هؤلاء الإسرائيليون نعم الله بالجحود والكفران، وقد بيّن الله عز وجل أنهم كانوا لا يطيعون الرسل إلا فيما تشتهيه أنفسهم وأنهم كانوا يستكبرون على المرسلين فيكذّبون بعضهم ويقتلون بعضهم، وأنهم قالوا: ﴿قلوبنا غلف﴾. وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ أي والله لقد أعطينا موسى التوراة. وتصدير هذه الجملة بالقسم الذي أرشدت له اللام الموطئة للقسم في قوله: ﴿ولقد﴾ لإظهار كمال الاعتناء بما في حيّزه، وقوله عز وجل: ﴿ وقفّينا من بعده بالرسل﴾ أي وأَتبعنا بعضهم بعضا من بعد موسى عليه السلام وأرسلنا كلّ رسول منهم في إثر الرسول الذي قبله، كقوله تعالى: ﴿ثم أرسلنا رسلنا تَتْرَى﴾ أي متتابعين، وأصل التقفية الإتباع والإرداف مأخوذ من إتباع القفا وهو مؤخر العنق تقول: استقفيته إذا جئت من خلفه، كما يقال: قفوته إذا صرت خلف قفاه، والضمير في قوله: ﴿من بعده﴾ أي من بعد موسى عليه السلام، وقوله عز وجل: ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ أي وأعطينا عيسى ابن مريم المعجزات التي أظهرها الله تبارك وتعالى على يديه التي تبيّن أنه رسول من رب

العالمين، من إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرا بإذن الله ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، ويخبرهم ببعض الغيوب التي يعرفون أنه لا علم له بها من أي طريق سوى الوحي المنزّل عليه من الله، وقوله تعالى: ﴿وأيدناه بروح القدس﴾ أي وقويناه وأعنّاه بالروح المقدّسة أي المطهّرة والمراد به جبريل عليه السلام، والإضافة في روح القُدس من إضافة الموصوف إلى الصفة كقولك: حاتم الجود، والتأييد مأخوذ من قول العرب: آد يئيد أيدًا بمعنى اشتدّ وقوي، قال الفيروزآبادي في القاموس المحيط: (آد) يئيد أيدا اشتدّ وقوى، والآد الصّلب والقوّة كالأيد، وآيدته مؤايدة وأيّدته تأييدا فهو مؤْيَد ومؤيّدٌ قوّيته اهـ ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿والسّماء بنيناها بأيدٍ﴾ أي بقوة، وكذلك قوله تبارك وتعالى في حق داود عليه السلام: ﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب﴾ أي صاحب القوة في دين الله عز وجل وقد كان رسول الله ﷺ يدعو لحسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ ورضي الله عنه فيقول: اللهم أيّده بروح القدس، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرّ بحسّان وهو ينشد الشعر في المسجد فلحظ إليه، فقال: قد كنت أنشد فيه، وفيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «أجب عني اللهم أيّده بروح القدس». وفي الصحيحين أيضا عن البراء أن رسول الله ﷺ قال لحسان: «اهجهم ــ أو هَاجِهم ـ وجبريل معك ـ» وقال حسان رضي الله عنه:

وجبريلٌ رسول الله فينا ... وروح القدس ليس به خفاء

وقد كانت جميع رسل بني إسرائيل يحكمون بشريعة موسى عليه السلام وينفّذون أحكام التوراة، مع ما يوحيه الله عز وجل إليهم من بعض الأحكام في بعض القضايا التي تستجد، وكذلك أنبياؤهم غير المرسلين، كما قال عز

وجل : ﴿إنا أنـزلنا التـوراة فيها هدى ونـورٌ، يحكم بها النبيون الـذين أسلموا للذين هـادوا والربـانيون والأحبـار بما استُحْفِظوا من كتـاب الله وكانـوا عليه شهـداء، فلا تخشَـوا الناس واخشـونِ ولا تشتروا بآيـاتي ثمنا قليـلا، ومن لم يحكم بما أنـزل الله فأولَـئـك هم الكـافـرون * وكتبنـا عليهـم فيهـا أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بـالأنف والأذن بالأذن والسنّ بالسنّ والجروح قصاص فمن تصدق به فهـو كفارة له، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولَئك هم الظالمون﴾ وقد تقدّم في تفسير قوله عز وجل : ﴿ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ أن النبي من بعثـه الله بشريعة جـديـدة يدعـو إليها أو بعثـه لتقـرير شريعـة سابقة، وأن الرسول من بعثه الله بشريعة جـديدة يدعو إليها، وأن كلّ رسول نبي وليس كل نبي رسولا، وقـد أنزل الله عز وجل الـزبور على داود والإنجيل على عيسى عليهما السلام وفي ذلك يقول الله عـز وجل : ﴿وآتينا داود زبورا﴾ ويقول : ﴿وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدّقا لما بين يديه من التوراة وآتَيْنَاهُ الإنجيل فيه هدى ونورٌ ومصدّقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين﴾ . وقـولـه عز وجل : ﴿أفكلّما جـاءكم رسـول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كـذّبتم وفريقا تقتلون﴾ هذه هي القـاعدة عند بني إسرائيل مع أنبيـاء الله ورسلـه وأن مـدار قبـولهم للحق أو ردّه هـو شهـوات أنفسهم وأهواؤها فإذا أتاهـم الرسول بخـلاف ما يهوون كذّبوه وربّما قتلوه، ولا يقبلون من الحق الـذي يجيء بـه الأنبيـاء والمرسلـون سوى مـا يشتهـونـه وتميل إليـه أنفسهم التي جبلت على حبّ العلـوّ في الأرض بغير الحق، وجمع الحطـام، واتّبـاع الشهوات، وهـذا أقصى ما تـوصف به النّفس الإنسـانية من الـذّم، وأقبح أخلاق بني آدم، وفيه تسليـة ومواساةٌ لرسول الله ﷺ الذي كـان يعرفه أحبار بني إسرائيل قبل مجيئه كما يعـرفون أبناءهم، ومع ذلك كذبـوه وتعاونوا مع المشركين والمنـافقين على محاربـة دعوتـه والصّـد عن سبيل الله، والهوى :

الميل إلى الشيء ومحبّته والهُوِيُّ: السقوط، تقول: هَوِيَ فلان هذا الشيء يَهْوَى هوًى إذا أحبه ومال إليه، وتقول: هوَى يَهْوِي هُوِيًّا إذا سقط وانحدر، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾ وقوله: ﴿استكبرتم﴾ أي تكبّرتم عن اتباعه وطاعته، والاستفهام في قوله: ﴿أفكلما جاءكم رسول﴾ للتوبيخ لهم على هذا الخلق الذميم وللتعجب من هذا السلوك المنحرف المعوج. ومحلّ الاستفهام التوبيخي هو قوله: ﴿استكبرتم﴾ أي استكبرتم كلما جاءكم رسول الخ أي بادرتم فريقا من الرسل بالتكذيب وفريقا آخر بالقتل وقدّم التكذيب لأنه أوّل ما يفعلونه مع أنبيائهم ورسلهم من الشر، إذ هو مشترك بين المقتول وغيره فهم قد كذّبوا الذين قتلوهم من الرسل والأنبياء أيضا، وإنما لم يصرح بأنهم كذّبوا من قتلوهم من الرسل؛ لأن جريمة قتلهم أكبر من جريمة تكذيبهم، والتعبير بالمضارع في قوله عز وجل: ﴿وفريقا تقتلون﴾ لاستحضار الصورة الفظيعة التي ارتكبوها وللإيماء بما حاولوه من قتل رسول الله ﷺ أكثر من مرة حيث عزموا على رمي حجر كبير فوق رأسه ﷺ وهو في بني النضير كما حاولوا قتله بالسّم في خيبر عندما قدموا له شاة مسمومة. وقد قتلوا من المرسلين زكريا ويحيى وغيرهما وكما همّوا كذلك بقتل عيسى فلم يمكنهم الله تبارك وتعالى من ذلك بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما. وقوله تعالى: ﴿وقالوا: قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون﴾ هذا بيان آخر لبعض قبائح بني إسرائيل المعاصرين لرسول الله ﷺ، وجيء به على سبيل الالتفات من الخطاب إلى الغيبة إشعارًا بأنهم مستحقون للإعراض عنهم تقبيحًا لشأنهم، وازدراءً لهم، و﴿غُلفٌ﴾ جمع أغلف وهو ما وضع في غِلاف وغطاء ولُفَّ به.وعُصِب عليه، أي وقالوا: قلوبنا في أكنة وأغطية تغطيها فلا يصل إليها شيء مما يخبرهم به رسول الله ﷺ

من وجوب طاعتهم لله وإيمانهم برسوله والانقياد لشرعه، وقد صاروا بهذا القول متماثلين مع مشركي قريش الذين قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقرٌ ومن بيننا وبينك حجاب﴾ وقوله تعالى: ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ أي بل طردهم الله تعالى وأبعدهم عن رحمته، وأقصاهم وأخزاهم وخذلهم، بسبب كفرهم بالله وجحودهم لنعمه وتكذيبهم لرسله واتباعهم للشيطان و(بَلْ) في هذا المقام للإضراب الإبطالي، فليس عدم قبولهم للحق هو ما زعموه من أن قلوبهم غلف فإن الله تبارك وتعالى خلق عباده حنفاء فاجتالتهم الشياطين وحوّلتهم عن الطريق المستقيم، والفطرة التي فطر الله الناس عليها، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه، كما تُنتَج البهيمة بهيمةً جمعاء هل تُحسّون فيها من جدعاء» ثم يقول: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم﴾، كما روى مسلم في صحيحه من حديث عياض بن حمارٍ المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إنّ ربي أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم ممّا علّمني يومي هذا: كلّ مالٍ نحلته عبدا حلاَلٌ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلّهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنّما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان، وإنّ الله أمرني أن أحرّق قريشاً فقلت: ربّ إذاً يثلغوا رأسي فيدعوه خبزةً، قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نُغْزِك، وابعث جيشا نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك». الحديث وقوله تبارك وتعالى:

﴿فقليلا ما يؤمنون﴾ قال ابن جرير رحمه الله : أخبر أنه لعن الذين وصف صفتهم في هذه الآية ثم أخبر عنهم أنهم قليلو الإيمان بما أنزل الله إلى نبيه محمد ﷺ، ولذلك نصب قوله : ﴿فقليلا﴾ لأنه نعت للمصدر المتروك ذكره، ومعناه: بل لعنهم الله بكفرهم فإيماناً قليلا ما يؤمنون اهـ وقال القرطبي : وقال معمر: المعنى لا يؤمنون إلا بقليل مما في أيديهم ويكفرون بأكثره اهـ.

قال تعالى : ﴿ولما جاءهم كتابٌ من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين* بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزّل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب ، وللكافرين عذاب مهين* وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدّقًا لما معهم ، قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾ .

هذا نوع آخر من قبائح اليهود وسوء سيرتهم ، وكفرهم بما سبق أن أعلنوا إيمانهم به ، وذلك أنهم لمّا استفاض عندهم وصف محمد رسول الله ﷺ ، بسبب وصف أنبياء بني إسرائيل ورسلهم له ﷺ ، وأنه يبعث من برّية فاران ويهاجر إلى أرض سبخة ذات نخيل بين لابتين ، وأنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وأن بين كتفيه خاتم النبوّة كزرّ الحجلة في أمارات لا تخفى سارع أحبار من بني إسرائيل إلى الخروج إلى أرض العرب ينتظرون مجيء هذا النبي ﷺ ، وكان هؤلاء المهاجرون من بني إسرائيل هم آباء بني النضير وبني قريظة وبني قينقاع ، وقد اختار أكثرهم يثرب لانطباق وصف مهاجَر رسول الله ﷺ عليها ، وكانت يثرب قبل مجيئهم إليها قد سكنها الأوس والخزرج ، وقد حالف بنو قينقاع وبنو النضير الخزرج كما حالف بنو قريظة الأوس على ما تقدم في تفسير قوله تعالى : ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ إلى نهاية الآية السادسة والثمانين من هذه السورة المباركة وقد صارت اليهود إذا قامت حربٌ بينهم وبين العرب الوثنيين من الأوس أو الخزرج أو غيرهم استفتحوا عليهم وقالوا لهم : إن نبيًا مبعوث الآن قد أظل زمانه ، وأنهم سيتبعونه إذا ظهر ، وأنهم سيقاتلون معه أهل

الأوثان، وكان كلام اليهود هؤلاء هو السبب في مسارعة الأوس والخزرج إلى الدخول في الإسلام، فإن الله تبارك وتعالى لما أراد إظهار دينه وإعزاز رسوله، وإنجاز وعده خرج رسول الله ﷺ في الموسم ليعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أنتم؟» قالوا: نفرٌ من الخزرج، قال: «أمن موالي يهود؟» قالوا: نعم، قال: «أفلا تجلسون أكلّمكم؟» قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فقال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون والله إنه النبي الذي توعّدكم به اليهود فلا يَسْبِقُنَّكُمْ إليه، فسارَعوا إلى الإيمان بالله والاستجابة لرسوله ﷺ، وبالرغم من أن اليهود قد حاولوا كتمان صفة رسول الله ﷺ بعد ظهوره صلوات الله وسلامه عليه فإنهم قد فاتتهم أشياء من صفاته لم يستطيعوا كتمانها، حيث لم يزل موجودا في التوراة وغيرها من كتب العهد القديم بعض صفات رسول الله ﷺ ومن ذلك قوله في التوراة: سأقيم لبني إسرائيل من إخوتهم مثلك يا موسى أُنْزِلُ عليه توراةً وأجعل كلامي على فيه. ولم يأت رسول قطٌّ يذكر أن معجزته كلام الله سوى محمد ﷺ والمراد بالتوراة في هذا النص الشريعة إذ إن معنى التوراة هو الشريعة، كما جاء في التوراة: جاء الله أو تجلّى الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلى أو استعلن من جبال فاران. وهذا النص لا غموض فيه إذ الجملة الأولى قد قصد بها تقرير شريعة موسى عليه السلام وإنزال التوراة عليه في طور سيناء، والجملة الثانية بشارة بعيسى عليه السلام المبعوث من ساعير بالجليل من فلسطين، والجملة الثالثة بشارة بمحمد رسول الله ﷺ المبعوث من بلاد فاران، التي لاشك عند أهل العلم بجزيرة العرب أنها جبال مكة، وهذه الأماكن الثلاثة قد أقسم الله بها في القرآن العظيم حيث يقول عز وجل:

﴿والتين والزيتون * وطور سينين* وهٰذا البلد الأمين ﴾ فالتين والزيتون جبلان من جبال بيت المقدس أنزل الله الوحي على عيسى عندهما، وطور سينين هو الجبل الذي كلَّم الله موسى عنده وآتاه التوراة، والبلد الأمين مكة التي بعث الله منها محمدا ﷺ، والقرآن رتبها بحسب التدريج إلى أعلى، والتوراة ذكرتها بحسب الترتيب الزماني.

هذا ولا يزال إلى اليوم في كتب العهد القديم ذكر سَلْع وهو الجبل الواقع داخل المدينة المنورة والمعروف إلى اليوم حيث أشير في النص الإسرائيلي إلى فرحه وتهلله واستبشاره بمقدمه ﷺ، فمعرفة أحبار بني إسرائيل بصفات رسول الله ﷺ بلغت حدّا يساوي معرفة الإنسان بولده، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، وفي هذا يقول الله عز وجل: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدّق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ أصل تقدير الكلام: ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم كفروا به وكانوا من قبل مجيئه يحلفون للمشركين من الأوس والخزرج وغيرهم من الوثنيين العرب أن زمان النبي قد أظلهم وأنهم سينصرونه ويؤيدونه ويقتلون الوثنيين وينتصرون عليهم معه فلما جاءهم النبي الذي عرفوه كفروا به. فالكلام مكون في الأصل من جملتين شرطيتين وجملة معترضة بينهما، وقد حذف جواب الأولى لدلالة جواب الشرطية الثانية عليه، وحذْف جواب الشرط إذا دل عليه دليل هو شائع في اللسان العربي قال ابن جرير رحمه الله عن جواب الشرطية الأولى في هذه الآية الكريمة: هو مما ترك جوابه استغناء بمعرفة المخاطبين به بمعناه، وبها قد ذكر من أمثاله في سائر القرآن، وقد تفعل العرب ذلك إذا طال الكلام فتأتي بأشياء لها أجوبة، فتحذف أجوبتها لاستغناء سامعيها بمعرفتهم بمعناها عن ذكر الأجوبة، كما قال جل ثناؤه: ﴿ولو أن قرآنا سُيِّرَتْ به الجبال أو قُطِّعَتْ به الأرض أو كُلِّمَ به الموتى

بل لله الأمر جميعا﴾ فترك جوابه والمعني: ولو أن قرآنا سوى هذا القرآن سيّرت به الجبال لسيّرت بهذا القرآن، استغناء بعلم السامعين بمعناه، قالوا: فكذلك قوله: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم﴾اهـ. والمقصود بالكتاب في قوله: ﴿ولما جاءهم كتابٌ﴾ هو القرآن العظيم. ومعنى قوله: ﴿مصدق لما معهم﴾ أي موافق لما عند أهل التوراة من الإقرار بالله وبالرسالة وما اشتملت عليه التوراة وغيرها من كتب العهد القديم من النعوت والصفات والعلامات التي تشهد أن محمدا رسول الله. وقوله تعالى: ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾ أي فخزي الله وسخطه على الجاحدين الكاتمين لصفات محمد ﷺ وهم يعرفونها أتم المعرفة، وكان مقتضى السياق أن يقول: فلعنة الله عليهم، لكنَّ مقتضى الحال يقتضي تسجيل صفة الكفر عليهم فلذلك وضع الظاهر موضع الضمير حيث قال: ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾ وقوله تعالى: ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزّل الله من فضله على من يشاء من عباده﴾ أي قبح وذمّ ما استبدل واعتاض به هؤلاء اليهود أنفسهم كفرهم بما أنزل الله من القرآن الكريم على نبيه العظيم محمد ﷺ وما كان كفرهم إلا للبغي والحسد وطلب ما ليس لهم، وكان هذا البغي والحسد منهم لأجل أن الله نزّل القرآن من فضله على حبيبه ومجتباه وخيرته من خلقه محمد ﷺ، وهم يريدون حَصْرَ النبوّة فيمن يختارونه هم لا فيمن يختاره الله ويصطفيه، فما أقلّ حياءهم وما أفحش بغيهم وتعنّتهم، والعرب أكثروا من استعمال كلمة (اشترى) فيمن أخذ السلعة ودفع الثمن و(شرى) فيمن باع السلعة وأخذ الثمن، وقد يستعملون: شرى واشترى بمعنى باع قال الفيروزآبادي في القاموس المحيط: شراه يشريه ملكه بالبيع وباعه كاشترى فيهما ضدٌّ اهـ وهؤلاء اليهود لعنهم الله قد خسروا أنفسهم بسبب حسدهم لرسول الله ﷺ لنزول القرآن العظيم عليه، ويريدون

حصر النبوة في ذريــة إسحاق بن إبراهيم وحـرمان ذريـة إسماعيل منها وهم يعلمـون علم اليقين أن إسماعيل و إسحـاق هما ولــدا خليل الـرحمن عليهم السلام وقد أشـار الله عز وجل إلى ذلك حيث يقول : ﴿ألم تر إلى الـذين أُوتوا نصيبا من الكتاب يـؤمنون بالجبت والطاغوت و يقولون للـذين كفروا : هٰؤلاء أهـدى من الذين آمنـوا سبيلا * أولَٰئك الـذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد لــه نصيرا * أم لهم نصيبٌ من الملك فإذاً لا يـؤتـون النـاس نقيراً * أم يحسـدون الناس على مـا آتاهم الله من فضلـه فقد آتينـا آل إبراهيم الكتـاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما﴾ وقد أشار عز وجل في قوله : ﴿أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يـؤتـون النـاس نقيرا﴾ إلى أن اليهود لـو كـان لهم تصرّف في ملك السموات والأرض لحرموا الناس من كل خير وكانوا لا يعطون من الخير مهما كان تافها قـدر النّقرة في ظهر النواة . وقد وافق اليهـود في هذه السفاهة من إرادة التحكم في رحمة الله إخوانهم مشركي قريش حيث أرادوا حصر النبوة فيمن كان ذا مال ظنًا منهم أن مقاييس الرجال هي بقدر ما بأيديهم من المال فرد الله تبـارك وتعالى عليهم مبيناً لهم أن النبـوة والرحمة رزق من الله يـؤتيه الله من يشـاء وأن قـريشـا أو غيرهم ليس بيـدهم شيء مـن خـزائن السمـوات والأرض بل خزائن الرحمة بيـده حيث يقول عن مقالة قـريش : ﴿أَأُنزِل عليه الذكر من بيننا ، بل هم في شك من ذكـري بل لما يذوقوا عذاب * أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيـز الوهاب﴾ وقال عز وجل : ﴿وقالـوا : لولا نُزِّل هٰذا القرآن على رجل مـن القريتين عظيم * أهم يقسمون رحمة ربـك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحيـاة الدنيـا ورفعنا بعضهم فـوق بعض درجات ليتّخـذ بعضهم بعضا سُخْـريّا ورحمة ربك خيرٌ مما يجمعون * ولـولا أن يكون الناس أمةً واحـدة لجعلنا لمن يكفر بـالرحمن لبيـوتهم سُقُفا من فضة ومعـارج عليها يظهرون * ولبيـوتهم أبوابا وسُرُرًا عليهـا يتكئون * وزخـرفا ، وإنْ كل ذلك لمّا متاع الحياة الـدنيا والآخرة عند ربك للمتقين﴾ وقوله تبـارك وتعالى : ﴿فباءوا

بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهينٌ﴾ أي فاستوجبوا واستحقوا، واستقروا ورجعوا بسخط ولعنةٍ ومقتٍ من الله عليهم لكفرهم بحبيبه ومصطفاه محمد رسول الله ﷺ مع ما استحقوه من غضب ومقت وسخط من الله عليهم لقبائحهم السابقة، وجرائمهم المتلاحقة بقتلهم للأنبياء وتكذيبهم للمرسلين، وقوله عز وجل: ﴿وللكافرين عذاب مهين﴾ أي ولهؤلاء اليهود عقابٌ شديد عند الله عز وجل يهينهم ويذلّهم جزاء ما اقترفوه من تكذيبهم للرسل وقتلهم للأنبياء وحرصهم على العزّة الكاذبة والرياسة الزائلة في عذاب أبديّ سرمدي لا يخفف عنهم، ولا يشفع فيهم شافع ولا يدفع عنهم دافع، وكان مقتضى السياق أن يقال: ولهم عذاب مهين، لكن مقتضى الحال اقتضى وضع الظاهر موضع الضمير لتسجيل صفة الكفر عليهم المشعرة بعلية استحقاقهم لغضب من الله على غضب ولذلك العذاب المهين. وقوله عز وجل: ﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدّقا لما معهم قل فَلِمَ تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾ أي وإذا دعا اليهود داعٍ وطلب منهم المسارعة إلى الإيمان بمحمد ﷺ وبما أنزل الله من القرآن أجابَ هؤلاء اليهود لعنهم الله بأنهم إنما يؤمنون بالتوراة وحدها ويكذبون بكل كتاب سواها حيث يكفرون بالإنجيل المنزّل على عيسى والقرآن المنزّل على محمد صلى الله عليهما وسلم، والحال أن هذا القرآن المنزّل على محمد ﷺ هو الحق الثابت المقطوع بحقيته لأنه لا يلحقه تغيير ولا تبديلٌ ولا تحريفٌ حالة كونه موافقا للأصول الموجودة في التوراة حيث شرع الله فيه ما وصّى به نوحا وإبراهيم وموسى عليهم السلام، ولو كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بالتوراة والالتزام بها فلم قتلتم أنبياء الله الذين بعثهم الله ليحكموا بالتوراة بينكم، وما دمتم قد قتلتم الأنبياء فإنكم غير مؤمنين بما في التوراة، وغير مصدقين للأنبياء، فدعواكم منقوضةٌ بسلوككم الشاهد على كفركم وجحودكم.

قال تعالى: ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون* وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا: سمعنا وعصينا وأُشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين* قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصةً من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين* ولن يتمنّوه أبدا بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين* ولتجدنهم أحرص الناس على حياةٍ ومن الذين أشركوا يودّ أحدهم لو يعمّر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمّر والله بصير بما يعملون﴾.

في هذا المقام الكريم من هذه السورة المباركة يكرر الله تبارك وتعالى التنديد ببني إسرائيل الذين كذّبوا رسوله محمدا ﷺ، وصدوا عن سبيل الله وتعاونوا مع المشركين والمنافقين على الإثم والعدوان ومعصية الرسول وزعموا أنهم لن يؤمنوا إلا بالتوراة التي جاءهم بها موسى عليه السلام ولن يؤمنوا بكتاب جاء بعدها، فأكّد الله تبارك وتعالى بتكرير أن موسى جاءهم بالبينات وأنهم بعد رؤيتهم لهذه البينات الواضحة والمعجزات الظاهرة عبدوا العجل من بعد ذهابه إلى ميقات ربه، وأنهم لما أمرهم الله عند أخذ الميثاق عليهم ورفع الجبل فوقهم كأنه ظلة: خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا، لم يقولوا سمعنا وأطعنا بل قالوا سمعنا وعصينا، ومن كانت هذه حالهم فهم قريبون من كل شر بعيدون عن كل خير، وفي هذا تسليةٌ لرسول الله محمد ﷺ ومواساةٌ له حتى لا ينزعج من سوء ردّهم لأنهم إذا كانوا فعلوا هذا مع موسى عليه السلام وهو من بني إسرائيل، وقد رفع الله عنهم به شرور فرعون وملئه، فلا يستكثر الشرّ منهم مع غيره ﷺ مع أن هذا التكرير في المعاني مع ما اشتمل عليه من ضروب الفصاحة وأساليب البلاغة والبيان هو أحد معاني كون القرآن العظيم

متشابها مثاني وهـو من دلائل الإعجاز. وقوله تبارك وتعـالى: ﴿ولقد جاءكم مـوسى بـالبينـات﴾ أي وتـالله لقـد أتـاكـم مـوسى كليم الله عليـه السـلام بالمعجزات الظـاهرات، والحجج القاهرات فأبصرتموهـا بعيونكم، وتأكدت لديكم كتأكّد رؤيتكم للشمس في رائعة النهار ليس دونها سحاب ومع ذلك عصيتم أمـره ونقضتم عهـده، والمراد بالآيـات في هـذا المقام هي المعجـزات الكونية وهي العصا التي تحولت ثعبانـا حتى كاد ينخلع قلب فرعون لها واليد التي أدخلها في جيبـه سمراء فخرجت بيضاء من غير بـرص ولا سوء والجراد الذي سلطـه الله على قوم فـرعون حتى صـار يخالطهم في كل شيء، والقمّل والضفـادع كـذلك والـدم الـذي يجدونـه في طعـامهم وشرابهم والسّنـون، والطوفان، وفلق البحـر بعصا موسى عليه السـلام حتى جعل لهم طريقا في البحر يبسا. وقوله تبارك وتعالى ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾ أي عبدتم العجل الذي صنعه لكم السامري واتخذتموه إلـها من دون الله بعد أن فارقكم موسى ذاهبـا إلى ميقات ربه. وقد فعلتم مـا فعلتم وأنتم مرتكبون لأفحش الظلم وأعظمـه حيث أشركتم بـالله و إن الشرك لظلم عظيم، وهـذا تـوبيخ من الله تبـارك وتعـالى لليهـود وتبكيتٌ لهم على سـوء صنيعهم في إشراكهم بالله ومخالفتهم للأنبياء وتأنيب لهم على أنهم إذا كانوا فعلوا ما فعلوا من اتخاذ العجل إلـها مع أنهم يـرون أنه لا يملك لهم ضرا ولا نفعـا وأن الله الملك الحق المبين الذي أيّـد موسى بالمعجـزات وأجرى على يديـه الأعاجيب التي أيقن فرعـون وملؤه أنهم عاجزون عـن مقارعتها ومع قرب مشـاهدة بني إسرائيل لما عاينوه من عجائب قدرة الله فهم إلى تكذيب محمد ﷺ وجحود ما في كتبهم التي يزعمون أنهم مؤمنون بها مـن صفات رسول الله ﷺ والتي كانوا يستفتحون على العرب بسبب وقوفهم عليها أسرع وأقـرب لطول الأمد، وقوله تعالى: ﴿و إذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ قد

تقدم تفسيره، وقوله تعالى: ﴿واسمعوا﴾ أي وأطيعوا ما سمعتم من أوامر الله واعملوا بهذه الأوامر، وقوله تعالى: ﴿قالوا سمعنا وعصينا﴾ هو أجلى بيان يصوّر سوء أخلاقهم وسفاهة نفوسهم، أي بدل أن يقولوا سمعنا وأطعنا قالوا: سمعنا وعصينا، ولذلك وبخهم الله تبارك وتعالى على هذا الخلق الذميم في مقام آخر من كتابه الكريم حيث يقول عز وجل في سورة النساء ﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا، واسمع غير مُسْمَعٍ وراعِنا ليًّا بألسنتهم وطعنا في الدين، ولو أنهم قالوا: سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولٰكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا* يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردّها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنّا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا﴾ و إذا كان أسلافهم قد قالوا سمعنا وعصينا مع مشاهدتهم رفع الجبل فوق رءوسهم فكيف يكون حال أَخلافهم الذين قد طال الأمد بينهم وبين آبائهم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وأُشْرِبُوا في قلوبهم العجل بكفرهم﴾ أي وتغلغل حبّ عجل السامري في قلوبهم، يقال: أُشْرِبَ فلان حبَّ كذا أي تغلغل حبّه في قلبه وخالط شغافه، ومنه قول زهير بن أبي سلمى المزنيّ:

فصحوت عنها بعد حبّ داخل ... والحبُّ يُشربُه فؤادُك داءُ

ومنه قول الشاعر وقد عتب على زوجته عثمة في بعض الشئون فطلّقها وازداد ولهاً بها:

تغلغل حبّ عثمة في فؤادي ... فباديه مع الخافي يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب ... ولا حزنٌ ولم يبلغ سرور
أكاد إذا ذكرت العهد منها ... أطير لوَ انّ إنسانًا يطيرُ

وإنما لم يقل الله عز وجل: وأشربوا في قلوبهم حبّ العجل لأن ذلك

معلوم عند العرب، قال ابن جرير: ولكنه ترك ذكر الحب اكتفاء بفهم السامع لمعنى الكلام إذ كان معلوما أن العجل لا يُشْرَب القلب، وأن الذي يُشْرَب القلب منه حُبّه اهـ وقد جاء في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ قوله: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأي قلبٍ أشربها نكت فيه نكتةٌ سوداء». والباء في قوله تعالى: ﴿بكفرهم﴾ للسببية أي وخالط حبّ العجل شغاف قلوبهم بسبب مسارعتهم إلى الكفر وانغماسهم فيه، وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾ هذا أمر من الله عز وجل لحبيبه ورسوله وأفضل خلقه محمد ﷺ يأمره فيه أن يوبّخ هؤلاء اليهود الذين يزعمون أنهم لن يؤمنوا بمحمد ﷺ ولن يؤمنوا بالقرآن الذي أنزله الله عليه لأنهم إنما يؤمنون فقط بما أنزل عليهم من التوراة وما اختص به بنو إسرائيل فلن يؤمنوا بنبي من غير بني إسرائيل فأمر الله رسوله ﷺ أن يوبّخهم وأن يقول لهم: بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين، أي قبح وذُمَّ هذا النوع الذي سمّيتموه إيمانا وقبح وذم ما يأمركم به هذا الإيمان الزائف المفترى والدعوى الكاذبة لأن الإيمان الحق هو الذي جاء به المرسلون وهو لا يأمر بتكذيب المرسلين وقتل الأنبياء فلو كانت دعواكم بأنكم مؤمنون دعوى صادقةً ما قتلتم الأنبياء وما كذبتم المرسلين، ولسارعتم إلى الإيمان بمحمد ﷺ الذي تعرفونه قبل مجيئه كما تعرفون أبناءكم بسبب ما وصفه الأنبياء لأممهم من صفاته ﷺ، وقوله تعالى: ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصةً من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ أي أخبر اليهود يامحمد وقل لهم: أنتم تزعمون أن الجنة لكم خاصة وأن نعيم الآخرة لن يشارككم فيه أحد، فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين في دعواكم أن الجنة لكم خاصّة وأنه لن يدخل الجنة إلا اليهود، حيث قلتم: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، فإذا كنتم محقّين في دعواكم

فتمنّوا الموت؛ لأن من أيقن أنـه من أهل الجنة فإنه يتمنى سرعـة دخولها والله تبارك وتعالى قضى أن الجنة خالصة لكل مؤمن من أي لون أو جنس أو مصر أو عصر حيث يقول في الطيبات من الرزق: ﴿قـل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيـا خالصة يـوم القيامـة﴾ أي يشترك فيها الكافـرون مع المؤمنين في الحياة الدنيا ويختص بها المؤمنـون يوم القيامة فلا يشـاركهم فيها أحد، كما ثبت أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ لما بشره رسول الله ﷺ بالجنة وكان يأكل تمرات في يده وهو في المعـركة ألقى التمرات وقال: إن عشت حتى آكلهـا فإنها لحياةٌ طويلـة وقاتل حتى استشهـد رضي الله عنه فقـد روى مسلم في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه في قصة غزوة بدر قال: وجاء المشركون فقال رسول الله ﷺ: «لا يقدّمن أحدٌ منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه»، فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عـرضها السموات والأرض» قال: يقول عُمَيْرُ بن الحمامِ الأنصاري: يا رسول الله: جنّـة عرضها السموات والأرض، قال: «نعم» قـال: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ: «مـا يحملك على قولك: بخ بخ»، قـال: لا والله يا رسـول الله إلا رجاءة أن أكـون من أهلها، قـال: «فإنك من أهلها»، فأخرج تمرات من قرَنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحيـاةٌ طويلة، قال: فـرمى بما كان معه من التمـر ثم قاتلهم حتى قتـل رضي الله عنه. وقـد أعلم الله رسولـه ﷺ أن اليهود لن يتمنـوا الموت أبدا وأنهم أحرص الناس على حياة وأن الـواحد منهم يتمنى أن يعيش ألف سنة. ففضح اليهود وأكذبهم في دعواهم أنهم هم أهل الجنـة خاصـة وأنهم لن تمسهم النار إلا أيـامـا معدودة فقـال تبارك وتعـالى: ﴿ولن يتمنّوه أبدا بما قدمت أيـديهم والله عليم بالظالمين* ولتجدنهم أحرص الناس على حيـاة ومن الذين أشركوا يـودّ أحدهم لـو يُعَمَّرُ ألف سنة ومـا هو بمُزَحْزِحِهِ من العذاب أن يُعَمَّرَ والله بصير بما يعملون﴾ أي ولن يشتهي أحد

من اليهود أن يعجّل بموته لعلمهم بسوء صنيعهم، وقبيح أفعالهم وفاحش ظلمهم وكفرهم، بل هم أحرص الناس على الحياة زيادة على عدم تمني الموت بل هم أحرص على الحياة من المشركين لأن المشركين لا يقرون بالبعث ولا يخافون من النار لأنهم لا يقرون بها، بخلاف اليهود فإنهم يقرون بالنار ومع ذلك لا يعملون إلا عمل أهل النار، فهم أشد الناس كراهية للموت، ويتمنى اليهودي أن يعيش ألف سنة مع أنه مهما طال عمره فلن يزحزح عن النار ولن يبعد عنها فهو من أهلها المخلّدين فيها* ولا يخفى على الله شيء من قبيح أعمالهم، وكما قال عز وجل: ﴿قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولا يتمنّونه أبدا بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين * قل إن الموت الذي تفرّون منه فإنه ملاقيكم ثم تردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ .

قال تعالى: ﴿قل من كان عدوًّا لجبريل فإنه نزّله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين * من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدوٌّ للكافرين * ولقد أنزلنا إليك آيات بيناتٍ وما يكفر بها إلا الفاسقون * أو كلّما عاهدوا عهدا نبذه فريقٌ منهم، بل أكثرهم لا يؤمنون * ولما جاءهم رسولٌ من عند الله مصدّق لما معهم نبذ فريقٌ من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾.

لا تعلم الإنسانية في تاريخها الطويل أنّ أحداً عادى الملائكة سوى إبليس واليهود وبعض المتأثرين بعبد الله بن سبأ اليهودي من أهل الأهواء الذين يزعمون أن جبريل خان الأمانة لما نزل بالوحي على محمد ﷺ بدل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ولذلك يقولون عند انصرافهم من الصلاة: خان الأمين، خان الأمين، وقد نال جبريل عليه السلام من عداوة اليهود ما لم ينله ملك من الملائكة الكرام سواه، وقد تقدم في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة﴾ أن عبد الله بن سلام رضي الله عنه لما سأل رسول الله ﷺ عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي وهي أول أشراط الساعة وأول طعام أهل الجنة وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه فلما قال له رسول الله ﷺ: «أخبرني بهن جبريل آنفا»، قال: جبريل؟ قال: «نعم». قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة. فقرأ هذه الآية: ﴿من كان عدوا لجبريل فإنه نزّله على قلبك بإذن الله﴾، والمعروف أن جميع المقرين بالملائكة يحبونهم لأنهم عباد مكرمون وقد غالى بعض الغالين من محبي الملائكة فعبدوهم من دون الله، تعالى الله عن الشريك والنّد والنظير. وقد بلغ اليهود بعداوتهم للملائكة مبلغا من الوقاحة والسفاهة يؤذن بعدم انتظار أي خير منهم، ولا شك أن من عادى جبريل عليه السلام فقد عادى الله؛ لأنه من أئمة أولياء الله ورسله

من الملائكة الكرام المصطفين كما قـال عز وجل: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسـلا ومن النـاس﴾ وقـد آذن الله تبارك وتعـالى من عـادى وليـا من أوليـائه بـالحرب كما جاء في صحيح البخـاري من حـديث أبي هـريرة رضي الله عنـه قال: قـال رسول الله ﷺ: «إن الله تعـالى قال: من عـادى لي وليّا فقـد آذنته بالحرب». الحديث. ولـذلك أمر الله تبارك وتعـالى نبيه محمدا ﷺ فقـال له: ﴿قل من كان عدوا لجبريل فإنـه نزله على قلبك بإذن الله مصدقـا لمابين يديه وهـدى وبشرى للمـؤمنين* من كـان عـدوا لله ومـلائكتـه ورسلـه وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين﴾ وذلك أنَّ من عادى ملكا من الملائكة فهو عدو لله ولجميع الملائكـة ولجميع المرسلين ومن عادى رسـولا من المرسلين أو نبيا من النبيين فهو عدو لله ولجميع الأنبياء والمرسلين، لأن القاعدة التي جاء بها الـرسل أنّ معـاداة نبي أو رسـول تكون معـاداة لجميع الأنبيـاء والمرسلين ولـذلك كـرر الله تبـارك وتعالى هـذا المعنى في كتـابـه الكـريم حيث يقـول: ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ مع أنهم ما جاءهم إلا نوحٌ عليه السلام لكن لما كـان تكذيبهم لنـوح عليه السـلام تكـذيبا لجميع المرسلين جعلهم مكـذبين لجميع الـرسل وكـذلك قـال عـز وجل: ﴿كـذبت عـاد المرسلين﴾ وقـال: ﴿كـذبت ثمـود المرسلين﴾ وقـال: ﴿كـذبت قـوم لـوطٍ المرسلين﴾ وقـال: ﴿كذّب أصحـاب الأيكة المرسلين﴾ وقال: ﴿كـذبت ثمود بالنـذر﴾ وقال: ﴿كذبت قـوم لوط بالنذر﴾ وكلّ هـذا لتقرير أن من كذّب رسـولا فقد كذّب جميع المرسلين. ومن عادى نبيـا فقد عادى جميع الأنبياء، ومن عـادى ملكا فقد عادى جميع الملائكـة، وجواب قوله: ﴿من كـان عدوا لجبريل﴾ مضمرٌ تقديره عـاداه الله وآذنه بالحرب يدل عليـه قوله تعالى في تـذييل الآية التي تلي هذه الآيـة: ﴿فإن الله عدو للكـافرين﴾ وقـوله عـز وجل: ﴿فإنه نـزّله على قلبك بإذن الله﴾ أي فإن جبريل نَزَّلَ القـرآن على قلبك يا محمـد بأمر من الله

عـز وجل كما قـال عز وجل: ﴿وإنـه لتنـزيل رب العـالمين* نزل بـه الـروح الأمين* على قلبك لتكون من المنـذرين * بلسان عربي مبين﴾ وفي هـذا ثناء على جبريل عليـه السلام بأنـه حامـل الخير للإنسـانية لهداهـا وبشراها فـلا يعاديـه إلا من انتكست فطرتـه، وانحرف عن الصراط المستقيم، وفي التعبير بقوله: ﴿فإنه نزلـه على قلبك﴾ إشارة إلى معجزة كبرى وهي حفظ رسول الله ﷺ للقرآن لأن جبريل إنما يقـرؤه عليه عند نزوله مـرة واحدة فينتقش في قلب رسول الله ﷺ، وقـد يكون المنزل في الـدفعة الواحـدة طويلاً كسـورة الأنعام التي نزلـت دفعة واحدة، كما قـد يتباعـد وقت النزول بين آيـة والتي تليها في تـرتيب المصحف إلى عشر سنـوات فأكثـر ومع ذلك لا يضيع منـه شيء ولا يختلط عليه تـرتيبه وهـو الأمي ﷺ مع أنه أشد تفلتـا من صدور الـرجال من الإبل المعَقَّلة. وقـوله تعالى: ﴿مصدّقـا لما بين يديه﴾ أي موافقـا لما سبقه من الكتب السماوية في أصول الدين، وقـوله: ﴿وهُدًى وبشرى للمؤمنين﴾ أي وهـذا القـرآن الـذي نـزل بـه جبريل على قلب رسـول الله محمـد ﷺ يـرسم للإنسانيـة أحسن المناهج ويدلّها على أرقى الأنظمة فيهتـدي به من شرح الله صدره لـلإسلام، وهـو بشارة لمن تمسّـك به بـالجنة دار السـلام، وقولـه عز وجل: ﴿من كان عـدوا لله وملائكتـه ورسله وجبريل وميكـال فإن الله عدو للكافرين﴾ هو لتقرير وتأكيد مضمـون ما تقدم في الآية السابقة من أن عدوّ جبريل عدوّ لله ومـلائكته ورسله، وهـو توبيخ لليهود الـزاعمين أنهم يحبون بعض الملائكة ويبغضـون جبريل كما يزعمون أنهم يؤمنون بمـوسى ويكفرون بعيسى ومحمد عليهما السـلام، فبين الله عز وجل أن من عـادى جبريل فقد عادى جميع الملائكة ومن كفر برسول من الرسل فقد كفر بجميع المرسلين وأن من فعل ذلك كان عدوا لله مهما ادّعى الإيمان ولذلك ذيل الآية بقوله: ﴿فإن الله عـدو للكـافريـن﴾ وكان مقتضى السيـاق أن يقـال: فإن الله عـدو لمن

عاداهم، لكنّ مقتضى الحال يقتضي وضع الظاهر موضع الضمير لتسجيل صفة الكفر عليهم حتى لا يتشدّقوا بدعوى الإيمان. وعطف جبريل وميكال على الملائكة هو من عطف الخاص على العام كقوله تعالى: ﴿تنزّل الملائكة والروح﴾ فإن الروح من الملائكة، وعطف الخاص على العام يكون لمزية في الخاص ومنزلة يتميز بها عن العام، وقد كان رسول الله ﷺ كثيرا ما يخص جبريل وميكال و إسرافيل بالذكر فقد روى مسلم في صحيحه من حديث الصديقة بنت الصديق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته فقال: «اللهم ربّ جبريل وميكائيل و إسرافيل فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم». وفي جبريل لغات صحيحة فيقال فيه: جِبْرِيل وجَبْرِيل وجَبْرَئِيل وقد قرئ في المتواتر بها وفي ميكال لغات كذلك فيقال فيه ميكال وميكائل، وميكائيل، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بيّنات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾ قال ابن جرير رحمه الله: فتأويل الآية: ولقد أنزلنا إليك فيما أوحينا إليك من الكتاب علامات واضحاتٍ تبيّن لعلماء بني إسرائيل وأحبارهم الجاحدين نبوّتك والمكذبين رسالتك أنك لي رسولٌ إليهم، ونبي مبعوث، وما يجحد تلك الآيات الدّالات على صدقك ونبوّتك التي أنزلتها إليك في كتابي فيكذّب بها منهم إلا الخارج منهم من دينه التارك منهم فرائضي عليه في الكتاب الذي تَديَّن بتصديقه، فأما المتمسّك منهم بدينه والمتّبع منهم حكم كتابه فإنه بالذي أنزلت إليك من آياتي مصدّق وهم الذين كانوا آمنوا بالله وصدّقوا رسوله محمدا ﷺ من يهود بني إسرائيل اهـ ولا شك أن إخبار رسول الله ﷺ لبني إسرائيل بخفايا علوم اليهود ومكنون أسرار أخبارهم وأخبار آبائهم الأولين،

التي لا يعلمها إلا علماؤهم وكبار أحبارهم والتي أرشدهم فيها إلى ما حرّفه أوائلهم وأواخرهم وبدّلوه من كلام الله، وغيّروه من أحكامهم كرجم الزاني وقطع يد السارق، وغيرهما من الأحكام والحدود التي طبّقوها على فقرائهم دون أغنيائهم وذوي الجاه منهم، وهو يعلمون علم اليقين أن محمدا أُميٌّ لم يخط بيده كتابا ولم يتل التوراة وغيرها من كتب العهد القديم، وإنما أطلعه الله تبارك وتعالى على ذلك بما أنزله عليه جبريل من القرآن كلام الله، ولذلك يقول عز وجل: ﴿أو لم يكن لهم آيةً أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾. وقوله تبارك وتعالى: ﴿أو كلّما عاهدوا عهدا نبذه فريقٌ منهم﴾ هي صورة واضحة بينةٌ لأخلاق بني إسرائيل، وأن هؤلاء اليهود لا يوفون بعهد ولا يبرون بوعد، وأن ديدنهم ودأبهم هو نقض العهود والمواثيق فإذا عاهدوا الله أو عاهدوا رسله أو عاهدوا كائنا من كان لم يستقيموا على هذا العهد بل يسارع فريق منهم إلى نقضه، وفي هذا تسلية ومواساةٌ لرسول الله محمد ﷺ، وإخباره بأن هذه هي أخلاق بني إسرائيل المعاصرين لك ورثوها عن آبائهم غير الأنبياء والمرسلين، فهي كما قيل: شنشنة معروفة من أخزم، والاستفهام في قوله: ﴿أو كلّما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم﴾ للإنكار والتوبيخ والتبكيت وبيان فحش ما يقدمون عليه من نقض العهود والمواثيق، والنبذ في الأصل الطرح والرمي ولذلك قيل للّقيط أو الملقوط: المنبوذ وهو الذي يطرحه أهله بعد ولادته خوف لحوق العار بأهله، ومن ذلك قول أبي الأسْوَد الدُّؤَلي:

نظرت إلى عنوانه فنبذته كنبذك نعلا أخلقت من نعالكا

والمقصود من نبذ الميثاق والعهد نقضه، وقوله تعالى: ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ لتأكيد أن أكثر بني إسرائيل على هذا الخلق ودفع ما قد يتوهم من أن الفريق الذي ينبذ العهد هم قلّة منهم، إذ أن الفريق قد يطلق على العدد القليل فبيّن أن هذا حال أكثريتهم وإن كانت قلوبهم شتّى، وأما القليل فقد

آمنوا كعبد الله بن سلام رضي الله عنه . وقوله تعالى : ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدّق لما معهم نبذ فريقٌ من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾ أي ولما أتاهم رسول من عند الله تنطبق عليه جميع الصفات التي عرفوها في كتبهم ووصايا أنبيائهم طرحت طائفة من الذين عندهم علم من كتابهم هذا الكتاب وجعلوه وراء ظهورهم ، وكتموا ما فيه من صفات رسول الله ﷺ وما عرفوا من الحق ، وصاروا بمنزلة الجاهلين الذين لم يقرءوا كتابهم ولم يعرفوا ما فيه ، والتنكير في قوله تعالى : ﴿رسول﴾ هو للتعظيم والتفخيم وقوله : ﴿من عند الله﴾ لتأكيد التفخيم والتعظيم لمحمد ﷺ ، وقوله : ﴿مصدق لما معهم﴾ لتأكيد التأكيد وأنه لا مِرْية عند من عنده أدنى معرفة بهذه الصفات أن محمدا رسول الله ﷺ . والمراد بقوله تعالى : ﴿كتاب الله﴾ يعني التوراة وهو مفعول نبذوا ، وأضيف الكتاب يعني التوراة إلى الله وإن كان التحريف قد أصابها ؛ لأن الأصل أنها من الله ولا سيما ما بقي فيها من الحق المقتضي لتوحيد الله عز وجل وتصديق المرسلين وصفات محمد رسول الله ﷺ .

قال تعالى: ﴿واتّبعوا ما تتلوا الشياطين على مُلكِ سليمانَ وما كَفَرَ سليمانُ ولّكنَّ الشياطين كفروا يُعلِّمون الناس السِّحر وما أُنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، وما يُعلِّمان من أَحد حتى يَقولا: إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق، ولبئس ما شروا به أنفسهم، لو كانوا يعلمون* ولو أنّهم آمنوا واتّقوا لمثوبةٌ من عند الله خيرٌ لو كانوا يعلمون﴾.

ساق الله تبارك وتعالى فيما مضى صورا من صور سلوك اليهود المخزية لهم في الدنيا والآخرة من نقضهم للعهود وغدرهم بالمواثيق، وتكذيبهم للمرسلين وقتلهم للأنبياء مع عبادتهم للعجل وكفرهم بنعم الله وآياته، وفي هذا المقام الكريم يبيّن أنهم لم يكونوا يكتفون بتكذيب الأنبياء أو قتلهم بل كانوا يكذبون عليهم، وينسبون لهم أقوالا ما قالوها وأفعالا ما فعلوها، وقد نال سليمان عليه السلام من كذبهم وافترائهم عليه الشيء الكثير، واتّبعوا في ذلك شياطين الجن والإنس التي تفتري وتختلق وتكذب على سليمان عليه السلام، وقد كانت اليهود تكذّب بنبوة داود وسليمان عليهما السلام ويزعمون أنهما ملكان فقط من ملوك بنى إسرائيل وليسا بنبيين، وقد زعمت لهم شياطينهم من اليهود وإبليس وجنوده من الجن والإنس أن سليمان كان ساحراً، وأنه كان يحكم بني إسرائيل بواسطة خاتمه السحري، وأنه كان إذا دخل بيت الخلاء دفع بالخاتم لزوجته لما فيه من ذكر الله حتى يخرج من الخلاء، وأن الشيطان جاء إلى امرأة سليمان في صورة سليمان فدفعت إليه الخاتم، فذهب الشيطان إلى كرسي الملك وجلس يحكم في بني إسرائيل، وأن سليمان لما خرج من بيت الخلاء قال لامرأته: هاتِ الخاتم، فقالت: قد خرج سليمان قبلك

وأخذه، وأنكـرت سليمان، فهام سليمان على وجهه حتى عمل عنـد صَيّاد، وكـان الصياد يعطيـه أجرتـه كلَّ يـوم سمكتين، فكان سليمان يبيع سمكـة يشتري بثمنها خبزا، ويطبخ السمكة الأخرى، وأنه استمر على ذلك أربعين يوما، ثم إنّ بني إسرائيل قامـوا على هذا الشيطان الجالس على كرسي سليمان فهـرب منهم ــ ولا أدري كيف لم ينفعـه الخاتم ــ وألقى بـالخاتم في البحـر، فـابتلعتـه سمكـة، ثم وقعت في شبـاك الصيـاد، فلما دفع لسليمان أجـرتـه سمكتين بـاع واحدة وطبخ الأخـرى وهي التي كـان في جوفهـا الخاتم، فلما فتحها وجد خاتمه فلبسه ورجع إلى ملكه. والعجيب أن هذا الإفك اليهوديّ تسرّب إلى بعض أكـابـر أهل العلم فصـدقوه وفسَّر بعضهـم به قـول الله عـز وجل: ﴿وألقينـا على كرسيـه جسدا﴾ قـالوا: أي شيطـانا، وقـد انتشر على ألسنة العامة والخاصة ذكر خاتم سليمان وخواصه، وصار الدجّالون يرسمونه في أوراق دجلهم، مع أن رسـول الله ﷺ فسّر فتنـة سليمان المذكورة في قـولـه تبارك وتعـالى: ﴿ولقد فتنا سليمان وألقينـا على كرسيه جسـدا ثم أناب﴾ بأن سليمان عليه السـلام حلف ليطوفنّ على مـائة من نسائه فتحمل كـلّ واحدة منهن بفارس يحمل السـلاح ويجاهد في سبيل الله ونسي أن يقـول إن شاء الله فطاف عليهم فلم تحبل إلا واحدةٌ جاءت بشق ولد فأُخذ وأُلقي على كرسيه، فاعتـذر إلى الله عز وجل بأنه مـا طلب الولـد تكثرا وافتخارا وإنما ليقـاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله وقال: ﴿رب اغفر لي وهب لي مُلْكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهـاب﴾ فقبل الله معذرته واستجاب دعوتـه، وأبدله الريح كما قال تعـالى: ﴿فسخرنا له الريح تجري بأمـره رُخَاءً حيث أصاب * والشياطين كل بنّـاء وغواص * وآخرين مُقَـرَّنِينَ في الأصفاد * هٰذا عطـاؤنا فامْنُـنْ أو أَمْسِكْ بغير حساب * وإن لـه عندنا لـزلفى وحسن مـآب﴾ وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه أن

رسول الله ﷺ قال: «قال سليمان بن داود: لأطوفنّ الليلة بمائة امرأة تلد كلُّ امرأة منهن غلاما يقاتل في سبيل الله ونسي أن يقول إن شاء الله فأطاف بهن فلم تلد منهن امرأة إلا واحدة نصف إنسان فقال رسول الله ﷺ: لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركاً لحاجته». وفي لفظ للبخاري: «فلم تحمل شيئاً إلا واحدا ساقطاً أحد شقيه فقال النبي ﷺ: لو قالها لجاهدوا في سبيل الله»اهـ. وإن تعجب فعجب لمن يترك هذا التفسير النبويّ ويأتي بأكاذيب اليهود والشياطين، وقد وبّخ الله تبارك وتعالى اليهود في هذا المقام من سورة البقرة وبين أنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان. وقوله: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾ أي طرح اليهود تعاليم الكتاب الذي بأيديهم واتبعوا ما تتلو أي تفتري وتكذب وتختلق الشياطين وهو إبليس وجنوده من مردة الجن والإنس ولا سيما أحبار السوء من اليهود حيث زعموا أن ملك سليمان وتسلطه على الجن لم يكن إلا لكونه ساحراً، ولم يكن نبيا ولا رسولا، وقوله تعالى: ﴿وما كفر سليمان﴾ أي وما كان سليمان ساحرا لأنه لو كان ساحرا لكان كافرا، برّأه الله وصانه وعصمه من كل سوء، ومن دعاوى اليهود الباطلة المختلقة، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولكنّ الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر﴾ أي ولكن مردة الجن والإنس من أصحاب النفوس الخبيثة، والطوايا الشريرة هم الكافرون الجاحدون، الناشرون بين الناس السحر، وفي هذا نصٌّ صريحٌ على كفر الساحر، وقد عدّه رسول الله ﷺ من الموبقات أي المهلكات فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السّبع الموبقات» قالوا: يا رسول الله ما هنّ؟ قال: «الشرك بالله، والسِّحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتّولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات».

والسحر في اللغة العربية يطلق على كل شيء لَطُفَ مأخذه ودقّ، ويطلق كذلك على الصّرف والتحويل عن الجهة المعتادة والتمويه بالحيل والتخاييل وهو أن يفعل الساحر أشياء فيخيَّل للمسحور أنها بخلاف ما هي به في الواقع كالذي يرى السراب من بعيد فيخيّل إليه أنه ماء، وكالذي يركب مركبا شديد السرعة (كالقطار) إذا كان طريقه بين أشجار أو منازل أو غيرها من الأشياء الثابتة فَيُخَيَّلُ إلى راكبه أنه واقف وأن الأشجار أو المنازل أو الجبال هي التي تجري، كما يطلق السحر على الخداع من قولهم: سحرت الصبيّ إذا كان قد خدعه ومنه قوله لبيد:

فإن تسألينا فيم نحن فإنّنا عصافير من هذا الأنام المسحّر

كما يطلق السحر على الاستمالة بقوة البيان ومنه قول رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسحرًا» الذي رواه البخاري. كما كان يطلق على الساحر اسم العالم حيث كانت مدارس تعليمه في مصر أيام فرعون موسى قد بلغت حدا لم يعرف في التاريخ أنه بلغه أحد بعدهم أو قبلهم، كما كانت مدارسه في جزيرة العرب قبل الإسلام، وقد أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ في الحديث الذي أخرجه مسلم من حديث صهيب رضي الله عنه في قصة أصحاب الأخدود والراهب والساحر. وقد يكون السحر برقى شيطانية وطلاسم ونفث في عقد، وهو سحر أهل بابل من عهد إبراهيم عليه السلام وكانوا يعبدون الكواكب، وقد يكون السحر بخفة اليد كالشعوذة، ولا شك أن النفس الإنسانية قابلة للتأثر ولذلك نهى الأطباء المرعوف عن النظر إلى الأشياء الحمر، كما نُهي المصروع عن النظر إلى الأشياء القوية اللّمعان والدّوران. كما أن بعض السحرة قد يستعين بالمغناطيس ونحوه، وأخطر أنواع السحر ما كان بالرقى الشيطانية والنفث في العقد، وهذا النوع من السحر لا يفعله إلا الكافر بالله، ولما كثر شرّ هذا النوع من السحر أنزل الله الملكين هاروت

ومـاروت ببـابل من أرض العـراق يعلمان النـــاس فكّ سحـر المسحـورين، ويحذرانهم من إيـذاء الناس بـالسحـر، ويقولان لكل من يعلمانـه: إنما نحن فتنة فلا تكفر، أي فلا تستغل فرصـة معرفتك لفك سحر المسحورين بسحر النـاس، وفي ذلك يقـول الله تبـارك وتعالى: ﴿ومـا أُنْـزِلَ على الملكين ببـابل هاروت ومـاروت وما يعلمان من أحد حتـى يقولا: إنما نحن فتنة فـلا تكفر﴾ وذلك أن تعليمهما كـان ذا وجهين، يمكن استخـــدامـه في وجـوه من الشر ويمكن استخـدامـه في وجـوه الخير وهو فك المسحـور وكما قـال عـز وجل ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنـة﴾ وقد تكون معرفة طـرق الشر ضرورية للقضاء عليها وفي ذلك يقول الشاعر:

عرفت الشـر لا للشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

وقوله تبارك وتعالى: ﴿فيتعلمون منهما مـا يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ أي ويعرفـون من الملكين الطرق التي يُفَرّق بها السـاحر بين الزوج وزوجتـه، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن عمل الساحـر إنما يؤثر على عين المسحور فتتأثر نفسه حيث يقول الله عز وجل: ﴿فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجـاءوا بسحر عظيم﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿فإذا حبـالهم وعصيهم يخيّل إليه من سحرهـم أنها تسعى﴾ فالمسحور قد يخيّل إليـه أنه فعل الشيء وهو لم يفعله، وقد منّ الله تبارك وتعالى على أمـة محمد ﷺ فأنزل المعوذتين فاستغنى المسلمون بهما وبتـلاوتهما عن تعلم السحر أو تعليمـه. وقوله تبـارك وتعالى: ﴿ومـا هم بضـارين بـه مـن أحـد إلا بإذن الله﴾ أي ولا يتمكن السحـرة أو غيرهم من إلحاق ضرر بـأحـد من خلـق الله إلا بقضـــاء مـن الله امتحـانـــا وابتلاء، وقوله تعالى: ﴿ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾ أي ويعرف هؤلاء السحـرة مـا يفسد دينهـم ولا يجلب لهم خيرا في دنياهم فـالسحـرة هم أشـد الناس عوزاً وفقـراً، وقوله تعالى: ﴿ولقد علموا لمن اشتراه مـاله في الآخرة من

خلاق﴾ أي ولقـد علم اليهود الذيـن نبذوا كتاب الله وراء ظهـورهم وانقادوا للشياطين السحرة واختـاروا السحر على الكتاب المنزّل أنّ مـن اختار السحر لا حظّ له عند الله يوم القيامة وأنه لا نصيب له في الجنة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم لـو كانوا يعلمون﴾ أي وقد ذمّ وقَبح ما بـاعوا به أنفسهم من السحـر والكفر، ولـو كانـوا يعرفون حقيقـة ما يصيرون إليـه من العذاب مـا تعلموه. وقولـه تبارك وتعالى: ﴿ولـو أنهم آمنوا واتّقوا لمثـوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون﴾ أي ولو أن هـؤلاء اليهود تركوا السحر وصدقوا محمـدا ﷺ واتبعوه لأثيبـوا ثـوابا عظيما ولجزاهـم الله الجزاء الحسن الذي هـو أحسن لهم من السحـر، ولو كـان عندهم إدراك لسـارعوا إلى الاستجـابة لله ولرسوله ﷺ وفي ذلك من الخير لهم مالا يدور بخيالهم ولا يخطر ببالهم.

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا: راعنا وقولوا: انظرنا واسمعوا، وللكافرين عذاب أليم* ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزّل عليكم من خير من ربكم، والله يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم* ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها، ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير* ألم تعلم أن الله له ملك السمٰوات والأرض، ومالكم من دون الله من وليّ ولا نصير* أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل، ومن يتبدّل الكفر بالإيمان فقد ضلّ سواء السبيل﴾.

هذا بيان لبعض دسائس اليهود وما تنثره ألسنتهم من قول ظاهره الحسن وباطنه الخسّة والنذالة وسوء الأدب، كما كانوا يدسون بأن القرآن لو كان من عند الله ما كان يأمر بالشيء ثم بعد مدّة يغيّره كجعل القبلة إلى بيت المقدس ثم بعد مدّة يحوّلها إلى الكعبة، ويزعمون أن النسخ لا يجوز لأنه يدل على أن الحكم الأول المنسوخ كان غير صالح، وقد تأثر المشركون من العرب بدسائس اليهود هذه، والحامل لليهود ومن ينهج نهجهم من المشركين هو الحسد والحقد وجهلهم بحكمة التشريع. واليهود يزعمون أنهم يصدقون ما في التوراة، والتوراة قد تقرر فيها أن آدم كان يزوّج بناته من بنيه ثم حُرّم بعد ذلك في جميع شرائع الأنبياء، كما أن التوراة تقرر أن الجمع بين الأختين كان جائزا في عهد إبراهيم وإسحاق ويعقوب وأن يعقوب عليه السلام جمع بين الأختين، وأن ذلك قد حرِّم عليهم في التوراة، مع أن اليهود لعنهم الله هم أسوأ الناس اعتقادا في الله تبارك وتعالى، ويقررون أن الله بعد أن خلق الإنسان وكثر شره في الأرض حزن أنه عمل الإنسان. وهو صريح في القول بالبَدَاء على الله تبارك وتعالى، فقد جاء في الإصحاح السادس من سفر

التكوين في الفقرة الخامسة : ورأى الربّ أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كلّ تصور أفكار قلبه إنما هو شرّير كل يوم . وفي الفقرة السادسة منه : فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه . اهـ وموقف اليهود هذا لعنهم الله ينطبق عليه المثل الذي يقول : رمتني بدائها وانسلّت ، لأن نسخ بعض الأحكام من أجلّ وأعلى سبل التربية والتعليم ، ومثله كمثل الطبيب الحاذق الماهر الخِرّيت الذي يصف دواءً لمريضه وهو يعلم عند وصفه له أن هذا الدواء مؤقت يلائم المريض الآن ولا يلائمه غدا ، ولذلك يأمر المريض بمراجعته بعد مدة ليصف له الدواء الذي يناسبه حينذاك . ﴿ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وله المثل الأعلى في السمٰوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ فالتطور في التشريع من أَجَلّ مقاصد الشريعة ، فإن الخمر لو أمر بتحريمها دفعة واحدة من أول الأمر لحصل من وراء ذلك شرّ كبير، لكنه تدرّج في تحريمها ، وله الحكمة البالغة والحجّة الدامغة ، وقد علم علماء النفس أن هذا الأسلوب في التشريع هو السبيل السّويّ الملائم لأحوال النفس الإنسانية . وقد نبهت الآية الأولى من هذه الآيات إلى تنبيه المسلمين إلى لحن اليهود الخبيث في القول ، إذ يقولون لرسول الله ﷺ عند محادثته : راعنا بدل قولهم له : انظرنا ، وكلمة راعنا في لغتهم تستعمل للذم إذ هي عندهم من الرّعونة فكانوا يستعملونها للذم فنهى الله المؤمنين أن يقولوا لرسول الله ﷺ: راعنا وإنما يقولون له : انظرنا ، وهذا يدل على أن المباح قد يمنع لسد ذريعة الشر لأن كلمة راعنا في اللغة العربية لا عيب فيها وهذا كما نهى المؤمنين عن سب آلهة المشركين إذا كان سبّ آلهة المشركين يؤدي إلى أن يسبّ المشركون الله عز وجل وفي ذلك يقول : ﴿ولا تَسُبُّوا الذين يدعون من دون الله فيسبّوا الله عَدْوًا بغير علم﴾ وقد كان من لحن اليهود لعنهم الله إذا سلّموا على رسول الله ﷺ يقولون : السّام عليكم

وهم يريـدون: الموت عليكم فكان رسول الله ﷺ إذا قالوا لـه: السام عليكم قال: وعليكم. وقد سمعـت عائشة رضي الله عنها اليهود وهم يقـولون ذلك لرسـول الله ﷺ فقالت: وعليكم السّام واللعنة، فقـد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عائشـة رضي الله عنها قالـت: دخل رهط من اليهود على رسـول الله ﷺ فقـالـوا: السّـام عليك، ففهِمْتُهـا فقلـتُ: عليكم السَّـام واللعنة، فقـال رسول الله ﷺ: «مهلاً يـا عائشة فإن الله يحب الـرفق في الأمر كلّه»، فقلت: يا رسول الله: أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: «فقد قلتُ: وعليكم». وقـد نبّـه رسـول الله ﷺ المسلمين إذا سلّـم عليهم أهل الكتاب أن يقـولوا: وعليكم، فقـد روى البخاري ومسلم من حـديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سلّم عليكـم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم». هذا وقـد صدَّر الله تبارك وتعالى هـذه الآية بقوله تعـالى: ﴿يا أيها الذين آمنـوا﴾ قال الرازي في تفسيره لهذه الآيـة الكريمـة: اعلم أن الله تعالى خاطب المؤمنين بقوله تعالى: ﴿يا أيها الـذين آمنوا﴾ في ثمانية وثمانين موضعاً من القرآن اهـ، وقد أُثِرَ عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلا قال له: اعهد إليّ، فقال ابن مسعود: إذا سمعت الله يقول: ﴿ يا أيها الذين آمنوا﴾ فارْعَها سمعك فإنـه خير يأمر بـه أو شرٌّ ينهى عنـه. وقولـه تعـالى: ﴿وللكافـرين عذاب أليم﴾ أي ولليهـود عذاب مؤلم في جهنم بسبب قولهم لـرسول الله ﷺ ما قـالوا، وقـوله تبارك وتعـالى: ﴿ما يـودّ الذين كفـروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يُنَزَّل عليكم من خير من ربكم والله يختص بـرحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ في هـذا البيـان الكريم إعـلان لما تنطـوي عليه نفـوس اليهـود والمشركين من إرادة التحكم في رحمة الله، وأنهم يريـدون تحجير فضل الله ورحمته فـلا يمنح الله رحمة ولا فضلا إلا مـن يوافق اليهـود والمشركون على منحه هـذا الفضل وهذه الرحمة، فما أسـوأ أخلاقهم ومـا أشدّ قبح أنفسهم،

وقد بين الله تعالى أنه لو كانت الرحمة بأيديهم ما منحوا أحدا منها نقيرا أي قدر النقرة التي تكون في ظهر النواة كما تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ الآيات إلى قوله: ﴿فلِم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾ وقد ردّ الله تبارك وتعالى عليهم وفضح ما هم عليه من سوء الطّويّة فقال: ﴿والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ أي والله يعلم حيث يجعل رسالته، وقد تفضل على النبي الأميّ العربيّ الهاشمي محمد بن عبدالله فأعطاه الشريعة الكاملة الشاملة التامة الصالحة لكل زمان ومكان ومصر وعصر وجيل وقبيل، ولله الحمد والشكر وله الثناء الحسن الجميل، فنعمه لا تحصى وآلاؤه لا تستقصى، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها. وقوله عز وجل: ﴿ما نَنْسَخْ من آية أو نُنْسِها نأْتِ بخير منها أو مثلها﴾ أصل النسخ في اللغة يطلق على معانٍ منها الإبطال والإزالة والنقل والتحويل، وفي الشرع هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متراخ عنه، والنسخ قد يكون للآية وحكمها كحديث عائشة رضي الله عنها الذي أخرجه مسلم في صحيحه: كان فيما أنزل: (عشر رضعاتٍ معلومات يحرّمن) فنسخن بـ خمس رضعاتٍ معلوماتٍ يحرّمن). وقد يكون النّسخ للتلاوة مع بقاء الحكم كرجم الزاني المحصن فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو جالس على منبر رسول الله ﷺ يقول: إن الله بعث محمدا ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل الله آية الرجم فقرأناها وعقلناها ووعيناها، رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلّوا بترك فريضة أنزلها الله، والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أُحصِن من الرجال والنساء إذا

قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف اهـ وقد يكون النسخ للحكم مع بقاء التلاوة كعدة المتوفّى عنها زوجها حيث كـانت عدتها سنة كاملة لا تخرج فيها من بيتها لقـولـه تعـالى: ﴿والـذين يُتَـوَفَّـوْن منكم ويـذرون أزواجـا وصيـة لأزواجهم متاعـا إلى الحول غير إخراج﴾ فقـد نسخ حكمها مع بقـاء تلاوتها بقوله تبارك وتعالى: ﴿والذين يُتَوَفَّوْن منكم ويذرون أزواجا يتربّصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا فإذا بلغن أجلهن فـلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعـروف والله بما تعملون خبير﴾، ولما أنكر الجاهلون حكمـة النسخ بين عز وجل أنه أعلم بما ينـزّل حيث قال: ﴿وإذا بـدّلنا آية مكـان آية والله أعلم بما يُنزِّل قالـوا إنما أنت مُفْتَرٍ، بل أكثرهم لا يعلمون * قل نـزّله روح القدس من ربك بالحق ليثبّت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين﴾ وقال في هذا المقام من سورة البقرة: ﴿ما ننسخ من آيـة أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ أي ما نبـدّل من آية أو نترك تبديلها نأت بما هـو خير لكم في المنفعة وأرفق بكم، أو بمثله في الحكم المراعي لمصلحة المكلفين المنـاسب للبقاء والدوام والعموم والشمـول. وخـالق العبـاد أعلم بما يعـود عليهم بـالخير من المنـاهج، ومـا يتمكنون من القيـام به من الأحكـام وقد وضع عنهم إصرهم والأغـلال التي كانت عليهم فلـه الحمد وله الشكر. وقولـه تعالى: ﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قديـر * ألم تعلم أن الله له ملك السمٰوات والأرض، وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ أي قد علمت أن الله لا يعجـزه شيء في السموات ولا في الأرض، وقـد علمت أن السمـوات والأرض ملك لله، لـه فيهما التصرف التام، يحكم فيهما بما يشاء لا راد لقضائه ولا معقّب لحكمه، فلله الخلق ولله الأمر، وهو أحكم الحاكمين وأرحـم الراحمين، وهو وليّ المؤمنين ونصيرهم لا يتـولّون غيره ولا ينتصرون بسـواه، وهو وليهم يخرجهم من الظلمات إلى النـور وينصرهم على أعدائهم. وقـوله تعالى: ﴿أم تـريدون أن تسألـوا رسولكم كما

سئل موسى من قبل ومن يتبدّل الكفـر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾ أي بل إنكم معشر اليهـود جُبِلْتُم على كثـرة السـؤال لمن يبعثـه الله لكم رسـولا كشأنكم في تعنتكم وتنطعكم وكثـرة ســؤالكم لموسى عليـه السـلام في شأن البقرة وسؤالكم له أن يريكم الله جهرة، ومن يشتر الكفر ويدفع ثمنه الإيمان فقـد انحـرف عن الصراط المستقيم وتـاه عـن المنهج الحق، وقـولـه تعـالى: ﴿رسولكم﴾ يفيد التنصيص على أن محمدًا رسول الله إلى بني إسرائيل وغيرهم من الأمم كما أنه رسـول الله إلى العرب فهو المبعـوث للناس كافة بشيرا ونـذيرا صلوات الله وسلامـه عليه إلى يوم الديـن. وقد كره الإسلام كثـرة السؤال فقد روى البخاري ومسلم من حديث المغيرة بن شعبـة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان ينهى عن قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال.

قال تعالى: ﴿ ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفّارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحقّ فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره، إن الله على كل شيء قدير * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، وماتقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله، إن الله بما تعملون بصير﴾.

بعد أن بيّن تبارك وتعالى في الآية الخامسة بعد المائة أن أهل الكتاب والمشركين لا يحبون أن يُنزّل على المؤمنين خير أبدا حقداً على المسلمين وتحجيراً لرحمة الله أن تنزل على غير بني إسرائيل أو على رجل فقير، فاليهود لا يريدون النبوة في غيرهم، والمشركون لا يريدون النبوة إلا في رجل غني من أهل مكة أو من أهل الطائف، وهنا يؤكد الله عز وجل ما امتلأت به قلوب بعض أهل الكتاب ــ مع كفرهم بالله وتكذيبهم لرسوله وأفضل خلقه محمد ﷺ ـ من الحقد والحسد للمسلمين على النعمة العظمى التي امتنّ الله تعالى عليهم بها حيث هداهم للإيمان بكتابه وتصديق رسوله ﷺ، فهؤلاء اليهود لعنهم الله يتمنّون أن يرجع المسلمون كفّاراً وأن يرتدُّوا عن الإسلام، وما تمنّوا هذا التمنّي لعيب وجدوه في الإسلام أو حرصا على مصلحة هؤلاء المسلمين بل الحامل الوحيد لهم على رغبتهم في رجوع المسلمين عن دينهم هو الحقد على المسلمين والحسد الذي امتلأت به جوانحهم، وفاضت به صدورهم، من كراهية الإسلام والمسلمين بعد أن عرفوا أن محمدا رسول الله وأنه المنعوت من أنبياء بني إسرائيل بعلاماته الجلية الواضحة وأنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة وأن بين كتفيه خاتم النبوة وأنه يهاجر من مكة إلى أرض سبخة ذات نخيل بين لابتين، وحديث إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه شاهد عدل من علماء أهل الكتاب النصارى على معرفتهم لصفات رسول الله ﷺ قبل بعثته فقد قال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري عن محمود بن

لبيد عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني سلمان الفارسيّ من فِيهِ قال: كنت رجلا فارسيا ـ وساق حديث خروجه من المجوسية ودخوله في النصرانية وهروبه من أبيه إلى الشام لدراسة النصرانية وتنقله من أسقف إلى أسقف حتى لحق بصاحب عمّورية وأنه أقام عند خير رجل على هدي أصحابه وأمرهم وأنه لما حضره الموت قال له سلمان: إلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: أي بنيّ والله ما أعلمه أصبح اليوم أحدٌ على مثل ما كنّا عليه من الناس آمرك به أن تأتيهُ، ولكنه أظل زمان نبي وهو مبعوثٌ بدين إبراهيم عليه السلام يخرج بأرض العرب، مُهاجَره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل، به علاماتٌ لا تخفَى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة وبين كتفيه خاتمُ النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل. ثم يذكر سلمان رضي الله عنه كيف أخذه نفرٌ من كلبٍ تجار وظلموه وباعوه عبدا بوادي القرى من رجل يهودي وأن هذا اليهوديّ باعه على ابن عم له من يهود بني قريظة وأنه احتمله إلى المدينة قال سلمان رضي الله عنه: فوالله ما هو إلا أن رأيتها، فعرفتها بصفة صاحبي، ثم يذكر سلمان خبر هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة فيقول: فوالله إني لفي رأس عذق لسيدي أعمل فيه بعض العمل وسيدي جالس تحتي إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال: يا فلان، قاتل الله بني قيلة والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي، قال سلمان: فلما سمعتها أخذتني العرواء حتى ظننت أني سأسقط على سيدي فنزلت عن النخلة ثم يقول سلمان: وقد كان عندي شيء قد جمعته فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء فدخلت عليه فقلت له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة فرأيتكم أحقّ به من غيركم قال: فقربته إليه فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «كلوا»، وأمسك يده

فلم يأكل، فقلت في نفسي هـذه واحـدة ثم انصرفت عنـه فجمعت شيئـا، وتحوّل رسول الله ﷺ إلى المدينـة ثم جئته به فقلت لـه: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة فهذه هدية أكرمتك بها قال: فأكل رسول الله ﷺ منها وأمر أصحابه فأكلـوا معه فقلت في نفسي: هـاتان ثنتـان. قال: ثم جئت رسـول الله ﷺ وهو ببقيع الغـرقد، قد تبع جنـازة رجل من أصحابه، عليّ شملتـان لي وهو جالس في أصحابه فسلمت عليه ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي صـاحبي فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرتـه عرف أني أستثبت في شيء وصف لي، فألقى رداءه عن ظهره فنظـرت إلى الخاتم فعرفته فأكببت عليه أقبلـه وأبكي فقال لي رسـول الله ﷺ: «تحوّل»، فتحولت فجلست بين يديه فقصصت عليـه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس. وقـوله تعالى: ﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يـردونكم من بعد إيمانكم كفارا﴾ أي تمنى كثير من اليهود والنصـارى لو يتمكنـون من ردّتكم عن الإسلام وإعـادتكم إلى الكفر بالله. وقوله تعالى: ﴿حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحقّ﴾ أي حقدا عليكم وكـراهية أن ينالكم خير ولم يفعلوا ذلك لغير علّـة الحسد الذي ملأ نفوسهم وصدورهم عليكم مع يقينهم بأنكم على الحق وأنهم على الباطل وأن محمدا رسول الله، وقوله تعـالى: ﴿فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره﴾ أي إذا سمعتم من اليهود أو المشركين أو رأيتم منهم أيها المؤمنون شيئا يسوؤكم فلا تحزنـوا واهجروهم هجرا جميـلا واغفروا للذين لا يـرجون أيام الله واتـركوا مؤاخـذتهم وأعرضوا عنهم واصبروا على أذاهـم حتى يأذن الله لكم في قتالهم ويخذلهم ويذلّهم بنصره لكم وتأييدكم عليهم، والعفـو هو ترك المؤاخذة على مـا يبدر منهم، والصّفح إزالـة أثره من النفس حتى لا تحزن. وقـد حقق الله وعده لـرسوله وللمـؤمنين، فأذلّ المشركين واليهود وأعـزّ الإسلام والمسلمين. وقد روى البخـاري ومسلم في صحيحيهما من حديـث أسامة بن زيـد حِبِّ

رسول الله ﷺ وابن حِبّه أن رسول الله ﷺ ركب على حمارٍ على قطيفةٍ فدكيّةٍ، وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر، قال: حتى مرّ بمجلس فيه عبد الله بن أبيّ ابن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أُبيّ فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابّة خمّر عبد الله بن أُبيّ أنفه بردائه ثم قال: لا تغبّروا علينا، فسلّم رسول الله ﷺ عليهم ثم وقف، فنزل فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبيّ ابن سلول: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقا فلا تؤذنا به في مجلسنا، ارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله، فاغشنا به في مجالسنا، فإنا نحب ذلك فاستبّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل النبيّ ﷺ يخفّضهم حتى سكنوا، ثم ركب النبيّ ﷺ دابّته فسار حتى دخل على سعد ابن عبادة، فقال له النبي ﷺ: «يا سعد ألم تسمع ما قال أبو حبابٍ ـ يريد عبد الله بن أبيّ ـ قال كذا وكذا» قال سعد بن عبادة: يا رسول الله اعفُ عنه، واصفحْ عنه، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، لقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يُتَوّجوه فيعصّبوه بالعصابة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرق بذلك، فذلك فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله ﷺ، وكان النبيّ ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله عز وجل: ﴿ولتسمعُنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا﴾ الآية. وقال الله: ﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفّارا حسداً من عند أنفسهم﴾ إلى آخر الآية، وكان النبيّ ﷺ يتأوّل العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً فقتل

الله بـه صناديـد كفّار قـريش قـال ابن أُبيّ ابن سلول ومن معـه من المشركين وعبـدة الأوثـان : هذا أمـرٌ قـد تـوجّـه ، فبـايعوا الـرسـول ﷺ على الإسـلام فأسلمـوا ، اهـ وقـوله في الحديـث : على قطيفة فـدكية أي على كسـاءٍ غليظ منسـوب إلى فدكٍ وهي قـرية مشهـورة على مرحلتين من المدينـة المنورة قـرب خيبر، وقوله : قبل أن يسلم عبد الله بن أُبيّ أي قبل أن يظهـر الإسلام بلسانه ويبطن الكفر فقد صار عدوُّ الله هـذا رأس المنافقين لعنهم الله ، وقوله : على أن يتوّجـوه فيعصّبوه بالعصابـة أي فيتوجوه ملكا عليهم ويلبسـوه تاج الملك على أهل يثرب من الأوس والخزرج واليهود ، وقوله : شَرِقَ بذلك أي غُصّ به وامتلأ قلبه حسدا . وقولـه تعالى : ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ أي إن الله لا يعجزه شيء فله القدرة التامة ، وما شاء الله كان ، وفي هذا وعد بتحقيق نصر الله لنبيه ﷺ وللمؤمنين ووعيد بخذلان اليهود والمشركين ، وقد أنجز الله وعده فنصر المسلمين وأذلّ اليهـود المشركين ، فله الحمـد والشكـر . وقـوله تعـالى : ﴿وأقيموا الصلاة وآتـوا الزكاة﴾ هو تأكيد لهذين الـركنين من أركان الإسلام ، وقد تقدم تفسيره ، وقـوله تعالى : ﴿وما تقـدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير﴾ أي واستعينوا في الانتصـار على عدوكم بالأعمال الصالحة من الصـلاة والزكـاة وفعل الخيرات ، وكلّ عمل صالح تعملـونه لن يضيع عند الله وسيجزيكم به أحسن الجزاء فإنه مطّلع على جميع أعمال عباده ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ .

قال تعالى: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، تلك أمانيّهم، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين* بلى من أسلم وجهه لله وهو محسنٌ فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

هذه صورة واضحةٌ لعنصريّة اليهود المبنيّة على الأمانيّ الكاذبة، وما اختلقه لهم أحبار السوء في تلمودهم حيث زعموا أن الجنة لن يدخلها يوم القيامة أحدٌ إلا من كان يهوديا، ولقد تأثرت النصرانية التي وضعها شاول اليهوديّ وحرّف بها دين المسيح عليه السلام حيث زعم لأتباع المسيح عليه السلام بعد رفعه إلى السماء بوقت قليل أنه رأى يسوع وأنه آمن به، وسمّى نفسه بولس، وقد احتال بذلك للقضاء على المسيحية بتحريفها وتغيير أصولها. وقد تم له ذلك بعد مصارعة مع الحواريين رضي الله عنهم حيث وضع ديانة جديدة ادعى فيها أن المسيح ابن الله وأن الله ثالث ثلاثة ثم راح يدعي أنه معلم المسيحية الوحيد وصار يستمد تعاليمه من مذاهب الهندوس والبوذيين وفلسفة الإغريق وبعض تعاليم اليهود التلمودية، وقد ألّف برنابا أحد الحواريين إنجيله للرد على شاول حيث يقول برنابا في مطلع إنجيله: أيها الأعزاء إن الله العجيب العظيم قد افتقدنا في هذه الأيام بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم. والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله ورافضين الختان الذي أمر الله به دائما، مجوّزين كلّ لحم نجسٍ، الذي ضل في عدادهم أيضا بولس (شاول اليهودي) الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى، وهو السّبب الذي من أجله أُسطّر هذا الحقّ الذي رأيته اهـ وقد ظهرت تعاليم شاول اليهودية التلمودية العنصرية في إنجيلي متّى ومُرقُص حيث قررا أن ما عدا بني إسرائيل من الأمم إنما هم كلابٌ، ففي الفقرة الواحدة

والعشرين من الإصحاح الخامس عشر إلى الفقـرة السادسـة والعشرين يقول إنجيل متى : ثم خـرج يسوعُ من هنـاك وانصرف إلى نواحي صـور وصيداء، وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التّخوم صرخت إليه قائلة : ارحمني يا سيّد يا ابن داود ابنتي مجنونـةٌ جدا ، فلم يجبها بكلمة ، فتقدم تلاميـذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفهـا لأنها تصيح وراءنا ، فـأجاب وقال : لم أُرسـل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالـة . فأتت وسجدت لـه قائلـة : يا سيد أعنّـي ، فأجاب وقال : ليس حسناً أن يؤخذ خُبزُ البنين ويطرح للكلاب . وفي إنجيل مرقص في الفقـرة الرابعـة والعشرين إلى السـابعة والعشريـن من الإصحاح السـابع يقول : ثم قام من هناك ومضى إلى تخوم صور وصيداءَ ، ودخل بيتا وهو يريد أن لا يعلم أحـد ، فلم يقـدر أن يختفي لأن امـرأة كـان بـابنتهـا رُوحٌ نجسٌ سمعت به فأتت وخـرّت عند قدميـه ، وكانت المرأة أمميّة وفي جنسهـا فينيقيّة سوريّـة ، فسألته أن يخرج الشيطـان من ابنتهـا ، وأما يسوعُ فقـال لها : دعي البنين أولاً يشبعون ، لأنه ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب .

فهـذان النصان من إنجيلي متى ومـرقص يقـرران أن عيسى يصف الأمميين ـ وهم من عدا بني إسرائيل ـ بأنهم كلاب . نـزّه الله عيسى ابن مريم وصانه أن يقـول مثل هذا الكـلام أو يعتقـده . مع مـلاحظة مـا في هـذين النّصين من التنـاقض بين الإنجيلين في جنسية المرأة التي لحقت يسـوع حيث وصفت في إنجيل متى بأنها كنعـانيـة وفي إنجيل مـرقص بأنها فينيقيـةٌ سـوريـة ، وبهذه النصوص التلمودية تمكنت العنصرية مـن نفوس أهل الكتاب فغرتهم الأماني وزعموا أن الجنة لن يدخلها أمميٌّ وأنها خاصّة لهم ، وقوله عز وجل : ﴿ وقالوا لن يـدخل الجنة إلا من كـان هوداً أو نصارى﴾ أي وقـال اليهود لن يـدخل الجنـة إلا من كـان يهوديـا وقـالت النصـارى لن يـدخل الجنـة إلا من كـان نصرانيا ، لأن هـذا التفصيل معلوم قطعا ولـذلك أوجز الكـلام هذا الإيجاز،

فإنّ مما لا شك فيه أن اليهـود يكذّبون عيسى عليه السلام ويرمـونه وأمّه بكل قبيح، ويعتقدون أن أتبـاعه كفّارٌ من أهل النار، وهـودٌ جمع هائد كَبورٍ جمع بائرٍ. والمراد بهم اليهـود وقد تكـون مأخوذة مـن الهود بمعنى التوبـة على حد قول مـوسى عليه السـلام: إنا هـدنا إليك أي تبنا إليـك، ويمكن أن تكون مأخـوذة من التهويـد وهو الترجيـع بالصـوت في لين والتطريب حيث كـان أحبار اليهود إذا قرءوا على العـامة أتوا بنغمات صوتية خاصـة مع غنّة شديدة ومـدٍّ بالخيـاشيم على حد قـول الله تعالى فيهم: ﴿يلـوون ألسنتهم بالكتـاب لتحسبـوه من الكتاب ومـا هو من الكتـاب﴾ ويمكن أن يكون لفظ اليهـود منسوبـا إلى يهوذا أخي يوسف الصّـديق وأحد أبنـاء إسرائيل ويكون إطـلاقه على جميع بني إسرائيل على سبيـل التغليب، وهـو يقـال فيـه: يهوذا ويهودا حيث تتعاور فيه الذال المعجمة والدال المهملة. ولذلك أورده الفيروز آبادي في الهود وفي الهوذ فقال في الهود: ويهودا أخو يوسف الصديق وقال في الهوذ: واليهوذيّ اليهـودي، ويمكن أن يكون لفظ اليهود مأخـوذًا من المهاودة وهي المواعدة على حد قوله تعالى: ﴿وواعدنـا موسى ثلاثين ليلةً وأتممناها بعشر﴾ على أننا لم نجد في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسـوله ﷺ إطلاق كلمة اليهود على سبيل المدح ولم تستعمل في كتـاب الله أو سنـة رسولـه ﷺ إلا على سبيل الـذم. أمـا النصـارى فهـم جمعُ نصراني، والنصرانيـة في الأصل: نسبـةٌ إلى نصرانـة وهي قـرية المسيح عليـه السـلام من أرض الجليل بفلسطين وتسمّى هذه القـرية أيضـا الناصرة ونصوريّـة، ولا يُعرف على التحـديد متى أطلقت هذه الكلمة على أهل الإنجيل ولم توجد هذه الكلمة في كتب النصارى إلا في أوائل القرن الثاني بعد ميلاد المسيح عليه السلام في عهد الإمبراطور «تراجان» الموجود في العام السادس بعد المائة من ميلاد المسيح عليه السلام، وقد يفهم من القرآن الكريم أنهم أحدثوا هذا الاسم إذ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿الذين

قالوا إنا نصارى﴾ هذا ولا ينبغي إطلاق كلمة مسيحيين على النصارى لأنهم في الواقع لا يتبعون المسيح عليه السلام، ولذلك لم نجد في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله ﷺ تسميتهم مسيحيين وقد أطلق عليهم القرآن أنهم نصارى كما سماهم كذلك أهل الكتاب، وأهل الإنجيل. وقوله تبارك وتعالى: ﴿تلك أمانيّهم﴾ أي هذه هي شهواتهم الباطلة وأُمنياتهم الكاذبة الخادعة، والمراد من هذه الأماني هي ما ادّعوه من أن الجنة لهم ومن أنهم لن تمسهم النار إلا أياما معدودة، وبأنهم أهل الحق، وبأن الله خصهم وحدهم بإنزال الكتب السماوية عليهم ولا يجب عليهم الإيمان إلا بنبي من بني إسرائيل، ولا شك أن من أعظم أمنياتهم الكاذبة قولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه. وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المغرورين المخدوعين أصحاب الأمنيات الكاذبة: هاتوا حجتكم ودليلكم على أن الجنة خاصةٌ بكم ولن يدخلها أحد سواكم إن كنتم صادقين فيما تزعمون فالدّعوى بلا برهان ولا حجة ولا دليل دعوى مردودة، والأمانيّ مركب العاجز ولذلك قال رسول الله ﷺ: «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأمانيّ». كما رواه الترمذي من حديث أبي يعلى شدّاد بن أوس رضي الله عنه وقال الترمذي: حديث حسن. وفي هذه الآية دليل على أن النافي للحكم يطالب بالدليل لأن أهل الكتاب لما نفوا أن يدخل الجنة أحدٌ غيرهم طالبهم الله عز وجل بالدليل على ما نفوه فقال: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾. وقوله تعالى: ﴿بلى من أسلم وجههُ لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ إبطالٌ لدعوى أهل الكتاب و إثبات لما نفوه، حيث قرّر قاعدة العدل والإنصاف والرحمة والإحسان وهي أن من أسلم وجهه لله وهو محسن فهو الموعود بالجنة مهما كان عنصره ولونه وبلده

وجيله وقبيلـه وغناه وفقره، وقـد كرّر الله تبارك وتعالى هـذه القاعدة في كتـابه الكـريم للقضاء على التمييـز العنصري الذي أفسـد قلوب اليهـود ومن نهج منهجهم التّلموديّ، حيث قال: ﴿فإمـا يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فـلا خـوف عليهم ولا هم يحزنون * والـذين كفـروا وكـذبـوا بآيـاتنـا أولَئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ وكما قال: ﴿بلى من كسب سيِّئة وأحاطت به خطيئتـه فأولَئك أصحاب النار هم فيهـا خالدون * والذين آمنـوا وعملوا الصـالحات أولَئك أصحـاب الجنـة هم فيهـا خـالـدون﴾ في آيـات كثيرة في مواضع شتّى مـن القرآن العظيم. وقولـه: ﴿بلى﴾ إثبات لما نفـوه وإبطال لما أثبتوه لأنفسهم، وقوله تعالى: ﴿مَنْ أسلم وجهه لله﴾ أي من أخْلص العمل لله وحده لا شريك له، وكما قال تعالى: ﴿فإن حاجّوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتّبعنِ﴾ وقـوله تعـالى: ﴿وهو محسنٌ﴾ أي ويعمل على وفق شريعـة محمـد ﷺ وهذان هما الشرطـان الأساسيـان في قبول الأعمال، فـلا بدّ لقبـول العمل أن يكون خالصا لوجه الله ولا بـد أن يكون صوابا على منهج رسول الله ﷺ، وقد روى البخاري ومسلم من حديث عـائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ». وفي رواية لمسلم عنها رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من عمـل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ». وإنما أفرد الضمير في قوله ﴿وجههُ﴾ وفي قوله: ﴿وهو محسنٌ﴾ وفي قوله: ﴿فله أجره عنـد ربه﴾ لمراعاة لفظ «مَنْ» وجمع الضمير في قوله: ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنـون﴾ لمراعاة معنى «مَنْ» فإن لفظها مفردٌ ومعنـاها جمع، كقولـه تعالى: ﴿من عمل سيئـة فلا يجزى إلا مثلهـا ومن عمل صالحا من ذكـر أو أنثى وهـو مـؤمنٌ فأولَئك يـدخلـون الجنـة يُـرزقـون فيهـا بغير حساب﴾.

قال تعـالى: ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقـالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلـون الكتاب، كـذٰلك قال الـذين لا يعلمون مثل قولهم، فالله يحكم بينهم يـوم القيامة فيما كانـوا فيه يختلفون* ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يـذكر فيها اسمه وسعى فى خـرابها أولٓئك ما كان لهم أن يدخلوهـا إلا خائفين، لهم فى الدنيا خـزي ولهم فى الآخرة عذاب عظيم* ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله، إن الله واسع عليم﴾.

إنه لا شك أن اليهـود يكفرون بعيسى عليه السلام وبـالإنجيل ويعتقدون أن النصارى سواء كانوا من معاصري عيسى عليه السلام أو ممن جاء بعدهم إلى بعثـة محمد ﷺ ليسـوا على شيء معتـدٍّ بـه، كما أنه لا شكّ أن النصـارى يعتقـدون أن مـوسى رسـول الله وكليمـه وأن التـوراة حقٌّ من الله، بيـد أنهم يعتقـدون أن اليهود لما كفـروا بعيسى عليـه السـلام أصبحوا ليسـوا على شيء معتـدٍّ به حيث لم يتّبعـوا وصايـا الأنبيـاء والمرسلين من بني إسرائيل بوجـوب تصديق من يبعثـه الله من الأنبياء والمرسلين. وبهذا يقرر اليهـود أنّ النصارى ليسوا على صواب في دينهم، ويقرر النصارى أن اليهود ليسوا على صواب في دينهم، وقد ساق الله تبارك وتعالى مقالة اليهود في النصارى ومقالة النصارى في اليهود بعد أن ذكر قول اليهود: لن يـدخل الجنة إلا من كان يهوديا، وقول النصارى: لَن يـدخل الجنة إلا من كـان نصرانيا، واتفاق اليهـود والنصارى على أن الجنة لن يدخلها عربي ولا أعجمي غيرهم أوضح الله تبارك وتعالى هنا تناقضهم وتكذيب بعضهم بعضا، وهذا يدفع توهّم من قد يتوهّم أن اليهود أو النصارى قـد بنوا مـا زعموه من حـرمان غيرهم من الجنـة على شيء ثابت حيث قرّر أنهم متناقضون متبـاغضون، لا يسيرون على منهج رشيد ولا يأتون بقـول سديـد فهم كـذبةٌ فجـرة، لا يعـرفون إلا الهوى، ولا يتجهـون إلا إلى

الضلال، وقد شهد بعضهم على بعض بذلك، وقد بيّن الله عز وجل أن قول بعضهم في بعض هو الواقع فليست اليهود على شيء وليست النصارى على شيء وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾ وقوله عز وجل: ﴿ وهم يتلون الكتاب﴾ أي وهم يقرءون جميعا التوراة فهم يدّعون جميعا أنهم مقرون بها وأنها من عند الله، وهذا يفيد أنهم في غاية السفاهة حيث يكفّر بعضهم بعضا وهم يقرّون بكتاب واحد وهو التوراة وكتب العهد القديم، وإن كان النصارى يزيدون على اليهود أنهم يقرون بالإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام في الوقت الذي يكفر فيه اليهود بالإنجيل، ويزعم اليهود والنصارى أنهم أهل العلم، ولو كانوا صادقين في زعمهم لحملهم العلم بالتوراة على المسارعة إلى تصديق محمد ﷺ، لكنهم إذا كان هذا حال بعضهم مع بعض فهل ينتظر منهم أن يكونوا أحسن حالاً مع رسول الله محمد ﷺ؟ وفي هذا التعبير تنديدٌ بهم، وتحقيرٌ لسلوكهم مما يجعلهم هم والأميين من مشركي العرب الذين ليسوا من أهل الكتاب ولا من أهل العلم والمعرفة على حد سواءٍ ولذلك قال بعدها: ﴿كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾ أي مثل مقالة اليهود في النصارى ومقالة النصارى في اليهود قال الجهلة من عباد الأصنام في اليهود والنصارى أنهم ليسوا على شيء وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في سورة فاطر، وبين أن المشركين في جزيرة العرب كانوا يحسّون مع جهلهم وشركهم أن اليهود لم يقوموا بما يجب عليهم من طاعة لموسى عليه السلام واتّباع للتوراة وأن النصارى لم يقوموا بما يجب عليهم من طاعة لعيسى عليه السلام واتباع للإنجيل حيث يقول عز وجل في مشركي قريش: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكوننّ أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذيرٌ ما زادهم إلا نفورا* استكبارا في الأرض ومَكْرَ السَّيِّئ، ولا

يحيقُ المكرُ السَّـيِّئ إلا بأهله، فهل ينظرون إلا سنّت الأولين، فلن تجد لسنّت الله تبديلا ولن تجد لسنّـت الله تحويلا﴾ وقوله تعالى: ﴿فـالله يحكم بينهم يوم القيامـة فيما كانوا فيـه يختلفون﴾ أي فـالله الملك الحق المبين يفصل بينهم يوم القيامـة ويقضي بينهم بالعدل ولا يظلم ربك أحـدا من المختلفين فيجازيهم على اختـلاقهم وافترائهم وغرورهم وأمنيـاتهم الكاذبـة وكفرهم بـرسولـه ﷺ وصدّهم عـن سبيله، ويعرفـون في عرصـات القيامـة ما تنـاقضوا فيـه، وما اختلقـوه ﴿ويوم يَعَضُّ الظـالم على يـديه يقـول يـا ليتني اتخذت مع الرسـول سبيـلا﴾ وكما قـال عـز وجل: ﴿إن الذيـن آمنوا والـذين هـادوا والصـابئين والنصارى والمجـوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيـامة، إنّ الله على كل شيء شهيد﴾. ومعنى: ﴿يـوم القيامة﴾ أي يوم يقـوم الناس لرب العـالمين من قبورهم لمحشرهم ويـؤتى كلّ إنسـان كتاب عملـه، فلا يغـادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا، وقد كان رسول الله ﷺ شديد الضراعـة إلى ربه يسأله أن يهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنـه، فقـد تقـدّم في تفسير قـولـه تعـالى: ﴿من كـان عـدوًا لله وملائكـته ورسلـه وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافـرين﴾ ما رواه مسلم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها في دعاء النبي ﷺ عندما يفتتح صـلاة الليل أنـه قـال: «اللهم ربّ جبريل وميكـائيل وإسرافيل فـاطـر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبـادك فيما كانوا فيه يختلفـون، اهـدني لما اختلف فيـه من الحق بـإذنك إنك تهدي من تشـاء إلى صراط مستقيم». وأخبر رسول الله ﷺ أن الله هـدى المسلمين لما اختلف فيه أهل الكتاب من اليهود والنصارى فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حـديث أبي هريـرة رضي الله عنه أنـه سمع رسول الله ﷺ يقـول: «نحن الآخرون السـابقون يـوم القيامـة، بيد أنهم أوتـوا الكتاب من قبلنـا، ثم هذا

يومهم الذي فُرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله، فالناس لنا فيه تبعٌ اليهود غدًا والنصارى بعد غد». هـذا لفظ البخاري، أما لفظ مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قـال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون ونحن السـابقون يوم القيامة بيـد أنّ كلّ أمةٍ أوتيت الكتاب من قبلنا وأوتينـاه من بعدهم، ثم هذا اليوم الـذي كتبه الله علينـا، هدانـا الله له، فـالناس لنـا فيه تبعٌ اليهـود غداً والنصارى بعد غدٍ». وقولـه تبارك وتعالى: ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يُـذْكَرَ فيهـا اسمه وسعى في خـرابها أولَئك مـا كان لهم أن يـدخلوهـا إلا خـائفين﴾ أي لا أحـد أفحش ظلما ممن يمنع المؤمنين ولا سيما النبيّ ﷺ من الصلاة في بيوت الله التي أذن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه ولا سيما المسجد الحرام الذي جعله الله تبارك وتعالى مثـابة للناس وأمنا، ولا شك أن المشركين الذين أخرجوا رسول الله ﷺ من مكـة كانوا يجمعون بين الشرك الموصوف بأنه الظلم العظيم وبين الصد عن المسجـد الحرام، وهذا وعيد شديـد لكل صاد عن ذكر الله في المسـاجد، ولا يفعل ذلك عادة إلا المشركون الكـافرون بالله، وعمارة المسـاجـد تطلق على بنائهـا وعلى إقـامـة الصلاة فيهـا كما أن خـراب المساجـد قد يكون بهدمهـا وإفساد بنيانها وقـد يكون بالصـد عن الصلاة بها ومنع المصلين من دخولها، وقد وصف رسول الله ﷺ من يعتـاد المساجد بأنه يعمرها فقد روى الترمذي وقـال: حديث حسن من رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسـاجد فاشهدوا له بـالإيمان قـال الله عـز وجل: ﴿إنما يعمر مسـاجـد الله من آمن بـالله واليـوم الآخر﴾» الآيـة. وقال البخـاري في صحيحه: باب بنيـان المسجد وقـال أبو سعيد: كان سقف المسجد من جريد النخل، وأمر عمر ببناء المسجد وقال: وأكنَّ الناس من المطـر وإياك أن تحمّر أو تُصفّر فتفتن النـاس، وقال أنس: يتباهون بها ثم لا يعمرونها إلا قليلا. وقال ابـن عباس: لتزخرفنّها كما زخرفت

اليهود والنصارى اهـ وقد وصف الله تبارك وتعالى إخراج أهل المسجد الحرام منه بأنه أكبر من القتال في الشهر الحرام حيث يقول: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه قل: قتال فيه كبير وصدٌّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿أولٓئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم﴾ هذا وعد للمؤمنين وعلى رأسهم سيد المرسلين ﷺ بتمكينهم من المسجد الحرام وسائر المساجد ووعيدٌ شديد لمن صدّ عن سبيل الله والمسجد الحرام أو غيره من المساجد بأن الله يسلِّط عليهم الذّل والهوان وأن يصيبهم بخزي الدنيا مع ما أعد لهم في الآخرة من العذاب الموجع المؤلم، وقد فعل الله ذلك فمكّن لرسوله ﷺ فدخل المسجد الحرام آمنا مطمئنا، وأذل المشركين حتى منعهم من دخولهم لنجاستهم حيث يقول: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون﴾ وقال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجسٌ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هٰذا﴾. وقوله عز وجل: ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تُوَلُّوا فثَمَّ وَجْهُ الله إن الله واسع عليم﴾ هذه بداية التمهيد لتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة قبلة إبراهيم وإسماعيل وتوطين النفوس على ذلك قبل الأمر به، لعلم الله عز وجل أن المشركين الجاهلين وأهل الكتاب سيستغلون نسخ القبلة من جهة بيت المقدس إلى جهة الكعبة أسوأ استغلال للتشويش على المسلمين بعد أن فضح تناقض اليهود والنصارى والمشركين، فبين عز وجل هنا أن الجهات كلّها لله عز وجل، وأن المسلم إذا توجه إلى جهة يأمره الله عز وجل بالتوجه إليها فهو على حق وهو محسنٌ في عمله، قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله: يقال: أردت هذا الوجه أي هذه الجهة والناحية ومنه قوله: ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تُوَلُّوا فثَمَّ وَجْهُ

الله﴾ أي قبلـة الله ووِجْهـةُ الله. وبعد أن بيّن أنّ معنى: ﴿أينما تـولّـوا﴾ أي تتوجهـوا وتستقبلوا، قال: فـإن قوله: ﴿ولله المشرق والمغـرب﴾ يدل على أن وجه الله هنـاك من المشرق والمغـرب الذي هـو لله كما في آية القبلـة ﴿سيقول السفهـاء من النـاس مـا ولاهم عن قبلتهم التي كـانـوا عليهـا قل لله المشرق والمغـرب يهدي من يشـاء إلى صراط مستقيم﴾اهـ ومعنى: ﴿إن الله واسع عليم﴾ أي إن الله تبارك وتعالى محيط بجميع خلقه يسعهم بـالكفاية والتدبير والجود، عليم بأفعـالهم ونـوايا قلـوبهم لا يخفى عليـه شيء في الأرض ولا في السماء.

قال تعالى: ﴿وقالوا: اتّخذ الله ولدا، سبحانه بل له ما في السمٰوات والأرض كلّ له قانتون* بديع السمٰوات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون* وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية، كذٰلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم، قد بيّنّا الآيات لقوم يوقنون* إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم﴾.

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى بعض تناقضات اليهود والنصارى والذين أَشركوا حيث يكفّر بعضهم بعضاً، وأنهم إنما يتعاونون ويكونون يدا واحدة لإطفاء نور الله والله متمّ نوره، بيّن في هذا المقام الكريم تشابه أهل الكتاب من اليهود والنصارى مع المشركين الأميين من العرب حيث ادّعى كل فريق منهم أنّ لله ولدًا، إذ زعمت اليهود أن عزيراً ابن الله وزعمت النصارى أن المسيح ابن الله وزعم الجاهلون العرب الأميّون أن الملائكة بنات الله، وهو قولٌ منكر تكاد السموات تتفطر منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا بسبب هذه الدعوى الباطلة والفرية الكاذبة على الله عز وجل، وقد ردّ الله باطلهم ودحض مقالتهم باستحالة ما يزعمون وبطلان ما يدّعون حيث إنّ جميع ما في السموات والأرض ملكٌ لله، الذي أوجد السموات والأرض على غير مثال سابق بما فيهما وما بينهما، فكيف يكون له ولدٌ والكلُّ عبيده وخلقه، وليس لله نِدٌّ ولا شبيه ولا نظيرٌ ولا شريك، ولم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.
ولما قال العرب الجاهلون: الملائكة بناتُ الله، قيل لهم: مَنْ أمّهاتهم؟ قالوا: سروات الجن أي شريفات الجن وقد نفى الله عز وجل عن نفسه اتخاذ الصاحبة وهو يقتضي نفي الولد، ولذلك قال عز وجل: ﴿وجعلوا لله شركاء الجنّ وخلقهم وخرقوا له بنين وبناتٍ بغير علم، سبحانه وتعالى عما

يصفـون * بديع السمٰـوات والأرض أنّى يكـون له ولـدٌ ولم تكن لـه صاحبـةٌ وخلق كلّ شيء وهو بكل شيء عليـم﴾ وقال عز وجل: ﴿إنما الله إلٰـه واحد سبحـانه أن يكـون له ولـد، لـه ما في السمٰـوات وما في الأرض، وكفى بـالله وكيـلا* لن يستنكف المسيح أن يكون عبـدا لله ولا الملائكـة المقرّبـون، ومن يستنكف عن عبـادته ويستكبر فسيحشرهـم إليه جميعـا* فأمـا الذين آمنـوا وعملوا الصالحات﴾ الآية وقال في سورة يونس: ﴿قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني ﴾الآية. وقال في ختـام المسك من سورة الإسراء: ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريكٌ في الملك ولم يكن له وليّ من الذّلّ وكبّره تكبيرا﴾ وقال في افتتاحية الخير من سورة الكهـف: ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا * ما لهم به من علم ولا لآبائهم، كبُرت كلمةً تخرج من أفواههم، إن يقـولون إلا كـذبـاً﴾ وقـال في سورة مـريم: ﴿مـا كان لله أن يتخـذ من ولـد سبحانه، إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكـون﴾ وقال فيها أيضا: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقـد جئتم شيئا إدًّا * تكاد السمٰوات يتفطّـرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا * أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولـدا * إن كلّ من في السمٰـوات والأرض إلا آتي الـرحمن عبدا﴾. وقـال عـز وجل: ﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولـون * ولَدَ اللهُ و إنهم لكاذبـون﴾ ثم قال: ﴿وجعلوا بينه وبين الجِنَّة نسبا، ولقد علمت الجِنَّة إنهم لمحضرون﴾ وقال عز وجل: ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلـد ولم يولد * ولم يكـن له كفوا أحد﴾ وقد أكّد تبارك وتعالى في هذه الآيات الكريمة أنه رب كل شيء ومليكه والكلّ عبيـده، والولـد لا يكون عبدا، وقـد روى البخاري في صحيحـه من حديث حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «قـال الله: كذّبني ابن آدم ولم يكن لـه ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكـذيبه إيـاي فزعم أني لا أقدر أن أعيـده كما كان، وأمـا شتمه

إيـاي فقولـه : لي ولدٌ ، فسبحـاني أن أتّخذ صاحبـة أو ولداً» . وقـوله تعـالى : ﴿وقـالوا اتخذ الله ولـدا﴾ أي وقـال اليهـود والنصارى والمشركـون : صنع الله لنفسه ولدا أو صيَّر له ولدًا وقولـه عز وجل : ﴿سبحانه﴾ أي تنزيها لله عما لا يليق به وإبعـادًا له عن كل نقص وبراءةً لـه من كل سوء . وقولـه عز وجل : ﴿بل لـه ما في السمٰوات والأرض كـل له قـانتون * بديـع السمٰوات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول لـه كن فيكون﴾ هذه هي أدلة بطلان مقـالة اليهود والنصـارى والمشركين في دعــواهم أن لله ولـدا ، وذلـك بتقـريــر أن اليهـود والنصـارى والمشركين يقرون بأن الله لـه كل ما سـواه على سبيل الملك والخلق والإيجاد والإبداع ، والـولد إنما يكون من جنس أبيـه ، والوالد يحتاج إلى الـولد لنفعه ودفع الأذى عنـه إذا كبر ، والله الذي له ما في السمـوات والأرض مِلكًا ومُلكًا وجميع هذه المخلوقات المملوكات لله مقـرة له بالعبودية بلسان حالها أو مقــالها ، وإن من شيء إلا يسبح بحمــده ، ولكن لا تفقهــون تسبيحهم ، فالجميع قانت خـاضع له مقر بأنه رب كل شيء ومليكه وسيـده ، وهو بديع السموات والأرض أي مـوجدهما على غير مثال سـابق ومخترعهما من العدم ، وهو غني عن العالمين ، وقضاؤه نافـذ ، وسلطانه تام إذا أراد أمرًا لا يحتاج إلى مادة أو معالجة أو معاونة بل يقول له كن فيكون ، كما قال للسموات والأرض ائتيا طوعا أو كرهًا قالتـا أتينا طائعين ، وإذا كان هذا هو شأن رب السموات والأرض فكيف يتخذ ولدا ، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى : ﴿بل لـه مـا في السمٰوات والأرض﴾ : أي ليـس الأمـر كما افتروا ، وإنما لـه ملك السمـوات والأرض ومن فيهـن وهـو المتصرف فيهم وهـو خــالقهم ورازقهم ومقدِّرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء ، والجميع عبيد له ومِلْك له فكيف يكـون له ولدٌ منهم؟ والـولد إنما يكون متولـدا من شيئين متناسبين وهو تبارك وتعـالى ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريـائه ، ولا صاحبة

له، فكيف يكون له ولد؟اهـ وقوله تعالى: ﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية﴾ هو بيان لنوع آخر من قبائح أقوال المشركين العرب الأميين حيث يرغبون في أن يكلّمهم الله بلا واسطة، أو تجيئهم آية مما يقترحون وهذه السفاهة من هؤلاء السفهاء تدل على بلادة نفوسهم وسوء أخلاقهم، وأنهم ما قدروا الله حق قدره وكأنهم مع عجزهم التام عن الإتيان بمثل سورة من القرآن الكريم لم يكتفوا بآيته العظمى وحجته الكبرى، وقد حكى الله عنهم بعض مقترحاتهم حيث يقول: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض ينبوعا * أو تكون لك جنةٌ من نخيل وعنب فتفجّر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تُسْقِطَ السماء كما زعمت علينا كِسَفا أو تأتيَ بالله والملائكة قَبِيلاً * أو يكون لك بيتٌ من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزّل علينا كتابًا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنتُ إلا بشرا رسولا﴾ وقد أوضح الله تبارك وتعالى أنه لو أجاب قريشا إلى مقترحاتهم فإنهم لن يؤمنوا؛ لأنهم يقرون في قلوبهم أن محمدا رسول الله وأنه الصادق الأمين وأنهم ما جرّبوا عليه كذبا قط وأن الذي حملهم على التكذيب واقتراح الآيات هو الحسدُ الذي امتلأت به قلوبهم أن ينزل القرآن على رجل فقير، إنما يريدونه بحسب شهواتهم أن يكون من أغنياء القريتين مكة أو الطائف، وفي ذلك كله يقول الله عز وجل: ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذّبونك ولكنّ الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ ويقول عز وجل: ﴿ولو أننا نزّلنا إليهم الملائكة وكلّمهم الموتى وحشرنا عليهم كلّ شيء قُبُلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكنّ أكثرهم يجهلون﴾. وقوله تعالى: ﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم﴾ أي كما قال الجاهلون الأميون العرب المشركون الذين لا يعلمون قال الذين من قبلهم من اليهود والنصارى مثل مقالتهم فاليهود قالوا: أرنا الله جهرة، وقالوا: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة عند ما مرّوا بقوم يعكفون على أصنام لهم، وقالوا: لن نصبر على طعام

واحد، وقالوا في طالوت: أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يُؤْتَ سَعَةَ من المال؟ في اقتراحات كثيرة يقترحونها على موسى عليه السلام ويقترحونها على أنبيائهم من بعده. والنصارى قالوا: هل يستطيع ربك أن ينزّل علينا مائدة من السماء؟ وقوله تعالى: ﴿تشابهت قلوبهم﴾ أي تماثلت قلوب الأميين من المشركين وقلوب أهل الكتاب من اليهود والنصارى في العناد والعمى فتشابهت أقاويلهم الباطلة الفاسدة ومقترحاتهم العاطلة الكاسدة. وقوله تعالى: ﴿قد بيّنا الآيات لقوم يوقنون﴾ أي قد أوضحنا أننا قد آتيناهم بالآيات البينات والحجج الظاهرات على أن محمدا هو رسول الله حقا وصدقا فلو كانت لهم بصائر لأيقنوا، لأن هذه الآيات التي بيّناها قد استجاب لها المؤمنون وآمن بها المتقون الموقنون. وقوله تعالى: ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم﴾ أي إنا بعثناك أيها الرسول الكريم مصحوبا بالحق الثابت والآيات الكافية الشافية التي يؤمن على مثلها البشر تبشّر من أطاعك بالجنة وكريم ثوابها بالخبر الذي تنطلق له أساريرهم فرحا وسرورا، وتحذر من عصاك وتخوفهم من النار، ولست بمسؤول يوم القيامة عن أهل النار التي تتأجج بهم، فالبشارة هنا هي الخبر المؤثر على البشرة بما يسرّ والنذارة هي التحذير والتخويف، والجحيم هي النار الشديدة التّأجج بعضها فوق بعض. وقوله تعالى: ﴿بشيرا ونذيرا﴾ هما صفتان من صفات رسول الله ﷺ في الكتب السماوية السابقة فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه وجد صفة رسول الله ﷺ في التوراة - يعني بها هنا بعض كتب العهد القديم ــ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرْزاً للأميين أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخّاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، ويفتح عيونا عمياً، وآذاناً صماً وقلوبا غُلفاً بأن يقولوا: لا إله إلا الله.

قال تعالى: ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتّبع ملتهم، قل إنّ هدى الله هـو الهدى، ولئن اتّبعت أهواءهـم بعد الذي جـاءك من العلم مالَـكَ من الله من وليّ ولا نصير* الذين آتينـاهـم الكتاب يتلـونه حقّ تـلاوته أولّئك يؤمنون به، ومَن يكفر به فأولّئك هم الخاسرون* يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأنّي فضلتكم على العالمين* واتّقـوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفـس شيئـا ولا يقبل منهـا عـدل ولا تنفعهـا شفـاعـة ولا هم ينصرون﴾.

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى بعض ما تـوافقت عليه فرق اليهود والنصارى والمشركين من زعمهم الباطل: أن الله اتخذ ولـدا، ونزّه الله نفسه المقـدسة عما يقولـون، وأبطل دعواهم بـالحجج العقلية القـاطعة التي لا مفرّ للعـاقل من الانقياد لها، والإيمان بها، والتي لا يستطيع اليهود ولا النصارى ولا المشركون جحـد شيء منهـا لأنها مبنيّـة على الأمـور التي يُسلّم بها اليهـود والنصـارى والمشركـون فهم جميعـا يقـرون بأن الله أكبر من كل شيء، وأن السمـوات والأرض وما فيهما له وحده جلّ وعلاَ، أوضح هنا لـرسوله ﷺ أنّ ما يقترحونه من الآيات لو جاءتهم لن يؤمنوا وأنهم مستمسكون بباطلهم أشدّ استمساك، ولن يقفوا عند هذا الحد من الثبات على باطلهم بل هم يريدون منك أن تترك الحقّ الـذي أنت عليه وتتّبعهم في بـاطلهم مع تناقضهم، فلن تـرضى عنك اليهود ولو خلَّيتهم وشأنهم حتى تتّبع ملتهم، ولن ترضى عنك النصارى ولو خلّيتهم ودينهم حتى تتّبع ملتهم، مع أنّ رضا اليهود مباينٌ لرضا النصارى، ولن تستطيع بحال أن تنال رضا الفـريقين المتناقضين المتباغضين، لاستحالة الجمع بين الضدّين والنقيضين، وقوله تعـالى: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى﴾ أي ولن يـزول غضبُ اليهود والنصـارى وبغْضهم لك أيها النبي

الكريم والرسـول العظيم ، ولن يرْضوا عنك ، حتى تتبع ملتهم أي حتى تترك دينك الحقّ وتتّبع هواهم وباطلهم ، والملّة الدين والمذهب سواء كان حقا أو باطلا ، ولـذلك عبّر الله تبارك وتعالى عن ملة اليهـود والنصارى بأنها أهواء ، وقـولـه تعـالى : ﴿قل إنّ هدى الله هـو الهدى﴾ أي أخبر اليهـود والنصـارى وغيرهم بأنّ دين الله الـذي بعث بـه محمـدا ﷺ هو الـدين الحقُّ وهـو سبيل الرشـاد ، وهو الـذي يصلح أن يسمّى هدى وما سـواه فهو ضـلال ، والذي عليـه اليهـود والنصارى ليـس هدى وإنما هـو هـوى ، وليس بعـد الحق إلا الضـلال ، ولـذلك لما قال اليهـود والنصـارى فيما حكى الله عـز وجل عنهم بقوله : ﴿وقالوا كونوا هـودا أ ونصارى تهتدوا﴾ ردّ عليهم هذا الزعم الكاذب فقال : ﴿قل بل ملة إبـراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ وقـال : ﴿ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولٰكن كـان حنيفا مسلما وما كان من المشركين * إنّ أولى الناس بإبراهيم للّذين اتبعوه وهٰذا النبيّ والذين آمنوا والله وليّ المؤمنين﴾ وقـوله تبـارك وتعالى : ﴿ولئن اتّبعت أهـواءهم بعـد الذي جـاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير﴾ أي وتـالله لئن وافقتهم على أقوالهم التي هي أهواءٌ باطلـةٌ وشهواتٌ جامحةٌ وأُمنياتٌ خادعة كـاذبة ، بعد أن منّ الله عليك بالدين الحق المعلوم صحّته بالدلائل القاطعة والبراهين الساطعة فلن تجد وليا يقيم لك أمرك ولا ناصرا ينصرك ويدفع عنك ، والمقصـود من هذا الوعيد هو التهديد لمن أطـاع اليهود أو النصارى في مذاهبهـم الزائغة الباطلـة ، وتوجيه الخطاب بهذا لرسول الله ﷺ المعصوم من الهوى والـزيغ ، الذي صانه الله من كل إثم وعصمـه مـن كلّ خطيئـة واصطنعـه الله لنفسـه وربـاه على عينـه ، واصطفاه لرسـالته وأمّنه على وحيه وفضّله على سائر خلقـه ، إنما هو من باب قول القائل : إيـاك أعني واسمعي يا جارة ، وذلك كقولـه عز وجل : ﴿ولقد أوحي إليـه وإلى الـذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكـونن من

الخاسرين * بل الله فاعبـد وكن من الشاكرين﴾ ومن البدَهيّـات المسلمة أن أنبياء الله معصـومون محفوظون مصـونون عن الوقوع في المعـاصي والسيئات .

وقوله تعالى : ﴿الـذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقّ تلاوتـه أولَئك يؤمنون به﴾ أي الـذين أعطينـاهـم القـرآن يقـرءونـه حق قـراءتـه أي القـراءة الحقـة التي يستحقها من الترتيل والتجـويد والخشيـة وتحسين الصوت وتحبيره، وتـلاوته آناء الليل والنهار، والعمل بمحكمه والإيمان بمتشابهه وتحليل حلاله وتحريم حـرامـه ، والوقـوف عنـد حـدوده ، والمحـافظـة على حروفـه ، وصيـانتـه من التحـريف والتبديل ، ولا شك أن قـولـه : ﴿الذين آتينـاهـم الكتاب﴾ يفيـد العموم فيشمل الذين آمنوا من أهل الكتـاب كعبد الله بن سلام رضي الله عنه ويشمل الـذين آمنـوا من العـرب والعجم . وتفسير الكتـاب في هـذا المقـام بـالتوراة بعيـد حيث إنه بعـد نزول القـرآن لا تُقرب تـلاوة التوراة إلى الله عـز وجل ، وإنما قد يطلب تلاوة جملة أو جمل منها للاستشهاد على حكم تلاعب بـه أهل الكتـاب كالـرجم الـذي حـولـوه إلى التحميم والتشهير إذا وقع من أغنيـائهم ، وقد أثنـى الله تبارك وتعـالى على من آمن من أهل الكتـاب حيث يقول : ﴿ليسوا سـواءً، من أهل الكتاب أمةٌ قائمةٌ يتلـون آيات الله آناء الليل وهـم يسجدون * يـؤمنون بـالله واليوم الآخر ويأمـرون بالمعـروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولَئك من الصالحين* وما يفعلوا من خير فلن يُكْفَـرُوه والله عليم بالمتقين﴾ وقـد بشّر رسول الله ﷺ هـؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب بأنهم يُؤْتَوْن أجرهـم مرتين فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي مـوسى الأشعـري رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قـال : «ثـلاثة يـؤتـون أجرهـم مرتين : رجلٌ من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي ، وعبد مملوك أدّى حق الله وحقّ مواليـه ، ورجلٌ كانت له أمةٌ فأدّبها فأحسن تأديبهـا ثم أعتقها فتـزوّجهـا» . ولا يجوز أن يـوصف من آمن من أهل الكتـاب بأنـه يهودي أو

نصراني، ويُـزْجَـرُ من يصفـه بـاليهوديـة أو النصرانيـة بعـد أن منّ الله عليـه بالإسلام، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن الـذي يتلو القرآن آناء الليل والنهار هـو الــذي ينبغي أن يغبط ؛ لأنـه بخير المنــازل وأفضل الأعمال فقـد روى البخـاري ومسلم من حديث عبـد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قال: «لا حسد إلا على اثنين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتـاه الله مالا فهو ينفق منه آنـاء الليل وآناء النهار». والمراد بالحسد في الحديث الغبطة وهي أن تتمنّى مثل ما للغير، لأنه تنافسٌ في الخير بخلاف الحسـد فإنه تمني زوال النعمة عن الغير وهـو مذموم، وقولـه تعالى: ﴿أولَٰئك يؤمنـون به﴾ الإشارة فيه لعلو منـزلة الذين أوتوا الكتـاب فتلوه حق تلاوته، ووصفهم بالإيمان به تقريرٌ لعلوِّ شرف المؤمنين، وكريم منزلتهم عند الله عـز وجل، كأنه يقـول: هم المؤمنـون حقا المقـرون بكتاب الله المنقـادون لتعاليمه، وفيـه تعريض باليهود والنصارى الذين ضيّعـوا الكتاب واشتروا به ثمنا قليلا، وقد أثنى الله تبـارك وتعالى على من آمن من أهل الكتب السماوية السابقة الـذين سارعوا إلى الإيمان بمحمد رسـول الله ﷺ وبشّرهم بمضاعفة حسناتهم حيـث يقول عز وجل: ﴿الـذين آتيناهـم الكتاب من قبله هـم به يـؤمنون * وإذا يُتْلى عليهم قـالوا آمنـا به إنـه الحقّ من ربنا إنـا كنّا من قبلـه مسلمين * أولَٰئك يُؤْتَوْن أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السّيّئة ومما رزقنـاهم ينفقون * وإذا سمعـوا اللغو أعـرضوا عنـه وقالـوا لنا أعمالنـا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾ وقـوله عز وجل: ﴿ومن يكفـر به فأولَٰئك هم الخاسرون﴾ أي ومن يجحد حَقِّيَّـةَ القرآن ولا يصدّق أنـه من عند الله ويكفـر بمحمد ﷺ فهـؤلاء هم الـذين ضيّعـوا دينهم ودنياهم وأهلكـوا أنفسهم، وفاتتهـم الحظوظ التي أعدهـا الله لأهل الإيمان فما ربحت تجارتهم وما كانـوا مهتدين، فلا استقرار لهم في الدنيا ولهم في الآخـرة عذاب النار كما

قال عـز وجل : ﴿أفمن كـان على بينة من ربـه ويتلوه شـاهدٌ منه ومـن قبله كتابُ مـوسى إمامـا ورحمةً ، أولٓئك يؤمنون بـه ، ومن يكفر بـه من الأحزاب فالنار موعده ، فلا تك في مـريةٍ منه ، إنه الحقُّ من ربك ولٓكنّ أكثر الناس لا يـؤمنـون﴾ وقولـه عـز وجل : ﴿ يـا بني إسرائيل اذكـروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين * واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يُقبل منها عـدل ولا تنفعها شفـاعةٌ ولا هـم ينصرون﴾ قـد تقدم في تفسير الآيتين السـابعـة والأربعين والثـامنـة والأربعين مـن هـذه السـورة المبـاركـة المتشابهتين مع هاتين الآيتين الكـريمتين أن هذا التكرير هو أحـد معاني كون القـرآن متشابها مثـاني ، وأن معنى كـونـه متشابها أنـه يشبـه بعضه بعضـا في البلاغـة والفصاحـة والصدق والإحكـام والإتقان واستتباع منـافع الخلق في المعاش والمعاد ، وأن معنى كـونه «مثاني» أي يردد المعنى ويكـرره في مقامات متباعدة دون أن يلحقه تناقضٌ أو اختلاف مع مراعاة مقامات الأحوال ، وأن المعاني التي تكرّرُ يقصـد بتكريرها التأكيدُ عليهـا ، وذلك لشدة البلوى بها ، مع عظيم خطـرها ، فإن أكثـر المشركين مع اختـلاف أعصارهم وأمصـارهم كانـوا يشركون بـالله ويجعلون شركـاءهم شفعاء عنـد الله كما قال عـز وجل : ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهـم ولا ينفعهـم ويقولون هٰؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلـم في السمٰوات ولا في الأرض ، سبحانـه وتعالى عما يشركون﴾ .

قال تعالى: ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات فأتمّهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذرّيتي قال لا ينال عهدي الظالمين* وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهّرا بيتي للطائفين والعاكفين والرّكع السّجود﴾

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى أنّ ما عليه اليهود والنصارى والمشركون من الدين هي أهواءٌ وشهواتٌ، وأنّ هدى الله هو الهدى، وأن من أسلم وجهه لله وهو محسن سعد بمرضاة الله ورضوانه مهما كان لونه وجنسه، وعصره ومصره، ومن اتّبع هواه وترك هدى الله شقي وكان مستحقا لسخط الله وعقابه مهما كان لونه وجنسه وعصره ومصره، بيّن في هذا المقام الكريم أن إبراهيم خليل الرحمن إمام الحنفاء الذي يزعم اليهود والنصارى والعرب المشركون أنهم على ملته افتراءً وزوراً وكذبا؛ لأنه عليه السلام لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولم يك من المشركين وإنما كان حنيفا مسلما وبيّن هنا أنه لما بشّره الله عز وجل بأنه جاعله للناس إماما قال: ومن ذريتي، فأخبره الله عز وجل أن ذريته منها المنحرف عن دين الله الظالم لنفسه ومنها المستقيم على هدى الله الذي يبعث به الأنبياء والمرسلين، فمن كان من ذرية إبراهيم على هدى الله فهو المستحق للكرامة ومن انحرف عن دين الله فلا كرامة له، حيث يقول عز وجل هنا: ﴿وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ أي واذكر إذ اختبر الله تبارك وتعالى نبيه ورسوله وخليله إمام الحنفاء وأبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام بأوامر شرعية أمره الله عز وجل بها فقام بها على خير وجه وأكمله ووفّى بها أمره الله عز وجل به وقال الله عز وجل له: إني مُصَيِّرك قدوةً يقتدي بها المؤمنون، ويأتم بها الصالحون، فسأل إبراهيم ربّه عز وجل أن يجعل من ذريته أئمةً

صالحين يكونون قدوةً في الخير والعمل الصالح فأخبره الله عز وجل أن ذريته سيكـون منهم أئمـة خيرٍ ورشدٍ وسيكـون منهم ظـالمون منحرفـون عن سـواء السبيل، لا يسلكون سبيل المرسلين ولا ينهجون نهج الصالحين فمن انحرف من ذريتك عن نهج الأنبياء وأشرك بالله فله النار، ولن ينفعه أنه من ذريتك، وتصديـر هذه الآيـة بقولـه: ﴿وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه﴾ وهي أول حـديث عن إبـراهيم خليل الرحمن في هـذه السورة المبـاركـة للدلالـة على عظم مسؤوليـة الأنبياء والمرسلين ولا سيما من كان من أولي العـزم منهم وفي مقدمتهم خليل الرحمن عليه وعليهـم السلام ولذلك أخبر رسول الله ﷺ أن أشـدّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل فقـد قال البخاري في صحيحه: بـابٌ أشد الناس بـلاءً الأنبيـاء ثم الأمثل فـالأمثل. قـال الحافظ ابن حجـر في فتح البـاري: وصدر هـذه الترجمة لفظ حديث أخـرجه الـدارميّ والنسائيّ في الكبرى وابن مـاجه وصححـه الترمـذيّ وابن حبان والحاكم كلّهم مـن طريق عـاصم بن بهدلة عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيـه قال: قلت: يا رسول الله أيّ النـاس أشدّ بـلاءً؟ قال: «الأنبيـاء ثم الأمثل فالأمثل، يُبْتَلى الـرجل على حسب دينه» الحديث. اهـ ولا شك أن أعظم صور البلوى هي ما أمر الله به إبراهيم عليه السـلام بذبح ولده فانقاد لأمر الله ولم يتردد في تنفيـذ ما أمره الله عز وجل به كما قال الله عز وجل: ﴿وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين * ربِّ هب لي من الصالحين * فبشرنـاه بغلام حليم * فلما بلغ معه السّعي قـال يا بنيّ إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى؟ قال: يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابريـن * فلما أسلما وتلّه للجبين * وناديناه أن يا إبراهيم * قد صدّقت الرؤيا، إنا كذٰلك نجزي المحسنين * إنّ هٰذا لهو البلاء المبين﴾ وقد ذكر الله تبـارك وتعالى أن إبراهيم عليه السـلام وفَّى بما أمره الله عز وجل به حيث يقول: ﴿أم لمْ يُنبَّأْ بما في صحف موسى * وإبراهيم الذي وفّى

* ألاّ تـزر وازرةٌ وزرَ أخرى * وأن ليس لـلإنسـان إلا ما سعى * وأن سعيـه سـوف يُـرى * ثم يُجْزَاهُ الجزاء الأوفى﴾ وقـد أكّد الله تبـارك وتعـالى أن ذريـة إبراهيم ليسوا سواءً وأن منهم الظالم والمهتـدي، والصالح والطالح في مواضع كثيرة من كتابه الكريم ليبطل دعوى بني إسرائيل العنصريين حيث زعموا أنه لن يدخل الجنـة أحدٌ غيرهم وأنهم لن تمسّهم النار إلا أيامـا معدودات وأنهم أبناء الله وأحباؤه، فوصف بعض ذرية إبراهيـم عليه السلام هنا بالظلم وقال عز وجل في سـورة الصافات: ﴿وبـاركنا عليـه وعلى إسحاق، ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبينٌ﴾ وقـال تعالى في سورة الحديد: ﴿ولقد أرسلنـا نوحا وإبـراهيم وجعلنـا في ذريتهما النبـوّة والكتـاب فمنهم مهتـدٍ وكثيرٌ منهم فاسقون﴾. وقوله تعالى: ﴿وإذ جعلنـا البيت مثابة للناس وأمْنًا واتخذوا من مقـام إبراهيم مصلى وعهـدنا إلى إبـراهيم وإسماعيل أن طهّرا بيتي للطـائفين والعاكفين والـرّكّع السّجود﴾ هذا بيـان للناس يعلن الله تبارك وتعـالى فيه أن أعظم مكان على وجه الأرض يثوب إليه الناس من جميع أجناسهم وألوانهم، وأقطارهم وأمصارهم، في جميع أعصـارهم هو البيت الحرام والكعبة المشرّفة، يأمن فيـه كل من دخله لا يحلّ لأحـد كـائنا من كـان أن يثير فيه شَغْبـاً، ولا يزعج فيـه آمنا، حتى الطير، ومن أراد بـه سوءًا أذاقه الله من عـذابه الأليم، وفي هذا إيماءٌ إلى أنه أولى مكان على وجـه الأرض يستحق أن يتوجّه المسلمون إليـه في صلاتهم، وأن يكـون مهوى أفئـدتهم، وقولـه تبارك وتعـالى: ﴿وإذ جعلنا البيت مثـابةً للناس وأمنًا﴾ أي واذكـر إذ صيّرنا الكعبة المشرّفة مـرجعا للناس يثوبون إليه من جميع جهـات الأرض دون تفرقة لألوانهم أو أجناسهم فهم فيه سـواءٌ العاكف فيه والباد، يأتـونه من كلّ فج عميق مشاةً وركبـانا، وقد جعلناه مكـان أمن وأمانٍ، واستقرار نفس وراحة بـالٍ، على مرّ العصور والدهور، من دخلـه كان آمنا، لا يحل لأحد أن يثير فيـه رُعبا، أو يسبّب فيه

خوفا وفزعا، حتى كان الرجل يلقى فيه قاتل أبيه أو أخيه أو ولده فلا يهيجه ولا يزعجه، وقد أكّد الله تبارك وتعالى على أمن البيت الحرام ممتنًّا به على قريش في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول هنا: ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا﴾ ويقول في سورة آل عمران: ﴿ومن دخله كان آمنا﴾ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أنه فرض الأمن في المسجد الحرام وما حوله من مكة وما يحيط بها إلى حدود معلومة وجعل ذلك كلّه حرماً يأمنُ فيه الإنسان والطير، وأن إبراهيم خليل الرحمن كان يدعو ربّه ليديم الأمن والاستقرار في مكة حيث يقول عز وجل: ﴿وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هٰذا بلدا آمنا﴾ ويقول تبارك و تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هٰذا البلد آمنا﴾ ويوبّخ الله تبارك وتعالى مشركي قريش على كفرهم برسول الله ﷺ وادّعائهم أنهم لو آمنوا به تخطّفهم الناس حيث يقول عز وجل: ﴿ وقالوا إن نتّبع الهدى معك نُتخَطّف من أرضنا، أو لم نمكّن لهم حرما آمنا يُجبَى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنّا ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ وقال عز وجل: ﴿أو لم يروا أنّا جعلنا حرما آمنا ويتخطّف الناس من حولهم، أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾ وقال تعالى في بيان قواعد الخير التي أمر رسوله ﷺ أن يعلنها للناس: ﴿إنما أُمرت أن أعبد ربّ هٰذه البلدة الذي حرمها وله كلُّ شيء وأُمرت أن أكون من المسلمين﴾ ويقول عز وجل: ﴿والتين والزيتون * وطور سينين * وهٰذا البلد الأمين﴾ وقوله تعالى: ﴿واتّخذوا من مقام إبراهيم مصلّى﴾ أي واجعلوا أيها المستجيبون لله عند مقام إبراهيم مكان صلاة لكم، وقد بين ذلك رسول الله ﷺ بفعله وقوله، كما جاء في قصة حجة الوداع عند مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن فطاف سبعاً، فرمل ثلاثاً، ومشى أربعا، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ: ﴿واتّخِذوا من مقام إبراهيم مصلّى﴾ فصلى ركعتين فجعل المقام بينه

وبين البيت . الحديث وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعاً ثم صلى خلف المقام ركعتين . الحديث . وروى البخاري في صحيحه في تفسير قوله تعالى : ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ من حديث أنس رضي الله عنه قال : قال عمر: وافقت ربي في ثلاث، قلت : يارسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت : ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى﴾ . . الحديث، ومقام إبراهيم هو الحجر الذي كان يقوم عليه وهو يبني الكعبة وإسماعيل يناوله الحجارة وقد أثر قدماه في الحجر فصار موطئه فيه ظاهرا، وقد صار معلوما عند العرب من لدن إسماعيل جيلا بعد جيل إلى بعثة رسول الله ﷺ ثم إلى اليوم وفيه يقول أبو طالب في لاميته المشهورة :

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة   على قدميه حافيا غير ناعل

وفي تقديم ذكر الصلاة عند مقام إبراهيم على ذكر بناء إبراهيم للبيت مع أن الحجر إنما صار بهذه المثابة بعد بناء البيت للفت الانتباه إلى أن الله تبارك وتعالى جعله آية شاهدة باقية للدلالة على بناء إبراهيم للبيت لعلمه عز وجل أن اليهود سيجحدون أن يكون إبراهيم قد بنى الكعبة ولذلك قال عز وجل : ﴿إن أول بيت وضع للناس لَلّذي ببكة مباركا وهدى للعالمين* فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾ . وقوله عز وجل : ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهّرا بيتي للطائفين والعاكفين والرّكّع السّجود﴾ أي ووصّينا وأمرنا وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن ينظّفا البيت الحرام من كل رجس ونجس حسّي أو معنوي، فيصوناه من جميع القاذورات ويحفظاه من الأوثان والأصنام، ليكون طاهرا للطائفين الذين يدورون حول الكعبة على الصفة المشروعة وللعاكفين أي المقيمين فيه بقصد الاعتكاف، وللرّكّع السّجود أي المصلين . وكما قال عز وجل : ﴿وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت

أن لا تشرك بي شيئا وطهّر بيتي للطائفين والقائمين والركّع السّجود﴾ وتقديم الطواف بالبيت في آية البقرة وآية الحج على الاعتكاف والصلاة؛ لأن الطواف من خصائص بيت الله الحرام ولا يحل لمسلم أن يطوف حول أي مكان آخر من قبر أو غيره؛ لأن الطواف بغير الكعبة من أمارات الشرك بالله. والرّكع جمع راكع والسّجود جمع ساجد. وهما كنايةٌ عن الصلاة لأنهما من أهم أركانها.

قال تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هٰذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتّعه قليلا ثم أضطرّه إلى عذاب النار وبئس المصير* وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم* ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمّة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التوّاب الرحيم﴾.

كان دعاء إبراهيم عليه السلام بأن يجعل الله مكة بلدا آمنا وأن يرزق أهله من الثمرات مرتين مرّة قبل بناء البيت الحرام وقبل أن تصير مكة بلدا به ساكنون وذلك حين وضع ولده إسماعيل وأمه هاجر عند دوحة فوق زمزم وليس بمكة يومئذ أحد، ولذلك قال في دعائه: ﴿رب اجعل هٰذا بلدا آمنا﴾ أما دعاؤه المرة الثانية فكان بعد أن سكنها مع إسماعيل وهاجر جماعة من جُرْهُم وصارت بلدا مأهولا بالسكان ولذلك قال في دعائه في المرة الثانية: ﴿ربّ اجعل هذا البلد آمنا﴾ وقد أفاد الخبر الذي رواه البخاري من حديث ابن عباس أن دعوة إبراهيم حيث قال: ﴿رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم﴾ إلى قوله ﴿يشكرون﴾ كانت قبل بناء البيت، إلا أن الله تعالى قد ذكر في جملة دعوات إبراهيم في سورة إبراهيم قوله: ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾ مما يدل على أن هذه الدعوات لم تكن كلها في وقت واحد. ودعاء إبراهيم بجعل مكة بلدا آمنا معناه أن يديم الله تحريمه وأمنه؛ لأن الله حرّمه يوم خلق السموات والأرض فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يوم افتتح مكة: «لا هجرة ولكن جهادٌ ونيةٌ، وإذا استنفرتم فانفروا فإنّ هذا بلدٌ حرّمه الله يوم

خلق السموات والأرض وهـو حرام بحرمـة الله إلى يوم القيـامة». الحديث، فتحريم إبراهيم لمكة إنما كان لأنه هو الذي أعلن ذلك وسأل الله ثباته ودوامه وعلى هـذا يحمل قول رسـول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخـاري ومسلم من حـديث أنس رضي الله عنــه أن رسـول الله ﷺ قـال عنـدمـا أشرف على المدينة: «اللهم إني أحرّم ما بين جبليها مثل ما حرّم إبراهيم مكة، اللهم بارك لهم في مـدهم وصاعهم». كما روى البخـاري ومسلم واللفظ للبخـاري عن عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حرّم مكة ودعـا لها وحرمتُ المدينة كما حرّم إبراهيم مكة ودعـوت لها في مدّها وصاعهـا مثل ما دعا إبراهيم لمكـة» فالمقصود أن إبراهيم عليـه السلام أعلن تحريم مكـة وسأل الله دوامه وثبـاتـه. وقد روى البخـاري في صحيحه قصـة مجيء إبراهيم بإسماعيل وهاجر إلى مكة وقصة دعائه عليه السلام وتردّده على مكة ثم بناء البيت الحرام من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: جاء إبراهيم ﷺ بأم إسماعيل وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماءٌ فوضعهما هناك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاءً فيه ماءٌ، ثم قفّى إبراهيم منطلقا، فتبعتـه أمّ إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أيـن تذهب وتتركنا بهذا الوادي الـذي ليس فيه أنيسٌ ولا شيء؟ فقـالت له ذلك مـرارا وجعل لا يلتفت إليها، قالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يضيّعنا، ثم رجعت فـانطلق إبـراهيـم ﷺ حتى إذا كـان عنـد الثنيـة حيث لا يـرونـه استقبل بوجهـه البيت ثم دعا بهؤلاء الـدعوات فـرفع يديـه فقال: ﴿رب إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع﴾. حتى بلغ: ﴿يشكرون﴾. وجعلت أم إسماعيل تُرضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفـد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوّى أو قال: يتلبّطُ، فانطلقت

كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا، فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس رضي الله عنهما قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناسُ بينهما» فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت: صه تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت: قد أسمعت، إن كان عندك غواثٌ فأغث فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه أو قال: بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف ـ وفي رواية ـ بقدر ما تغرف. قال ابن عباس رضي الله عنهما قال النبي ﷺ: «رحم الله أمّ إسماعيل، لو تركت زمزم أو قال: لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معيناً»، قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضّيعة فإن هاهنا بيتا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرّت بهم رفقة من جُرْهُم، أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كَدَاء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا: إنّ هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم فأقبلوا وأمّ إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لاحقّ لكم في الماء قالوا: نعم، قال ابن عباس قال النبي ﷺ: فألفى ذلك أمّ إسماعيل وهي تحبّ الأنس فنزلوا فأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كانوا بها أهل أبياتٍ، وشبّ الغلام وتعلّم العربية منهم وأَنفَسَهم وأعجبهم حين شبّ فلما أدرك

زوّجوه امـرأة منهم وماتـت أمّ إسماعيل فجاء إبراهيـم بعد ما تـزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا وفي روايـة يصيد لنـا ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقـالت: نحن بشَرّ، نحن في ضيق وشدة، وشكت إليه قال: فإذا جاء زوجك اقرئي عليه السلام وقولي له يغيّر عتبة بابـه، فلما جاء إسماعيل كأنـه آنس شيئـا فقال: هل جـاءكم من أحد؟ قالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا؟ فـأخبرته أنّا في جهـد وشدّة قـال: فهل أوصاك بشيء؟ قـالت: نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول: غير عتبـة بابك قال: ذاك أبي وقد أمرني بأن أفـارقك، الحقـي بأهلك، فطلّقهـا، وتـزوج منهم أخـرى فلبث عنهم إبـراهيم ما شـاء الله ثم أتـاهم بعد فلم يجده فـدخل على امـرأته فسأل عنـه قـالـت: خـرج يبتغي لنـا قـال: كيف أنتم؟ وسـألها عن عيشهم وهيئتهم فقـالت: نحن بخير وسعـة وأثنت على الله فقـال: مـا طعـامكم؟ قـالت: اللحم. قال: فما شرابكم: قالت: الماء قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء قال النبي ﷺ: ولم يكن لهم يومئذ حبٌّ ولو كان لهم دعالهم فيه قال: فهما لا يخلـو عليهما أحد بغير مكـة إلا لم يـوافقـاه، وفي رواية: فجـاء فقـال: أين إسماعيل؟ فقـالت امـرأته: ذهب يصيـد فقـالت امـرأته: ألا تنـزل فتطعم وتشرب وقال: وما طعامكم وما شرابكم؟ قالت: طعامنا اللحم وشرابنا الماء قال: اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم قال: فقـال أبو القاسم ﷺ: بركة دعوة إبراهيم، قـال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومُـريه يثبت عتبة بابـه، فلما جاء إسماعيل قـال «هل أتاكم من أحـد؟ قالت: نعم أتـانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرتـه فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنّا بخير قـال: فأوصاك بشيء؟ قـالت: نعم يقرأ عليك السـلام ويأمرك أن تثبّت عتبـة بابـك قال: ذاك أبي وأنت العتبـة، أمـرني أن أمسكك، ثم لبث

عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلا له تحت دوحة قريبة من زمزم فلما رآه قام إليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، قال يا إسماعيل: إنّ الله أمرني بأمر قال: فاصنع ما أمرك ربّك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك قال: فإن الله أمرني أن أبني بيتا هاهنا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، فعند ذلك رفع القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. وقوله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هٰذا بلدا آمنا﴾ أي واذكر إذ قال إبراهيم عليه السلام رب صيّر هذا المكان بلدا مطمئنا لا يروّع أهله بقتال، ولا يسلّط عليهم عدوٌّ. وقوله تعالى: ﴿ وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ أي واجعل عيش المؤمنين فيه رغدا، واحفظهم من الجدب والقحط وأدرّ عليهم من خيرات الدنيا؛ لأن أهلها في واد غير ذي زرع، وقوله: ﴿من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ بدلٌ من قوله: ﴿أهله﴾ كأنه قال: وارزق ساكنيه من المؤمنين، وقد حمله على تخصيص المؤمنين بهذا الدعاء ما تأدبّ به من تنبيه الله له عندما سأل الإمامة لذريته فأجابه الله: لا ينال عهدي الظالمين، فحرص على تخصيص المؤمنين بهذا الدعاء، وقوله تعالى: ﴿ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ أي وسأرزق مع مؤمني أهل مكة كافرهم أيضا متاع الحياة الدنيا، ثم أدفع الكافر إلى عذاب الجحيم، فالدنيا أعطيها لمن أُحبُّ، ولكنّ الجنة أخص بها المؤمنين وإن كان الكافر إنما يتمتع بالنعيم الدنيوي تبعا للمؤمنين لأن الأصل أن الله أوجد الطيبات في الدنيا من أجل المؤمنين والكفارُ يشاركونهم فيها على سبيل التبعية، وفي الآخرة تكون خالصة للمؤمنين كما قال عز وجل: ﴿قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده

والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يوم القيامة﴾ وقوله تعالى: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾ أي واذكر إذ يرفع إبراهيم خليل الرحمن وولده إسماعيل عليهما السلام أسس البيت الحرام ويعليان بنيانه برفع جُدره بعضها فوق بعض حيث بوأ الله تعالى لإبراهيم مكان البيت كما قال عز وجل: ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت﴾ أي هيأناه له وأعلمناه به، وقوله تعالى: ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ أي يقولان وهما يعملان هذا العمل الصالح : ربنا تقبل منا عملنا واجعله محلا لقبولك ورضاك عنا إنك لا تخفى عليك خافية ولا يغيب عن علمك شيء. وقوله: ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمةً مسلمةً لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾ أي واجعلنا اللهم منقادين لك على الدوام واجعل من ذريتنا أمة منقادة لدينك متبعة لشرعك وعلّمنا مانحتاج إليه من شرائع ديننا، وعاملنا بعفوك ومغفرتك إنك أنت العائد على عبادك بالفضل والجود والإحسان والغفران.

قال تعـالى : ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلـوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمـة ويزكيهم، إنك أنت العزيز الحكيم* ومن يـرغب عن ملة إبـراهيم إلا من سفه نفسـه، ولقـد اصطفيناه في الـدنيـا وإنه في الآخـرة لمن الصـالحين* إذ قـال له ربّـه أسلم قـال أسلمت لـرب العـالمين* ووصّى بها إبراهيم بنيـه ويعقوب يا بنيّ إن الله اصطفى لكم الـدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ .

تتابعت دعـوات إبراهيم وإسماعيل عليهما السـلام ، فبعد دعـاء إبراهيم عليه السلام لمكة أن يديم الله عزّهـا وأمنها وأن يجعل عيش أهلها رغدا، وقد استجاب الله تبارك وتعالى دعـاءه حيث أصبحت مكة تجبى إليها ثمرات كل شيء من رزق الله، ثم دعا إبراهيم وإسماعيل وهما يبنيان الكعبة قائلين : ربنا تقبل منـا إنك أنت السميع العليم، ثـم ذكـر دعـاءهما بأن يثبتهما الله على الإسلام وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة منقادة لله مستجيبة لرسوله ﷺ وأن يتفضل عليهما وعلى المسلمين بتبصيرهم بشرائع دينهم، ومنـاهج سعادتهم، ومراسيم عبادتهم ثم دَعَوَا الله تبارك وتعالى هنا أن يبعث في ذريتهما الساكنين في أم القـرى ومـا حولها رسـولا من ذريتهما يقـرأ عليهم القـرآن ويبيّنـه لهم، ويفقّههم في الدين ويطهّرهم من الشرك بدعوتهم إلى التوحيد الخالص لله عز وجل، وفي تتـابع هذه الـدعوات وهـذه التضرعات من خليل الـرحمن ومن ولده إسماعيـل عليهما السلام لفت الانتباه إلى فضـل الدعاء ولـذلك وصف الدعاء بأنه العبادة، فقد روى أحمد والترمـذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه وقـال الترمذي : حـديث حسن صحيح عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «الـدعاء هو العبادة، ثم قـرأ : ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾» وقوله تعالى : ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم﴾ أي يا سيدنا

ومصلح شئوننا، ومدبّر أمورنا يا من ربّيتنا بجودك وإحسانك أرسل في ذريتنا رسولاً من ذريتنا. وقد استجاب الله تبارك وتعالى من خليله إبراهيم ومن إسماعيل عليهما السلام دعاءهما وحققه لهما في نبيه الكريم ورسوله العظيم محمد ﷺ حيث أرسله من أهل البلد الحرام، ولذلك أخبر رسول الله ﷺ أنه دعوة أبيه إبراهيم فقد روى الإمام أحمد بسند حسن عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبُشْرى عيسى بي، ورأت أمي أنه خرج منها نورٌ أضاءت له قصور الشام». قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: والمراد أن أول من نوّه بذكره وشهره في الناس إبراهيم عليه السلام، ولم يزل ذكره في الناس مذكورا مشهورا سائرا حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بني إسرائيل نسباً وهو عيسى ابن مريم حيث قام في بني إسرائيل خطيبا وقال: ﴿إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يديّ من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ اهـ وقد حصر الله تبارك وتعالى النبوة والكتاب بعد إبراهيم عليه السلام في ذريته حيث يقول عز وجل: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ فكل كتاب أنزله الله تعالى بعد إبراهيم عليه السلام على نبي من الأنبياء ففي ذريته، وقد جعل الله تبارك وتعالى لخليله إبراهيم فرعين، أحدهما إسماعيل والآخر إسحاق وقد ولد لإسحاق يعقوب وهو إسرائيل، وإليه ينتسب سائر أسباطهم، وكانت فيهم النبوة حتى ختموا بعيسى ابن مريم وهو من بني اسرائيل لنسب أمه فيهم أما الفرع الثاني من ذرية إبراهيم وهو إسماعيل فلم يأت من ذريته نبيّ غير الجوهرة الباهرة والدرة الزاهرة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين صاحب المقام المحمود والحوض المورود الذي يغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة محمد ﷺ الذي تفضل الله به علينا فجعله حظّنا وحظّ الإنس والجن من جميع الأجناس الذين سعدوا بالإيمان به من لدن بعثته إلى يوم القيامة عليه صلوات

الله وسلامه التـامان الأكملان إلى يوم الدين. وكـان من مكافأة الله عز وجل لخليله إبـراهيم على بناء الكعبـة أن جعله في السماء السـابعة يسنـد ظهره إلى البيت المعمور الذي تحجه الملائكة في السماء وكان من مكافأته على دعائه بأن يبعث الله من ذريتـه وذرية ولـده إسماعيل رسولا واستجـاب الله له بإرسـال سيد البشر ﷺ أن جعل الصلاة عليه مقرونـة بالصلاة على محمد ﷺ وأجرى ذكـره بالثنـاء عليه إلى يـوم القيامـة من عباد الله الصـالحين حيث يقولـون في تشهـدهم في الصلاة: اللهم صـل على محمد وعلى آل محمـد كما صليت على إبـراهيم وعلى آل إبـراهيم إنك حميـد مجيد، اللهم بـارك على محمـد وعلى آل محمـد كما باركت على إبـراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميـد مجيد. وقـوله عـز وجل: ﴿يتلوأعليهم آياتك﴾ أي يقرأ عليهـم القرآن، ولذلك ربط الله تبارك وتعـالى بين بعثة محمـد ﷺ في مكـة البلـد الحرام وبين تلاوتـه للقـرآن حيث يقول: ﴿إنما أمرت أن أعبد ربّ هٰذه البلدة الذي حرمها وله كلُّ شيء وأمرت أن أكـون من المسلمين * وأن أتلـو القرآن﴾ وقـولـه عـز وجل: ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم﴾ أي ويبين لهم مجمل الكتـاب وقد يخص عمومه ويعمّم خصوصه ويقيد مطلقه ويطلق مقيّده حيث يندرج ذلك كلّه في قوله تعالى: ﴿وأنـزلنا إليك الـذكر لتبين للنـاس ما نزّل إليهـم ولعلهم يتفكرون﴾ والحكمـة هي الفقـه في الـدين واتبـاع سنـة النبي الكـريم ووضع الأمـور في مـواضعها، ومعنى: ﴿يـزكيهم﴾ أي يطهرهم وذلك بترغيبهم في الطيبـات وترهيبهم من المحـرمات وتحذيرهم من سـائر النجاسات المعنويـة والحسية. وقوله: ﴿إنك أنـت العزيز الحكيم﴾ أي إنّك أنت الغالب القـاهر الفعّال لما يريـد الواضع للناس أسعد المنـاهج، ولا يخلو أمرك أو نهيك عن حكمـة قد يعقلهـا العالمون، وقـد تخفيها عن الخلق فيتعبّـد بأمرك أو نهيك المتعبـدون، لإيمانهم أنك أنت الحكيم العليم وقـولـه عـز وجل: ﴿ومن يـرغب عن ملـة

إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾ هذا توبيخ لمن انحرف عن ملة إبراهيم فأشرك بالله وابتدع دينا مناقضا لما جاء به إمام الحنفاء خليل الرحمن عليه السلام ومَن في قوله: ﴿ومَن يرغب﴾ للاستفهام الإنكاري فهي بمعنى النفي أي لا أحد يرغب أي ينحرف عن ملة إبراهيم أي شريعته في وجوب إخلاص العبادة لله وحده و إسلام وجهه لله عز وجل والاستجابة للرسول المبعوث بدين الإسلام الذي هو دعوة إبراهيم عليه السلام الذي سمّى نفسه وولده إسماعيل مسلمين وسمّى أمة محمد ﷺ المسلمين كما قال عز وجل: ﴿ وجاهدوا في الله حقّ جهاده، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم، هو سمّاكم المسلمين من قبل وفي هٰذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾ وقوله تعالى: ﴿إلا من سفه نفسه﴾ أي إلا من جهل نفسه واستخف بها وضيّعها ورضي أن يكون يهوديا أو نصرانيا أو وثنيا مشركا وقد برّأ الله عز وجل إبراهيم من اليهودية والنصرانية والوثنية حيث قال: ﴿ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولٰكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين﴾ وقوله عز وجل: ﴿ولقد اصطفينا ه في الدنيا﴾ أي اخترناه وفضلناه بالرسالة والنبوة وبعثناه بالهداية والرشاد، ومنحناه في الدنيا حسنة واتخذناه خليلا وأبقينا ذكره في العالمين وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿إنّ إبراهيم كان أمّةً قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين * شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ وقوله: ﴿و إنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ أي و إنّ له في الآخرة لزلفى وفوزا وحسن مآب في عباد الله الصالحين الفائزين برضوان الله والمنازل العالية في جنات النعيم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إذ قال له ربه أسلم قال: أسلمت لرب العالمين﴾ يبيّن الله تبارك وتعالى سبب اصطفاء إبراهيم في الدنيا وعلوّ منزلته في الآخرة أنه سريع المبادرة إلى امتثال أمر الله والانقياد له والاستسلام

والإذعان لما يطلبه الله منه مهما كان فيه من بلوى وامتحان. فهو بمجرد ما قيل له: أسلم أي أخلص لي العبادة واخضع لي بالطاعة بادر بقوله: أسلمت وخضعت وانقدت لأمر الله مالك كل شيء وسيده ومدبّره ومصلحه ومربيه. وأمر إبراهيم عليه السلام بالإسلام لا يدل على أنه كان خاليا منه، بل المقصود من الأمر بالإسلام هو الثبات عليه، وملازمة الاستمساك به، والقاعدة أن الأمر بالشيء لا يقتضي أن المأمور خال عند الأمر من التّلبّس بمضمونه، كما أن النهي عن الشيء لا يقتضي الوقوع فيه. وقوله تعالى: ﴿ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوبُ يا بَنِيَّ إن الله اصطفى لكم الدّين فلا تموتُنّ إلا وأنتم مسلمون﴾ أي وعهد إبراهيم عليه السلام عهدا مؤكّداً إلى بنيه أي إلى أولاده وذريته وكذلك عهد يعقوب عليه السلام إلى أبنائه عهدا مؤكّدا بوجوب الاستمساك بملة إبراهيم المقتضية لتجريد التوحيد لله عز وجل وإخلاص العبادة له وحده والالتزام بشريعة الإسلام وترك الابتداع في الدين، وقال إبراهيم ويعقوب في وصيتهما لأبنائهما: إن الله اصطفى لكم الدين أي اختار لكم شريعة الإسلام فعضّوا عليها بالنواجذ والزموها وأديموا الاستمساك بها حتى يأتيكم الموت وأنتم على الإسلام، ولا يخطر على بال عاقل أن قوله: ﴿فلا تموتُنّ﴾ نهي عن الموت؛ لأن الموت والحياة بيد الله وحده فقد قهر الله تبارك وتعالى العباد على الموت فليس لأحد من خلق الله كائنا من كان أن يتحكّم فيه، وإنما المقصود بقوله عز وجل: ﴿فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون﴾ أن يحرص الإنسان على الاستمساك بالإسلام حتى يأتيه الموت وهو ملازم لهذه الملة الحنيفية، فإن المرء يموت غالبا على ما يلتزم به ويحرص عليه كما أنه يبعث على ما ماتَ عليه. فمهما حاول الشيطان أن يصرفكم عن شريعة الإسلام وملة إبراهيم فلا تطيعوه، ولا تنقضوا هذه الشريعة في وقت من الأوقات فقد تأتيكم مناياكم في حال نقضكم للملة

فتمـوتـون على غير الإسـلام نعوذ بـالله. وكما وصّى إبـراهيم بنيـه ويعقـوب بملازمـة ملة الإسـلام إلى الموت فقد وصّى رسـول الله ﷺ أمته بـذلك، فقد روى مسلم في صحيحـه من طريـق عبد الـرحمن بن عبـد ربّ الكعبة قـال: دخلت المسجـد فإذا عبـد الله بن عمرو بـن العاص جـالسٌ في ظل الكعبـة والناسُ مجتمعون عليه فأتيتهم فجلست إليـه فقال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فنزلنا منزلا فمنّـا من يصلح خباءه ومنا من ينتضل ومنا من هو في جَشَره إذ نادى منـادي رسول الله ﷺ: الصلاة جـامعةً فاجتمعنـا إلى رسول الله ﷺ فقال: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدلّ أمّته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهـم شرّ ما يعلمه لهم، وإن أمتكـم هذه جعل عـافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاءٌ وأمورٌ تنكرونها، وتجيء فتنةٌ فيرقّق بعضها بعضا وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هـذه، فمن أحبّ أن يزحزح عن النـار ويدخل الجنة فلتأته منيتـه وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحبّ أن يؤتى إليه، ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر». الحديث.

قال تعالى: ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهًا واحدا ونحن له مسلمون* تلك أمّة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون﴾.

يؤكد الله تبارك وتعالى في هذا المقام وفيما قبله وفيما بعده من بدء حديثه عن إبراهيم عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات فأتمهن﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ في الآية السادسة والثلاثين بعد المائة، يؤكد على أن الإسلام هو دين الله الذي بعث به أنبياءه ورسله، وأن اليهودية والنصرانية من الديانات المختلقة المنحرفة عن دين الأنبياء والمرسلين ولذلك كرّر مادة أسلم في هذه الآيات التي ذكرت سبع مرات حيث قال في الآية الثامنة والعشرين بعد المائة في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾ وقال في الآية الحادية والثلاثين بعد المائة عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إذ قال له ربّه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾ ثم قال في الآية الثانية والثلاثين بعد المائة: ﴿ ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنيّ إنّ الله اصطفى لكم الدّين فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون﴾ ثم قال في الآية الثالثة والثلاثين بعد المائة وهي التي نحن بصدد تفسيرها: ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهًا واحداً ونحن له مسلمون﴾ ثم قال في الآية السادسة والثلاثين بعد المائة: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيّون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ فبعد أن

بين عز وجل أن إبـراهيم وإسماعيل كانا مسلمين وقـد سألا الله عز وجل أن يجعل من ذريتهما أمـة مسلمـة ثم أكّـد أن ملـة إبـراهيم هي الإسـلام حيث يقول: ﴿إذ قال له ربه أسلم قـال أسلمت لرب العالمين﴾ ثم ذكر أن إبراهيم ويعقوب عليهما السلام حرصا على إسـلام بنيهما، فوصّياهم بالتمسك بدين الإسلام الذي اصطفاه الله للنـاس حيث قال كل واحد منهما لبنيه: ﴿إن الله اصطفى لكم الـدين فـلا تموتُن إلا وأنتم مسلمـون﴾ ثم ذكر في هـذا المقـام الكريم أن أولاد يعقوب عليه السلام قرروا أمـامه عند موته بأنهم يستمسكون بـالإسلام ولا يفـارقونـه أبدا وأنهم يقيمـون على عبادة الله وحـده إله يعقـوب وإبراهيم وإسماعيل وإسحـاق إلها واحدا وهم لـه مسلمون، ثمّ أمـر الله عز وجل رسولـه محمدا ﷺ أن يعلن أن ملـة إبراهيم هي الحنيفيـة السمحة التي يجب على جميع المكلفين من جميع الأجناس أن يتبعـوها وأن يعلنـوا جميعا أنهم مسلمــون، و(أم) في قـولــه تعــالى: ﴿أم كنتم شهـداء﴾ بمعنـى بل التي للإضراب وهمزة الاستفهام والإضراب هنا للانتقال من توبيخهم على رغبتهم عن ملـة إبـراهيم التي لا يـرغب عنها إلا مـن سفه نفسـه إلى تـوبيخهم على انحرافهم عن دين يعقوب عليه السلام مع افترائهم وادعائهم أنهم على دينه.

والاستفهـام لإنكار أن يكـونـوا حضـورا عند وصيـة يعقـوب لبنيـه بوجـوب إخلاص العبـادة لله وحده وجـواب بنيه له بأنهم يستمسكـون بالحنيفيـة ملة آبائهم يعقـوب وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق وأنهم مسلمون، ومعنى قـوله تعالى: ﴿أم كنتم شهـداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه مـا تعبدون من بعدي قـالوا نعبد إلهَك وإلَـه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحـاق إلهًا واحدا ونحن لـه مسلمـون﴾ أي لا تـدّعوا على أنبيـائي ورسلي أنهم كـانـوا يهودا أو نصارى وبخـاصة يعقـوب عليه السـلام وأنه كان على ملتهم فليـس لديكم برهـان على ما تدّعـون، أكنتم حضوراً عنـد حضور مقدمـات الموت يعقوب

عليه السلام حتى تعلموا ما قال لبنيه ومـاذا كانت وصيته لهم عند آخر عهده بالـدنيا؟ لـو كنتم شهداء عنـد ذلك لعلمتم أنّ وصيتَه لبنيـه كانت للتـأكيد عليهم بالاستمساك بالإسلام ملـة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب فلا تكذبـوا أيها اليهود والنصـارى على يعقوب عليه السـلام، ولا تنسبوا لـه دينا يخالف دين الإسـلام، وليس معنـى كـون هـؤلاء الأنبيـاء مسلمين أن تكـون شريعتهم متطابقـة مع شريعة الإسلام التي بعث الله بها حبيبـه محمدًا ﷺ في جميع أصولها وفـروعها، بل المراد أن شرائع جميع المرسلين متطابقـة في وجوب إخـلاص العبـادة لله وحـده والمحـافظــة على الكليـات الخمس التي تحفظ لـلإنسانيـة دينها وأنفسهـا وأموالها وأعـراضهـا وعقولها أمـا الفروع وهيئـات العبادات ومواقيتها فقد جعل الله تعالى لكل أمة شرعة ومنهاجا يتلاءم معهم ويناسبهم، ولذلك وصف رسـول الله ﷺ الأنبياء بأنهم أولاد علات أو إخوة لعـلات فقد روى البخـاري ومسلم من حديث أبي هـريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال: «أنا أولى الناس بـابن مريم والأنبيـاء أولاد علاّت ليس بيني وبينه نبي»، وفي لفظ للبخـاري من حديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: «أنـا أولى الناس بعيسى ابـن مريم في الـدنيا والآخـرة، والأنبيـاء إخـوة لعـلاتٍ أمهـاتهم شتى ودينهم واحـد». وفي لفظ لمسلم من حـديث أبي هـريرة رضي الله عنـه أن رسـول الله ﷺ قـال: «أنا أولى النـاس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة» قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «الأنبياء إخوة من علاّتٍ وأمهاتهم شتّى ودينهم واحد». اهـ ومعنى قوله أولاد عَلاّتٍ أو إخوة لعلات أو إخوة من علات أنهم إخوة من أب، وأمهاتهم شتى، وأما الإخوة من الأبـوين فيقال فيهم: أولاد الأعيان، أو إخوة الأعيـان، والمقصود من الحديث أن أصل دين جميع المرسلين واحد في التوحيد والكليات الخمس التي هي حفظ الدين والنفـس والعقل والعرض والمال، أما الفـروع والمناهج

فهي مختلفة بحسب أحوال أمة كل نبي ولذلك قال تبارك وتعالى بعد ذكر مجموعة من المرسلين: ﴿أولَئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ وقال: ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ وقال عز وجل: ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعة ومنهاجا﴾ وقوله عز وجل: ﴿إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا: نعبد إلَهك وإلَه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾ أي حين قال يعقوب وقت احتضاره عليه السلام لأولاده أي شيء تتخذونه معبودا من بعد موتي وقد أراد يعقوب عليه السلام بسؤاله ذلك لبنيه تقريرهم على التوحيد والإسلام وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهما تتميما لوصيته لهم بقوله: ﴿فلا تموتُنّ إلا وأنتم مسلمون﴾ ولا شك أن إبراهيم جدٌّ ليعقوب وأن إسماعيل عمٌّ له وإسحاق والدٌ وقد سمّى الجميع آباء، والناس لا يختلفون في تسمية الجد أبا، أما العم وهو أخو الأب فقد أشار القرآن العظيم إلى تسميته أبا في هذا المقام الكريم من القرآن العظيم. وكذلك في سورة النور عندما ذكر محارم المرأة التي لا يمنعها من أن تظهر أمامهم بزينتها حيث قال: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهنّ أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن، وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ فلم يذكر الله عز وجل في الآية العم والخال وهما لا شك من المحارم لأن العم دخل في مسمّى الأب وقد أخبر الله تبارك وتعالى عن يوسف الصديق عليه السلام أنه قال: ﴿واتبعت ملة آبائي

إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾ وإبراهيم جد أبيه وإسحاق جده ويعقوب أبوه وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا عمر أما شعرت أن عم الرجل صِنْوُ أبيه» كما روى البخاري من حديث البراء أن رسول الله ﷺ قال: «الخالة بمنزلة الأم»، وأثر أن عليه السلام قال: الخال والد. وقال تعالى في قصة يوسف: ﴿ورفع أبويه على العرش﴾ والمقصود أبوه يعقوب وخالته وكانت زوجة أبيه على ما ذكر أن أم يوسف عليه السلام كانت قد ماتت. وقوله عز وجل: ﴿ونحن له مسلمون﴾ هي تتمة عهد أبناء يعقوب لأبيهم وهو المقصود حيث أقروا أنهم على ملة الإسلام دين الأنبياء والمرسلين والذي جعله الله عز وجل العَلَم الذي يطلق على أمة محمد ﷺ في مشارق الأرض ومغاربها إلى يوم القيامة. وقوله عز وجل: ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون﴾ أي هؤلاء الأشاوس الأئمة الأماجد الكرام إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأهل التوحيد والإسلام من أبنائهم قد مضوا إلى الله عز وجل وحازوا الفضل العظيم والثناء الجميل، وقد جعل الله تبارك وتعالى لهم ثواب ما قدّموا من الدعوة إلى الحنيفية السمحة والأعمال الصالحة التي اكتسبوها، وأنتم يا معشر من يزعم أنهم ينتمون إليهم وقد ثبت أنكم لستم على ملتهم فليس لكم من أعمالهم الصالحة شيء فلكل نفس ما عملت من خير أو شر، فلهم جزاء الخير الذي عملوه ولكم جزاء الشر الذي اقترفتموه، فإن الأبناء لا ينتفعون بعمل الآباء إلا إذا كانوا على منهجهم في الإسلام، على حد قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا واتّبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما أَلَتْنَاهُم من عملهم من شيء كلّ امرئ بما كسب رهين﴾ ولذلك نبه رسول الله ﷺ ابنته فاطمة الزهراء وعمّه العباس بن عبد المطلب وعمّته صفية بنت عبد المطلب بأن يشتروا أنفسهم فإنه لن يغني عنهم من الله شيئا فقد

روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ قال: «يا معشر قريش أو كلمةً نحوها، اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا، ويا فاطمة بنت محمد ﷺ سليني من مالي، لا أغني عنك من الله شيئا».

ورواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: قال: قال رسول الله ﷺ حين أنزل عليه: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾: «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أُغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا، يا فاطمة بنت رسول الله سليني بما شئت لا أغني عنك من الله شيئا». وكذلك أخبر رسول الله ﷺ أن من بطّأ به عمله لم يُسرع به نسبه كما رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال تعالى: ﴿وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملّة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتي موسى وعيسى وما أُوتي النّبيّون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولّوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله، وهو السميع العليم﴾

هذا شروعٌ في بيان لون آخر من ألوان كفر اليهود والنصارى وهو أنهم لم يكتفوا بما هم عليه من الضلال والانحراف عن دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأبنائهم المهتدين بل عملوا على إضلال غيرهم عن الدين الحق، وصدِّ الناس عن الإيمان بمحمد رسول الله ﷺ بادّعاء اليهود أن الهدى في اليهودية وادّعاء النصارى أن الهدى في النصرانية، مع تكفير إحدى الطائفتين للأخرى وقد ردّ الله تبارك وتعالى عليهم باطلهم هذا بحجة مفحمة ملزمة قاطعة لكل أثر لشبهتهم فأمر نبيه محمدا ﷺ أن يقول لليهود والنصارى ومن يدور في فلكهم من المشركين: ﴿قل بل ملّةَ إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ أي اتركوا هذه الدّعاوى التي لا دليل عليها سوى الهوى والشهوة بدليل تناقضكم وتكفير بعضكم لبعض بل تعالوا نتّبع ملة إبراهيم إمام الحنفاء لأنه كان حنيفا مسلما ونحن وإياكم متفقون على صحة دين إبراهيم لكنكم انحرفتم عن هذا الدين بقول اليهود عزير ابن الله وبقول النصارى المسيح ابن الله واتخاذكم جميعا الأنداد والشركاء لله كما قال عز وجل: ﴿وقالت اليهود عُزَيْر ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذَٰلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل، قاتلهم الله، أنّى يؤفكون﴾ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما

أُمروا إلا ليعبدوا إلَهًا واحدا لا إلَه إلا هو، سبحانه عما يُشركون * يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون﴾ وقوله عز وجل: ﴿وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا﴾ هو نظير قوله تعالى: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى﴾ فهو إجمال يعرف السامع تفصيله، أي وقالت اليهود للمؤمنين: كونوا هودا تهتدوا: وقالت النصارى للمؤمنين: كونوا نصارى تهتدوا، أي تصيروا على الهدى والاستقامة وقوله عز وجل: ﴿قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ أي قل لهم يا محمد على سبيل الردّ عليهم وإلزامهم بالحجة التي لا مفرّ لهم عن الإذعان لها لو كانت لهم قلوبٌ وعقولٌ: بل نتبع نحن وأنتم ملّة إبراهيم حنيفا، وتتركون ما أنتم عليه من عبادة الأحبار والرهبان والعزير وترك النصارى لهذه الأنداد ولعبادة المسيح ابن مريم، لأن إبراهيم كان حنيفا مسلما مائلا عن الشرك إلى التوحيد ولم يكن من المشركين، فإذا اتبعتم ملة إبراهيم البريء من كل شرك وأقررتم بدين الإسلام صرتم على الهدى، أما نحن فعلى ملة إبراهيم ولن نحيد عنها أبدا حتى نموت عليها كما وصّى بذلك إبراهيم ويعقوب عليهما السلام. وأصل الحنيف في الشرع هو المستقيم على الحق المائل عن الباطل، وقوله تعالى: ﴿قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتي موسى وعيسى وما أوتي النّبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ هذا الأمر «قولوا» للمؤمنين الذين قال لهم اليهود والنصارى كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا أي ردّوا عليهم باطلهم وأعلموهم أن هدى الله الذي من تمسّك به اهتدى هو الاعتقاد بالقلب والنطق باللسان وإعلان الإيمان بالله وبالقرآن المنزّل على محمد ﷺ وبصحف إبراهيم عليه السلام وبما أنزل الله تعالى إلى إسماعيل وإسحاق ويعقوب وما أنزله الله تعالى على الأنبياء من

حفدة يعقوب عليه السلام من ذراري أبنائه الاثني عشر كزبور داود، وما أنزله الله على موسى من التوراة وما أنزله على عيسى من الإنجيل، وما أنزله على غير هؤلاء المذكورين من الأنبياء كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام فنؤمن بهذه الكتب المنزلة على الأنبياء تفصيلا لما علمناه تفصيلا، وإجمالا لما لم نعلمه تفصيلا، ولا نفرق بين أحد من الأنبياء والمرسلين، بل نؤمن بهم جميعا ولا نكون كاليهود والنصارى الذين يفرقون بين الأنبياء فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، ويفرقون بين الكتب المنزلة فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض حيث ادعت اليهود أنهم يؤمنون بالتوراة وهم يكفرون بالإنجيل، ويدّعون أنهم يؤمنون بموسى وهم يكفرون بعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ولذلك قال عز وجل: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذٰلك سبيلا * أولٓئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا * والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرّقوا بين أحد منهم أولٓئك سوف يؤتيهم أجورهم، وكان الله غفورا رحيما﴾ وقد أكّد الله تبارك وتعالى على هذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول: ﴿قل آمنا بالله وما أُنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ وهاتان الآيتان الكريمتان آية البقرة وآية آل عمران من المتشابه المثاني الذي ذكره الله عز وجل بقوله: ﴿الله نزّل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني﴾ وكما قال عز وجل: ﴿آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون، كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ وقد كان رسول الله ﷺ يلفت انتباه المسلمين بقوله وفعله إلى الآيات التي

تتضمن هـذا المعنى ، فقـد روى البخـاري ومسلـم من حـديث أبي مسعـود الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «الآيتـان من آخر سورة البقرة من قـرأ بهما في ليلة كفتـاه» . كما كان رسـول الله ﷺ يكثر أن يقـرأ في الركعـة الأولى من ركعتي السنة في الفجر قوله تبارك وتعالى : ﴿قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ الآية فقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبـد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر ﴿قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا﴾ والتي في آل عمـران ﴿تعـالـوا إلى كلمـة سـواءٍ بيننـا وبينكم﴾ وفي لفظ لمسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في ركعتي الفجر في الأولى منهما : ﴿قولـوا آمنا بـالله وما أُنـزل إلينا﴾ الآيـة التي في البقرة ، وفي الآخـرة منهما : ﴿آمنـا بـالله واشهـد بأنّـا مسلمون﴾ وقـولـه تبـارك وتعـالى : ﴿والأسباط﴾ هو عام أريد به الخصوص إذ المقصود به هنا الأنبياء من أحفاد يعقوب عليه السـلام ، والأصل في اللغة إطلاق السّبط على ولد الـولد أو ولد البنت كما قيل في الحسن والحسين رضي الله عنهما إنهما سبطـا رسـول الله ﷺ وقـد يطلق السبط في بني إسرائيل بمعنى القبيلـة عنـد العـرب وقـد قطّع الله تعالى بنـي إسرائيل اثنتي عشرة قبيلة وكلّ قبيلـة من هذه القبـائل الإسرائيلية تنتمي إلى ولد من أولاد يعقوب عليه السـلام وهو إسرائيل كما قال عز وجل : ﴿وقطّعناهـم اثنتي عشرة أسبـاطا أممـا﴾ فليس كلُّ سبطٍ نبيا ، ومـوسى عليه الصـلاة والسـلام من الأسبـاط أباً وأمّـا وعيسى عليـه السـلام من الأسبـاط بالنسبة لأمه حيث إنه لا والد له ، وإنما خصهما الله تبارك وتعالى بالذكر لِعُلُوِّ منزلتهما فهما أفضل أنبياء بني إسرائيل وهما من أولي العزم من المرسلين . وقوله عـز وجل : ﴿فإن آمنوا بمثل مـا آمنتم بـه فقد اهتـدوا وإن تولّـوا فإنما هم في شقاق﴾ أي فإن صدّق اليهود والنصـارى وقالوا آمنا بالله وبالقرآن وبصحف

إبراهيم وما أنزل على إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أُوتي النبيّون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون وأذعنوا لذلك وانقادت له نفوسهم فصدّقوا بذلك مثل ما صدقتم وأقرّوا بمثل ما أقررتم به أيها المؤمنون فقد وفّقوا ورشدوا واستقاموا وسلكوا طريق الحق وهم حينئذ منكم وأنتم منهم حيث دخلوا في ملتكم والتزموا بشريعتكم، ومما يتحتّم أن لا يخطر على البال أن المقصود: فإن آمنوا بمثل الله الذي آمنتم به فإن الله تعالى ليس له مثيل ولا نِدٌّ ولا نظير ولا شبيه ولا شريك، كما أنه لا مثيل للقرآن ولا نظير، قال ابن جرير رحمه الله: فإن صدّقوا مثل تصديقكم بما صدقتم به من جميع ما عددنا عليكم من كتب الله وأنبيائه فقد اهتدوا، فالتشبيه إنما وقع بين التّصديقين والإقرارين اللذين هما إيمان هؤلاء وإيمان هؤلاء، كقول القائل: مَرَّ عمرو بأخيك مثل ما مررتُ به يعني بذلك: مرّ عمرو بأخيك مثل مروري به، والتمثيل إنما دخل تمثيلا بين المرورين لا بين عمرو وبين المتكلم، فكذلك قوله: ﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به﴾ إنما وقع التمثيل بين الإيمانين لا بين المؤمَن به اهـ. ومعني قوله عز وجل: ﴿وإن تولّوا فإنما هم في شقاق﴾ أي فإن أعرض اليهود والنصارى فلم يؤمنوا بمثل إيمانكم أيها المؤمنون بالله وبما جاء به الأنبياء، واستمروا على ما هم عليه من التفريق بين الرسل وقالوا: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، فإنما هم قد اختاروا طريق مشاقّتكم واستقرت نفوسهم الشريرة على العصيان وحرب الله ورسوله ومخالفتكم، والشقاق الفراق والمحاربة والعداوة، كأن كلّ واحد من الفريقين صار في شق أي جانب مناقض لشقّ عدوه أي الجانب الذي هو فيه، ولا شك أن كلّ واحد منهما يحرص على إلحاق ما يشقّ ويصعب على صاحبه، ومنه قوله تعالى: ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعدما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت

مصيرا﴾ أي يجانب الرسول ﷺ ويعانده وقوله تبارك وتعالى: ﴿فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾ أي فسينصرك الله عليهم ويمكنك منهم ويحكمك فيهم، والله لا تخفى عليه خافية، فهو يسمع دبيب النملة على الصخرة الصّماء في الليلة الظلماء، ويعلم السر وأخفى، وقد قال في كفار قريش: ﴿ذٰلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾ وقال في اليهود: ﴿ذٰلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقّ الله فإن الله شديد العقاب﴾ وفي هذه الآية الكريمة وعدٌ من الله تعالى لرسوله ﷺ وللمؤمنين بنصرهم وتأييدهم وتمكينهم في الأرض، ووعيدٌ لليهود والنصارى بإذلالهم وقهرهم، وقد فعل الله ذلك وأنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ولم يمض طويل زمن حتى صارت راية الإسلام خفّاقة في مشارق الأرض ومغاربها ودخل الناس في دين الله أفواجا وصارت ملوك الصين يرتجفون من مهابة الإسلام والمسلمين، وحتى صار هارون الرشيد الخليفة العباسي المشهور يجلس في مجلسه فتمرّ به السحابة فيقول: سيري أينما شئت، وامطري أينما شئت فسيأتيني خراجك.

قال تعالى : ﴿صبغة الله ومن أحسنُ من الله صبغة ونحن له عابدون * قل أتحاجّونـنـا في الله وهـو ربّنـا وربّكم ولنـا أعمالنـا ولكم أعمالكم ونحنُ لـه مخلصون﴾ .

بعـد أن أوضح الله تبـارك وتعالى أن دعـوى اليهـود والنصـارى بأنهم على الهدى دعوى باطلة عاطلة وأمر عز وجل باتباع ملة إبراهيم إذ فيها هدى الله الحقّ ، وشرعه القـويم وطلب منهم أن يدخلـوا في ملة إبـراهيم التي جاء بها محمدٌ ﷺ وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأنبياء من الأسباط ، وأن لا يفرّقوا بين الأنبياء ، وأن يصدّقوا بهم جميعا ، وأن من التـزم بملة إبراهيم والأنبياء هو المهتدي ، وتـوعّد من أعـرض عن الحنيفية ملـة إبراهيم وانغمـس في الشقاق بدحره ، ووعد من تمسك بملة إبراهيم بنصره وَصَفَ في هذا المقام الكريم ملة إبراهيم والأنبيـاء من بعده بأنها صبغـة الله أي الملة التي أمر بها وفطـرته التي فطـر الناس عليهـا ، وهي الديـن القيم ، الذي اختـاره الله لخلقه ، وارتضـاه لعبـاده ، والذي لا يقبل من أحـد دينـا سواه ، ولن يستطيع البشر كلّهم لـو اجتمعوا أن يضعوا نظـاما يقوم مقامه أو يسـدّ مسدّه ، لأن الإنسان مهما أوتي من الثقـافة والمعرفـة خاضـع لتحكّم بيئته ومعـارفه وتربيتـه وسلوكـه . ومن القواعد المقـررة أن الإنسان مدنيّ بالطبع ومعنى ذلـك أن الله تعالى خلقه على طبيعة تجعله لا يستغني عن غيره من النـاس في طعامه ولباسه وحـاجاته ، إذ قد ركّبه الله تعالى على صورة لا بقاء لها على الأرض إلا بالغذاء ، وقد هداه الله إلى ابتغـائه بفطرتـه غير أنَّ قدرة الـواحـد من البشر قاصرةٌ عن إدراك أقلّ مـا يمكن أن يعيش به الإنسان ، فلا يحصل له ما يكفيه إلا بعمل يقوم به الكثير من الناس ، فالرغيف الذي يأكله الإنسان لم يصل إليه إلا بعد عملٍ كثير من حراثـة وزراعة وريّ وحصـاد ودياس وطحن وعجن وطبخ ، وكلّ واحـد من

هذه الأعمال لا يتم إلا بآلات تحتاج إلى العـديد من الصناعات لا يستطيع أن يقـوم الإنسان بمفـرده بها، ولما كانت طبيعـة الناس متفـاوتةً في مقـاصدهـا متنازعة الرغبات والميول والشهوات، وقد يركب الإنسان الصعب والذلول في سبيل قضاء مـآربه، وتحقيق شهوته، ممـا قد يتعارض مع شهـوات الآخرين وحاجاتهم، وقد يؤدي طلب تحصيلهـا إلى سفك الدماء وانتهاك الحرمات إذ قد يأكل القـويّ الضعيف، ويفني الكثير القليل، فلابدّ إذن للإنسـانية من نظام، ولما كان عقل الإنسـان قاصرا عن وضع نظام شامـلٍ لصلاح المعاش والمعاد، إذ قد يرى الإنسان الخير شراً، والشّر خيرا على حدّ قول الشاعر:

يُقْضَى على المـرء في أيام محنتـه حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

والإنسان قد يعجز في كثير من الأحيان عن معـرفة مصلحة نفسه، لذلك كان النـاس محتاجين بالضرورة إلى نظـام يحمي دماءهم وأعـراضهم وعقولهم وأمـوالهم ويـوضّـح لكل ذي حق حقّـه، مع إرشـادهـم إلى أعظم الحقـوق وأوجب الواجبات وهو إخلاص العبادة لله وحده، ومعرفة مراسيم العبادة، ولو فرضنـا أن جماعة من أهل الفكر أرادوا أن يضعوا مثل هـذا النظام لعجزوا لتفاوت الأفراد والجماعـات والأمم والشعوب والأعصار في تقـديرات الأشياء على طبيعتها الصحيحة لأن الإنسان مهما اتسعت مداركه، وعظمت ثقافته، فإنـه من حيث يـدري أو لا يدري خـاضعٌ لتحكّم بيئتـه ومعـارفـه وتربيتـه وسلـوكـه كما أسلفت ولهذا كانـت القوانين والأنظمـة التي يضعهـا البشر لا استقرار لها ولا ثبوت ولا دوام ولا شمول وكانت دائمةً محتاجةً إلى التعديل أو التبديل مع قصـورها عن تربيـة النفس الإنسانية على أحسن المنـاهج لذلك كان النـاس محتاجين إلى منهج يضعـه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وربّ العـالمين الذي لا تخفى عليـه خـافية في الأرض ولا في السماء، وقـد اقتضت حكمـة الله تبارك وتعـالى أن يبعث في كل أمـة نذيـرا، يصطفيه من خلقـه،

ويختاره لرسالته ويصطنعه لنفسه، ويربّيه على عينه، وينزل عليه الكتاب والشريعة التي تلائم قومه ليرسم لهم الطريق إلى الله، وليدلّهم على مراسيم سعادتهم الدنيوية والأخروية، ولئلا يقول المنحرفون: ما جاءنا من بشير ولا نذير، كما ذكر عز وجل حيث قال: ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفواْ عن كثير قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين * يهدي به الله من اتّبع رضوانه سُبُل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذيرٌ، والله على كل شيء قدير﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿صِبْغَةَ الله﴾ بنصب ﴿صبغة﴾ على أنها بدلٌ من ﴿ملة إبراهيم﴾ وتفسيرٌ لها في قوله تعالى: ﴿بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾، والصّبغة تطلق على معان، قال الفيروزآبادي في القاموس المحيط: والصّبغة بالكسر الدين والملّة وصبغة الله فطرة الله أو التي أمر الله تعالى بها محمدا ﷺ وهي الختانة اهـ. وقوله عز وجل: ﴿ ومن أحسن من الله صبغة﴾ أي ولا صبغة أحسن من صبغة الله، التي يربّيهم بها فيطهّرهم من أقذار الشرك وأدناس الضلال ويجعلهم متخلقين بأحسن الأخلاق، وأصفى ألوان السّلوك ويتصبّغون بالصّبغة التي تجمّلهم في معاشهم ومعادهم، ولا شك أن الفطرة التي فطر الله الناس عليها تنصقل بطاعة الله واتباع شريعته وتصديق رسله، ولكنها تختلّ موازينها بانحرافها عن شرعة الله ومنهاجه وكلما ازداد العبد طاعةً لله استنارت بصيرته، وازدانت فطرته على حد قول شاعر يثني على أخلاق آخر:

طُبعت عليها صبغة ثم لم تزل ... على صالح الأخلاق والدين تُطْبَعُ

أي طبعك الله على الأخلاق الفاضلة والسجـايا الحميدة التي صبغك الله وفطرك عليهـا ثم لم تزل وأنت تتخلّق بصالح الأخـلاق والدين. ولا شك أن تعـاليم الشريعـة لا تـدانيها تعـاليم المنحـرفين عنهـا، لأنها تشريع الله ومن أحسن من الله تشريعـا، وحكم الله ومـن أحسن من الله حكما، وصبغـة الله ومن أحسن من الله صبغـة، وقوله تعـالى: ﴿ونحن له عـابدون﴾ أي ونحن نتبع ملة إبـراهيم التي هي صبغة الله التي يصبـغ بها عباده المؤمنين ونحن لا نعبد إلا الله ولا ننقاد لمنهج سوى منهجه ولا نـزدلف إليه إلا بمراسيم العبادة التي يبعث بها رسله وينزل بها كتبه. وقولـه عز وجل: ﴿قل أتحاجوننا في الله وهو ربّنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكـم ونحن له مخلصون﴾ هذا أمر من الله عز وجل لرسوله وحبيبه وسيد خلقه محمد ﷺ بأن يوبّخ اليهود والنّصارى الذين يجادلون في الله ويـزعمون أنهم أبناؤه وأحباؤه وأنه لن يعـذبهم بالنار إلا أياما معدودات وأن الجنّة لهم وحدهم دون سائر الأمم مع أنهم مقرون بأن الله هـو ربّ الأمم وربّ اليهود والنصـارى وأنهم مقـرون بأن الله هو خـالق جميع الأمم وسيدهـم ومـالكهم ومربّيهم بإحسانه وجوده ورازقهـم من فضله، فلا وجه لهذه المجـادلة لأنها جدال بالبـاطل ولجاجةٌ في القول على الله بلا بـرهان حيث إنـه من المعلـوم أن ملة إبـراهيم قـررت أن الجنة للمحسنين وأن النـار للكافرين من أي لـون ومن أي جنس، والهمزة في قوله تعـالى: ﴿أتحاجوننا﴾ للإنكار والتوبيخ لليهود والنصارى، أي أتجادلوننا في الله فتدّعون أنكم أحق بـه منا لعـرقكم التلمـودي العنصري؟. وقـوله: ﴿وهـو ربنـا وربكم﴾ أي والحال أنه ربّ جميع الخلق فلا فضل لأحد عنده إلا بـالتقوى، وقوله: ﴿ولنا أعمالنـا ولكم أعمالكم﴾ أي ولنـا أعمالنـا الحسنـة الموافقـة لشرعـه الخالصـة لـوجهه، ولكم أعمالكم السيئـة المناقضـة لشرعـه الصادّة عن دينـه المكذّبـة لرسلـه، المنافية لملـة إبراهيم والأنبياء مـن بعده ولا يسأل أحد عن أحـد يوم

القيامة، فلا تزر وازرة وزر أخرى، كما في صحف إبراهيم الذي وفّى. وقوله تعالى: ﴿ونحن له مخلصون﴾ أي ونحن نعبد الله عبادة خالصة من الشرك صافية من الرياء وأنتم قد أشركتم بالله ما لم ينزّل به سلطانا فاتخذتم أحباركم ورهبانكم أربابا من دون الله وعبد اليهود العزير وعبد النصارى المسيح ابن مريم وأنتم إنما أمرتم بعبادة إله واحد كما هو في نصوص الكتب التي بأيديكم. ففي إنجيل متى في الإصحاح الثاني والعشرين: أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل: أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب. وفي إنجيل مرقص في الإصحاح الثاني عشر في الفقرة السادسة والعشرين منه: أفما قرأتم في كتاب موسى في أمر العلّيقة كيف كلّمه الله قائلا: أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب. وفي هذا الإصحاح أيضا: إنّ أوّل كلّ الوصايا هي اسمع يا إسرائيل: الربّ إلهنا ربّ واحد وتحبّ الرّبّ إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك، هذه هي الوصية الأولى. اهـ فهذه نصوص كتبكم تقرر وتؤكد أن الله إله واحد لا شريك له في ألوهيته وربوبيته وأسمائه الحسنى وصفاته العلى ومع ذلك تشركون بالله ما لم ينزّل به سلطانا وعبد اليهود عزيرا وقالوا هو ابن الله وعبد النصارى المسيح وقالوا هو ابن الله، فنحن المسلمين نخلص لله العبادة ولا نشرك بالله شيئا، وأنتم تشركون بالله، وتدّعون أنكم أهل الجنة وأبناء الله وأحباؤه، وقد ذكر الله عز وجل عن موسى عليه السلام لما قال له بعض آبائكم: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، قال لهم: إنكم قوم تجهلون. وقال: أغير الله أبغيكم إلها، كما ذكر الله عز وجل عن عيسى عليه السلام أنه قال لبني إسرائيل: ﴿يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾.

قال تعالى: ﴿أم تقولون إنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى، قل أأنتم أعلم أم الله، ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله، وما الله بغافل عما تعملون * تلك أُمّة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾.

بعد أن بين الله عز وجل أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأنبياء من الأسباط كانوا حنفاء مسلمين على فطرة الله عز وجل وصبغته التي لم تغيّرها الأهواء ولم يتسلط عليها الشيطان وأن اليهودية والنصرانية من الديانات المبتدعة، المخالفة للحنيفية السمحة دين إبراهيم والأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبعد أن وبّخهم على دعواهم أنهم هم وحدهم أهل الجنة وأنهم هم المهتدون وأفحمهم بالحجة الدامغة أنهم خلق من خلق الله كسائر بني آدم لا مزية لهم عليهم فمن أطاع الله واتبع ملة إبراهيم وصدَّق المرسلين ولم يفرق بين الأنبياء فيؤمن ببعض ويكفر ببعض ودخل في دين الإسلام فله الجنة ومن عصاه فله النار من أي لون ومن أي جنس، وعلّمهم أن ميزان الاستقامة في اتباع ملة إبراهيم فمن اتبعها نجا ومن انحرف عنها ضل وهلك، وأن محمدا رسول الله والذين اتبعوه هم الحنفاء المسلمون وأن أعمالهم الصالحة لن تضيع عند الله عز وجل وأن اليهود والنصارى ليسو حنفاء ولا مسلمين فهم أبعد الناس عن ملة إبراهيم والأنبياء من بعده وأن أعمالهم السيئة مكتوبةٌ عليهم وسينالون من عقاب الله ما يستحقون. انتقل هنا لتأكيد توبيخ اليهود والنصارى مشيرا إلى أنهم أهل بهتان وافتراء على إبراهيم والأنبياء من بعده فقال: ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى﴾ أي أتستمرّون على باطلكم بعد سماعكم هذه البراهين القاطعة والحجج الدامغة الساطعة وتقولون بألسنتكم

كذبا وزورا وبهتانا ومكابرة ولجاجة ووقاحة: إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى، أي يقول اليهود منكم: إنّ هؤلاء الأنبياء كانوا يهودا، ويقول النصارى منكم: إنّ هؤلاء الأنبياء كانوا نصارى؟ وقد أخبر الله عز وجل أن هؤلاء الأنبياء ما كانوا يهودًا وما كانوا نصارى؛ لأن اليهودية لم تعرف إلا بعد نزول التوراة على موسى عليه السلام وبعد وفاته بزمان طويل وبعد التحريف والتبديل، وأن النصرانية لم تُعرف إلا بعد نزول الإنجيل على عيسى عليه السلام، ونحن وأنتم متفقون على أن التوراة والإنجيل لم تنزل إلا بعد إبراهيم خليل الرحمن بمئات متطاولة من السنين كما قال عز وجل: ﴿يا أهل الكتاب لم تُحاجون في إبراهيم وما أُنْزِلَتْ التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون * ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجّون فيما ليس لكم به علمٌ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم لَلّذين اتبعوه وهٰذا النبي والذين آمنوا والله وليّ المؤمنين﴾ ولا شك أن هذه شهادة من الله تبارك وتعالى لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط بأنهم على الملة الحنيفية وليسوا يهودا ولا نصارى، وأنتم في قرارة قلوبكم ونفوسكم تعلمون بشهادة الله تبارك وتعالى هذه لهؤلاء الحنفاء، وهي في وصايا أنبيائكم لكم، فهل أنتم أعلم بأنبياء الله ورسله من الله الذي اصطفاهم وأرسلهم؟ فصرتم تسمّونهم بأسماء وتصفونهم بصفات برأهم الله عز وجل منها ونزههم عنها، وفي ذلك يقول الله عز وجل هنا توبيخا لهم وتقريعا: ﴿قل أأنتم أعلم أم الله؟﴾ فالاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع وأنهم قد انحطوا إلى درجة من السلوك سقطوا بها في الحضيض، ولو كانت لهم قلوب تفقه لذابوا خجلا، لكن قلوبهم قاسية كالحجارة أو أشد قسوة كما نبّه إلى ذلك ربّ العزة تبارك وتعالى في قوله: ﴿ثم

قســت قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ وقوله عز وجل : ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنـده من الله﴾ أي لا أحد أشد ظـلـما وأجحد حقّـا من هؤلاء اليهـود والنصارى الـذين يكتمون مـا عندهم من شهـادة الله لإبـراهيم وأبنائه الأنبيـاء بالحنيفيـة ، كما يكتمون مـا عندهم من شهـادة الله لمحمد ﷺ بالرسـالة حيث أخذ العهد بها على الأنبياء أن يوصـوا أممهم باتباع محمد ﷺ والاستجابة له ، كما قـال عز وجل : ﴿و إذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتـاب وحكمـة ثم جـاءكم رسول مصـدّق لما معكم لتـؤمننّ بـه ولتنصرنّه ، قال : أأقررتم وأخذتم على ذٰلكم إصري قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنـا معكم من الشـاهـدين﴾ وقـولـه تبـارك وتعـالى : ﴿ومـا الله بغـافل عما تعملون﴾ هو وعيد شديـد لليهود والنصارى المفترين على الله عز وجل وعلى أنبيـائه و إنـذارٌ لهم بأن أعمالهم السيئة مسجّلـة عليهم لا يغفل الله عنهـا ولا ينسى شيئا منها وسيجزيهم بها و يؤاخذهم عليها ، وتذييل هذه الآية الكريمة بهذا الوعيد للتنبيه على أن الكذب على الله تعالى وعلى الأنبياء ليس كالكذب على غيرهم ، وأن كتمان الشـهادة الكـائنة من الله ليس ككتمان شـهادة كـائنة من عند غير الله مع أن كتمان الشهادة الكائنة من عند غير الله فيها إثم عظيمٌ ولذلك حذّر الله تبارك من ذلك في غير موضع من القرآن الكريم حيث يقول عـز وجل : ﴿ولا تكتمـوا الشهـادة ، ومن يكتمهـا فإنـه آثم قلبـه ، والله بما تعملـون عليم﴾ ويقـول عـز وجل : ﴿يا أيها الـذي آمنـوا شهـادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الـوصية اثنان ذوا عـدل منكم أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصـابتكم مصيبـة الموت ، تحبسـونهما من بعـد الصلاة فيقسمان بـالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمنا ولو كـان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله إنّا إذا لمن الآثمين﴾ وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الذين يكذبون على الله ينادى عليهم يوم القيامة على رؤوس الخلائق و يلعنون فقد روى البخاري

ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري من طريق صفوان بن محرز المازنيّ قال: بينما أنا أمشي مع ابن عمر رضي الله عنهما آخذ بيده إذ عرض رجل فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ في النجوى؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي ربّ، حتى إذا قرّره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى كتاب حسناته، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين». أما لفظ مسلم من طريق صفوان ابن محرزٍ قال: قال رجل لابن عمر كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: «يُدنى المؤمن يوم القيامة من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه فيقول: هل تعرفُ؟ فيقول: أي ربّ أعرف، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا و إني أغفرها لك اليوم، فيعطى صحيفة حسناته، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على الله». كما أخبر رسول الله ﷺ أنّ الكذب عليه ﷺ ليس كالكذب على غيره من الناس فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار». ورواه مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ولذلك أخبر عليّ رضي الله عنه أن سقوط الإنسانَ من السماء إلى الأرض أهون من الكذب على رسول الله ﷺ فقد روى البخاري في صحيحه من طريق سويد بن غَفَلة قال: قال علي رضي الله عنه: إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فلأن أخرّ من السماء أحبّ إليّ من أن أكذب عليه. الحديث. وقوله عز وجل: ﴿تلك أمةٌ قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ هو تأكيد لمعنى الآية الرابعة والثلاثين بعد المائة، المتضمنة أن

هؤلاء الأئمة العظام والأنبياء الكرام إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأهل التوحيد والإسلام من أبنائهم قد مضوا إلى الله عز وجل وحازوا الفضل العظيم والثناء الجميل وقد جعل الله لهم ثواب أعمالهم الصالحة التي اكتسبوها، وأنتم يا معشر من يزعم أنهم ينتمون إليهم وقد ثبت أنكم لستم على ملتهم فليس لكم من أعمالهم الصالحة شيء فلكلّ نفس ما عملت من خير أو شر فلهم جزاء الخير الذي عملوه ولكم جزاء الشر الذي اقترفتموه. فإن الأبناء لا ينتفعون بأعمال الآباء الصالحين إلا إذا كانوا على ملتهم ولا شك أن كلّ آية تكرر لفظها في القرآن الكريم فإنّها تفيد مضمون الآية المكررة بتأكيده ولفت الانتباه إليه لشدة حاجة الناس إلى معرفته ومع ذلك فإنها تشتمل على زيادة معنى يناسب المقام الجديد لاشتماله على معنى جديد أيضا مثل هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها، وقوله تعالى: ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ حيث ترد الآية التي كررت بعد إبراز أدلة جديدة أو أعمال مضافةٍ إلى ما سيق الكلام قبل الآية السابقة من أجله ولذلك يذكر قوله عز وجل: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ بعد نعمة عظيمة أو دفع بلوى فإنه تبارك وتعالى قد كرر هذه الآية في سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة منها ثمانية ذكرت عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله وبدائع صنعه ومبدأ الخلق ومعادهم ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها بعدد أبواب جهنم ثم ثمانية بعدد أبواب الجنتين اللتين أعدهما لمن خاف مقام ربه وذكر بعض صفاتهما ثم ثمانية بعدد أبواب الجنتين اللتين من دونهما، وقد فصل بهذه الآية بين كل نعمتين بما نبّههم عليه ليفهمهم هذه النعم ويقررهم بها، فله الحمد وله الشكر على ما منح من النعماء وما دفع من البلاء.

قال تعالى : ﴿سيقول السفهاء من النـاس ما ولَّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ، قل لله المشرقُ والمغـربُ يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم* وكـذالك جعلنـاكم أمةً وسطـا لتكـونوا شهـداء على النـاس ويكـون الرسـول عليكم شهيـدا ، وما جعلنـا القبلة التي كنت عليهـا إلا لنعلم من يتبع الرسـول ممن ينقلب على عقبيه ، وإن كانت لكبيرة إلا على الـذين هدى الله ، وما كان الله ليُضيع إيمانكم ، إن الله بـالنـاس لرءوف رحيم* قـد نـرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاهـا ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، وإن الـذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحقُّ من ربهم ، وما الله بغافل عما يعملون﴾ .

كان رسـول الله ﷺ بعد مقـدمه المدينـة يصلي إلى جهة بيت المقـدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا ، وكان اليهود يُعْجبهم أن يتجه رسول الله ﷺ إلى جهـة بيت المقـدس وكان رسـول الله ﷺ يحب أن يتـوجـه في صلاتـه إلى الكعبة قبلة أبويه إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، وكان رسول الله ﷺ يقلِّب وجهه في السماء ضارعا إلى الله عـز وجل أن يحول قبلته إلى المسجد الحرام فاستجاب الله دعاءه وأنزل عليه : ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ الآية ، وقـد روى البخاري في صحيحه من طـريق زهير عن أبي إسحاق عن البراء أن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نـزل على أجداده ، أو قال : أخواله من الأنصـار ، وأنـه صلى قِبَلَ بيت المقـدس ستة عشر شهـرا أو سبعـة عشر شهرا ، وكان يُعجبـه أن تكون قبلتُهُ قِبَلَ البيت ، وأنه صلى أوّل صـلاةصلاها صـلاة العصر وصلى معـه قـوم ، فخـرج رجلٌ ممن صلى معـه فمـر على أهل مسجـد وهم راكعون فقـال : أشهَدُ بـالله لقد صليتُ مع رسـول الله ﷺ قِبَلَ مكة ، فدَارُوا كما هم قِبَلَ البيت ، وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قِبَلَ

بيت المقدس، وأهل الكتاب، فلما ولّى وجْههُ قبل البيت أنكروا ذلك. قال زهير: حدثنا أبو إسحاق عن البراء في حديثه هذا أنه مات على القبلة قبل أن تُحوّل رجالٌ، وقُتِلُوا، فلم ندْر ما نقول فيهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وما كان الله لِيضيع إيمانكم﴾ وفي لفظ للبخاري من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يوجَّه إلى الكعبة، فأنزل الله عز وجل: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ فتوجَّه نحو الكعبة وقال السفهاء من الناس وهم اليهود: ﴿ما ولَّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، قل لله المشرقُ والمغربُ يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ فصلى مع النبي ﷺ رجل ثم خرج بعدما صلى فمرّ على قوم من الأنصار في صلاة العصر نحو بيت المقدس فقال: هو يشهد أنه صلى مع رسول الله ﷺ وأنّه توجّه نحو الكعبة، فَتَحرّف القومُ حتى توجّهوا نحو الكعبة. وقد روى مسلم في صحيحه من طريق أبي الأحوص عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: صليت مع النبي ﷺ إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا حتى نزلت الآية التي في البقرة: ﴿وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره﴾ فنزلت بعدما صلى النبي ﷺ فانطلق رجل من القوم فمرّ بناسٍ من الأنصار وهم يصلون فحدّثهم فولَّوْا وجوههم قبل البيت. وقوله في لفظ زهير عند البخاري: نزل على أجداده أو قال: أخواله من الأنصار، الشك فيه من أبي إسحاق السَّبيعي شيخ زهير، وفي إطلاق لفظ أجداده أو أخواله تجوُّزٌ لأن الأنصار أقاربه من جهة الأمومة لأن أم جده عبد المطلب بن هاشم منهم وهي سلمى بنت عمرو أحد بني عدي بن النجار وإنما نزل النبي ﷺ بالمدينة على إخوتهم بني مالك بن النجار. وقوله: ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا، روايةُ مسلم من طريق أبي إسحاق: ستة عشر شهرا، بلا

شك، وقد روى البزار والطبراني من حديث عمرو بن عوف: سبعة عشر، قال الحافظ في الفتح: والجمع بين الروايتين سهل بأن يكون من جزم بستة عشر لفّق من شهر القدوم وشهر التحويل شهرا وألغى الزائد ومن جزم بسبعة عشر عدَّهما معا ومن شك تردّد في ذلك، وذلك أن القدوم كان في شهر ربيع الأول بلا خلاف وكان التحويل في نصف شهر رجب من السنة الثانية على الصحيح وبه جزم الجمهور ورواه الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس اهـ، وقوله: وأهلُ الكتاب، هو عطف على اليهود من عطف العام على الخاص أو المراد النصارى لأن قبلة المسيح كانت إلى بيت المقدس ولم يصلوا إلى المشرق إلا في عهد قسطنطين أو كان إعجابهم بطريق التبعية لليهود صداً عن سبيل الله. وقوله: مات على القبلة قبل أن تُحَوَّل رجال وقتلوا. . قال الحافظ في الفتح: ذكر القتل لم أره إلا في رواية زهير وباقي الروايات إنما فيها ذكر الموت فقط وكذلك روى أبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم صحيحا عن ابن عباس، والذين ماتوا بعد فرض الصلاة وقبل تحويل القبلة من المسلمين عشرة أنفس، فبمكة من قريش: عبد الله بن شهاب والمطلب ابن أزهر الزهريان، والسكران بن عمرو العامريُّ، وبأرض الحبشة منهم: حطّاب بالمهملة ابن الحارث الجمحي وعمرو بنُ أمية الأسدي وعبد الله بن الحارث السهمي، وعروة بن عبد العُزّى وعديّ بن نضلة العدويان، ومن الأنصار بالمدينة البراء بنُ معرور بمهملات وأسعد بن زرارة فهؤلاء العشرة متفق عليهم، ثم قال الحافظ: ولم أجد في شيء من الأخبار أن أحدا من المسلمين قتل قبل تحويل القبلة لكن لا يلزم من عدم الذكر عدمُ الوقوع فإن كانت هذه اللفظةُ محفوظةً فتحمل على أن بعض المسلمين ممن لم يشتهر قتل في تلك المدة في غير الجهاد، ولم يضْبط اسمُه لقلة الاعتناء بالتاريخ إذ ذاك اهـ. هذا وقد وطّن الله تبارك وتعالى نفوس المؤمنين على ما سينالهم من

السفهاء اليهود والمشركين والمنافقين من لمز بسبب تحويل القبلة وأرشدهم للجواب المفحم لكل لامز من هؤلاء وأنه إنما فرض عليهم التوجه لبيت المقدس ثمّ حوّلهم إلى الكعبة لامتحان أهل الإيمان ممن ينقلب على عقبيه وأن المشرق والمغرب وسائر الجهات لله وحده فقال: ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم* وكذٰلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرةً إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾. وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: بينما الناس في صلاة الصبح بقباء إذ جاءهم رجل فقال: إن رسول الله ﷺ قد أُنْزِلَ عليه الليلة قرآن وقدأُمر أن يستقبل الكعبة، فاستقْبِلُوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة. وفي روايةلمسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يصلي نحو بيت المقدس فنزلت: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام﴾ فمرّ رجل من بني سلمة وهم ركوعٌ في صلاة الفجر وقد صَلّوا ركعة فنادى: ألا إن القبلة قد حُوّلت فمالوا كما هم نحو القبلة. وقد كان تحويل القبلة إلى الكعبة سببا في مطاوعة بعض مرضى القلوب لليهود في الإنكار على المسلمين وبدأت أعناق النفاق تشرئبّ. وقد طمأن الله المسلمين بأن اليهود يعتقدون في قرارة أنفسهم أن ما جاء به رسول الله ﷺ حق وإن كان الحسد يحول بينهم وبين الإذعان له حيث يقول: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره، وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم

وما الله بغافل عما يعملون﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿سيقول السفهاء﴾ أي سيتحدث الجهلة الحمقى الحاقدون الحاسدون من اليهود والنصارى والذين أشركوا عندما يسمعون أن الله استجاب لدعاء رسوله ﷺ وجعل القبلة إلى الكعبة قبلة إبراهيم وإسماعيل، والسين فيه للاستقبال ، والمراد بإعلام رسول الله ﷺ والمسلمين بذلك توطين نفوسهم وإعداد الجواب للرد على هؤلاء السفهاء ، وقوله تعالى : ﴿ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾ أي أيُّ شيء صرف المسلمين عن التوجه لبيت المقدس في صلاتهم إلى التوجه إلى الكعبة؟ وقوله تعالى : ﴿قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ أي أعلمهم يا محمد أن الأمر كلّه لله ، وأن الحكم له وحده يتصرف في شئون خلقه كما يشاء لا معقب لحكمه فما على العبد إلا أن يمتثل أمر ربه فحيثما أمره بالتوجه فليتوجه ، ولو أمره بالتوجه في اليوم الواحد مرات إلى جهات متعددة وجب على العبد المسارعة لامتثال أمر ربه لأن المشارق والمغارب وسائر الجهات لله وحده ، والبرّ في طاعة الله لا في نفس الجهة ؛ ولذلك قال عز وجل : ﴿ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ أي يسدد ويوفق من يحب من عباده إلى سلوك المنهج القويم الموصِل إلى جنات النعيم ومرضاة ربّ العالمين، وقوله تعالى : ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ أي وكما هديناكم إلى قبلة أبيكم إبراهيم إمام الحنفاء وأبي الأنبياء وخليل الرحمن جعلناكم خير الأمم وأعدلها لنقيم منكم شهداء على الأمم يوم القيامة ولنقيم الرسول محمدا ﷺ شاهدا عليكم ، وهذه مرتبة عالية ومنزلة سامية ، وقد روى البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : يُدْعَى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول : لبيك

وسعديك يا رب، فيقول: هل بلَّغتَ؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلَّغكُم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلّغ، ويكون الرسول عليكم شهيداً، فذلك قوله عز وجل: ﴿وكذٰلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ اهـ والوسط هو العدل ومنه قوله تعالى: ﴿قال أوسطهم﴾ أي أعدلهم وخيرهم ومنه قول زهير بن أبي سلمى المزني:

هُمُو وَسَطٌ يَرْضَى الأنامُ بحكمهم إذا نَزَلَتْ إحدى الليالي بمُعْظَم

وهذا من فضل الله على أمة محمد ﷺ أهل السنة والجماعة الذين حماهم الله من غلو النصارى في المسيح ورهبانهم، ومن تقصير اليهود في حق أنبيائهم، كما جعل أهل السنة والجماعة وسطا بين جميع الطوائف الغالين والمقصرين من أهل الزيغ والأهواء حيث يوالي أهل السنة جميع أصحاب محمد ﷺ ويترضّون عليهم جميعا، وقوله تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها﴾ الآية، أي وما فرضنا عليكم التوجه أولا إلى بيت المقدس ثم حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام إلا لامتحان أهل الإيمان وفضح من ينقلب على عقبيه، وقد استحوذ عليه الشيطان فأرغى وأزبد بخلاف أهل الهدى فإنهم يحبون ما أحب الله وما أحبّ رسوله ﷺ، وقد حفظ الله للذين ماتوا قبل تحويل القبلة إلى الكعبة صلاتهم وتقبلها منهم، إن الله بهم لرءوف رحيم. وقوله تعالى:

- ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ الآية أي قد رأينا تصرف وجهك نحو السماء متضرعا إلى الله أن يحول القبلة إلى الكعبة، فلنحوّلنّك إلى القبلة التي تحبها فحوّل وجهك في صلاتك جهة المسجد الحرام وحيث ما كنتم أيها المسلمون فاستقبلوا الكعبة من جميع جهات الأرض شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وما بين هذه الجهات. وإن اليهود الذين حملوا لواء التشنيع عليكم بسبب تحويل القبلة إلى الكعبة ليعلمون في قرارة نفوسهم أنكم على الحق، ولكن حملهم الحسد على التشويش عليكم وسيجزيهم الله ويخزيهم بأعمالهم.

قال تعالى : ﴿ولئن أتيت الذين أُوتوا الكتاب بكل آية ما تَبعوا قِبلتك ، وما أنت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبلة بعضٍ ، ولئن اتّبعت أهواءهم من بعدِ ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين* الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإنّ فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون* الحقُّ من ربك فلا تكوننّ من الممتَرين* ولكلٍّ وجهةٌ هوَ مُولّيها فاستبقوا الخيراتِ ، أين ما تكونوا يأْتِ بكم الله جميعا ، إنّ الله على كلّ شيء قدير* ومن حيث خرجتَ فولِّ وجهك شطْر المسجد الحرام ، وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون* ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثُ ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجّة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشونى ولأتمّ نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون﴾ .

بعد أن وطّن الله تبارك وتعالى نفوس المؤمنين لما سيستقْبِلونه من سفاهة السفهاء من اليهود والنصارى والذين أشركوا عندما يأمر الله تبارك وتعالى باستقبال المسجد الحرام في الصلاة بدل الصلاة إلى بيت المقدس ، وأن الله تبارك وتعالى استجاب لما يحبه رسوله وحبيبه محمد ﷺ فأمر نبيه والمؤمنين أن يستقبلوا الكعبة في صلاتهم وبعد أن طمأنهم بأن صلاتهم التي كانوا يتجهون فيها إلى بيت المقدس غير ضائعة عند الله عز وجل لأنها كانت على وفق المشروع آنذاك وأطلق على الصلاة اسم الإيمان تعظيما لشأنها ، وأعلم رسوله والمؤمنين أن الذين أوتوا الكتاب يعلمون في قرارة نفوسهم أن تحويل القبلة حق من الله عز وجل ، ذكر هنا أمورا ثلاثة يقرّر الأول منها قطع كل رجاء في انقياد هؤلاء اليهود ومن يدور في فلكهم إلى الحق واتباع القبلة التي جعلها الله للمسلمين وهي قبلة إبراهيم عليه السلام ويقرر الثاني منها قطع كل أمل

لليهود والنصارى في أن يتبع محمد رسول الله ﷺ قبلتهم، ويقرر الثالث العداوة المتأصلة بين اليهود والنصارى في الوقت الذي يتعاونان فيه ضد الإسلام والمسلمين، وأن اليهود لن يتبعوا أبدا قبلة النصارى وأن النصارى لن يتبعوا أبداً قبلة اليهود وأن الحامل لليهود والنصارى على عدم اتباع قبلتك هو المكابرة والعناد، لا أنهم شاكون في حقية ما أنت عليه، ولو أنك أقمت لهم كلّ دليل على صحة ما جئتهم به لما اتّبعوك ولما تركوا أهواءهم وفي ذلك كله يقول الله عز وجل هنا: ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك، وما أنت بتابع قبلتهم، وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾ أما قوله تعالى: ﴿ولئن اتّبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذًا لمن الظالمين﴾ فهو نظير قوله تبارك وتعالى في الآية العشرين بعد المائة من هذه السورة المباركة: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من وليّ ولا نصير﴾. وكذلك قوله تبارك وتعالى في الآية السابعة والثلاثين من سورة الرعد حيث يقول عز وجل: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا واقٍ﴾ وقد ذكرت في تفسير الآية العشرين بعد المائة من هذه السورة: أي وتالله لئن وافقتهم على أقوالهم التي هي أهواءٌ باطلة، وشهواتٌ جامحة وأمنيات خادعةٌ كاذبة بعد أن منّ الله عليك بالدين الحق المعلوم صحته بالدلائل القاطعة والبراهين الساطعة فلن تجد وليا يقيم لك أمرك ولا ناصرا ينصرك ويدفع عنك. والمقصود من هذا الوعيد هو التهديد لمن أطاع اليهود أو النصارى في مذاهبهم الزائغة الباطلة، وتوجيه الخطاب بهذا لرسول الله ﷺ المعصوم من الهوى والزيغ الذي صانه الله من كل إثم، وعصمه من كل خطيئة، واصطنعه الله لنفسه ورباه على عينه، واصطفاه لرسالته وأمّنه على وحيه وفضّله على سائر خلقه إنما هو من باب قول القائل: إياك أعني واسمعي يا جاره، وقوله تعالى: ﴿الذين

آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحقّ وهم يعلمون﴾ أي إن علماء أهل الكتاب لا يشك أحد منهم في أن محمدا هو رسول الله ﷺ حقا وصدقا كما لا يشك أحد من الناس في معرفة ابنه إذا رآه، وذلك بسبب ما كانوا يتدارسونه من صفاته ﷺ، ولذلك قال سلمان رضي الله عنه في الحديث الصحيح عنه في ذكر الصفات التي كان قد عرفها من أسقف عمورية عن رسول الله ﷺ: أنه يهاجر إلى أرض بين حرتين بينهما نخل به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة وبين كتفيه خاتم النبوة، فيذكر سلمان رضي الله عنه أنه لما وصل إلى المدينة قال: فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي اهـ غير أن أهل الكتاب هؤلاء يكتمون الناس ما في كتبهم من صفة رسول الله ﷺ صداً عن سبيل الله وحسداً أن تكون النبوة في غير بنى إسرائيل. وقوله تعالى: ﴿الحق من ربك فلا تكوننّ من الممترين﴾ المقصود منه تربية المسلمين على أنهم على الهدى وأن الذي يجيئهم من عند الله هو الحق الثابت الذي لامرية فيه ولا شك، وهو نظير قوله تعالى في سورة آل عمران عن عيسى عليه السلام وأن مثله كمثل آدم الذي خلقه الله من تراب فقال له: كن فيكون، وأن عيسى ولد من مريم العذراء من غير أب ثم قال: ﴿الحق من ربك فلا تكن من الممترين﴾ وقد ذكرتُ فيما مضى أن النهي عن الشيء لا يقتضي الوقوع فيه. وقوله عز وجل: ﴿ولكل وجهة هو مولّيها فاستبقوا الخيرات﴾ أي لكل إنسان من المكلفين قصده الذي هو قاصده من خير أو شر فهو ساع إليه مجتهد في الوصول له، فسارعوا أيها المؤمنون ويامن يريد فكاك رقبته من النار إلى عمل المَبَرّات، وتنافسوا في الخيرات، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض، قد أعدها الله للمتقين، وقوله عز وجل: ﴿أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شيء قدير﴾ أي مهما عمل قاصد الشرِّ من شر

ومهما عمل قاصد الخير من خير فلن يضيع عند الله عمله، فإن الله تبارك وتعالى جامع الناس يوم القيامة وسيجزي كلّ عامل بما عمل، على حد قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الإنسان إنك كادحٌ إلى ربك كدحا فمُلاقِيه* فأما من أوتي كتابه بيمينه* فسوف يحاسب حسابا يسيرا* وينقلب إلى أهله مسرورا* وأما من أوتي كتابه وراء ظهره* فسوف يدعو ثبورا* ويصلى سعيرا* إنه كان في أهله مسرورا* إنه ظنّ أن لن يحور * بلى إن ربه كان به بصيرا﴾ فلو كان عمل الإنسان مثقال ذرة فسيأتي به الله الذي لا يعجزه شيء ولا يفوته شيء لأنه قادر على كل شيء. فعلى العاقل الكيِّس أن يبادر إلى الخيرات وأن يحذر كل الحذر من اقتراف السيئات ليحشره الله يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقا، وقوله عز وجل: ﴿ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحقّ من ربك، وما الله بغافل عما تعملون* ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ هو تأكيد لأمره عز وجل رسوله محمدا ﷺ والمؤمنين بالتوجه إلى الكعبة البيت الحرام في صلواتهم حيث كانوا في أي مكان من الأرض في سائر الجهات، وقد كرّر الله تبارك وتعالى الأمر بالتوجه إلى جهة البيت الحرام ثلاث مرات حيث قال عز وجل: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها، فولّ وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم، وما الله بغافل عما يعملون﴾ ثم قال في المرة الثانية: ﴿ ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون﴾ ثم قال في المرة الثالثة: ﴿ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني

ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون﴾ وهذا لأن أعداء الإسلام ما جادلوا في شيء كجدالهم في تحويل القبلة إلى الكعبة بعد أن كانت القبلة إلى بيت المقدس التي جعلها الله لابتلاء المطيعين والعاصين ولتأكيد وجوب استقبال القبلة في أي جهة كان المصلي، فلو صلى المسلمون في المسجد الحرام كانوا كالدائرة المحيطة بالكعبة، وإذا صلوا في غير المسجد الحرام وهم بمكة كان اتجاههم إلى الكعبة وإذا صلوا خارج مكة في أي مكان من الأرض وجب عليهم أن يتجهوا في صلاتهم إلى الكعبة، ولو صاروا في مكان أرفع أو أسفل وجب عليهم أن يتجهوا إلى الكعبة، وفي هذا إشارة لعموم الشريعة وشمولها، ومعجزة للنبي الأمي محمد ﷺ، فإن المسلم بعد اختراع «الطائرات والصواريخ» إذا وجبت عليه الصلاة وهو في هذه الطائرات أو الصواريخ الصاعدة في طبقات الجو العليا وجب عليه أن يتحرى الاتجاه إلى الكعبة البيت الحرام، كما أن فيه إشارة إلى أن الإسلام سينتشر ويعم آفاق المعمورة، وقوله عز وجل: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون﴾ أي كيلا يكون لأحد من الناس سواءٌ كانوا يهُوداً أو نصارى أو وثنيين أو غيرهم عليكم سبيل يحاجّونكم به لكن من عاند لمجرد العناد فلا ينفعه دليل ولا برهان كما أن الأعمى لا يستضيء بالنور مهما كان ساطعا، فلا تخافوا منهم ولا تأخذكم في الله لومة لائم، واحصروا خشيتكم فيمن يستحق أن يُخاف ويُخشَى وهو الحي القيوم، وقد أمرت بتحويل القبلة إلى الكعبة لأتمّ عليكم النعمة باتباع قبلة إبراهيم إمام الحنفاء عليه السلام ولتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهها، ولتهتدوا إلى ما ضلت عنه الأمم، فتكونوا على الصراط المستقيم.

قال تعالى : ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلواْ عليكم آياتنا ويزكّيكم ويعلّمكم الكتاب و الحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون* فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾

بعد أن ساق الله تبارك وتعالى الحديث عن إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء وعن ابنه إسماعيل عليه السلام وعن رفعهما القواعد من البيت ودعائهما بأن يبعث الله في ذريتهما ساكني البلد الحرام رسولا منهم يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، وبعد أن بين أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا على الحنيفية السمحة وأنهم لم يكونوا يهودا ولا نصارى وبعد أن تفضل على رسوله محمد ﷺ وعلى المؤمنين بتحويل القبلة إلى الكعبة قبلة إبراهيم وإسماعيل وأقام الحجة القاطعة على أن اليهود والنصارى موقنون بأن محمدا ﷺ على الحق في توجهه إلى الكعبة وأنه رسول الله ﷺ وساق الكثير من أقوال اليهود والنصارى وأحوالهم المنبئة عن سوء سلوكهم وكثرة تناقضاتهم، وذكر في ختام المسك من هذا المقام قوله تبارك وتعالى: ﴿ولأتمّ نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون﴾ شرع يبين استجابته لدعوة إبراهيم عليه السلام ببعث محمد ﷺ رسولا منهم منبهاً إلى أن محمدا ﷺ هو النعمة الكبرى التي امتن الله بها على المؤمنين الذين سارعوا إلى الاستجابة لله ورسوله ﷺ وأن الذين لم يؤمنوا به قد بدّلوا نعمة الله هذه كفراً، ووصف وظيفة رسوله محمد ﷺ بنفس الصفات التي دعا إبراهيم عليه السلام ربَّه أن يبعث الرسول بها وهو قوله تعالى هنا : ﴿يتلواْ عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ وكانت دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلواْ عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، إنك أنت العزيز الحكيم﴾ وقد تفضل الله تبارك

وتعالى فزاد محمدا ﷺ صفة كريمة أخرى وهي أنه يُعلِّم أمته ما لم يكونوا يعلمون حيث يقول عز وجل في تمام الآية التي هنا: ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم﴾ هو مرتبط بقوله تبارك وتعالى في الآية التي قبلها: ﴿ولأتمّ نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون﴾ كأنه قيل: وأمرتكم بهذه الأوامر لإتمام النعمة عليكم ولإرادتي اهتداءكم إلى الصراط المستقيم وهذا كالنعمة التي تفضلت بها عليكم فاستجبت دعاء أبيكم إبراهيم فأرسلت فيكم رسولا منكم، وفي بيان أن إرسال محمد ﷺ نعمة عظمى على المؤمنين الذين استجابوا له فسعدوا به يقول عز وجل مشيرا إلى وظيفة هذا الرسول الكريم التي وردت في دعوة إبراهيم: ﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذْ بعَث فيهم رسولا من أنفسهم يتلواْ عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ وقد ندّد الله تبارك وتعالى بمن لم يستجب لرسوله محمد ﷺ بأنه بدّل نعمة الله كفراً وأحل قومه دار البوار، ولا سيما إذا كان مطاعا في قومه حيث يقول: ﴿ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفرا وأحلّوا قومهم دار البوَارِ* جَهَنم يصلونها وبئس القرار﴾ وقوله عز وجل: ﴿يتلواْ عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ هذه هي وظائف رسول الله ﷺ التي وردت في دعوة إبراهيم عليه السلام وقد مرّ تفسيرها، وقد وردت هذه الصفات أيضا له ﷺ في الآية التي سقت آنفا في كون رسول الله ﷺ نعمةً من الله عظمى ومنّةً كبرى، وقد وردت هذه الصفات أيضا في سورة الجمعة حيث يقول عز وجل: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلواْ عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين* وآخرين منهم لَمَّا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم* ذُلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ وقوله عز وجل: ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا

تعلمون﴾ هذه صفة زائدة على الصفات السابقة وفيها إشارة إلى معجزة كبرى من معجزات رسول الله ﷺ حيث عَلَّمَ أمته ﷺ أصدق أخبار الأمم الماضية وعرفهم ما كان من الحوادث السابقة وما يكون من الحوادث اللاحقة، ووضع لهم أحسن الأنظمة التي أرشده الله إليها، الصالحة لكل زمان ومكان وجيل وقبيل، والتي لم تعرفها الإنسانية في تاريخها الطويل، مما يعترف بفضله الأصدقاء والأعداء حتى بدأت أوروبا في وقت نهضتها الحديثة تأخذ ببعض التعاليم الإسلامية التي ما كانت تعرفها وقد رأت أن شريعة الإسلام أوفى من سائر الأنظمة بها حتى شملت الشفعة وغيرها، ونحن نعلم علم اليقين أن رسول الله ﷺ علمنا كل شيء نحتاجه في معاشنا أو معادنا حيث علّمنا ﷺ ماذا نقول إذا استيقظنا من نومنا وماذا نقول عند منامنا، وماذا نفعل أو نقول عند دخول منازلنا أو تناول طعامنا أو شرابنا وسائر حاجاتنا، وماذا نقول عند ركوب مراكبنا أو في سفرنا أو حضرنا، حتى قال بعض المشركين لسلمان الفارسي رضي الله عنه: لقد علمكم نبيكم كل شيء، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قيل له: قد علمكم نبيكم ﷺ كل شيء حتى الخراءة فقال: أجلْ لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائطٍ أو بولٍ أو أن نستنجي باليمين أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار أو أن نستنجي برجيع أو بعظم. وفي لفظ لمسلم عن سلمان رضي الله عنه قال: قال لنا المشركون: إني أرى صاحبكم يعلمكم حتى يعلمكم الخراءة فقال: أجل إنه نهانا أن يستنجي أحدنا بيمينه، أو يستقبل القبلة، ونهى عن الرّوث والعظام وقال: «لا يستنجي أحدكم بدون ثلاثة أحجار» اهـ. وقد صار أصحاب رسول الله ﷺ أئمة الدنيا في العلم وورّثوا ذلك للدنيا حتى كان علماء أوروبا يفتخر أحدهم بالذهاب إلى الأندلس ليشهد بعض حلقات العلم على علمائها، وبعد أن كان العرب أشد الناس جهلا وأبعدهم

ضـلالة صـاروا أعمق الناس علما وأبَـرَّهم قلوبـا ، وأقلّهـم تكلّفا وأصـدقهم لهجة . وقوله تبارك وتعالى : ﴿فـاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ هو لفت انتباه العبـاد إلى ذكر الله وشكـره على نعمه التي لا تحصى وعلى الأخص شكره على نعمته العظمى بإرساله محمـدا ﷺ بدين الإسلام فإن النعمة صيْد وشكرها قيد ولذلك قـال عز وجل : ﴿وإذ تأذَّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عـذابي لشديد﴾ وشكـر الله عز وجل على إرسالـه محمدا ﷺ يملأ قلب الشاكر نورا ، ويزيـده بصيرة بتعاليم الشريعة وفقه دين الإسلام ، ولذلك ذكـر الله تبارك وتعالى أن ذكـره سبب فلاح العباد ونجـاحهم وفوزهم ونصرهم ، حيث يقـول عز وجل : ﴿يـا أيها الذين آمنـوا إذا لقيتم فئة فـاثبتوا واذكـروا الله كثيرا لعلكم تفلحون﴾ وقـد أفـاد قولـه عـز وجل : ﴿فاذكـروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ وجوب ذكر الله تعالى وشكره ، والذكر يكون باللسـان وبالقلب وبالجوارح ، فـالذكر بـاللسان تحميده وتسبيحـه وتمجيده وتقديسه وتلاوة كتابه ، وذكـره بالقلب التفكر في خلق السموات والأرض وما فيهما لاستحضـار عظمـة الله في النفس لتشرق فيها أنـوار السعـادة وينحسر عنهـا سلطان الشيطـان الذي يخنس إذا ذكـر العبد ربـه ، ومن ذكره كـذلك طلبُ العلم ومعـرفة كيفيـة العبـادات وأحكام الله وأوامـره ونـواهيه ووعـده ووعيده ، وأما ذكره عز وجل بـالجوارح فهو أن تكون جوارح الإنسان مشتغلة بطاعة الله منتهيةً عن معاصيه وقّافةً عند حدوده ، فلا يراه حيث نهاه . ومعنى قوله عـز وجل : ﴿أذكركم﴾ أي أكافئكم على ذكركم لي بـذكري لكم بعفوي ونعمتي وجودي وإحساني ومغفرتي فمن ذكر الله تبارك وتعالى في الرخاء ذكره في الشدة ففـرّج كربتـه وقضى حاجتـه ودفع الضُّرَّ عنه ، وأثنـى عليه في الملأ الأعلى ، وقـد أرشد رسـول الله ﷺ إلى فوائد ذكـر الله تبـارك وتعالى فقـد روى البخاري ومسلم من حديث أبي مـوسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله

ﷺ قال: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر مثل الحيّ والميت». كما روى مسلم من حديث أبي هريـرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قـال: «لا يقعد قـوم يذكـرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الـرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده». كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة فمر على جبل يقال له: جُمدان، فقال: «سيروا، هـذا جمدان، سبق المفرّدون» قالوا: وما المفـرّدون يا رسول الله؟ قـال: «الذاكرون الله كثيرا والـذاكرات» كما روى البخاري ومسلـم من حديث أبي هـريرة رضي الله عنـه قال: قـال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظنِّ عبـدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم» كما روى البخـاري ومسلم واللفظ للبخاري من حـديث أبي هـريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله ملائكة يطوفـون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قـوما يذكرون الله تنـادوا: هَلُمُّوا إلى حاجتكم، قـال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الـدنيا، قال: فيسـألهم ربهم وهو أعلم بهم: مـا يقول عبـادي؟ قـال: يقـولـون: يسبحـونـك، ويكبرونك، ويحمـدونك، ويمجّدونك، قـال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولـون: لا والله ما رأوك، قال: فيقول: كيف لو رأوني؟ قال: فيقولـون: لو رأوك كانوا أشدّ لك عبادة وأشد لك تمجيـدا، وأكثر لك تسبيحـا، قال: فيقـول: فما يسألون؟ قـالوا: يسألونك الجنة، قال: يقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا والله يا ربّ ما رأوها، قال: فيقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشدّ عليها حرصاً وأشد لها طلبا وأعظم فيها رغبة، قال: فممّ يتعوّذون؟ قال: يقولون: من النار، قال: يقـول: فهل رأوها؟ قال: يقولون: لا ولله يـا ربّ ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو رأوهـا؟ قال: يقولون: لو رأوها كانـوا أشدّ منها فراراً

وأشد لها مخافة، قال: فيقول: فأشهِدكم أني قدغفرت لهم، قال: يقول ملَكٌ من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة، قال: هم الجلساءُ لا يشقى جليسهم».

قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة، إن الله مع الصابرين* ولا تقولوا لمن يُقتل فى سبيل الله أمواتٌ، بل أحياءٌ ولَٰكن لا تشعرون* ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوعِ ونَقْصٍ من الأموال والأنفسِ والثمرات، وبشّر الصابرين* الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون* أولَٰئك عليهم صلواتٌ من ربّهم ورحمةٌ وأولَٰئك همُ المهتدون﴾ .

بعد أن أمر الله عز وجل المؤمنين بذكره وشكره لما أسبغه عليهم من النعماء أمرهم هنا بالصبر على ما قد يصيبهم من البلاء والضراء، ليجمعوا بين منازل الشاكرين والصابرين فيكونوا في أحسن درجات السلوك الإنساني في الحياة الدنيا مع ما يُعدّه الله عز وجل لهم من المنازل العالية في جنات النعيم، ولذلك أخبر رسول الله ﷺ أن المؤمن في خير دائما إن أصابته سراء شكر وإن أصابته ضراء صبر، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث صهيب بن سنان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «عَجباً لأمر المؤمن، إنّ أمره كلّهُ له خَيْر، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبرَ فكان خيراً له» . وقد مرّ في تفسير الآية الخامسة والأربعين من هذه السورة الكريمة معنى قوله عز وجلّ : ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ وأشرت إلى أن الصبر والصلاة من أعظم العون على القيام بأوامر الله والاستراحة من عناء الحياة ومشقتها، وأنه بالصبر واليقين تُنالُ الإمامة في الدين وأن الله أمر رسوله وحبيبه محمدا ﷺ بالصبر والصلاة للاستراحة من أذى المشركين حيث يقول : ﴿فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبّح وأطراف النهار لعلك ترضى﴾ وفي قوله عز وجل : ﴿إن الله مع الصابرين﴾ بشارة عظيمة بأن الصابرين يمنحهم الله مَعِيّتَه الخاصّة التي معناها النصر والعون والتأييد

والتسديد والهداية والتـوفيق، وذلك لأن مَعِيَّةَ الله لخلقه تنقسم إلى قسمين: معية خاصة بـالمعنى الذي وصفت، ومعية عامة ومعناهـا العلم، فهو تبارك وتعـالى مع جميع خلقه بعلمـه لا تخفى عليـه خافيـة مهما كانت من شئـونهم وأحوالهم، والله تبارك وتعالى فوق عرشـه العظيم بذاته، مباينٌ لجميع خلقه، ولا شك أن بشـارة الله لعبـده الصـالح بأنـه معـه هي أعظم البشـائر وأوثق أسباب النصر، ولذلك لما أمـر الله عز وجل موسى وهارون بدعـوة فرعون إلى الله عز وجل ذكـرا أنهما يخافان أن يسبق فرعون إلى عقـوبتهما بالسجن أو غيره أو أن يطغى فيقتلهما قبل سماع دعوتهما فطمأنهما الله عـز وجلّ بأنه معهما وفي ذلك يقول عـز وجلّ: ﴿اذهبا إلى فرعون إنـه طغى* فقولا له قولا ليّنـا لعله يتذكر أو يخشى* قالا ربّنا إننـا نخاف أن يفرُط علينا أو أن يطغى* قال: لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾ وقـد ذكر الله عـز وجل أن فرعـون وجنوده لما صمّموا على القضـاء على موسى عليه السـلام وقومه أوحى الله إليـه بالخروج بقومـه ليلا، وأشار عليـه بسرعة السير فلما خرج موسى وقـومه سارع فـرعون وجنوده ليدركوهم ويستأصلوهم، فلما تـراءى الجمعان قال أصحاب موسى لموسى عليه السـلام: دنا وقت قضـائهم علينا ولا مفـر لنا؛ لأن البحـر كان أمامهم والعدو وراءهم والجبـال عن يمينهم وشمالهم فلا مفر لهم، فطمأنهم موسى عليـه السلام بأنه لا خـوف عليهم مبينا لهم أن الله عـز وجل وعده أن يكون معنا وما دام الله معنا فلن ينتصر علينـا فرعونُ ولن يتمكن من القضاء علينا، فأمره الله عز وجل أن يضرب البحر بعصاه فضرب لهم طريقا في البحر يَبَسًا، وفي ذلك يقـول عز وجل: ﴿وأوحينا إلى مـوسى أن أَسْرِ بعبادي إنكم مُتَّبَعُـون * فأرسل فرعـــون في المدائــن حاشـرين * إن هـٰؤلاء لشــــرذمة قليلـون* وإنهم لنـا لغائظـون * وإنـا لجميعٌ حـاذرون * فأخرجـــناهـم من جنـات وعيـون * وكنوز ومقـام كـريم * كـذٰلك وأورثنـاهـا بني إسرائيل *

فأتبعوهم مُشْرِقين * فلما تـراءى الجمعان قال أصحاب موسـى إنا لَـمُدْرَكُون * قـال كلا إنّ معي ربي سيهـدين * فأوحينـا إلى موسى أن اضرب بعصـاك البحر فانفلق فكان كلّ فِرْق كـالطَّوْدِ العظيم* وأزلفنا ثَمّ الآخرين* وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين﴾ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذه المعية الخاصـة التي يؤيد بها عباده المؤمنين في مواضع من كتـابه الكريم لتكون نبراسا يهتدي بها المؤمنون ويسعى لطلبها الصالحون حيث يقول: ﴿إن الله مع الـذين اتقَوْا والـذين هم محسنون﴾ ويقـول عز وجل في قصـة اختفاء رسول الله ﷺ في غـار ثور من قـريش مع صاحبـه وحبيبه أبي بكـر الصديق رضي الله عنه وهما في طريق الهجرة إلى المدينة وقد بحثت قريش عنهما وتتبّعت آثارهما حتى وقفت على رأس الغـار فخاف أبو بكـر رضي الله عنه أن يصيب رسولَ الله ﷺ سوءٌ من قـريش وحَزِن لذلك فطمأنـه رسول الله ﷺ بنفس ما طمأن به مـوسى قومه الخائفين من فـرعون وجنوده حيث قـال رسول الله ﷺ لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: «لا تحزن إن الله معنا» وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿إلاَّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الـذين كفروا ثانيَ اثنين إذْ هما في الغـار إذ يقول لصـاحبـه لا تحزن إن الله معنا فأنـزل الله سكينتـه عليه وأيّـده بجنود لم تَرَوْها وجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى، وكلمةُ الله هي العليا، والله عزيز حكيم﴾ وقـوله عز وجل: ﴿ولا تقولـوا لمن يُقْتل في سبيل الله أمواتٌ، بل أحياءٌ ولَكن لا تشعـرون﴾ ينبه الله تبارك وتعالى المسلمين إلى عـدم إطلاق لفظ الموتى على الشهـداء الذين يُقتَلـون في سبيل الله سواءٌ كـانوا قـد قُتِلوا في معركـة مع الكافرين كشهـداء بدر وغيرهم أم قُتِلوا في غير المعركـة كسُمَيّة أمّ عمار بن ياسر رضي الله عنها التي كان عدُوّ الله أبو جهل يعذبها بالنار ويقول لها: اذكري آلهتنا بخير واذكري محمدا بسوءٍ، فتشهد أن محمدا رسول الله ﷺ فضربها بحربته فقتلها فكانت أول شهيد في الإسلام، وقد أخبر الله عز وجل

أن الشهداء أحياءٌ عند ربهم يُرْزَقـون، وليس المقصود من هذه الحياة أنها حياةٌ دنيويـة بل هي حياةٌ برزخيّـة خاصةٌ منحهـا الله تبارك وتعالى للشهـداء، وقد فسرهـا رسول الله ﷺ فقـد روى مسلم في صحيحـه من طريق مسروق قـال: سألنا عبـد الله بن مسعود عن هذه الآية: ﴿ولا تحسبنّ الـذين قُتِلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ الآية، قال: إنا قد سألنا عن ذلك. فقال: «أرواحُهم في أجـواف طير خضرٍ، لها قناديل معلقة بـالعرش، تسرح من الجنـة حيث شـاءت، ثم تأوي إلى تلك القنـاديل، فـاطّلع عليهم ربّهم اطّلاعـةً فقال: هل تشتهون شيئا؟ قـالوا: أيّ شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنـا، ففعل ذلك بهم ثلاث مـرات، فلما رأَوْا أنهم لن يتركوا من أن يسألـوا، قالـوا: يا رب نـريـد أن تردّ أرواحنـا في أجسادنـا حتى نُقْتَل في سبيلك مرّة أخـرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُـركوا». وقولـه عز وجل: ﴿ولَكن لا تشعرون﴾ يـوحي بأن حياة الشهداء لا يعلمهـا إلا الله عز وجل، ومـا دام قد أخبر ربُّ العـزة جل وعلا أن الشهـداء أحياء عنـد ربهم يرزقـون وعلّمنا رسول الله ﷺ بعض صور من حياتهم التي أعلمه الله عز وجل بها فما علينا إلا التسليم، مع يقيننا أنهم فارقوا الحيـاة الدنيا، وأن أرواحهم خرجت من أجسادهم كما يدل عليه الحديث الصحيح المتقـدم حيث قالوا: نريد أن تردّ أرواحنـا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخـرى. لكننا لا نسميهم أمواتا وإنما نسميهم شهداء، وقوله عز وجل: ﴿ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصـابرين * الذين إذا أصابتهـم مصيبة قالـوا إنّا لله وإنّـا إليه راجعـون﴾ أي ولنختبرنكم بقليل من الخوف الـذي يحصل لكم من إرجاف عـدوكم بكم وبقليل من الجوع بسبب قحطٍ يصيبكم أو حصارٍ من عـدوكم وذهاب بعض أمـوالكم وموت بعض أحبابكم، وعـدم تمام ثمرة مزارعكم إمـا لجائحة أو غيرها، فـاصبروا على ما

يصيبكم وبشّر يا من تتأتى منه البشارة هؤلاء الصابرين الذين إذا نزل بهم بلاء من خوف أو جوع أو نقص من الأموال والأنفس والثمرات واحتسبوا ما يصيبهم عند الله عز وجل واسترجعوا وحبسوا أنفسهم عن الجزع وأيقنوا أن الذي عند الله خير لهم وأن لله ما أخذ ولله ما أعطى وكل شيء عنده بمقدار، وقالوا: إنا لله مُلكا ومِلكا يتصرف فينا كيف يشاء ونحن راضون بقضائه حامدون له في السراء والضراء، وأن مرجعنا إليه. وقوله عز وجل: ﴿أولَئك عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمة وأولَئك هم المهتدون﴾ أي هؤلاء الأماجد الكرام الصابرون المحتسبون لهم من الله عز وجل ثناء حسنٌ وعفوٌ عنهم ومغفرة لذنوبهم ورحمة وإحسان وجود من الله عليهم وأولَئك هم أهلُ الاهتداء السالكون سبيل الرشاد، الموفقون لما يرضي ربّ العالمين. وقد بشّر رسول الله ﷺ المسلم بأن أيّ أذى يصيبه يكفّر الله به من خطاياه، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ما يصيب المسلمَ من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمّ ولا حَزَنٍ ولا أذًى ولا غمٍّ حتى الشوكة يُشَاكُها إلا كفر الله بها من خطاياه». وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنّا لله وإنا إليه راجعون اللهم أْجُرني في مصيبتي وأخلِف لي خيراً منها إلا أخلف الله له خيرا منها» قالت: فلما مات أبو سلمة قلتُ: أيّ المسلمين خيرٌ من أبي سلمة، أوّل بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إني قلتها، فأخلَفَ الله لي رسول الله ﷺ. الحديث. وفي لفظ لمسلم عنها رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهمَّ أْجُرني في مصيبتي وأخلِف لي خيرا منها، إلا أَجَره الله في مصيبته وأخلف له خيرا منها» قالت: فلما توفي أبوسلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله لي خيرا منه رسولَ الله ﷺ.

قال تعـالى: ﴿ إنّ الصّفا والمروةَ من شعـائر الله فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يَطّوف بهما، ومن تطوّع خيرا فإنّ الله شاكر عليم﴾.

بعـد أن ذكـر الله تبـارك وتعـالى قصـة رفع إبـراهيم القـواعـد من البيت وإسماعيل ودعـوتهما بأن يجعل الله من ذريتهما أمـة مسلمـة وأن يبعث فيهم رسـولا منهم، وقـرر أنّ الحق والهدى في ملة إبـراهيم وليس في اليهـوديـة ولا النصرانية، وبعد أن أمـر رسوله محمدا ﷺ والمسلمين بـاستقبال البيت الحرام الذي هو قبلـةُ إبراهيم وإسماعيل، وذكر أنه أتـم النعمة على المسلمين ببعثة رسـول الله ﷺ المتّبع لملـة إبـراهيم عليـه السـلام والـداعي لإحيـاء الحنيفيـة السمحـة عمـلاً بقولـه عـز وجلّ: ﴿ثم أوحينـا إليك أن اتبع ملـة إبـراهيم حنيفا﴾ وكان السعي بين الصفـا والمروة من الشعائر الثابتة من عهـد إبراهيم عليـه السـلام كما ذُكِرَ في حـديث ابن عبـاس رضي الله عنهما في قصـة سعي هاجـر بينهما للبحث عن الماء لها ولولدهـا إسماعيل عليه السـلام سبع مرات الـذي رواه البخاري والـذي سقت نصّه في تفسير قـولـه تعالى: ﴿وإذ يـرفع إبراهيم القـواعد من البيت وإسماعيل﴾ حيث قال رسـول الله ﷺ: «فلذلك سعى النـاس بينهما» ذكر هنـا أن الصفا والمروة من شعـائر الله ومعالم دينـه في شريعة الإسلام الـذي بعث بها خاتـم رسله وسيد أنبيائه محمـداً ﷺ، ولزيادة تقـرير وتأكيـد أن الذي يـزعم أنـه يحبّ إبراهيم عليـه السلام يجب عليـه أن يسارع إلى الاستجابة لمحمد ﷺ المبعـوث بملة إبراهيم عليه السلام، وسبب نـزول قولـه عز وجل: ﴿إن الصفـا والمروة من شعائر الله﴾ الآيـة هو مـا رواه البخاري في صحيحه من طـريق الزهري قال عـروة: سألت عائشة رضي الله عنها فقلت لها: أرأيتِ قول الله تعالى: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوف بهما﴾ فوالله ما على أحدٍ جُناح

أن لا يطوف بالصّفا والمروة، قالت: بئسما قلت يا ابن أختي، إن هذه لو كانت كما أوّلْتَها عليه كانت لا جُناح عليه أن لا يتطوّف بهما، ولكنها أُنزلت في الأنصار، كانوا قبل أن يسلموا يُهلّون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلّل، فكان من أهلّ يتحرّج أن يطوف بالصفا والمروة، فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، قالوا: يا رسول الله إنّا كنّا نتحرّج أن نطوف بين الصّفا والمروة فأنزل الله تعالى: ﴿إنّ الصفا والمروة من شعائر الله﴾ الآية.

قالت عائشة رضي الله عنها: وقد سنّ رسول الله ﷺ الطواف بينهما فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما، ثم أخبرتُ أبا بكر بن عبد الرحمن فقال: إنّ هذا لَعِلمٌ ما كنتُ سمعتهُ، ولقد سمعْتُ رجالا من أهل العلم يذكرون أن الناس إلا من ذكرت عائشة ممن كان يهلّ بمناة كانوا يطوفون كلّهم بالصفا والمروة، فلما ذكر الله تعالى الطواف بالبيت ولم يذكر الصفا والمروة في القرآن قالوا: يا رسول الله كنا نطوف بالصفا والمروة و إن الله أنزل الطواف بالبيت فلم يذكر الصفا، فهل علينا من حرج أن نطَّوَّف بالصفا والمروة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ الآية، قال أبو بكر: فأسمعُ هذه الآية نزلت في الفريقين كليهما: في الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا بالجاهلية بالصفا والمروة والذي يطوفون ثم تحرّجوا أن يطوفوا في الإسلام من أجل أن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت ولم يذكر الصفا حتى ذكر ذلك بعد ما ذكر الطواف بالبيت. وقد روى مسلم هذا الحديث من طريق الزهري أيضا عن عروة بن الزبير قال: قلت لعائشة زوج النبيّ ﷺ: ما أرى على أحد لم يطف بين الصفا والمروة شيئا، وما أبالي أن لا أطوف بينهما، قالت: بئس ما قلت يا ابن أختي، طاف رسول الله ﷺ وطاف المسلمون فكانت سنّة، و إنما كان من أهَلّ لمناةَ الطاغيةِ التي بالمشلّل لا يطوفون بين الصفا والمروة، فلما كان الإسلام سألنا النبي ﷺ عن ذلك فأنزل الله عز وجل: ﴿ إنّ الصفا والمروة من

شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما﴾ ولو كانت كما تقول لكانت: فلا جناح عليه أن لا يطّوّف بهما، قال الزهري: فذكرت ذلك لأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فأعجبه ذلك وقال: إنّ هذا العلم، ولقد سمعت رجالا من أهل العلم يقولون: إنما كان من لا يطوف بين الصفا والمروة من العرب يقولون: إنّ طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية، وقال آخرون من الأنصار: إنما أمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر به بين الصفا والمروة، فأنزل الله عز وجل ﴿إنّ الصفا والمروة من شعائر الله﴾ قال أبو بكر بن عبد الرحمن فأُراها قد نزلت في هؤلاء وهؤلاء.

كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق عاصم قال: قلت لأنس بن مالك رضي الله عنه: أكنتم تكرهون السعي بين الصفا والمروة؟ قال: نعم، لأنها كانت من شعائر الجاهلية حتى أنزل الله: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما﴾ وقول عائشة رضي الله عنها في حديثها: وقد سنّ رسول الله ﷺ الطّواف بينهما. لا تريد رضي الله عنها بقولها: (سنّ) معنى السنّة المقابلة للفريضة بل مرادها شرعية الطواف بين الصفا والمروة بل أشارت رضي الله عنها إلى وجوبه بدليل قولها بعد ذلك مباشرة: فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما.

ومما يؤكد ذلك ما رواه البخاري في صحيحه من طريق عمرو بن دينار قال: سألنا ابن عمر رضي الله عنه عن رجل طاف بالبيت في عمرة ولم يطف بين الصفا والمروة أيأتي امرأته؟ فقال: قدم النبيّ ﷺ فطاف بالبيت سبعاً، وصلى خلف المقام ركعتين فطاف بين الصفا والمروة سبعاً، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، وسألنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما فقال: لا يقربنّها حتى يطوف بين الصفا والمروة. اهـ والصفا والمروة جبلان معروفان بمكة هما أقرب الجبال لبيت الله الحرام كان يفصل بينهما الوادي، و(ال) فيهما

للتعريف بأن المراد الطواف بين هذين الجبلين المعروفين المعهودين، إذ الصفا في الأصل جمع صفاة وهي الصخرة الصماء الملساء الصلدة التي لا تنبت الخالية من الطين والتراب، والمروة قال الخليل: هي من الحجارة ما كان أبيض أملسَ صلباً شديد الصّلابة، وأشار بعضهم إلى أنه ما كان من هذه الحجارة حالة كونه صغيرا، وليس كلّ صفا أو مروة يطوّف بينهما فلذلك وصفت اللام في قوله تعالى: ﴿إن الصفا والمروة﴾ بأنها للعهد، وقوله عز وجل: ﴿من شعائر الله﴾ أي من معالم الدين التي جعلها الله تبارك وتعالى معلماً ومشعراً لعبادته عز وجل عندها بما يرسمه لهم من الطواف عندها فكأنه قيل: إن السعي بين هذين الجبلين من شعائر الله ومن أعلام دينه، وقد شرعه الله تبارك وتعالى لأمة محمد ﷺ كما شرعه لخليله إبراهيم عليه السلام من قبل فهو من المناسك التي أراها الله تبارك وتعالى لإبراهيم إذ دعاه بقوله: ﴿وأرنا مناسكنا﴾ ولما كان السعي بين الصفا والمروة لا يعتبر من شعائر الله إلا في حج أو عمرة فلذلك أوضح الله تبارك وتعالى ذلك حيث قال: ﴿فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما﴾ والحج في اللغة هو القصد إلى شيء معظّم وفي الاصطلاح الشرعي هو أفعال وأقوال مخصوصة تؤدى في زمان مخصوص، والحج هو أحد أركان الإسلام، وأما العمرة فهي في اللغة الزيارة، وفي الإصطلاح زيارة البيت الحرام على صفة مخصوصة، ومعنى: ﴿فمن حج البيت﴾ أي قصد البيت الحرام للحج، وقوله: ﴿أو اعتمر﴾ أي أو زار البيت الحرام لأداء العمرة، وقوله عز وجل: ﴿فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما﴾ أي فلا تتحرّجوا يا من كنتم تتحرّجون في السعي بين الصفا والمروة، فإن السعي بين الصفا والمروة من شعائر الله التي شرعها لعباده ليزدلفوا بها إليه جلّ وعلاَ. وقد أعلن رسول الله ﷺ أن السعي بين الصفا والمروة من مناسك الحج وبيّن ذلك بفعله وقوله ﷺ، فقد روى مسلم

في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في صفة حجة رسول الله ﷺ قال: حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن فرَمَل ثلاثا ومشى أربعا ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ ﴿واتّخذوا من مقام إبراهيم مصلّى﴾ فصلى ركعتين فجعل المقام بينه وبين البيت، ثم رجع إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصفا فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ أبدأ بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا فرقي عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحّد الله وكبّره، وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لاإله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة حتى إذا انصبّت قدماهُ في بطن الوادي سعى، حتى إذا صعدتا مشى حتى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا. الحديث. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسيره: إن معنى ذلك: ومن تطوع بالحج والعمرة بعد قضاء حجته الواجبة عليه فإن الله شاكر له على تطوعه له بما تطوّع به من ذلك ابتغاء وجهه فمجازيه به، عليم بما قصد وأراد بتطوّعه بما تطوّع به، وإنما قلنا: إن الصواب في معنى قوله: ﴿فمن تطوع خيرا﴾ هو ما وصفنا دون قول من زعم أنه معنيّ به: فمن تطوع بالسعي والطواف بين الصفا والمروة، لأن الساعي بينهما لا يكون متطوعا بالسعي بينهما إلا في حج تطوّع أو عمرة تطوّع اهـ.

قال تعـالى : ﴿إن الذين يكتمون ما أنـزلنا من البينات والهدى من بعـد ما بيّنّاه للناس في الكتاب أولّئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون* إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فأولّئك أتوب عليهم، وأنا التواب الرحيم* إن الذين كفروا وماتوا وهم كفـار أولّئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين* خـالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ .

بعد أن بين الله تبارك وتعالى في مقامات سـابقة من هذه السورة المباركة أن أهل الكتـاب يكتمون الحق وهم يعـرفونه محذرا مـن سلوك طريقهـم في هذا السبيل حيث قـال في الآية الثـانية والأربعين من سـورة البقرة : ﴿ولا تلبسـوا الحق بـالبـاطل وتكتمـوا الحقّ وأنتم تعلمـون﴾ ويقـول في الآيـة السـادسـة والسبعين من هـذه السـورة : ﴿وإذا لقوا الـذين آمنـوا قـالوا آمنـا وإذا خـلا بعضهم إلى بعض قـالـوا أتحدثـونهم بما فتح الله عليكم ليحـاجوكم بـه عنـد ربكم، أفلا تعقلـون﴾ ويقول في الآية الأربعين بعـد المائة من نفس السورة : ﴿ومن أظلـم ممن كتم شهـــادة عنـــده من الله، ومـــا الله بغـــافل عما تعملون﴾ويقول في الآية السادسة والأربعين بعد المائة منها : ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعـرفونـه كما يعرفـون أبناءهم وإن فـريقا منهم ليكتمـون الحق وهم يعلمون﴾ وبعد أن عرّف الله تبارك وتعالى المسلمين بنعمة الله تعالى عليهم إذ أرسل لهم أفضل رسله، وخـاتم أنبيائه محمـدا ﷺ، وأمرهـم بـالصبر على ما يصيبهم، وبيّن لهم فضل الصـابـريـن، وربط بين شريعـة محمـد ﷺ وملـة إبـراهيم بتعـريفهم أن السعـي بين الصفـا والمروة من شعـائر الله في الحج أو العمرة، وهما من المناسك التي أراها الله تعـالى لإبراهيم عليه السلام ولمحمد ﷺ دعوة إبراهيم عليه السلام القائل : ﴿وأرنا مناسكنا﴾ حذّر المسلمين أشد التحذيـر من أن يسلكوا مسلك أهل الكتـاب في كتمان شيء من العلم، وأنّ من يكتم شيئـا من العلم والبينـات والهدى التي بيّنهـا الله تعالى في الكتـاب

يستحق لعنة الله من أي لون كان أو من أي جنس، حتى ولو كان منتميا للإسلام لأن المفروض على المسلمين أن يحذروا أشدّ الحذر مما وقع فيه اليهود والنصارى من كتمان الحق بعد أن علموا أنّ الله لعنهم على كتمانهم الحقّ، ولذلك قال هنا: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولَئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ أي إن كلّ من كتم الحق من دين الله الذي يجب بثه ونشره لمسيس الحاجة إليه وقد بيّنه الله في كتابه أو بيّنه رسول الله ﷺ مما لا غنى للمسلمين عن معرفته ليسلكوا به صراط الله المستقيم، ولا ينحرفوا عن المنهج القويم فإن الله تبارك وتعالى ينزل لعنته على هؤلاء الكاتمين للحق بعدما عرفوه ويطردهم من رحمته، ويحلّ بهم سخطه، كما أن الله تبارك وتعالى يجعل لعنة اللاعنين من الملائكة والمؤمنين على هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى من بعد ما بينه للناس في الكتاب. ولذلك أكّد الله تبارك وتعالى هذا التحذير من كتمان العلم في الآية الرابعة والسبعين بعد المائة وفي الآية الخامسة والسبعين بعد المائة من هذه السورة المباركة حيث قال: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولَئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم* أولَئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار﴾ وقد روى البخاري في صحيحه من طريق الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن الناس يقولون: أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان في كتاب الله ما حدّثت حديثا ثم يتلو: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى﴾ إلى قوله: ﴿الرحيم﴾، إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصّفْقُ بالأسواق، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العملُ في أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشبعِ بطنه، ويحضر ما لا يحضرون، ويحفظ ما لا يحفظون. وقد روى

أبوداود والترمـذي وحسّنه وابن مـاجه وابن حبـان في صحيحه والبيهقي من حديـث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال: «من سئل عن علم فكتمه ألجمـه الله بلجام مـن نار يوم القيـامة». ولا شـك أن هذا الـوعيد لا يشمل من علم من حال سائلـه أنه غير مدرك لما يسمع من العلم، وأنه ربما يحمل الكلام على غير محملـه، ويذهب به في غير مذهبه، فلـم يحدثه خوف أن يكون حـديثه لـه فتنة، قال البخـاري في صحيحه: بـاب من ترك بعض الاختيار مخافـة أن يقصر فهم بعض الناس عنـه فيقعوا في أشـدّ منه، حـدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن الأسود قال: قال لي ابن الزّبير كـانت عائشـة تسرّ إليك كثيرا، فما حدّثتك في الكعبـة؟ قلت: قالت لي: قال النبي ﷺ: «يا عائشة لولا قـومك حديثٌ عهدهم» قال ابن الزبير: بكفـر، «لنقضت الكعبـة فجعلت لها بـابين، باب يـدخل النـاس، وبـاب يخرجون» ففعلـه ابن الزبير. ثم قال البخـاري: باب من خص بالعلم قـوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا وقال عليّ: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكـذّب الله ورسـوله. وقـد ثبت أن عمـر رضي الله عنـه أراد أن يخطب بمنى خطبة للتحـذير من بعض الأمور الخطيرة فأشـار عليه عبد الـرحمن بن عوف رضي الله عنه بتأجيل إلقائهـا حتى يصل إلى المدينة النبوية وذكـر عبد الرحمن رضي الله عنـه لعمر رضي الله عنـه أن الموسم يجمع رعاع النـاس وغوغـاءهم وأنهم ربما لا يفهمون مـا يقول عمر رضي الله عنـه فيحملون كـلامه على غير محملـه، ولكن المدينة إنما يكـون حـوله الفقهـاء وأشراف النـاس فيعي أهل العلم مقالته، فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت أقرئُ رجـالا من المهاجرين، منهم عبـد الرحمن بن عوف، فبينما أنا في منزلـه بمنى وهو عند عمر بن الخطاب في آخـر حجّة حجّها، إذ رجع إليّ عبد الرحمن، فقـال: لو رأيت رجلا أتى أمير المؤمنين اليـوم فقال: يا أمير

المؤمنين هل لك في فلان يقول لـو قد مات عمر لقد بايعتُ فـلانا، فوالله ما كانت بيعـة أبي بكر إلا فلتـة فتمّت، فغضب عمر ثم قـال: إني إن شاء الله لقـائم العشيـة في النـاس فمحذرهـم هؤلاء الـذين يـريـدون أن يغصبـوهم أمـورهم، قـال عبد الـرحمن: فقلت: يـا أمير المؤمنين لا تفعل، فإن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءَهم، فإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس، وأنـا أخشى أن تقوم فتقول مقالـة يطيّرها عنك كل مطيّر، وأن لا يعوها، وأن لا يضعوها على مـواضعها، فأمهل حتى تقدم المدينة، فإنها دار الهجرة والسّنة، فتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس فتقول ما قلت متمكنا، فيعي أهل العلم مقالتك، ويضعونها على مواضعها، فقال عمر: أما والله إن شاء الله لأقومن بذلك أوّل مقام أقومـه بالمدينة. الحديث. وقوله عز وجل:
﴿إلا الذين تابـوا وأصلحوا وبيّنوا فأولٓئك أتوب عليهم وأنـا التواب الرحيم﴾
أي إلا الـذين رجعوا إلى الله ونـدموا على كتمان العلـم وأصلحوا الـذي كانـوا أفسدوه كما أصلحوا سرائرهم ونيّاتهم، وبيّنوا للناس ما كانوا يكتمونه فإن الله تبارك وتعالى يتوب عليهم ويغفر لهم خطـاياهم، ويبدّل سيئاتهم حسنات، لأن الله هـو التوّاب الـرحيم، فإن الله تبـارك وتعـالى يقبل التوبـة عن عبـاده ويعفو عن السيئات وهو أرحم الراحمين، فمن تاب تاب الله عليه، على حد قوله عز وجلّ: ﴿قل يا عبـادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هـو الغفور الرحيم﴾ فمهما كانت معاصي الإنسان وسيئـاته فإن عفو الله أكبر منهـا، ولذلك لما قـال رجل في رجل كان كثير المعاصي: والله لا يغفـر الله لفلان، فأحبط الله عمل المتألي عليـه وغفر ذنوب العـاصي، فقد روى مسلم في صحيحـه عن جنـدبٍ رضي الله عنه أن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم حـدّث «أن رجـلا قـال: والله لا يغفـر الله لفلان، وإن الله تعالى قال: من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان، فإني قد

غفرت لفـلان وأحبطت عملك» أو كما قال. وقـوله عـز وجل: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفّارٌ أولٓئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ هذا بيان للتنبيه على أن من كفر بـالله ولم يتب إلى الله عز وجل من كفره، واستمر على كفره بالله ورسله إلى أن مـات على ذلك فإنه مستحق للعنة الله ومستحق لأن تلعنه الملائكة، ويلعنـه الناس كلّهم، وقوله عز وجل: ﴿خـالدين فيها لا يخفف عنهم العـذاب ولا هم ينظـرون﴾ أي مستقـرين في لعنـة الله حتى يـدخلوا نـار جهنم، ومهما صرخوا في النـار واستغاثـوا فلن يخفّف عنهم من عذابها، وتأتيهم لعنة الله ولعنة ملائكته ولعنة المؤمنين والكافرين كما قال عز وجل: ﴿ثم يوم القيامـة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كـذبـا أولٓئك يعرضـون على ربهم ويقول الأشهاد هٰؤلاء الذيـن كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾ وهذا دليل من الأدلـة الكثيرة القاطعة بأن من مات على الكفـر فهو من أهل النار المخلّـدين فيها المستحقين للعنـة الله الدائمة الأبـدية وأنهم لا تـوبة لهم بحال كما قال عـز وجل: ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السّـوء بجهالة ثم يتـوبـون من قـريـب فأولٓئك يتـوب الله عليهم، وكـان الله عليما حكيما﴾ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبتُ الآن ولا الذين يموتـون وهم كفّار أولٓئك أعتدنا لهم عـذابا أليما﴾، هذا وقد نقل غير واحـد من أهل العلم أنه لا خلاف بين علماء الإسـلام في جواز لعن الكفار غير المعَيَّنين، وقال ابـن العربي رحمه الله: إن لعن العاصي المعَيَّن لا يجوز اتفاقا اهـ. أما لعن الكفار المعينين في الدنيا وكذلك العصاة من غير الكفـار فإنـه لا ينبغي لعنهم لجواز أن يختم الله لهم بخير، وأمـا العصـاة غير المعينين ممن يرتكب جـرائم معينة فإنـه يجوز لعنه لقـول رسول الله ﷺ: «لعن الله السارق يسرق البيضـة فتقطع يده». على أنـه ينبغي للمسلم أن لا يكون

لعّانا، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينبغي لصِدّيق أن يكون لعّانا»، كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن اللعّانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة». فلا ينبغي لمسلم أن يلعن إلا من لعنه الله عز وجل وقد حذّر رسول الله ﷺ أشد التحذير من لعن المؤمن فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي زيد ثابت ابن الضحاك الأنصاري وهو من أهل بيعة الرضوان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين بملة غير الإسلام كاذبا متعمدا فهو كما قال، ومن قتل نفسه بشيء عُذِّب به يوم القيامة، وليس على رجل نذرٌ فيما لا يملكه، ولعنُ المؤمن كقتله».

قال تعالى : ﴿وإلهكم إلٰه واحد لا إلٰه إلا هو الرحمن الرحيم * إن في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابّة وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ .

هذه هي الدعوى الكبرى وبرهانها الكبير، وقد كان الكلام من أول هذه السورة المباركة عن أقسام المكلفين من عباد الله حيث بين أنهم ثلاثة أقسام: مؤمنون وكافرون صرحاء بالكفر، ومنافقون. ثم دعا الناس جميعا إلى عبادة الله وحده لاشريك له وأقام الدليل على وجوب عبادته وحده بأنه خلقهم وخلق الذين من قبلهم وأنه جعل لهم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لهم ونهاهم عن عبادة الأصنام والأوثان، وتحداهم بالقرآن، وأنذر من كفر بالنار وبشر من آمن بالجنة ولفت انتباههم بما ضرب لهم من أمثال، ثم ساق قصة خلق الإنسان وما تحدثت به الملائكة، وبين بعض ما منحه لآدم عليه السلام من علوم ومعارف، وذكر قصة إبليس عدوّ الإنسان، وما ترتب على ذلك من إهباط آدم وزوجه حواء وإبليس إلى الأرض، وتحذير آدم وذريته من إبليس لعنه الله، ثم بيان أحوال بني إسرائيل ومواقفهم من أنبياء الله ورسله ومعاداتهم لسيد المرسلين محمد ﷺ الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ثم نبّه المسلمين إلى نعمته الكبرى بإرساله محمدا ﷺ الداعي إلى ملة إبراهيم عليه السلام رافع القواعد من البيت الحرام، الذي أراهُ الله المناسك وعرّفه المشاعر التي منها الصفا والمروة، ثم شدّد النكير على من يكتم ما أنزل الله من البينات والهدى الذي بيّنه الله للناس في الكتاب وأعلم خلقه بأن من مات على الكفر فهو من أهل النار

الخالدين فيها، بدأ من هذا المقام في هذه السورة المباركة في توجيه الخطاب إلى جميع المكلفين من جميع الأجناس معلنا كلمة التوحيد التي لا يحل لأحد أن يكتمها لأنها الحقيقة الكبرى التي من أجلها خلق الله السموات والأرض وما بث فيهما من دابة، ومن أجلها خلق الإنس والجنّ وأقام سوق الجنة والنار، فقال: ﴿وإلهكم إلَه واحد لاإلَه إلا هو الرحمن الرحيم﴾ وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على جملتين: الأولى ﴿وإلهكم إلَه واحد﴾ والجملة الثانية ﴿لا إلَه إلا هو الرحمن الرحيم﴾ ومعنى الجملة الأولى: أي ومعبودكم الحق الذي يستحق وحده أن يُعْبَد وأن تُصْرَف لوجهه الكريم جميع ألوان العبادة، وسائر أنواع المناسك، وأن يُبذل له أقصى غاية الحب مع أقصى غاية الخوف والذّل، وأن تَأْلهَهُ القلوبُ، وتتولّه بحبه النفوس لأنه ربّها وباريها ووليها ورازقها، وأصل التألّه التعبّد ومنه قول رؤبة بن العجّاج:

لله درّ الغانيات المدّه   سبّحْن واسترجعن من تألهي

أي من تعبّدي وطلبي الله بعملي، والله تبارك وتعالى يتألّه الخلقُ إليه في حوائجهم، ويتضرعون إليه عند شدائدهم، ولما كانت هذه الجملة وهي قوله عز وجل: ﴿وإلهكم إلَه واحد﴾ إثبات مجرّد أتبعه بالجملة الثانية وهي قوله عز وجل: ﴿لا إلَه إلا هو الرحمن الرحيم﴾ المشتملة على نفي جميع من يستحق أن يكون إلها وإثبات الإلهية لله وحده بطريق الحصر، قال ابن أبي العزّ الحنفي شارح العقيدة الطحاوية في قول الطحاوي رحمه الله: (ولا إله غيره) هذه كلمة التوحيد التي دعت إليها الرسل كلّهم كما تقدم ذكره، وإثبات التوحيد بهذه الكلمة باعتبار النفي والإثبات المقتضي للحصر فإن الإثبات المجرّد قد يتطرق إليه الاحتمال، ولهذا ـ والله أعلم ـ لما قال تعالى: ﴿وإلهكم إلَه واحد﴾ قال بعده ﴿لا إلَه إلا هو الرحمن الرحيم﴾ فإنه قد يخطر ببال أحدٍ خاطر شيطاني: هب أنّ إلهنا واحد فَلِغَيْرنا إله غيره، فقال تعالى:

﴿لاإلَـه إلا هـو الرحمن الرحيم﴾ . اهــ وإنما كـانت لا إلـه إلا الله هي كلمـة التوحيد لأنها تقتضي نفي جميع ما يعبد من دون الله وإثبات الإلهية لله وحده، وقد شهد الله تبارك وتعالى لنفسه بهذا التوحيـد وشهدت به له ملائكته الكرام وأنبياؤه ورسله وأولو العلم حيث يقول عز وجل : ﴿شهد الله أنه لا إلَه إلا هو والملائكة وأوْلواْ العلم قائما بالقسط لا إلَـه إلا هو العزيز الحكيم﴾وأوجب الله تبارك وتعـالى معرفـة معنى لا إله إلا الله حيث قـال : ﴿ فاعلم أنـه لا إلَه إلا الله﴾ وأخبر رسول الله ﷺ أنّ من كـان آخر كـلامه لا إلـه إلا الله دخل الجنة وأن الله تعـالى حرّم النـار على من قال : لا إلـه إلا الله ، يعني موقنـا بمعناهـا ومـات على ذلك ، فقـد روى البخـاري ومسلم في صحيحيهما من حـديث عُتْبان بن مالك الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إنّ الله حرّم على النار مـن قال لا إله إلا الله يبتغـي بذلك وجـه الله» ، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال : «ما من عبد قـال : لا إلـه إلا الله ثم مـات على ذلك إلا دخل الجنـة» . وكلمة التـوحيـد تقتضي من العبد إخـلاص التوحيد لله والإيمان بـأنه لا شريك له في ربـوبيته وألوهيتـه وأسمائه الحسنى وصفاتـه العلى وأنّ على العبد أن يثبت لله جميـع ما أثبته الله تعـالى لنفسه أو أثبته له رسـوله من غير تحريف ولا تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تأويل ولا تشبيـه وأنه ليس كمثلـه شيء وهو السميع البصير، ولما كان توحيد الله عز وجل بهذه المثابـة أتبع الله تبارك وتعالى وجوب توحيده بالآية التي اشتملت على البراهين القـاطعة الدالة على أنه الإله الـواحد الذي خلق كل شيء وأحكمـه وأتقنـه فقـال عـز وجل : ﴿إن في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التـي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء مـن ماء فأحيا به الأرض بعد مـوتها وبث فيها من كل دابـة وتصريف الريـاح والسحـاب المسخّـر بين السماء والأرض لآيات لقـوم

يعقلون﴾ وقد اشتملت هـذه الآية الكريمة على كتـاب الكون الذي لا تنتهي صفحاته، والتي أودع الله تعالى في كل صفحـة من صفحاته ما لا ينتهي من أدلة وحدانيتـه، التي لو أفنى جميع الباحثين أعمارهم في أنحاء الـدنيا إلى يوم القيامـة ما انتهـوا من دراسة هـذه الصفحات التي احتـواها كتـاب الكون، والتي تـدور كلّها على إثبـات أن الذي صنعهـا إله واحـد، هو الحي القيـوم الرحمن الرحيم الـذي يقول: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجـرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله، إن الله عزيز حكيم﴾، وقد ذكر الله تبارك وتعـالى في هذه الآية الكريمـة سبعة أنواع من أدلـة وحدانيته، الأول منها: هـو خلق السموات والأرض، والثاني: اختـلاف الليل والنهار، والثالث: الفلك التي تجري في البحـر بما ينفع الناس، والرابع: مـا أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، والخامس: ما بثّه الله عز وجل فيهـا من كل دابـة، والسـادس: تصريف الـريـاح، والسـابع: السحـاب المسخّر بين السماء والأرض، وقـد اشتمل كل نـوع من أنواع هـذه الأدلة على دقائق من العلم لا حـدّ لها ولا حصر، وقد ذكر الفخر الـرازي في تفسير هذه الآية فصولا طويلة، ومسائل كثيرة في شرح هذه الدلائل التي يستدل بها على وجـوده سبحانـه أوّلا وعلى تـوحيده وبـراءته عن الأضـداد والأنـداد ثانيـا، والمقصـود من السموات في قـولـه عز وجـل: ﴿إن في خلق السمٰوات﴾ مـا يشمل السماء المبنيـة التي جعلها الله تبـارك وتعالى سقفـا محفوظـا، وأسكنها ملائكته الكـرام ويشمل سائر الجهات العليا التي فيهـا الكواكب، ولا شك أن مدار النظر والفكر يكفي فيه التفكر في الكواكب التي خلقها الله عز وجل بحيث تبصرهـا العيـون مع الانتفـاع العظيم بها في شئـون الأرض مع البعـد الشاسع بينها وأبرز هذه الكواكب هي الشمس والقمر وبينهما عطارد والزهرة وفـوق هذه الأربعـة المريخ ثم المشتري ثم زحل، وتسمّى الكـواكب السبعـة

السيارة، وقد ميَّز الله تعالى كل كوكب منها بلونه وطبعه وفلكه، وقد عرف الناس صفرة عطارد وبياض الزهرة وحمرة المريخ ودُرّيّة المشتري وكمودة زحل، وجعل السلطان الظاهر للشمس، إذا ظهرت لم يبد منهن كوكب، وجعل كل واحد منها يسير في فلكه الذي لم يختل توازنه منذ خلقه الله من دهور طويلة وأحقاب بعيدة، وجعلها عز وجل على مقادير معينة من السرعة والبطء وجعلها مختلفة في جهات الحركات فبعضها من المشرق إلى المغرب، وبعضها من المغرب إلى المشرق، وبعضها شمالية وبعضها جنوبية كما قال الشاعر:

أيها المنكح الثريا سهيلا　　عمرك الله كيف يجتمعان

هي شامية إذا ما استقرت　　وسهيل إذا استقر يماني

فهذا الترتيب العجيب في تركيب هذه الأفلاك والكواكب وائتلاف حركاتها برهان ساطع على أنها صنع الحكيم العليم وأنها لم تكن كذلك جزافا وخبط عشواء، ولو قال قائل: إن بناءً عاليا وقصرا مشيدا وجد من غير موجد بل انضم التراب والماء من تلقاء أنفسهما ثم تولدت منهما لَبِنات ثم تركبت اللبنات من نفسها قصرا مشيدا، لحكم الناس على من يدّعي ذلك بالجنون، فثبت بالدليل العقلي القطعي أن هذه الكواكب صنع فاطر السموات والأرض الذي أتقن صنعته على حد قوله عز وجل: ﴿صُنْعَ اللهِ الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون﴾ وقد أدرك العلماء والعوام في جميع عصور التاريخ أنه لا غنى للإنسان عن معرفة حساب الشهور والسنين وقد نصب الله تبارك وتعالى لذلك الحساب الشمس والقمر كما قال عز وجل: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نورا وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذٰلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ وقد أدرك الناس كلهم على اختلاف مللهم ونحلهم وأوطانهم منافع الشمس والقمر،

وما جعل الله عز وجل لهما من أثر في حياة الناس ومعايشهم وقد ربطوا بين المد والجزر في البحار وبين ضوء القمر، فسبحان الذي أودع في كل كوكب من هذه الكواكب هذه الطبيعة، واختصه بما اختصه به من المقدار والوضع والشكل والطبع والصفة التي تشهد بأنها من تدبير الحكيم العليم السميع البصير الذي لا يعجزه شيء ولا يفوته شيء، وأنه الإله الحق الذي لا إله غيره ولا معبود بحق سواه، الذي أمسك هذه الكواكب في الفضاء وأجراها في فلكها على هذا النظام البديع ﴿إن الله يمسك السمٰوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده، إنه كان حليما غفورا﴾ .

أما الاستدلال على وحدانية الله عز وجل وبراءته من الأنداد والشركاء بِخَلْق الأرض فذلك لأن الله عز وجل هيأها ومهّدها وأقام فيها جميع أسباب العيش للإنسان في جميع أعصاره وأمصاره وأقطاره، وأرساها بالجبال الشواهق التي جعلها خزائن لخيرات ينتفع بها الإنسان من المعادن الجامدة والسائلة، وما أنبت في الأرض من النباتات التي يعيش بها الإنسان وما يحتاجه من الحيوان وغيره، وهذه الأرض مع اتساع رقعتها وتباين تضاريسها كأنها قطعة واحدة خلقت لإنسان واحد ومع ذلك يعيش عليها «بلايين» البشر ويجدون حوائجهم فيها وقد هيأ لهم مع أغذيتهم فيها أدويتهم وأكسيتهم، وقد لفت الله تبارك وتعالى انتباه الناس إلى أدلة ألوهيته وربوبيته وأنه لا إله غيره ولا رب سواه بما يبصرونه في الأرض حيث يقول : ﴿وفي الأرض قِطَع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صِنْوان وغير صِنوان يُسْقَى بماء واحد ونفضِّل بعضها على بعض في الأُكُل إن في ذٰلك لآيات لقوم يعقلون﴾ فمهما شرّقت أو غرّبت أو اتّجهت شمالا أو جنوبا فستجد الشواهد الظاهرة المعلنة أن الأرض صنع الحكيم العليم الذي لا شريك له ولا ربّ سواه، والنوع الثاني من أدلة التوحيد التي اشتملت عليها

هذه الآية الكـريمة هو اختلاف الليل والنهـار ومعنى اختلاف الليل والنهار هو تعاقبهما ومجيء كل واحد منهما خلف الآخر من أول الدنيا وإلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها مع اختلافهما في الطول والقِصَر والنور والظلمة والزيـادة والنقصان بحسب الأزمنة، كما أنهما يختلفان بحسب الأمكنـة. قال الفخر الرازي رحمه الله في تفسيره: فكل ساعة عينتها فتلك الساعة في موضع من الأرض صبح وفي مـوضع آخـر ظهـر وفي مـوضع ثـالث عصر وفي رابع مغـرب وفي خـامس عشـاء وهلم جـرّا، هذا إذا اعتبرنـا البـلاد المختلفـة في الطول، أمـا البلاد المختلفـة في العرض فكلّ بلد يكـون عرضـه الشمالي أكثر كانت أيامه الصيفية أطول ولياليه الصيفيـة أقصر، وأيامه الشتوية بالضد من ذلك فهذه الأحوال المختلفة في الأيام والليالي بحسب اختلاف أطوال البلدان وعرضها أمـرٌ مختلف عجيب، ولقد ذكر الله تعالى أمر الليل والنهـار في كتابه في عدة مواضع فقـال في بيان كونه مالـك الملـك: ﴿يولـج الليـل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ وقال في القصص: ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة مَنْ إِلَهٌ غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إلَه غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغـوا من فضله ولعلكـم تشكرون﴾ وفي الروم: ﴿ومـن آياته منـامكم بـالليل والنهـار وابتغـاؤكم من فضله إن ذُلـك لآيات لقـوم يسمعـون﴾ وفي لقمان: ﴿ألم تـر أن الله يولج الليل في النهـار ويـولج النهار في الليل وسخّـر الشمس والقمـر كلّ يجري إلى أجل مسمّى﴾ وفي الملائكة: ﴿يـولج الليل في النهار ويولج النهـار في الليل وسخّر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذالكم الله ربكم﴾ وفي يس: ﴿وآيـة لهم الليل نسلخ منـه النهـار فإذا هم مظلمـون﴾ وفي الزّمـر: ﴿يكـوّر الليل على النهـار ويكور النهـار على الليل

وسخّر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى﴾ وفي حم غافر: ﴿الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا﴾ وفي عمّ: ﴿وجعلنا الليل لباسا* وجعلنا النهار معاشا﴾ والآيات من هذا الجنس كثيرة وتحقيق الكلام أن يقال: إن اختلاف أحوال الليل والنهار يدل على الصانع من وجوه: الأول، أن اختلاف أحوال الليل والنهار مرتبط بحركات الشمس وهي من الآيات العظام، الثاني ما يحصل بسبب طول الأيام تارة وطول الليالي أخرى من اختلاف الفصول وهو الربيع والصيف والخريف والشتاء وهو من الآيات العظام، الثالث أن انتظام أحوال العباد بسبب طلب الكسب والمعيشة في الأيام وطلب النوم والراحة في الليالي من الآيات العظام، الرابع أنّ كون الليل والنهار متعاونين على تحصيل مصالح الخلق مع ما بينهما من التضاد والتنافي من الآيات العظام؛ فإن مقتضى التضاد بين الشيئين أن يتفاسدا لا أن يتعاونا على تحصيل المصالح، الخامس أن إقبال الخلق في أول الليل على النوم يشبه موت الخلائق أوّلا عند النفخة الأولى في الصور ويقظتهم عند طلوع الشمس شبيهة بعود الحياة إليهم عند النفخة الثانية، وهذا أيضا من الآيات العظام المنبّهة على الآيات العظام، السادس أن انشقاق ظلمة الليل بظهور الصبح المستطيل، فيه من الآيات العظام، كأنه جدول ماء صاف يسيل في بحر كدرٍ بحيث لا يتكدّر الصافي بالكدرِ ولا الكدر بالصافي، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكنا﴾، السابع أن تقدير الليل والنهار بالمقدار المعتدل الموافق للمصالح من الآيات العظام كما بيّنا أن في الموضع الذي يكون القطب على سمت الرأس تكون السنة ستة أشهر فيها نهارا وستة أشهر ليلا وهناك لا يتم النضج ولا يصلح المسكن لحيوان ولا يتهيّأ فيه شيء من أسباب المعيشة. اهـ ولا شك أن ما ذكره الفخر الرازي رحمه الله مع عظيم فائدته، وما لفت به انتباه الناس إلى بعض أسرار الكون في

اختـلاف الليل والنهار إلا أن صفحـات هـذا السفر الإلهي من آيـات الله في اختلاف الليل والنهار لا تستطيع الوفاء بها السطور الكثار ولا آلاف الأسفار فللـه في الليل والنهـار آيات لا يحصيهـا العـدّ ولا يحيط بها أحـد غير الخالق العظيم الـذي أحـاط بكل شيء علما وأحصى كلّ شيء عـدداً. وأمـا النـوع الثالث من أدلة التوحيد التي اشتملت عليها هـذه الآية العظيمة فهو ما ذكره الله عز وجل بقولـه : ﴿والفُلْك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾ والفلك بضم الفاء يستعمل مفردا بمعنى السفينة ويستعمل جمعا بمعنى السفن فإذا أريد به المفرد كـان مذكراً كقوله تعالى: ﴿وآيـة لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون﴾ وإذا أريد بـه الجمع كان مؤنثا كقـوله عز وجل : ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم﴾ ويعـرف الفرق بين المفـرد والجمع بالسيـاق، وضمة الفاء في المفرد كضمة القاف من قفل، أمـا ضمة الفاء في الجمع فهي كضمة الحاء في حمر. أمـا الفَلَك بفتح الفـاء والـلام فهـو مـدار النجـوم وهـو مـوج مكفوف تجري فيه الشمس والقمر والنجوم، والمراد بالبحر في قوله عز وجل : ﴿والفلك التي تجري في البحر﴾ هو المياه الواسعة الغزيرة كالمحيطات والأنهار الكبار، وقوله عز وجل: ﴿بما ينفع النـاس﴾ أي بما يعود على بني آدم بالمنافع العظيمة والمصالح الكثيرة من التجارة والتنقل بين القارات، ووجه الاستدلال على وحدانية الله عز وجل بجريـان الفلك في البحر بما ينفع الناس، أنك لو ألقيت مسمارا في البحـر غاص إلى أعماقه وقـد علّم الله عـز وجل نوحـا عليه السـلام أن يصنع الفلك ليركب فيـه هـو والمؤمنـون وأن يحمل معـه من كل زوجين اثنين فصار نوح عليه السلام يهيئ المسامير العظام والأخشاب، وبدأ يصنع السفينـة ولم يكن أحد قـد عرفهـا قبل ذلك فسخـر منه المشركـون ولما أرسل الله الطوفـان نجى نوحا والـذين آمنوا معه، وكـانت تجري بهم في موج كـالجبـال وهي مصنـوعـة من الخشـب والمسـامير على حـد قـولـه تبـارك

وتعالى: ﴿وحملناه على ذات ألواح ودُسُر * تجري بأعيننا جزاءً لمن كان كُفِر﴾ والدُّسُر جمع دِسَار وهو المسمار، فصارت السفن الشبيهة بالجبال تمشي على متن الماء ويرسل الله عز وجل الرياح فتدفعها فوق الماء وتسوقها، كما قال عز وجل: ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام﴾ أي ومن دلائل ألوهيته وربوبيته وقدرته هذه السفن التي تجري في البحر كأنها جبال، وكما قال عز وجل: ﴿وله الجوار المنشئات في البحر كالأعلام﴾ ومن المعلوم أن الله عز وجل خصّ كل قطر من أقطار الدنيا المتباعدة بمزايا وأشياء معينة لا توجد في القطر الآخر وكان الناس في كل بلد قد يحتاجون إلى ما في البلد الآخر وقد يفصل بينهم وبين الجهات التي يحتاجون إلى حاصلاتها البحار الشاسعة والمحيطات العظيمة كالمحيط الهادي والمحيط الأطلسي والبحر الأبيض والبحر الأحمر والمحيط الهندي وغيرها وكان لا سبيل إلى الوصول إليها إلا بهذه السفن التي أرشدهم الله عز وجل إليها، مع ما في البحار من المنافع العظيمة كما قال عز وجل: ﴿وما يستوي البحران هٰذا عَذْب فُرَات سائغ شرابه وهٰذا مِلْح أُجاج ومن كلٍّ تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مَوَاخِر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾. وكما قال عز وجل: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ أما الدليل الرابع فهو ما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وقد ساق الله تبارك وتعالى هذا الدليل العظيم في مواضع من كتابه للاستدلال على وحدانيته وقدرته على بعث الموتى وأشار إلى أنه يرسل الرياح فتثير سحابا وأنه يسوق الماء إلى الأرض الجُرُز وهي الميتة المرتفعة كرءوس الجبال فينزل عليها هذا الماء فيحييها بعد موتها، والناس يبصرون السحابة فوق رؤوسهم تحمل «ملايين» الأطنان من الماء ثم ينزّله الله بقدر كما قال عز وجل: ﴿أو لم يَرَوْا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجُرُز فنُخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون﴾ وكما قال عز

وجل : ﴿والـذي نـزّل من السماء مـاء بقـدر فـأنشرنـا بـه بلـدة مَيْتًـا كـذلك تخرجـون﴾ وقـد جعـل الله عـز وجل من الماء كل شيء حي . وأمـــا الـدليل الخامس فهو ما نشر الله عز وجل في الأرض من أصنـاف الدواب والحيوانات من كل زوجين اثنين لعلكم تـذكرون . وأمـا الـدليل السادس فهـو تصريف الرياح وهو تقليبهـا فتارة تكون شمالية وتارة تكون جنوبيـة وتارة تكون شرقية وتارة تكـون غربية وأحيانـا تكون بين مهبين من هذه المهاب فـالشرقية تسمّى الصّبا وهي التي نُصر بها رسول الله ﷺ وتهُب من مطلع الشمس عند استواء الليل والنهار، وتسمى القبول أيضا والغـربية تسمّى الدّبور وهي التي أهلك الله بها عـادًا ، والشمال وهي التي تهب من نـاحيـة القطب الشمالي والجنـوب وهي التي تقابلها ومـا بين هذه المهاب تسمى النكباء وقـد صرّفها الله كذلك حيث تجيء حـارة وبـــاردة ورخـاء وعـاصفـة ، وقـــد تأتي مبشرات كما تأتي مهلكـات ولا شك أن الماء والهواء آيتـان ظـاهرتـان في الـدلالـة على الحكيم الخبير، ولو حبس الهواء عـن الإنسان لحظات لمات ، كما أنـه لا يستغني عن الماء أبدا ولـذلك لم يجعل الله عـز و جل لأحد سلطـانا على الهواء سـواه تعالى وقد جعله الله لطيفا يتخلل الأشياء الدقيقة فضـلا منه و إحسانا . أما الدليل السابع فهو السحاب المسخـر بين السماء والأرض وتسخيره هو تحريكه حيث شاء الله عـز وجل ، ولما كان طبع الماء ثقيلا يقتضي النزول كـان بقاؤه في الجو من الآيات البينات .

قال تعالى: ﴿ومن الناس من يتّخـذ من دون الله أندادا يحبونهم كحبّ الله والذين آمنوا أشدّ حبا لله، ولو يـرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أنّ القوّة لله جميعـا وأنّ الله شديـد العذاب* إذ تبرّأ الـذين اتُّبعـوا من الذين اتَّبعـوا ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسبابُ* وقال الذيـن اتَّبعوا لو أنّ لنا كرّة فنتبرّأ منهم كما تبرَّءوا منّا، كذٰلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار.﴾

بعـد أن ذكر الله تبـارك وتعالى الآيـة السـابقة التي وصفتهـا بأنها تضمنت كتاب الكون الذي لا تنتهي صفحاتـه الشاهدة بأن الله ربّ كل شيء وسيده ومليكه، وقد ذيّلهـا بقوله عز وجـلّ: ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾. ممـا يؤكد أنّ من لم ينتفع بهذه الأدلة الكونية المشـاهدة في جميع مشارق الأرض ومغاربها أنه لا عقل له حتى ولو كان في نظر الناس من أذكى الخلق وأعقلهم، لأن العقل الذي لا يعقل صاحبـه من إلقاء نفسه في النار، ولا يحجزه عن غيِّـه وضلاله فهـو عقل بهيمي ينحطُّ عن كثير من الحيـوانات العجماوات التـي تعرف مـا يضرها فتجتنبه وتعرف ما ينفعهـا فتقبل عليه ولذلك وصف الله تبارك وتعالى هؤلاء الغـواة بأنهم كالأنعـام بل هم أضل سبيـلا حيث يقول: ﴿ولقـد ذرأنا لجهنّم كثيرا من الجن والإنس لهم قلـوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعـون بها أولٰئك كـالأنعـام بل هم أضـل، أولٰئك هم الخاسرون﴾. وكما قـال عـز وجل: ﴿أم تحسـب أن أكثـرهم يسمعـون أو يعقلـون، إن هم إلا كـالأنعام بل هـم أضل سبيلا﴾ وقـد ضرب الله تبـارك وتعالى في هـذا المقام الكـريم من سورة البقـرة مثلا من أمثلـة انحراف بعض النـاس عن صراط الله المستقيم وتعلقهم بـأنـداد وشركـاء لله عـز وجل حتى صاروا يحبـونهم حبا يعادل حبّهم لله رب السمـوات والأرض مع أن العاقل لا

يرضى أبـدا أن يساوي في حبّـه بين من أوجده من العـدم، ومنحه كلّ النّعم وبين مخلـوق ضعيف لا يملك لـه نفعـا، ولا يـدفع عنـه ضرّا، ولا شك أن الإنسان السوي يعرف لذي النعمـة نعمته، والإنسان أسير الإحسان كما قال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهمو   فطالما استعبـد الإنسـان إحسـان

فكيف يليق بعاقل أن يعـادل في حبه لله الحي القيـوم ذي الجلال والإكرام أحدا من الخلق مهما كان ونحن نعلم علم اليقين أن محمـدا رسول الله ﷺ قد جعله الله سببا لمنافع لنا في ديننـا ودنيانا لا تحصى وأنه أفضل خلق الله وأكرم عباد الله وأعظم البشر نفعا للبشر بل حتى للحيـوانات العجماوات التي كان يـوصي بـالإحسان إليهـا ﷺ ومع ذلك كلـه لا يجوز أبـدا أن نجعل حبّـه في قلوبنا كحبنا لله عز وجل الذي تفضل علينـا به، كما أننا نحب أبا بكر وعمر وعثمان وعليا وسـائر أصحاب رسول الله ﷺ ونحب أنفسنـا وأبناءنا وبـلادنا ومع ذلك لا يجوز أن نساوي بين حبنـا لرسول الله ﷺ وحبّ أحـد من هؤلاء الذين نحبّهم وقـد نفديهم بأنفسنا ولـذلك لما ذكر عمر رضي الله عنه لـرسول الله ﷺ أنه يحبـه أكثر من كل شيء إلا من نفسه فأخبره رسـول الله ﷺ أنه لن يـؤمن حتى يحب رسول الله ﷺ أكثـر من حبه لنفســه فقد روى البخـاري في صحيحـه من حديث عمـر بن الخطـاب رضي الله عنـه أنه قـال للنبي ﷺ: لأنت يا رسول الله أحبّ إليّ من كل شيء إلا نفسي فقال: «والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك»، فقال له عمر رضي الله عنه: فإنك الآن والله أحبّ إليّ من نفسي، فقال: «الآن يا عمـر». وقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»، كما روى البخاري ومسلم من حـديث أنس رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قـال: «ثلاث من كنّ فيـه

وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يحبّ المرء لا يحبّه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار». ولا شك أن حبّ العبد لربه يجب أن يكون فوق حبه للنبي ﷺ وفوق حبه لأصحاب رسول الله ﷺ وفوق حبه لنفسه ولولده ووالده والناس أجمعين، على أن محبة العبد لربه ليست في معنى محبة العبد لغير الله فإن المحبة التي يستحقها الله عز وجل هي محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم وكمال الطاعة و إيثاره على غيره، فمن سوّى فيها بين الله وبين أحد من خلقه فقد اتخذه ندا لله ومن جعل شيئا من هذه المحبة بهذا المعنى لغير الله فقد أشرك بالله، محبوبِ المؤمنين الذي يحبونه ويخافونه، وإذا تحققت محبة الله في قلب العبد أشرقت فيه أنوار السعادة، وإذا ذكر الله خاليا فاضت عيناه، فانتظم في سلك السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله. وقوله عز وجل: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا﴾ أي وبعض الناس يجعل لله عز وجل أمثالا ونظراء وشركاء فيرتكبون بذلك أعظم الجرائم وأكبر الكبائر كما جاء في ا الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندا وهو خلقك». وقوله عز وجل: ﴿يحبونهم كحبّ الله﴾ أي يساوونهم بالله في المحبة والتعظيم، ولذلك يندمون يوم القيامة على ذلك أشد الندم فيقولون لأندادهم وهم في جهنم: ﴿تالله إنْ كُنّا لَفِي ضلال مبين* إذ نسويكم برب العالمين﴾ وقوله عز وجل: ﴿والذين آمنوا أشدّ حبا لله﴾ أي والذين آمنوا قد أخلصوا المحبة لله ولم يشركوا به فيها أحدا ولم يذهب منها شيء لغير الله بخلاف هؤلاء المشركين الذين يفرقون ويبعثرون هذه المحبة بين الله وبين خلقه، ولذلك كانت محبة المؤمنين لله أشد من محبة المشركين لله لأن محبة المؤمنين خالصة ومحبة المشركين مشتركة ولا شك أنّ المحبة الخالصة أشد

من المحبة المشتركة، ولذلك حَمَلت هذه المحبـة الخالصة امرأةَ فرعون رضي الله عنها على طلب القـرب من الله في جنات النعيم حيث قـالت: ﴿ربِّ ابْنِ لي عندك بيتا في الجنة﴾ وقد جعلها الله عـز وجل قدوة ومثلا لكل مؤمن إلى يوم القيامـة حيث قال عز وجل: ﴿وضرب الله مثـلا للذين آمنوا امرأة فـرعون إذ قـالت ربِّ ابْنِ لي عندك بيتـا في الجنة ونجني من فـرعون وعملـه ونجني من القوم الظـالمين﴾ وحذّر الله عـز وجل المؤمنين أن يكون آبـاؤهم أو أبناؤهم أو إخـوانهم أو أزواجهم أو عشيرتهم أو أمـوالهم أو تجارتهم أو مسـاكنهم أحب إليهم من الله ورسولـه حيث يقول عز وجل: ﴿ قل إن كان آبـاؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكـم وأموال اقترفتموهـا وتجارةٌ تَخْشَوْن كسـادها ومساكنُ ترضَوْنها أَحَبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربّصوا حتى يأتي الله بأمـره، والله لا يهدي القوم الفـاسقين﴾ ولا شك أن محبة رسـول الله ﷺ الواردة في هـذه الآية الكريمـة ليست بمعنى المحبة الواجبـة لله عز وجل على عبـده، وقد جعل الله عـز وجل عـلامة محبـة الله تبارك وتعـالى أن يطيع العبـد رسـول الله ﷺ حيث يقـول تبـارك وتعـالى: ﴿قل إن كنتم تحبـون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنـوبكم، والله غفور رحيم* قل أطيعوا الله والـرسول فإن تـولَّوْا فإن الله لا يحب الكـافرين﴾ فمحبـة العبد لله عـز وجل خاصة به وهي محبة العابد للمعبود ولذلك كان صرف شيء منها لغير الله من مَلِك أو نَبِي أو غيرهما شركا أكبر يخرج من الملـة ويصير صاحبه به مـرتدا عن الإسلام لو كـان قد أسلم، وقد أنكر شيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله مرات كثيرة تفسير من فسّر قـوله تبـارك وتعالى: ﴿يحبـونهم كحبِّ الله﴾ أي كحبّ المؤمنين لله وبيّن أنـه متنـاقض حيث قـال رحمه الله: هذا ينـاقض أن يكـون المؤمنون أشدّ حبّا لله من المشركين لأربـابهم فتبين ضعف هذا القول وثبت أن المؤمنين يحبون الله أكثر من محبـة المشركين لله ولآلهتهم، لأن أولئك أشركوا في

المحبـة والمؤمنون أخلصـوها كلّهـا لله . وقـال أيضا : والمقصـود أن الشيء إذا انقسم ووقعت فيه الشركة نقص ما يحصل لكل واحد، فإذا كان جميعه لواحد كان أكمل، فلهـذا كان حبّ المؤمنين الموحّدين المخلصين لـه أكمل، وقال أيضـا : فمن أحبّ مخلـوقـا مثل ما يحبّ الله فهـو مشرك، ويجب الفـرق بين الحبّ في الله والحب مع الله . اهـ . وقـوله عز وجل : ﴿ولو يرى الـذين ظلموا إذ يرون العـذاب أنّ القوة لله جميعـا وأنّ الله شديـد العذاب﴾ أي ولـو يعاين هؤلاء الذين أشركوا مع الله غيره في المحبة ما أعدّ الله لهم من العذاب والعقوبة في نـار جهنم لما أشركـوا معـه غيره لأنهم لـو عـاينـوا ذلك لعلمـوا أن القهـر والسلطـان والحكم لله وحـده، وأن هـؤلاء الأنـداد لا يملكـون لهم نفعـا ولا يـدفعون عنهم ضرا بـل يتبرأ بعضهم من بعض يوم القيـامـة ويلعن بعضهم بعضـا ولـذلك قـال بعـدها : ﴿إذ تبرّأ الـذين اتُّبِعـوا من الـذي اتَّبَعـوا ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب﴾ أي إذ تنصل المتبوعون من أتباعهم وأنكروا إضلالهم، وقد عاينوا عذاب الله، وانقطعت بهم الحيل والحبال، ولا شك أن بعض المعبودين لم يرض بأن يعبد مـن دون الله كالملائكة والمسيح ابن مريم، أما من كـان قد رضي من هـؤلاء المتبوعين بأن يعبـد من دون الله واستساغ أن يكون طاغـوتا، فهو مع عابديـه حصب جهنم، كما قال عز وجل : ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ ثم قال : ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولَئـك عنها مبعدون﴾ وقـد ذكر الله عـز وجل صوراً من تبرؤ المعبـودين من عـابـديهم يـوم القيـامـة، حيث تبرأت الملائكـة من عابديهم كما قال عز وجل : ﴿تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون﴾ أي إنما كانوا يعبدون أهواءهم، وقال : ﴿سبحانك أنـت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثـرهم بهم مؤمنـون﴾ وقال عـز وجل في تبرؤ الشيطـان من أتباعـه : ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إنّ الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم

وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمُصْرِخِكم وما أنتم بمُصْرِخِيّ إني كفرت بما أشركتمونِ من قبل، إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ . وقوله عز وجل : ﴿ وقال الذين اتبَعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار﴾ أي وقال التابعون : يا ليت لنا رجعة إلى الحياة الدنيا لنتبرأ من هؤلاء المتبوعين كما تبرءوا منا، حيث علموا أنه لا ينفع الظالمين معذرتهم في الآخرة وأن الدنيا هي دار العمل وقد أخبر الله عز وجل عن أمثال هؤلاء أنهم لو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون، وكما أراهم شدة عذابه أراهم أعمالهم حسرات وندامات وهم خالدون مخلّدون في نار جهنم . نعوذ بالله من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

قـال تعالى : ﴿ يـا أيها النـاس كلوا ممـا فى الأرض حـلالاً طيبا ولا تتّبعـوا خطـوات الشيطان إنـه لكم عدو مبين* إنما يـأمركم بـالسوء والفحشـاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون﴾ .

هذا هو النداء الثـاني للإنسانية كلها في كتاب الله عـز وجل، وكان النداء الأول لهم حيث أمرهم بأن يعبـدوا الله وحده الـذي خلقهم وخلق الذين من قبلهم من الملائكة والجن وغيرهما، الذي جعل لهم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخـرج به من الثمرات رزقا لهم، وفي هـذا النداء الثاني لهم يأمرهم بالانتفاع بالحلال الطيب الذي أوجده لهم في الأرض، وأن يلتزموا حـدود الله فيه، فـلا يقربـوا شيئا مما حرمـه الله عليهم منه، وأشعـرهم بأن الشيطان يحرص على تـزيين المحرمات لهم، ويـدعوهم إلى السـوء والفحشاء وأن يفتروا على الله ما لا علم لهم بـه بسبب عداوة الشيطان لهم، وقـد عرفت عداوته الظاهرة لأبيهم آدم عليه السـلام، وقد أمر الله تبارك وتعالى الناس في هذا المقام بأن يأكلـوا مما في الأرض حلالا طيبا حيث يقـول: ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا﴾ والأمر هنـا يشمل الوجوب والندب والإباحة فقـد يكون الأكـل واجبا على الإنسـان وذلك إذا كـان لا غنى لـه عنه لقيـام بنيته، وقـد يكون الأكل منـدوبا ومستحبـا إذا كان مع ضيف ونحـوه، وقد يكـون مبـاحا وهـو مـا سـوى الـواجب والمنـدوب مما أبـاحـه الله عـز وجل للإنسان، وفي تـوجيه الخطاب للناس بـالأكل مما في الأرض ليلفت انتباههم إلى جليل نعمه عليهم، وكما أنه قد تقرر في الآيتين السابقتين أنه لا إله إلا الله وأنه وحده له الخلـق فإنه يقرر هنا أنه وحده له الأمـر فلا يجوز لأحد أن يحلل شيئا أو يحرم شيئـا من تلقاء نفسـه وإنما الذي يحلّل ويحرّم هـو رب العالمين، الذي يعلم الطيـب من الطعام أو غيره فيحلّه ويعلم الخبيـث من الطعام أو

غيره فيحرمه، والحلال هو المأذون في تناوله شرعا وضده الحرام وهو الممنوع من تناوله شرعا، والأصل في المأكولات الحلّ، فما لم يرد تحريمه من الشرع فهو مباح بالإذن العام وهو قوله عز وجل هنا: ﴿كلوا مما في الأرض حلالا طيبا﴾ والتقييد هنا بالحلال الطيب للتحذير من الحرام الخبيث، وكلّ ما عُلم ضرره على الإنسان فهو حرام كما أن كلّ ما عُلم خبثه فهو حرام كذلك، ولذلك جاء في القاعدة العامة التي بعث الله بها رسوله محمدا ﷺ أنه يحل الطيبات ويحرم الخبائث كما قال عز وجل: ﴿الذين يتّبعون الرسول النبي الأميّ الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ وقوله عز وجل: ﴿طيّبا﴾ أي مستطابا في نفسه غير ضار للأبدان ولا للعقول، ولا يشترط في الطيب أن يكون مُسْتَلَذا فإن الإنسان قد يلعق الصبر وهو لا لذة فيه لكنه طيب كثير المنافع و(مِن) في قوله عز وجل: ﴿مما في الأرض﴾ للإشعار بجليل عطائه وكثرة البركات التي وضعها الله عز وجل في الأرض وأنهم لن يأكلوا إلا بعض ما أخرجه الله عز وجل لهم من الأرض كما أشار الله عز وجل إلى ذلك بقوله في خلق الأرض في سورة فصّلت: ﴿وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها﴾ وما يصيب بعض الناس أحيانا من الجوع فهو بسبب ذنوبهم، أو لرفع درجاتهم، وقد حرص الشيطان على صرف الإنسان عن طريق الرّشد فزين له الخبائث والمحرمات، كما زين لبعض الناس تحريم ما أحل الله فصار بعضهم كبني عامر بن صعصعة يحرمون على أنفسهم في الحج أن يأكلوا الودك أو يلبسوا شيئا من ملابسهم التي كانوا يلبسونها خارج الحرم، وكانوا يطوفون بالبيت عراة، الرجال والنساء، إذا لم يجدوا شيئا من الملابس من أهل الحرم كما روى مسلم في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت المرأة تطوف

بالبيت وهي عريانة فتقول : من يعيرني تطوافا تجعله على فرجها وتقول :

اليـــوم يبدو بعضـــه أو كلّه   فما بـــدا منه فلا أحـــلّه

فنزلـت هذه الآية : ﴿خـذوا زينتكم عند كـل مسجد﴾ اهـ. كما كـانت العرب تحرم بعض الأنعام من الإبل والبقر والغنم وتجعلهـا لأصنامها ، وكان الشيطان قد لعب بهم في ذلك كله حتى حرّموا ما أحل الله وأحلوا ما حرم الله ولذلك روى مسلم في صحيحه من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : «يقول الله تعـالى : إنّ كلّ مال منحته عبادي فهو لهم حـلال» ــ وفي هـذا الحديث ـــ : «وإني خلقت عبـادي حنفـاء فجـاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحـرّمت عليهم ما أحللت لهم» . وقد ندّد الله تبـارك وتعالى بمن حـرّم ما أحلـه الله أو أحلّ ما حـرمه الله حيث يقـول : ﴿وقالـوا هٰذه أنعـام وحَرْثٌ حِجْـرٌ لا يَطْعَمُها إلا من نشـاء بزعمهـم وأنعام حُرِّمَتْ ظهـورُها وأنعـام لا يذكـرون اسم الله عليها افتراءً عليـه سيجزيهم بما كانـوا يفترون * وقالـوا ما في بطون هٰذه الأنعام خالصـةٌ لذكـورنا ومُحَرَّم على أزواجنا وإن يكن ميتةً فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم ، إنه حكيم عليم * قد خسر الذين قتلوا أولادهم سَفَهًـا بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله ، قد ضلـوا وما كانوا مهتـدين﴾ ووبّخ الذين كانـوا يطوفون بـالبيت عراةً ويحرمون بعض الطيبـات من الرزق ، وعرّفهم أنهم منقـادون في هذا لإبليس عـدوهم وعـدو أبيهم آدم عليـه الســلام وفي ذلك يقـول : ﴿يـا بني آدم لا يفتننكم الشيطـان كما أخـرج أبـويكم من الجنـة ينـزع عنهما لبـاسهما ليريهما سوْآتهما ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون* وإذا فعلوا فاحشة قالـوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل إن الله لا يأمـر بالفحشـاء أتقـولون على الله مـا لا تعلمون * قل أمـر ربي بالقسـط وأقيموا وجوهكـم عند كل مسجـد وادعوه مخلصين له الـدين ، كما

بـدأكم تعـودون* فريقـا هـدى وفـريقا حق عليهم الضـلالـة، إنهم اتخذوا الشيـاطين أوليـاء من دون الله ويحسبـون أنهم مهتـدون * يـا بني آدم خـذوا زينتكم عند كل مسجـد وكلوا واشربوا ولا تسرفـوا إنه لا يحب المسرفين * قل من حـرّم زينة الله التي أخـرج لعـباده والطيبـات من الرزق، قل هي للـذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يـوم القيامة، كذٰلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل إنما حرّم ربّي الفواحش ما ظهـر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بـالله ما لم ينزّل به سلطـانا وأن تقولوا على الله مـا لا تعلمون﴾ وفي هذا المقـام الكريم من سورة البقـرة يوصي النـاس بالأكل من الطيب الحلال ويحذرهم من عدوهم إبليس الذي يعمل على صدهم عن سبيل الله بتحريم الحلال وتحليل الحرام فيقول: ﴿ ولا تتبعـوا خطوات الشيطان إنـه لكم عدو مبين﴾ أي ولا تستجيبوا لـه ولا تنقادوا إليه فيما يـدعوكم إليـه من معصية الله ومخالفة أمره، ولا تغتروا بما يزينه لكم من الفحشـاء والمنكر ولا تقفوا أثره فإنه لا يجر إلا إلى النار، فمن كـان له عقل فإنه لا يمشي وراء العدو الـذي أظهر العداوة للجنس البشري من لَدُنْ آدم، وتعهد بـإفساد ذرية آدم وأنه سيأتيهم من بين أيـديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، وأنه سيـزين لهم في الأرض ويغـويهم، وقد أكّـد الله تبـارك وتعـالى هذا المعنى وحـذّر من اتبـاع خطوات الشيطـان العدو المبين وهي حبـائله وخطـراته ووساوسـه وتزيينـاته وأعماله في مـواضع كثيرة من كتابه الكـريم حيث قال في سورة البقـرة أيضا: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بـالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا، والله واسع عليم﴾. وقـال في سورة النسـاء: ﴿ويـريد الشيطـان أن يضلهم ضلالا بعيدا﴾. وقـال في سورة المائدة: ﴿إنما يريد الشيطـان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصـدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾. وقال في سـورة النور: ﴿يا أيها الذين آمنـوا لا تتبعوا خطوات

الشيطان، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر﴾ وقال في سورة القصص: ﴿إنه عدو مضلّ مبين﴾ وقال في سورة فاطر: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ وقد أكد هذا التحذير كذلك في هذا المقام حيث يقول: ﴿إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ أي إنما يحضّكم الشيطان ويطلب منكم ارتكاب المعاصي التي تجلب لكم ما يسوؤكم في الدنيا والآخرة، وتوقعكم في الحزن الذي ينبغي للعاقل أن لا يوقع نفسه فيه من عقوبة الله وسخطه وغضبه كما يحضكم على ارتكاب الفحشاء، وعلى أن تفتروا على الله الكذب، وقد ساقها الله تبارك وتعالى بطريق التأكيد بـ «إنما» لإعلامهم أن الشيطان لا يأمر بخير أبدا، وأصل السوء هو ما يعود على صاحبه بما يسوء وجهه ويصيبه بالهم والحزن والضرر والمراد به المعاصي والسيئات التي تضر مرتكبها، والفحشاء هي المسْتَبْشَع من كبائر المعاصي والجرائم والسيئات كالزنا ومنع الزكاة وشرب الخمر وأكل الربا وسائر الموبقات، وعطف الفحشاء على السوء من عطف الخاص على العام، وقد أشرت في تفسير قوله تعالى: ﴿من كان عدوًّا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال﴾ إلى أن عطف الخاص على العام إنما يكون لمزية في الخاص حيث يفيد الاهتمام به، وقد جاء في كتاب الله تعالى عطف الخاص على العام وعطف العام على الخاص كثيرا كقوله تعالى: ﴿وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾ وكقوله: ﴿ومن يتّبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء المنكر﴾ وكقوله تعالى: ﴿فيهما فاكهة ونخل ورُمَّان﴾، وكقوله عز وجل: ﴿قل إنما حرّم ربّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق﴾ الآية. وقوله عز وجل: ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ أي وأن تفتروا على الله الكذب جهلا وسفاهة وضلالة. وقد أشار رسول الله ﷺ إلى طريق

الحذر من اتباع خطــوات الشيطــان بأن الله جعل لكل إنســان قرينــا من الملائكة وقرينـا من الشياطين، وأن الخواطر الرحمانيـة الحاضَّة على الخير هي خواطـر مَلَكية وأن الخواطـر الباعثـة على الشر هي خـواطر شيطـانية، فعلى العاقـل الحريص على سعادة نفسه في العـاجلة والآجلـة أن يتبع داعي الخير وأن يعصي داعي الشر، فقد روى مسلم في صحيحه مـن حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا وقد وكّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة»، قالـوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي، ولكن الله أعانني فأسلم فـلا يأمرني إلا بخير»، وقال الترمذي حدثنـا هَنَّاد نا أبو الأحوص عن عطاء بن السائب عـن مرّة الهمداني عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ «إنّ للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمّة فأما لمة الشيطان فإيعـاد بالشر وتكذيب بالحق، وأمـا لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بـالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمـد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الـرجيم». ثم قرأ ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشـاء﴾ الآية. هـذا حديث حسـن صـحيح غريب.

قال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون* ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً، صم بكم عمي فهم لا يعقلون* يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون* إنما حرّم عليكم الميتة والدّم ولحم الخنزير وما أهلّ به لغير الله فمن اضطرّ غير باغٍ ولا عاد فلا إثم عليه، إنّ الله غفور رحيم﴾.

بعد أن ذكر الله عز وجل في الآية الخامسة والستين بعد المائة ما يفيد أن بعض الناس يتخذ من دون الله أندادا، وأشار في الآية الثامنة والستين بعد المائة وفي الآية التاسعة والستين بعد المائة إلى أن بعض الناس أحلوا ما حرّم الله وحرّموا ما أحل الله مما شرحته في تفسير هاتين الآيتين الكريمتين ذكر الله عز وجل هنا في هذا المقام الكريم أن هؤلاء الكفار لا يتّبعون في شركهم بالله أو تحريمهم ما أحل الله أو تحليلهم ما حرّم الله دليلا يستدلون به أو برهانا يبنون عليه دينهم سوى التقليد الأعمى لآبائهم الجاهلين الضالينَ، وأنهم لا يلتفتون لدعاة الهدى مهما جاءوا بالبينات، لأن حِجَاب هذا التقليد الأعمى يحول بينهم وبين قبول الحق مهما اتضحت براهينه وسَطَعَتْ حُجَجُهُ، فقال عز وجل: ﴿وإذا قيل لهم اتَّبِعُوا ما أنزلَ الله﴾ أي و إذا قال لهم رسول الله ﷺ أو قال لهم أحد الهداة المهديِّين من دعاة الحق: اتبعوا القرآن والهدى الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ ودعوا هذه الأصنام والأنداد ولا تحلّوا إلا ما أحلّ الله ولا تحرموا إلا ما حرّم الله. وقوله عز وجل: ﴿قالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾ أي أجابوا دعاة الهدى بأنهم لن يتبعوا ما جاء به الرسول ﷺ وإنما يتّبعون ما وجدوا عليه آباءهم، فوبّخهم ربّ العزة جل وعلا على هذا السلوك المزري المستغرق في الضلال حيث قال: ﴿أو لو كان آباؤهم لا

يعقلون شيئا ولا يهتدون﴾ أي أيقتفون آثار آبائهم ويقلّدونهم هذا التقليد دون أدنى تبصر لمعرفة منزلة آبائهم في الوعي والإدراك حتى ولو كان هؤلاء الآباء أجهل من دوابهم التي يركبونها ويحملون عليها متاعهم وحتى لو كانوا صما بكما عميا لا يهتدون سبيلا، فالعاقل إنما يقلد آباءه لو كانوا معروفين بالهدى والرشاد، كما ذكر يوسف الصديق عليه السلام لصاحِبَيْ السجن حيث قال: ﴿واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾ فإن مثل هؤلاء الأئمة العظماء حقيق أن يُتَّبعوا، أما الآباء الجهلة الذين لا يعقلون شيئا ولا يهتدون لصواب فإن من يقلّدهم لا يقل جهالة عن الببغاء التي تحكي الصوت الذي تسمعه وهي لا تعي منه شيئا، وقد ندّد الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم بمن يردّ الهدى الذي يجيء به المرسلون مستمسكا بتقليد آبائه الجاهلين حيث يقول في سورة المائدة: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وَصِيلة ولا حامٍ ولّكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون* وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا: حَسْبُنا ما وجدنا عليه آباءنا أوَ لَوْ كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون﴾. وقال تبارك وتعالى في سوة لقمان: ﴿وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله قالوا: بل نتّبع ما وجدنا عليه آباءنا، أَوَلَوْ كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾. وقال عز وجل في سورة الزخرف: ﴿أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون * بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمّة وإنّا على آثارهم مهتدون * وكذّلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أُمّة وإنا على آثارهم مقتدون * قال أَوَلَوْ جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون * فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذّبين﴾. وقوله عز وجل: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي يَنْعِق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً، صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ هذا مثل شبّه الله عز

وجل فيه واعظ الكفار وداعيهم إلى اتباع ما أنزل الله بالراعي الذي ينعق أي يصوّت بالإبل أو بالغنم أو البقر التي يرعاها فلا تسمع إلا دعاءه ونداءه ولا تفهم ما يقول، كأنه قيل: مثلك يا محمد أو يا داعي الحق ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به من البهائم التي لا تفهم، والنعيق هو زجر الغنم والصياح بها قال الأخطل:

انعق بضأنك يا جرير فإنّما منّتك نفسك في الخلاء ضلالا

وكما شبّه الله تعالى الكفار بالبهائم التي لا تفهم من راعيها عندما ينعق بها إلاَّ سماع صوته بالدعاء والنداء شبّههم كذلك بالصم الذين انسدّت خروق مسامعهم فصاروا لا يسمعون، وبالبكم الذين لا ينطقون ولا يفهمون وبالعمي الذين لا يبصرون، ولا شك أن من كان بهذه المثابة من الناس كان أبعد عن العقل من البهائم وسائر العجماوات. وقوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ في هذا المقام الكريم ينادي الله تبارك وتعالى المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ﷺ ويأمرهم بأن يأكلوا من طيبات رزق الله ويشكروه، وكان قد نادى الناس في الآية الثامنة والستين بعد المائة بأن يأكلوا مما في الأرض حلالا طيبا، فيكون الأمر بالأكل من الطيبات هنا تأكيدًا للأمر بالأكل من الطيبات هناك وإنما خصّ المؤمنين بالذكر هنا للفت انتباههم إلى الأثر الكبير للأطعمة الطيبة أو للأطعمة الخبيثة على النفس الإنسانية إذ أنّ أكل الحلال الطيب من أكبر العون على طاعة الله وطاعة رسول الله ﷺ وأن اللقمة من الحرام يقذفها الرجل في جوفه قد تحول بينه وبين قبول دعائه وعمله الصالح دهرا طويلا ولذلك حرص أصحاب رسول الله ﷺ على طيب مطاعمهم، وحذِروا أشدّ الحذر من تناول طعام محرّم أو فيه شبهة، فقد روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه غلام يخرج

له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه فجاء يوما بشيء فأكل منه أبو بكر فقال له الغلام: تدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ فقال: كنت تكهّنت لإنسان في الجاهلية وما أُحْسِنُ الكهانة إلا أني خدعته، فلقيني فأعطاني لذلك هذا الذي أكلتَ منه، فأدخل أبو بكر يده فقاء كلّ شيء في بطنه اهـ وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أثر الحلال الطيب في صلاح القلب فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحِمَى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإنّ لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب»، ففي هذا الحديث العظيم إشارة إلى أن الحلال يؤثر في القلب صلاحا، وأنّ الحرام يؤثر في القلب فسادا، وأنّ ترك المشتبهات التي يتردد الإنسان بين طِيبها أو خُبْثِهَا فيجتنبها ويبتعد عنها مخافة أن تكون خبيثة من أعظم ما يحمي الإنسان من الوقوع في المهالك، ولذلك ترك رسول الله ﷺ التمرة التي وجدها ملقاة على الأرض فلم يأكلها خشية أن تكون من تمر الصدقة وقد حرّم الله تعالى على أهل بيت النبي ﷺ الصدقات، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ وجد تمرة في الطريق فقال: «لولا أني أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها». وقد نبّه رسول الله ﷺ الناس ولفت انتباههم إلى أن الله تعالى ذكر آيتين في كتابه الكريم يأمر في إحداهما المرسلين بالأكل من الطيبات وأن يعملوا صالحا ويأمر في الثانية عامة المؤمنين بالأكل من الطيبات وأن يعملوا صالحا وفي ذلك إشعار بأن العمل الصالح إنما يقبل ممن يقتصر في طعامه على الحلال

الطيب، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ الله طيب لا يقبل إلا طيّبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا﴾ وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر يمدّ يديه إلى السماء: يا ربّ يا ربّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام فأنّى يستجاب لذلك». وفي هذا الحديث تهديد بأن الله لا يستجيب دعاء من كان مطعمه حراما أو مشربه حراما أو ملبسه حراما، أو غذي بالحرام، وقوله عز وجل: ﴿واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ أي وجدّدوا لكل نعمة من نعم الله عز وجل عليكم شكرا له على كل نعمة متجددة فاحمدوه على كل أكلة تأكلونها أو شربة تشربونها وأثنوا على الله بما هو أهله على النعم التي رزقكم وطيبها لكم، إن كنتم حريصين على تخليص أَنفسكم من النار بدوام إخلاص العبادة لله وحده فكلوا مما أباح لكم من الطيبات التي حلّلها وطيبها لكم ولا تتبعوا خطوات الشيطان الذي يدعوكم لتحريم ما أحل الله لكم.

وقوله عز وجل: ﴿إنما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ به لغير الله﴾ في هذا بيان لأنواع من المحرمات التي حرمها الله عز وجل وأولها الميتة وهي مات من الحيوان من غير تذكية أي ذبح شرعي وسواء كانت منخنقة أو موقوذة أو متردية أو نطيحة أو عدا عليها السبع، وثانيها الدّم يعني المسفوح السائل بدليل قوله: ﴿أو دما مسفوحا﴾ في آية الأنعام، وثالثها لحم الخنزير وهو يشمل شحمه ولحمه، وتخصيص اللحم بالذكر إشارة لمعجزة علمية لا يعرفها العرب إذ قد ثبت بالتشريح للخنزير تداخل شحمه في لحمه مع احتوائه على الدودة الشريطية بنسبة عالية لا توجد في أي نوع من الحيوانات سواه مع قذارته التي تفوق كل أنواع الكلاب، ورابعها ما ذبح لغير الله عز

وجل، وأصل الإهلال رفع الصوت بالذكر وكانوا يرفعون أصواتهم بذكر أصنامهم وأوثانهم عند ذبح القرابين لهم ثم صار يستعمل في كل ذبح حتى ولو لم يرفع الذابح صوته، وقد وصف الله عز وجل لحم الخنزير بأنه رجس ووصف ما ذبح لغير الله بأنه فسق، وقوله عز وجل: ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾ أي فمن ألجأته الضرورة لأكل شيء من هذه المحرمات لبقاء مهجته وإمساك حياته بالقدر الذي يدفع عنه المضرّة فلا إثم ولا حرج عليه ما دام غير باغ أي بأن يأكل فوق حاجته الضرورية أو أن يأكلها شهوة وتلذذا، وما دام غير عاد بأن يجد مندوحة عن هذه المحرمات، إن الله غفور رحيم يتجاوز عن معاصي العاصين ولا يؤاخذ عباده بما وقعوا فيه مكرهين مضطرين، وهذا من كمال الشريعة وشمولها، وقد أكد الله تبارك وتعالى هذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية في مواضع من كتابه الكريم حيث قال في سورة المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذُبح على النُّصُب وأن تستقسموا بالأزلام ذٰلكم فسق﴾ وقال في سورة الأنعام: ﴿قل لا أجد فيما أوحي إلي مُحرّمًا على طاعم يطعَمُه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أُهِلّ لغير الله به، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم﴾ وقال في سورة النحل: ﴿فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون* إنما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم﴾ وقد نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع وذي مخلب من الطير، وأباح ميتة البحر والجراد أما ميتة البحر فلحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في البحر: «هو الطّهور ماؤه الحِلّ ميتته». وقد أخرجه الأربعة وابن أبي شيبة واللفظ له وصححه ابن

خـزيمة والترمـذي . وأمـا ميتة الجراد فلحـديث ابن أبي أوفى الـذي أخرجـه البخـاري ومسلم قـال : غزونـا مع رسـول الله ﷺ سبع غـزوات نأكل معـه الجراد . أما ما أخرجه أحمد وابن مـاجه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «أحلـت لنا ميتتان ودمان فأمـا الميتتان فالجراد والحوت وأما الدمان فالكبد والطحـال» . فهو حديث ضعيف لأنه من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف .

قال تعالى: ﴿إن الـذين يكتمون ما أنزل الله من الكتـاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئـك ما يأكلـون فى بطونهم إلا النـار ولا يكلّمهم الله يوم القيـامة ولا يـزكيهم ولهم عذاب أليم* أولئك الـذين اشتروا الضلالـة بالهدى والعـذاب بـالمغفـرة، فما أصبرهم على النار* ذلـك بأن الله نزّل الكتـاب بـالحق، وإنّ الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد.﴾

قـد ذكرت في تفسير الآيـة التاسعـة والخمسين بعـد المائة من هذه السـورة المباركة أن الله تبـارك وتعالى ذكر في مقامات من هـذه السورة أن أهل الكتاب يكتمون الحق وهـم يعرفونـه محذّرا من سلوك طـريقهم في هذا السبيـل، وأنه حذّر المسلمين في هذه الآيـة المباركة أعني الآية التـاسعة والخمسين بعد المائة أشـد التحذيـر من أن يسلكوا مسلك أهل الكتـاب فيكتموا شيئـا من العلم والبينات والهدى التي بيّنها الله في القـرآن وأن من كتم شيئا من ذلك استحق لعنة الله ولعنة اللاعنين من الملائكة والمؤمنين إلا من تاب وأصلح وبيّن، وقد أكّد الله تبارك وتعالى هنا هذا التحذير مـرة أخرى لشدة خطورته وسوء عاقبته فقال: ﴿إن الـذين يكتمون ما أنـزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنـا قليلا أولئك ما يأكلـون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامـة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ وقـد وصف الله تبارك وتعـالى هؤلاء هنا بأنهم يكتمـون ما أنزل الله من الكتاب وأنهم يشترون به ثمنـا قليلا، ورتّب على هذين الوصفين أربع عقوبـات: الأولى أنهم ما يأكلـون في بطونهم إلا النار، والثـانية أنهم لا يكلمهم الله يوم القيـامة، والثالثة أن الله لا يـزكيهم، والرابعة قـوله: ﴿ولهم عـذاب أليم﴾ ولا شك أن كل وعيـد في كتاب الله عـز وجل بلفظ عـام على معصية من المعـاصي فإنه يعم جميع مرتكبي هـذه المعصية من أي جنس ومن أي لـون ولا سيما إذا لم يكن قـد ثبت سبـب صحيح لنـزول الآيـة أو ورد عن

رسول الله ﷺ تخصيص عمومها بحديث صحيح عن رسول الله ﷺ وحتى لو صحّ خبر عن رسول الله ﷺ أو عن أحد الصحابة في سبب نزول الآية الواردة بلفظ عام ولم يرد عن رسول الله ﷺ تخصيص عمومها فإنّ القاعدة الأصولية المعتبرة عند أهل العلم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وبهذا يكون الوعيد الوارد في هذه الآية الكريمة شاملا لأهل الكتاب ولعلماء المسلمين ممن يكتم الحقّ المبيّن في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ ولذلك قال أبو ذر رضي الله عنه في قوله تبارك وتعالى: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾ مع أن صدر الآية في ذكر سوء سلوك الأحبار والرهبان لكنه قال رضي الله عنه: هي فينا وفيهم، والذي حمله رضي الله عنه على ذلك هو عموم اللفظ الوارد فيها فقد روى البخاري في صحيحه من طريق زيد بن وهب قال: مررت على أبي ذر رضي الله عنه بالرّبذة، فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض؟ قال: كنا بالشام، فقرأت: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾ قال معاوية: ما هذه فينا، ما هذه إلا في أهل الكتاب، قال: قلت: إنها لفينا وفيهم. اهـ وقوله عز وجل هنا: ﴿ويشترون به ثمنا قليلا﴾ أي ويأخذون ثمنا تافها من حطام الدنيا في مقابلة كتمان الهدى الذي بينه الله في الكتاب، إما رشوةً أو محافظة على منصب أو جاه لابقاء له ولا دوام، وليس الوعيد بالعقوبات الأربع الواردة في هذه الآية مشروطا بهذه المقايضة الخاسرة بل هذا الوعيد ثابت للذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب حتى ولو لم يشتروا شيئا ولو لم يحصلوا على حطام الدنيا الفانية، فإن المقصود هنا هو تحريم الكتمان وهو الذي سيق الكلام من أجله، أما الصفة الثانية وهي قوله: ﴿ويشترون به ثمنا قليلا﴾ فهو بيان لخسة البدل الذي أخذوه في نظير الحق العظيم الذي ضيّعوه وكتموه، فهو تهجين لهم على قبيح فعلهم مع ما

يترتب على معاقبتهم بجعل ما أكلوه نارا في بطونهم. وقوله عز وجل: ﴿أولَئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾ أي هؤلاء السفهاء الذين يكتمون هدى الله ويشترون به ثمنا قليلا ما يجلبون لأنفسهم إلا أن يملأ الله بطونهم نارا يوم القيامة، وقال ابن جرير في تفسير هذه الآية: كما قال تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا﴾. معناه ما يأكلون في بطونهم إلا ما يوردهم النار بأكلهم، فاستغنى بذكر النار وفهم السامعين معنى الكلام عن ذكر ما يوردهم أو يدخلهم. اهـ قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ: «إنّ الذي يأكل أو يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم». اهـ وقوله عز وجل: ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾ هذه هي العقوبة الثانية التي توعّد الله بها من كتم الهدى، ولا شك أن أهل السنة والجماعة يثبتون صفة الكلام لله عز وجل على الوجه الذي يليق برب العزة والجلال، ومن كلامه تبارك وتعالى القرآن الذي سمعه جبريل من الله عز وجل وألقاه على رسول الله محمد ﷺ، وقد قال الله عز وجل: ﴿ولو أنّ ما في الأرض من شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يمُدّه من بعده سبعة أَبْحُر ما نفدت كلمات الله، إن الله عزيز حكيم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿قل لو كان البحر مِدَادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مَدَدًا﴾. وكما أشار الله عز وجل إلى أنه يسلم على المؤمنين في الجنة بكلام يسمعونه فيسعدون به سعادة فوق سعادتهم بنعيم الجنة حيث يقول جل وعلا: ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغُل فاكهون * هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون * لهم فيها فاكهة ولهم ما يَدَّعُون * سلامٌ قولاً من ربّ رحيم﴾ وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة

فيقـولـون: لبيـك ربّنـا وسعـديك والخير في يـديـك فيقـول: هل رضيتم؟ فيقولـون: وما لنا لا نرضى يـا ربّ وقد أعطيتنا مـا لم تعط أحدا من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقـولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلّ عليكم رضواني فـلا أسخط عليكم بعده أبدا» . اهـ ولما كان كلام الله تبارك وتعالى لأهل الجنة كـلام تحية ورحمة وتكريم فإنه عز وجل يحرم من هـذا الكلام أعداءه فـلا يكلمهم بما يدخل عليهـم سرورا وتكريما، ولذلك كان كلام الله عز وجل لموسـى عليه السلام من أعلى درجات التكريم حتى وصف مـوسى عليـه السلام بـأنه كليم الله كما قـال عـز وجل: ﴿تلك الرسل فضّلنـا بعضهم على بعض منهم مَن كَلَّمَ اللهُ ورفع بعضهم درجات﴾ وكما قـال عـز وجل: ﴿وكلّم اللهُ مـوسى تكليما﴾ ولـذلك جاء في حـديث الشفاعة الـذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال: «فيأتون مـوسى فيقولـون: يا موسـى أنت رسول الله اصطفـاك الله بـرسـالاتـه وبتكليمـه على النـاس، اشفـع لنـا إلى ربك» . الحديث. وإذا كـان كلام الرب جـل وعلا تكريما لأوليـائه فإنه يحرم منـه من غضب عليهم ولذلك قال في هذا المقام الكريم في الذين يكتمون الحق الذي بيّنه الله في الكتـاب ولا يتوبون ولا يبيّنون ولا يصلحـون قال: ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامـة﴾ ولا شك أن الكلام المنفي هنا هو ما كان لتكـريمهم أما ما كان لتيئيسهم من رحمته ولتوبيخهم على كفرهم به فإنه غير مراد في هذا المقام الكريم، ولما كـان يوم القيامـة يوما طـويلا وفيـه مقامات كثيرة فإنـه تَعرض مقاماتٌ يوبّخ الله فيها الكافرين، وتعرض مقامات لا يكلّمهم وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى بعض هـذه المقامات حيث يقول: ﴿قالـوا ربنا غَلَبَتْ علينا شِقْوَتُنا وكنـا قوما ضالين * ربنا أخـرجنا منها فإن عدنا فإنـا ظالمون * قال: اخسئوا فيها ولا تُكَلِّمونِ * إنه كان فريق من عبـادي يقولون ربنا آمنا فاغفر

لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سِخْريا حتى أَنْسَوْكم ذكري وكنتم منهم تضحكون * إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون﴾ أما العقوبة الثالثة فهي قوله عز وجل: ﴿ولا يزكيهم﴾ أي لا يثني عليهم ولا يمدحهم بل يلعنهم ويمقتهم، أما العقوبة الرابعة فهي ما أعده الله لهم في نار جهنم بقوله عز وجل: ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي ولهم عقاب مؤلم موجع. وهذه العقوبات قد ذكرها الله عز وجل في سورة آل عمران وأعدها للذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا حيث يقول عز وجل: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولٓئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ وقد توعد رسول الله ﷺ على بعض المعاصي بهذه العقوبات، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم» قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرارٍ، قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: «المسْبِلُ، والمنّان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب». وفي رواية له: «المسبل إزاره وثوبه أسفل من الكعبين للخيلاء». اهـ وأهل السنة والجماعة يعتبرون مثل هذه الآية الكريمة وهذا الحديث الشريف إن وردت على معصية دون الكفر، من نصوص الوعيد، فبعضهم يجريها على ظاهرها تحذيرا وتخويفا كقوله عز وجل في قاتل المؤمن عمدا بغير حق: ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما﴾ وكقول رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح: «لا يزنى الزاني حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه أبصارهم فيها حين ينتهبها وهو مؤمن». وبعض أهل العلم يفسرون مثل هذه

النصوص فيقولـون في قوله عز وجل في قـاتل المؤمن عمدا: ﴿فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما﴾ أي إن جازاه بعدله فعل به ذلك وقد يتفضل عليـه بفضله فيعفو عنه لقـوله عز وجل: ﴿إن الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به ويغفر مـا دون ذلك لمن يشاء﴾ فجميع المعاصي التي لا يحكم بكفر صاحبهـا خاضعة لمشيئة الله إن شاء غفـر وإن شاء عذب، وإن يعذّب فبعدله وإن يغفر فبفضله، ويقـولون في قول رسول الله ﷺ: «لا يزنى الزاني حين يزنى وهو مـؤمن». الحديث. أي وهو كامل الإيمان فإن المعاصي تنقص الإيمان حتى يُخْشَى ذهـابه، وهذا مـن فضل الله وتوفيقه لأهـل السنة والجماعـة حيث لم يضربـوا بعض النصـوص ببعض بخـلاف أهل الأهـواء المنحرفين عن مـذهب أهل السنة والجماعة الـذين يكفرون المؤمنين بالـذنوب التي دون الشرك، أو يـرجئون فيـزعمـون أنه لا تضر مع الإيمان معصيـة مهما كانت. عصمنا الله بفضله عن جميع مذاهب أهل الـزيغ والأهواء. وقوله عز وجل: ﴿أولٓئك الذين اشتروا الضلالة بـالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار﴾ أي إن هؤلاء الـذين يكتمون ما أنزل الله مـن الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا الـذين توعدهم الله بالعقوبات الأربع المذكـورة قد رضوا بتحصيل الضلالة بـدل الهدى والرشاد ورضوا بعذاب الله بدل مغفـرته فما أشد صبرهم على نـار جهنم، وليس المراد إثبـات صبر لهم بل المراد التعجيب من جـرأتهم على ارتكاب ما يدخلهم نار جهنم التي لا يصبر أحد على حر نار الدنيا التي خففت كثيرا عن نـار جهنـم، لكنهم عنـدمـا يُـدَعُّـون في نـار جهنم دَعّـا ويصرخون ويستغيثون فيُيَأَّسُون من رحمة الله ويقـال لهم: ﴿اصْلَوْها فاصبروا أو لا تصبروا سـواء عليكم إنما تجزون مـا كنتم تعلمـون﴾ وقولـه عـز وجل: ﴿ذٰلك بأن الله نزّل الكتاب بالحق وإن الـذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾ أي ذلك الـذي قصصت عليكم حق لا مرية فيه لأن الله نـزّل القرآن

على محمد ﷺ حقـا وصدقا وجميع ما فيـه حق وصدق و إن الذين يكفـرون به مختلفون متنـاقضون واقعـون في شقاق وتناقض عميـق حيث وصفه بعضهم بأنـه شعر ووصفـه بعضهم بأنه سحـر ووصفه بعضهم بأنـه كهانـة ووصف بعضهم رسول الله ﷺ بأنه مُعَلَّم مجنـون ، وقد أطبق الناس على أن المجنون لا يقبل التعليم .

قال تعالى : ﴿ليس البر أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولَكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنّبيين وآتى المال على حبّه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسّائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضّراء وحين البأس ، أولَئك الذين صدقوا وأولَئك هم المتقون﴾ .

ما تقدم من أول السورة الكريمة إلى هذا المقام الكريم كان في أصول الدين ، وبيان اختلاف الناس فيه وتقرير الحنيفية ملة إبراهيم وتأكيد أن محمدا رسول الله ﷺ مبعوث بملة إبراهيم عليه السلام وأن من ادعى أنه يتّبع إبراهيم خليل الرحمن ثم يكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام هو في شقاق بعيد شرع هنا يقرر الأحكام الشرعية التفصيلية التي تنظم المجتمع المستمسك بها أحسن تنظيم وتربط بين أفراده بأوثق رباط في جميع الشئون الاجتماعية والجنائية والاقتصادية وأحكام الصيام والحج والقتال وشرب الخمر وأحكام النكاح والطلاق والرضاع والحضانة وعدة المتوفّى عنها زوجها وأحكام خِطبة النكاح وطلاق المرأة قبل المسيس وماذا يجب لها حينئذ مع بيان أحوالها ، والتأكيد على المحافظة على الصلوات الخمس في السلم والحرب ، إلى غير ذلك من الأحكام التي تقيم المجتمع المثالي المشرق المستنير، مما لم يخطر على بال أفلاطون وغيره من الفلاسفة أن يفكّروا في أن يروا ظلاّ لمثل هذا المجتمع المتمدّن الراقي ، ولست بمقارن بين تعاليم الإسلام وتعاليم أفلاطون وأرسطو وغيرهما من فلاسفة الإغريق وغيرهم لأن الفرق بينهما كالفرق بين الثرى والثريا وعلى حد قول الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل هذا السيف أمضى من العصا

وهذه الآية الكريمة التي بدأ الله عز وجل بها هذه التشريعات المشرقة توجّه

الناس عموما والمسلمين خصوصا إلى وجوب الاستمساك بشريعة محمد رسول الله ﷺ ونبذ حثالة أفكار اليهود والنصارى المتناقضة الذين لا يعرفون من الدين المحرّف إلا القشور، ويستمسكون بأمور تناقض مقاصد دين المرسلين ويظنون أن الشيء الذي شرع أو اخترع في وقت من الأوقات التي تناسبه يجب أن يكون مناسبا لجميع الأوقات مع أن الذي شرعه أو اخترعه لم يُرِدْ بقاءه وتأبيده، ومن ذلك استمساك اليهود بالصلاة إلى بيت المقدس واستمساك النصارى بالصلاة إلى المشرق، فبدأ الله عز وجل هذه الآية العظيمة ببيان أن المشرق والمغرب ليس طاعة في ذاته، فجميع الجهات لله عز وجل ولا فضل لجهة على جهة وإنما الفضل في اتباع أوامر الله، فحيث أمر الله عز وجل فالبرّ في طاعة أمره وحيث نهى الله عز وجل فالبر في الانتهاء عما نهى الله عنه، وقد اشتملت هذه الآية المباركة على أصول الدين وقواعد السلوك التي لا عز ولا سعادة إلا بالاستمساك بها وقوله عز وجل: ﴿ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ أي ليست التقوى والصدق في الدين تولية الوجوه جهة المشرق أو جهة المغرب، ولفظ البر إذا أطلق في الكتاب والسنة صار مرادفا لمسمى الدين ولمسمى الإيمان ولمسمى التقوى، وعطف التقوى على البر في قوله عز وجل: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ ليس من باب العطف بين المتغايرين بل من باب العطف بين المترادفين كما في قول نوح عليه السلام: ﴿أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون﴾ فكل عبادة لله عز وجل وكل تقوى لله عز وجل وكل طاعة لله عز وجل ولرسوله هي من البر، وكلّ عمل صالح يمكن أن يوصف بأنه من البر كما قال رسول الله ﷺ البرّ حسن الخلق، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث النوّاس بن سَمْعان رضي الله عنه قال سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطّلع عليه الناس». وكذلك

إذا أطلق لفظ البرّ فإنـه يتناول جميع مـا أمر الله عـز وجل به ، وقـد جعل الله تبارك وتعالى البرّ هو التقوى في قـوله تبارك وتعالى : ﴿ولَكنّ البرّ من اتّقى﴾ . وقولـه عز وجل : ﴿ ولَكن البرّ من آمن بـالله واليوم الآخر والملائكـة والكتاب والنبيين﴾ هذه خمسة من أركان الإيمان الستة ، أمـا الركن السادس من أركان الإيمان وهو الإيمان بالقـدر فقد أشار إليه ربّ العـزة ذو الجلال في نفس هذه الآية الكـريمة بقـوله تبارك وتعـالى : ﴿والصابـرين في البأساء والضرّاء وحين البأس﴾ وذلك لأن الذي يحمل المؤمن على الصبر في هذه المواطن هو الرضى بـالقضـاء والقـدر، كما اشتملت هذه الآيـة الكـريمـة على ركنين من أركـان الإسـلام وهما إقام الصـلاة وإيتاء الـزكـاة ، وقد أفـرد الصيام والحج في مقـام قريب في هذه السورة المباركة كما سيجيء قـريبا بدءًا من الآية الثالثة والثمانين بعد المائة ، وقد جـاء جبريل إلى رسول الله ﷺ في صورة رجل ليعلم المسلمين أركان الإيمان والإسـلام على طريقـة السؤال والجواب لتركيـز هذه الأركـان في نفوس المؤمنين لما عُلـم في علم التربية والنفس أن طـريقة المحـاورة والسؤال والجواب من أعظم أسباب تثبيت المعلـومات في النفس الإنسانية وتـركيزها ، فقد روى البخـاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يوما بارزا للناس إذ أتاه رجل يمشي فقال : يا رسول الله ما الإيمان؟ قـال : «الإيمان أن تؤمن بـالله وملائكتـه وكتبه ورسلـه ولقائه وتؤمن بالبعث الآخـر» ، قال : يا رسول الله ما الإسـلام؟ قال : «أن تعبد الله ولا تشرك به شيئـا ، وتقيم الصلاة ، وتـؤتي الزكاة المفـروضة وتصـوم رمضان» قال : يا رسول الله ما الإحسـان؟ قال : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنـه يراك» . قال : يا رسـول الله متى الساعة؟ قال : «مـا المسئول عنهـا بأعلم من السـائل ، ولكن سأحدّثـك عن أشراطها ، إذا ولـدت المرأة ربتهـا فذاك من أشراطهـا ، وإذا كان الحفـاة العـراة رءوس الناس فـذاك من

أشراطهـا ، في خمس لا يعلمهن إلا الله : ﴿إن الله عنده علم السـاعة وينـزّل الغيث ويعلم ما في الأرحـام﴾ ثـم انصرف الرجل فقـال : «ردّوا على» فأخذوا ليردّوا فلم يـروا شيئا ، فقال : «هـذا جبريل جاء ليعلّم النـاس دينهم» . وفي لفظ لمسلم من حـديث أبي هريـرة رضي الله عنه قـال : قال رسـول الله ﷺ : «سلوني» ، فهـابوه ، فجـاء رجل فجلس عند ركبتيه فقـال : يا رسـول الله ما الإسلام؟ قـال : «لا تشرك بالله شيئـا ، وتقيم الصلاة ، وتـؤتي الزكـاة وتصوم رمضـان» ، قـال : صدقت ، قال : يـا رسول الله ما الإيمان؟ قـال : «أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث وتؤمن بالقدر كلّه» ، قال : صدقت . . الحديث . كما روى مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قـال : بينا نحن عنـد رسول الله ﷺ ذات يـوم إذ طلع علينا رجل شـديد بياض الثياب ، شـديد سواد الشّعر ، لا يـرى عليه أثر السفر ، ولا يعـرفه منا أحـد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيـه إلى ركبتيه ، ووضع كفّيـه على فخذيـه ، وقال : يـا محمد أخبرني عن الإسـلام قال : «الإسـلام أن تشهد أن لاإلـه إلا الله وأن محمدا رسـول الله ، وتقيم الصـلاة ، وتؤتي الـزكاة ، وتصـوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليـه سبيلا» ، قال : صدقت ، فعجبنـا له يسألـه ويصـدّقـه ، قـال : فأخبرني عن الإيمان . قـال : «أن تـؤمـن بـالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخـر ، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه» ، قال : صدقت ، قال : فأخبرني عن الإحسان ، قال : «أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ، قال : فأخبرني عن السـاعة . قال : «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» ، قال : فأخبرني عن أماراتها ، قال : «أن تلد الأمة ربّتها ، وأن تـرى الحفاة العـراة العالـة رعاء الشـاء يتطاولـون في البنيان» . قـال : ثم انطلق ، فلبثت مليّـا ثم قال لي : «يـاعمـر أتدري من السـائل؟» قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» . وقوله عز وجل :

﴿ولّكنّ البرّ من آمن بالله﴾ الآيـة، قال ابن جرير رحمه الله: فإن قـال قائل: فكيف قيل ﴿ولّكن البر مـن آمن بـالله﴾ وقـد علمت أن (البرّ) فعلٌ و(مَنْ) اسمٌ فكيف يكون الفعل هو الإنسان؟ قيـل: إن معنى ذلك غير ما توهَّمْتَهُ، وإنما معنـاه: ولكنَّ البِرَّ بِرُّ مَنْ آمـن بالله واليـوم الآخر فـوضع (مَن) مـوضع الفعل اكتفاء بدلالته ودلالة صلتـه التي هي له صفة من الفعل المحذوف كما تفعلـه العرب فتضع الأسماء مـوضع أفعـالها التي هي بها مشهورة، فتقـول: الجودُ حـاتمٌ، والشجـاعـة عنترة، وإنما الجود حـاتمٌ والشجـاعـة عنترة. ومعناهـا: الجود جود حاتم فتستغني بذكـر حاتم إذ كان معروفـا بالجود عن إعادة ذكر الجود بعد الذي قد ذكرته، فتضعه موضع جوده لدلالة الكلام على ما حذفتـه، استغناء بما ذكرته عما لم تذكره كما قيل: ﴿واسأل القـرية التي كنا فيها﴾ والمعنى: أهل القرية، وكما قال الشاعر وهو ذو الخِرق الطُّهَوي:

حسبتَ بُغام راحلتي عناقًا وما هـي ويب غيركَ بالعنـاق

يريد: بغـام عناق أو صوت عناق، كما يقـال: حسبت صياحي أخاك، يعني به حسبت صيـاحي صياح أخيك. وقد يجوز أن يكـون معنى الكلام: ولكنّ البارّ من آمن بالله فيكون (البر) مصدرا وضع موضع الاسم اهـ. والمراد بالكتاب في الآية مـايشمل جميع الكتب المنزّلة من الله على رسله حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن المهيمن على مـا قبله من الكتب الذي انتهى إليه كلّ خير واشتمل على كل سعـادة في الـدنيـا والآخـرة ونسخ الله بـه كل مـا سـواه من الكتب قبلـه، وقـولـه: ﴿والنبيين﴾ يشمل وجـوب الإيمان بجميع الأنبيـاء والمرسلين لما ذكرتـه في تفسير الآية الحادية والستين مـن هذه السورة الكـريمة بأن كلّ رسول نبي فمن آمن بجميع الأنبياء فقد آمن بجميع المرسلين، وقوله عز وجل: ﴿وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى المساكين وابن السبيل والسـائلين وفي الرقـاب﴾ أي وبـذل المال وهو لـه محبّ وهـو عليه حـريص

فأنفقه على أقـاربه المحتـاجين وعلى اليتامى وهم من مـات آباؤهم وهم دون البلوغ، وعلى المسـاكين وهم الذين لا يجدون شيئـا أو يجدون مالا يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكناهم. وقد تقدم مزيـد بيان لذلك في تفسير الآية الثالثة والثمانين من هذه السـورة المباركـة. والمراد بابن السبيل الغـريب المنقطع عن أهله ومـاله وهو المسـافر المجتاز فيُعْطَى من المال ما يـوصله إلى بلده ومـاله، وإنما سمّي بـابن السبيل أي ابن الطـريق، لملازمته السير على الطـريق كأن الطريق ولـدته، والمراد بالسائلين في الآيـة الكريمة هم الذين يسألـون الناس ويطلبـون منهم مـدّ يـد العـون لهم ولا يلـزم المعطي أن يتحـرّى عنهم قبل إعطائهم وقد حذّر الله تبارك وتعالى من زجرهم ونهرهم حيث قال عز وجل: ﴿وأما السائل فلا تنهـر﴾ والمراد بالرقاب في قوله عـز وجل: ﴿وفي الرقاب﴾ أي وفي تحرير العبيد والإماءوفي مساعـدة المكاتبين في دَين كتابتهم، وفي هذا لفت انتباه الناس إلى أنّ دين الإسلام قـد وضع للناس أعلى درجات التكافل الاجتماعي، فلله الحمد والمنة. وقد أشار الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿وآتى المال على حبه﴾ إلى أن الذي يبذل المال وهو لـه محبّ ليس كالذي يبذل المال وهو غير محب له لسبب من الأسباب كأن يكون المال رديئا كحشف التمر وشيصه ونحوه مما لـو عرض عليه ما أخذه إلا أن يغمض فيـه، أو أن يكون سفيها لا يعرف قدر المال أو مبذّرا ينثـر يمينا وشمالا بدون وعي، وبهذا يلفت الإسلام انتباه الناس إلى أنـه ينبغي لهم المحافظة على أموالهم ومعـرفة فضل الله عليهم فيها فلا ينفقونها إلا فيما يعود عليهم بالخير في دينهم ودنياهم حتى وصف الله عز وجل المال بأنه قوام الحياة حيث يقول: ﴿ولا تؤتوا السّفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قيـاما﴾ وقد وصف الكعبـة البيت الحرام بنفس هذا الـوصف حيث قال: ﴿جعل الله الكعبـة البيت الحرام قياما للنـاس﴾ ولذلك وصف رسـول الله صلى الله عليـه وسلم الـذي يتصـدق وهـو صحيح شحيح بأن

صدقته أعظم أجرا، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أيّ الصّدقة أعظم أجرا؟ قال: «أن تصدّق وأنت صحيح شحيحٌ تخشى الفقر وتأمُل الغنى، ولا تمهلُ حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان». اهـ وليس هذا حضا على الشح فإن الشح مهلك كما قال عز وجل: ﴿ومن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولَئك هم المفلحون﴾ كما روى مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتّقوا الشحّ فإن الشحّ أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم»، إذ المقصود من قول رسول الله ﷺ: «أن تصدّق وأنت صحيح شحيح» هو أنّ من كان بهذه المثابة كان بذله للمال دليلا على حرصه على الخير والنفقة في هذا الوجه الذي بذل فيه وأنه استطاع أن يقاوم من نفسه دواعي الحرص وتغلب عليها فلذلك كان أعظم أجرا، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن البررة يحبون المال ويبذلون أغلاه عند أنفسهم في مرضاة الله وفي المواضع التي أمرهم الله عز وجل بالإنفاق فيها حيث يقول: ﴿إنّ الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا* عينا يشرب بها عباد الله يفجّرونها تفجيرا * يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شرّه مستطيرا * ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا* إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا﴾ وقال عز وجل: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا، وكان أحبّ أمواله إليه بيرُحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيّب، قال أنس: فلما نزلت: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول:

﴿لن تنالـوا البرّ حتى تنفقوا مـا تحبّون﴾ وإن أحبّ أمـوالي إليّ بيرُحاء، وإنها صدقة لله أرجو برّها وذخرهـا عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال النبي ﷺ: «بخ بخ ذاك مالٌ رابـح ذاك مالٌ رابح، وقد سمعتُ، وأنـا أرى أن تجعلهـا في الأقـربين» فقال أبـو طلحـة: أفعل يـا رسـول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربـه وبني عمه. كما جاء في الصحيحين من حديث عمر رضي الله عنه أنه قال يا رسول الله لم أصب مالا قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر فما تأمرني بـه؟ قال: «احبس الأصل وسبّل الثمرة».
ولذلك أخبر رسـول الله ﷺ أنّ أفضل الرقـاب التي يحررها الإنسـان ويفكّها من قيد الرّقّ هي أغلاها ثمنـا وأنفَسُها عند أهلها فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أيّ العمل أفضل؟ قـال: «إيمانٌ بالله، وجهـاد في سبيله»، قـال: قلت: فأيّ الرقـاب أفضل؟ قال: «أغلاها ثمناً، وأنفسها عند أهلها»، قلت: فإن لم أفعل؟ قال: «تُعينُ صانعاً أو تصنعُ لأخرقَ». قلت: فـإن لم أفعل؟ قال: «تدَعُ الناس من الشر فإنها صدقة تصدّقُ بها على نفسك». وقولـه عز وجل: ﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾ أي وأدّى الصلاة وأتم أفعالها في أوقاتها بركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الذي بيّنه رسول الله ﷺ بقوله وفعله. والزكاة هنا تحتمل أن يراد بها تطهير النفس من أدنـاس الشرك والمعاصي والأخـلاق الرذيلـة على حد قـوله تعالى: ﴿قد أفلح من زكـاها * وقد خاب من دسّاها﴾ وقـوله تعالى في سورة فُصّلت وهي مكية: ﴿وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون﴾ وكما ذكر الله عز وجل من قول موسى عليه السلام لفرعون لعنه الله: ﴿هل لك إلى أن تَزَكَّى﴾ وتحتمل أن يـراد بالزكاة هنـا زكاة المال، ويكون قـولـه عـز وجل قبل ذلك في نفس هـذه الآيـة: ﴿وآتى المال على حبـه ذوي القربـى واليتامى والمسـاكين وابن السبيل والسائلين وفي الـرقاب﴾ إمـا لبيان

بعض مصارفها قبل ذكرها في الآية أو أن المقصود هو التطوع والبرّ والصلة لهؤلاء المذكورين، ولا شك أن ذوي القربى واليتامى إذا كانوا فقراء ولا تجب نفقتهم على الإنسان فإن إعطاءهم من مال الزكاة أكبر فضلا وأعظم أجرا. وقوله عز وجل: ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾ أي وأهل البر كذلك هم الذين إذا عاهدوا الله أو عاهدوا أحداً من خلقه، يوفون بعهدهم ويتمّونه على ما عاهدوا عليه من عاهدوه، وقد أثنى الله تبارك وتعالى على المؤمنين في مواضع كثيرة من كتابه الكريم ووصفهم بأنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق كما وسم المنافقين والكافرين الفاسقين فجعل أول صفاتهم أنهم ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، وقد جعل رسول الله ﷺ من صفات المنافق أنه إذا عاهد غدر، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أربعٌ مَن كنّ فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدَعها، إذا اؤتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». وقوله عز وجل: ﴿والصابرين في البأساء والضّراء وحين البأس﴾ فيه لفت انتباه لمنزلة الصابرين المؤمنين بقضاء الله وقدره المحتسبين ما يصيبهم عند الله عز وجل، وقد جاء هذا التنبيه بنصب الصابرين على المدح، وقطعهم في الإعراب عما قبلهم، وهذا شبيه بقوله عز وجل في الإشعار بعلوّ منزلة المصلِّين: ﴿لكِنِ الراسخون في العلم منهم، والمؤمنون يؤمنون بما أُنزل إليك وما أنزل من قبلك، والمقيمين الصلاة، والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولّئك سنؤتيهم أجرا عظيما﴾ فقد كان نسق الكلام أن يقال: والمقيمون الصلاة، بالرفع عطفا على قوله: ﴿والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ فقطع النّسق ونصب المقيمين الصلاة على المدح والاختصاص. وكذلك هنا كان مقتضى النّسق أن يقال: والصابرون في

البأساء والضراء وحين البأس بالرفع عطفا على قوله: ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾ فلما قطع النسق ونصبه على المدح عُرف أن المقصود هو لفت الانتباه إلى علو منزلة الصابرين في هذه المواطن الثلاثة وهي البأساء والضراء وحين البأس. قال الراغب: ولما كان الصبر من وجهٍ مبدأً للفضائل ومن وجهٍ جامعا للفضائل إذ لا فضيلة إلا وللصبر فيها أثر بليغ غيَّر إعرابه تنبيها على هذا المقصود اهـ. والبأساء هي الفقر أو الجوع أو الحاجة، والضراء المرض والوجع، ومعنى: ﴿وحين البأس﴾ أي ووقت شدة القتال في الحرب في سبيل الله وعند لقاء العدو. وقوله عز وجل: ﴿أولَٰئك الذين صدقوا وأولَٰئك هم المتقون﴾ أي هؤلاء المتصفون بهذه الصفات هم الذين صدقوا الله في إيمانهم، وطابقت أقوالهم أفعالهم وهم المتقون حقا وصدقا لا من ولّى وجهه قِبل المشرق والمغرب وهو يخالف أمر الله عز وجل في القبلة التي أمر الله عز وجل بها، وينقض عهد الله من بعد ميثاقه، وقد ختم الله تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة العظيمة بهذين الوصفين الجليلين وهما الصدق والتقوى التي أكّد الله عز وجل في مواضع من كتابه الكريم أن المتصفين بهما هم المفلحون الفائزون وأشار في قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا وتاب الله عليهم إلى ذلك بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ وبين أن العاقبة الحسنى للمتقين حيث يقول: ﴿والعاقبة للتقوى﴾ ويقول: ﴿والعاقبة للمتقين﴾ ويقول: ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا﴾ ولذلك لوحظ أن الله قَصَرَ هُدى كتابه الكريم على المتقين حيث قال في مطلع سورة البقرة: ﴿ذَٰلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾ وكما أنه ختم آية البرّ هنا بقوله: ﴿وأولَٰئك هم المتقون﴾ ختم تشريع القصاص بقوله: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾ وقال في ختام تشريع الوصية: ﴿حقّا على المتقين﴾ وقال في تذييل الآية الأولى في تشريع الصيام:

﴿لعلكم تتقون﴾ كما قال في ختام تشريع الصيام: ﴿كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ وهكذا يبين الله عز وجل أن المقصود من تشريع الأحكام هو تربية النفس على تقوى الله عز وجل لتفوز بعز الدنيا وسعادة الآخرة، قال ابن تيمية رحمه الله عن آية البرّ: وهذه الآية عظيمة جليلة القدر، من أعظم آي القرآن وأجمعه لأمر الدين اهـ وقال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة: قال علماؤنا: هذه آية عظيمة من أمهات الأحكام لأنها تضمنت ستّ عشرة قاعدةً: الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته، والنشر والحشر والميزان والصراط والحوض والشفاعة والجنة والنار والملائكة والكتب المنزّلة وأنها حق من عند الله، والنبيين، وإنفاق المال فيما يَعِنُّ من الواجب والمندوب وإيصال القرابة وترك قطعهم، وتفقّد اليتيم وعدم إهماله، والمساكين كذلك ومراعاة ابن السبيل والسؤّال وفكّ الرقاب والمحافظة على الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهود والصبر في الشدائد، وكل قاعدة من هذه القواعد تحتاج إلى كتاب اهـ.

قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلَى الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ، فمن عُفي له من أخيه شيء فاتّباع بالمعروف وأداءٌ إليه بإحسان ، ذٰلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذٰلك فله عذاب أليم* ولكم فِى القصاص حياة يا أولِى الألباب لعلّكم تتقون﴾ .

كانت بنو اسرائيل إذا قتل لهم قتيل لم يكن لهم حقٌّ في الدية ويقتصون من القاتل ، وكانت بعض القبائل العربية إذا قُتل لهم قتيل لا يرضون بقتل قاتله فقط بل يتجاوزون حد القصاص فيقتلون بدل المرأة رجلا وبدل الرجل رجلين أو أكثر وبدل العبد حرا ولا يرضون بالمماثلة والقصاص فبين الله تبارك وتعالى هنا أنه شرع لهم القصاص وخفّف عنهم الإصر الذي كان على من قبلهم فشرع لولي القتيل أن يتجاوز عن القصاص ويقبل الدية ويعفو عن قتل القاتل ، كما حذرهم من بغي أهل الجاهلية الذين كانوا يقتلون بدل المرأة رجلا وبدل الرجل أكثر من رجل وبدل العبد حرّا فقال عز وجل : ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى﴾ الآية والخطاب هنا وإن كان موجّها لعموم المؤمنين الذين يكوّنون مجتمع الرحمة والعدل فإن المقصود بالخطاب هو الحاكم الشرعي والسلطان لأنه هو الذي عليه تنفيذ أحكام الشريعة إذ لا يجوز قطعا لمن قتل له قتيل أن يقتل القاتل إلا بعد الحكم الشرعي على القاتل بالقتل وبعد أن يقدّم وليّ أمر المسلمين القاتل لأولياء القتيل ويمكنهم من قتله معرّفا لهم أنّ لهم الحقّ في قتله بقتيلهم الذي قتله وأن لهم الحقّ أيضا في العفو وأن يأخذوا الدية ، وليس لهم سوى ذلك ، ولذلك جعل الله تبارك وتعالى أعتى الناس وأبغضهم عند الله من قتل غير قاتله أي من قتل رجلا وهو غير القاتل الذي قتل قتيله ، فقد روى البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : «أبغض الناس إلى

الله ثلاثة: ملحدٌ في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية ومُطَّلِب دم امرئ بغير حق ليهريق دمهُ». كما روى ابن حبان في صحيحه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «وإنّ أعتى الناس على الله ثلاثةٌ: من قَتَل في حرم الله، أو قتل غير قاتله أو قتل لذحل الجاهلية» ومعنى قوله في الحديث: «أو قتل غير قاتله» أي أو سفك دم إنسان لم يقتل له قتيلا وإنما الذي قتل هو غيره حيث كان أهل الجاهلية لا يكتفون بقتل القاتل وإنما يقتلون معه بعض أقاربه البُرَآء من الجريمة بل كانوا يأخذون الجار بجاره والحليف بحليفه، ولذلك جاء النص الكريم في هذا المقام ببيان أنه لا يجوز أن يقتل بالحر أكثر من حر ولا أن يقتل بالمرأة أكثر من امرأة ولا أن يقتل بالعبد أكثر من العبد الذي قتله حيث قال عز وجل: ﴿الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾ وليس في هذا النص نفي لقتل العبد بالحر، أو الحر بالعبد، ولا لقتل الرجل بالمرأة أو المرأة بالرجل فالآية الكريمة إنما جاءت مُبَيِّنَةً لحكم النوع إذا قتل نوعه فبينت حُكم الحُرِّ إذا قتل حرا، والعبد إذا قتل عبدا، والأنثى إذا قتلت أنثى، ولم تتعرض لأحد النوعين إذا قتل الآخر، وهي محكمةٌ وفيها إجمال بينه الله عز وجل بما كتبه في التوراة بقوله عز وجل: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾ وهي وإن كانت في شرع مَنْ قبلنا فقد بَيَّنَها النبي ﷺ بسنته التي تقرر أنها كذلك شَرْعٌ لنا حيث قَتَلَ اليهوديَّ الذي قتل المرأة فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن جاريةً وُجِدَ رأسها قد رُضَّ بين حجرين، فسألوها: من صنع بك هذا؟ فلان؟ فلان؟ حتى ذكروا يهوديا، فأومأت برأسها، فأُخِذَ اليهودي فأقَرَّ، فأمر رسول الله ﷺ أن يُرَضَّ رأسه بين حجرين. ولا شك عند أهل العلم أن شرع من قبلنا إذا ورد في شرعنا نسخه فلا يكون شرعا لنا بالإجماع، وإذا ورد في شرعنا ما يقرر أنه شرع لنا كان شرعا لنا بالإجماع،

وإنما اختلف أهل العلم في شرع من قبلنا إذا لم يرد دليل من شرعنا بإثباته أو نفيه فهل يكون شرعا لنا؟ وقتل النفس بالنفس قد تقرر في شرعنا في نصوص كثيرة منها حديث الصحيحين المتقدم في قتل اليهودي قصاصا لقتله الجارية، كما روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنّفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة» وليس معنى قوله عز وجل: ﴿كتب عليكم القصاص﴾ أي أنه فرض فرضا لازما لا يجوز تركه بل المراد أنه إذا رُفع إلى الحاكم الشرعي وقضى بالقصاص وأصرّ أولياء القتيل على تنفيذ القصاص وجب وتحتّم على ولي الأمر أن ينفذه، فإذا رضي أولياء القتيل بالعفو وأخذ الدية بدل القصاص فلهم ذلك شرعا وإلى هذا يشير قوله عز وجل في نفس هذه الآية: ﴿فمن عفي له من أخيه شيء فاتّباع بالمعروف وأداءٌ إليه بإحسان ذٰلك تخفيفٌ من ربكم ورحمة﴾ وبهذا التخفيف وضع الله عز وجل عنا الإصر الذي كان على أهل الكتاب من قبلنا، وقد روى البخاري في صحيحه من طريق مجاهد قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: كان في بني إسرائيل القصاص ولم تكن فيهم الدية فقال الله تعالى لهذه الأمة: ﴿كتب عليكم القصاص في القتلى الحرّ بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد ﴿فاتّباع بالمعروف وأداءٌ إليه بإحسان﴾ يتّبع بالمعروف ويؤدي بإحسان ﴿ذٰلك تخفيف من ربكم ورحمة﴾ مما كتب على من كان قبلكم ﴿فمن اعتدى بعد ذٰلك فله عذاب أليم﴾ قتل بعد قبول الدية اهـ وأصل القصاص مأخوذ من قصّ الأثر وهو اتّباعه ومنه القاصّ لأنه يتّبع الآثار والأخبار، كأن القاتل سلك طريقا من القتل فقُصَّ أثَرُه فيها ونُفِّذ فيه ما نَفَّذه في القتيل، ولذلك يُقْتَصُّ من

القاتل على وجه المماثلة إذ هي المعنى التام للقصاص، ولذلك يُقْتَصُّ في الجروح التي تتأتي فيها المماثلة وكذلك الأعضاء كما قال عز وجل: ﴿والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسّنّ بالسّنّ والجروح قصاص﴾ وقد أكّد رسول الله ﷺ أن هذا الحكم صار شرعا لنا فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أنس رضي الله عنه أن الرّبيّع بنت النضر عَمَّتَه كسرت ثَنِيَّة جارية فطلبوا إليها العفو فأَبَوْا فعرضوا الأَرْش فأَبَوْا، فأَتَوْا رسولَ الله ﷺ فأَبَوْا إلا القصاص، فأمر رسول الله ﷺ بالقصاص، فقال أنس بن النضر: يا رسول الله أَتُكْسَر ثَنِيّة الرّبيّع؟ لا، والذي بعثك بالحق لا تُكْسَرُ ثَنيّتها، فقال رسول الله ﷺ: «يا أنس كتاب الله القصاصُ» فرضي القوم فعفَوْا، فقال رسول الله ﷺ: «إنّ مِن عباد الله مَن لو أقسم على الله لأَبرَّه» وقوله عز وجل: ﴿فمن عفي له من أخيه شيء فاتباعٌ بالمعروف وأداء إليه بإحسان﴾ أي فإذا عفا أحد ورثة القتيل وأوليائه عن القاتل وتركوا القصاص ورضُوا بالدية سقط القصاص ووجب على القاتل دفع الدية بإحسان، وتنكير (شيء) في قوله: ﴿فمن عُفِيَ له من أخيه شيءٌ﴾ يفيد سقوط القصاص بالعفو عن بعضه ومن بعض الورثة فمتى عفا أحد من الورثة عن القصاص من القاتل سقط القصاص ولو لم يرض الباقون من الورثة، ولا شك أن هذا من فضل الله ورحمته وتخفيفه على أمة محمد ﷺ وقد اعتبرت الشريعة الإسلامية العفو عن القصاص من الصدقات التي يُتَقَرَّب بها إلى الله عز وجل ولذلك قال عز وجل: ﴿فمن تصدّق به فهو كفارة له﴾. وفي التعبير بقوله: ﴿من أخيه﴾ إيذان بأن القتل لا يقطع أخوّة الإيمان، وهو من أدلة أهل السنة والجماعة على أن قاتل العمد لا يخرج من الإسلام ولا يكون مرتدا بهذه الجريمة النكراء التي ذكر رسول الله ﷺ أنها أوّل ما يُقْضى بين الناس فيه يوم القيامة فقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن

مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أوّل ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء» لكن الله تبارك وتعالى بين في موضعين من كتابه الكريم أنه لا يغفر أن يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء حيث قال: ﴿إن الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذٰلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما﴾ وقال عز وجل: ﴿إن الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذٰلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا﴾ وقوله عز وجل: ﴿ذٰلك تخفيف من ربكم ورحمة﴾ قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: رحم الله هذه الأمّة وأطعمهم الدية ولم تحل لأحد قبلهم فكان أهل التوراة إنما هو القصاص وعَفْو ليس بينهم أَرْش، وكان أهل الإنجيل إنما هو عفو أُمِرُوا به، وجعل لهذه الأمة القصاص والعفو والأرش اهـ وقوله عز وجل: ﴿فمن اعتدى بعد ذٰلك فله عذاب أليم﴾ أي فمن اعتدى من أولياء القتيل على القاتل بعد قبول الدية ولو من بعض الورثة فلهذا المعتدي عقوبة عند الله يوم القيامة مؤلمة موجعة. وكذلك من اعتدى من أولياء القتيل وتجاوز ما شرع الله من القصاص فقتل غير القاتل كما كان يفعل أهل الجاهلية فإن الله يعذبه يوم القيامة عذابا مؤلما موجعا. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولكم في القصاص حياةٌ يا أُوْلي الألباب لعلكم تتقون﴾ أي ولكم في مشروعية القصاص حياة يا ذوي العقول لكي تعرفوا فضل الله عليكم فتأتمروا بأمره وتنتهوا عما نهاكم عنه وتقفوا عند حدوده التي شرعها لكم لتفوزوا بعز الدنيا وسعادة الآخرة ومرضاة الله. والمراد بالقصاص هنا ما يعم القصاص في النفس والقصاص في الأعضاء والجروح، فإن من أراد قتل شخص ثم تذكر أنه إن قَتَلَه أُخِذَ وقُتِلَ مكانه واقتُصَّ منه ارتدع عن القتل فكان ذلك الحكم سببا لحياته وحياة من كان قد عزم على قتله، وكذلك من أراد قطع عضو من أخيه أو جرحه وتذكر أنه سَيُقْتَصّ منه إن فعل ذلك ارتدع كذلك فكان سلامة له ولأخيه، ولذلك

نكّـر الحياة حيث قـال : ﴿ولكم في القصاص حيـاة﴾ ليدلّ على أن في هـذا الحكم نـوعًا من الحيـاة عظيما لا يبلغه الوصـف ، وكون القصاص وهـو قتل القـاتل حياةً بيـانٌ لمحاسن هـذا الحكم المذكور على وجـه بلغ ذروة البلاغـة حيث جعل الشيء وهو القصاص محلاّ لضده وهو الحياة ، قال الفخر الرازي في تفسير هـذه الآية : اتفق علماء البيـان على أن هذه الآيـة في الإيجاز مع جمع المعنى بـالغـة إلى أعلى الدرجـات ؛ وذلك لأن العـرب عبّروا عن هـذا المعنى بألفـاظ كثيرة كقولهم : قَتْلُ البعض إحيـاءٌ للجميع ، وقـول آخرين : أكثـروا القتل ليقل القتل ، وأجود الألفاظ المنقولـة عنهم في هذا الباب قولهم : القتل أنفى للقتل ، ثم إنّ لفظ القرآن أفصح من هذا ، وبيـان التّفاوت من وجوه : (أحدها) أن قوله : ﴿ولكم في القصـاص حياة﴾ أخصر من الكل ، لأن قوله : «ولكم» لا يدخل في هـذا الباب إذ لا بد في الجميع من تقـدير ذلك ، لأن قول القائل : قَتلُ البعض إحياءٌ للجميع ، لا بد فيـه من تقدير مثله وكذلك في قولهم : القتل أنفـى للقتل ، فإذا تأملت علمت أن قولـه : ﴿في القصاص حيـاة﴾ أشد اختصـارا من قـولهم : القتل أنفى للقتل (وثـانيها) أن قـولهم : القتل أنفى للقتل ظـاهره يقتضي كون الشيء سببـا لانتفاء نفسـه وهو محال ، وقوله : في القصاص حياة ، ليس كذلك ، لأن المذكور هو نوع من القتل وهو القصاص ، ثم مـا جعله سببـا لمطلق الحياة لأنه ذكـر الحياة منكّـرة بل جعله سببا لنوع من أنواع الحياة (وثـالثها) أن قولهم : القتل أنفى للقتل ، فيه تكرار للفظ القتل وليس قـوله : ﴿في القصـاص حياة﴾ كـذلك (ورابعها) أن قـول القـائل : القتل أنفى للقتل لا يفيـد إلا الـردع عن القتل وقـولـه : ﴿في القصاص حياة﴾ يفيد الردع عن القتل وعن الجرح وغيرهما فهو أجمع للفوائد (وخامسها) أن نفي القتل مطلوب تبعـا من حيث إنه يتضمن حصول الحياة وأمـا الآية فإنها دالّـة على حصول الحيـاة وهو مقصـود أصلي فكان هـذا أولى

(وسـادسها) أن القتل ظلما قتل مـع أنه لا يكـون نافيـا للقتل بل هـو سبب لزيادة القتل، إنما النـافي لوقوع القتل هو القتل المخصـوص وهو القصاص، فظاهر قولهم بـاطل، أما الآية فهي صحيحة ظاهرا وتقـديرا، فظهر التفاوت بين الآية وبين كلام العرب اهـ.

قال تعالى : ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصيّة للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين* فمن بدّله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدّلونه، إنّ الله سميع عليم* فمن خاف من موصٍ جنفًا أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه، إن الله غفور رحيم﴾

هذا بيان لحكم آخر من الأحكام الشرعية التي ينظّم بها الإسلام تصرفات الإنسان في أمواله على وجه يرضي أرحم الراحمين، ويدْفع عن الإنسان أوضار الجنف والإثم ويربط بين المسلم وذوي قرباه بـرباط من الحب والعدل، بعد أن أشار في آية البر إلى أن من أعظم أماراته إيتاء المال على حبه ذوي القربى، وبعد أن أشار في آية القصاص إلى أن المال قد يكون بديل النفس، وقوله عز وجل: ﴿كتب عليكم﴾ أي فرض عليكم أيها المؤمنون ومعنى : ﴿إذا حضر أحدكم الموت﴾ أي إذا نـزل بواحـد منكم مقدّمات الموت التي يَحُسّ بها أنه على وشك فراق الحياة الدنيا والانتقال إلى الدار الآخرة، وقد تقدم نحوه في قوله عز وجل : ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوبَ الموتُ﴾ وقد قال الشاعر:

يا أيها الراكب المُزْجِي مطيّته ... سائِلْ بني أسد ما هذه الصّوت
وقل لهم بادروا بالعذر والتمسوا ... قولا يبرّئكم إني أنا الموت

وكما قال عنترة:

وإن الموت طوع يَدِي إذا ما ... وصلت بنانها بالهنْدُوانِ

يريد أنه إذا قبض بيده على سيفه الهندوانيّ يعني المصنوع في الهند حضر الموتُ أعداءه فكأن الموت في يده، وقوله عز وجل: ﴿إن ترك خيرا﴾ أي إن خلّف مالاً. والتعبير بالخير عن المال إشعار بأنه نعمة جليلة من الله عز وجل وفيه ردّ على من زعم الزهادة وترك أسباب اكتساب المال، وقد يضطره الحال

إلى السؤال الـذي أخبر رسول الله ﷺ أنـه يأتي في وجـه صاحبـه كُدُوحـا يوم القيـامة فقـد روى البخاري ومسلـم في صحيحيهما من حديث عبـد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «لا تـزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعـالى وليس في وجهه مُـزْعةُ لحم» كما روى أبـو داود والنسائي والترمـذي وقال: حـديث حسن صحيح، من رواية سَمُرَة بن جُنْـدُب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنما المسـائل كُدُوحٌ يكدح بها الرجلُ وجهَـه، فمن شاء أبقى على وجهه ومن شاء ترك» الحديث، وقد سمّى القرآن الكريم المال خيرا في مـواضع شتـى حيث يقـول الله عـز وجل: ﴿ومـا تنفقـوا من خير فلأنفسكم، ومـا تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، وما تنفقـوا من خير يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمـون﴾ وقال عن موسـى عليه السلام: ﴿فسقى لهما ثـم تولّى إلى الظل فقال: ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾وكما قـال عز وجل: ﴿وإنه لحبّ الخير لشديـد﴾ وليس معنى ذلك أن الإنسان يجعل جمع المال كلّ همه، بل عليـه أن يسأل الله عز وجل أن لا يجعل الـدنيا كلّ همه ولا مبلغ علمـه، وأن يقول: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. وقوله عـز وجل: ﴿ الـوصية للـوالـدين والأقـربين بالمعـروف﴾ أي فـرض عليكم الوصيـة فهي مرفـوعة على أنها نـائب الفاعل وحذفت التـاء من «كتب» لأن الوصية ليست مؤنثا حقيقيا فيجوز إلحاق التاء وحذفها في مثل هذا التركيب، والفـاعل في الأصل هنـا هو الله عـز وجل: أي كتب اللهُ عليكم الـوصيـةَ، ويجوز أن تكون الوصيـة مرفوعة على أنها مبتدأ وخبره للوالـدين وتكون الجملة في موضع رفع بـ«كُتِبَ» كما تقول: قيل عبد الله قائم فقولك: عبد الله قائم، جملة من مبتدأ وخبر وهي في موضع رفع بقيـل. وأصل الوصية عبارة عن كل شيء يؤمر بفعله ويُعْهَد به في الحياة وبعد الموت ثم خصّصها العُرْف بما يُعْهَد بفعله وتنفيذه بعد الموت، ومن هـذا الاستعمال الخاص الشرعي للوصية هذه

الآية الكريمة التـي صارت تعرف بآية الوصية، وليس في القـرآن الكريم ذكر للوصيـة إلا في هذه الآية الكريمـة وفي سورة النساء في قولـه عز وجل: ﴿من بعـد وصية﴾ وفي سـورة المائدة: ﴿إذا حضر أحـدَكم الموتُ حين الوصيـة﴾ وقولـه عز وجل: ﴿للوالـدين والأقربين﴾ أي للـوالدين والأولاد وغيرهم من ذوي القرابـة. وقوله عـز وجل: ﴿بالمعروف﴾ أي بطـريقة جميلة خـالية عن شوائب القطيعـة. قال الفخر الرازي: أمـا قوله: ﴿بـالمعروف﴾ فيحتمل أن يكون المراد منه قدر ما يوصي بـه ويحتمل أن يكون المراد منه تمييز من يوصي له من الأقربين ممن لا يـوصي لأن كلا الوجهين يـدخل في المعروف فكأنـه تعالى أمره في الـوصية أن يسلك الطـريق الجميلة، فإذا فـاضل بينهم فبـالمعروف، وإذا سـوّى فكَمِثْلٍ، وإذا حرم البعض فكَمِثْلٍ لأنـه لو حـرم الفقير وأوصى للغني لم يكن ذلك معروفا ولو سـوّى بين الوالدين مع عظم حقهما وبين بني العم لم يكن معروفا، ولو أوصـى لأولاد الجدّ البعيد مع حضور الإخوة لم يكن ما يأتيه معروفا، فالله تعالى كلّفه الـوصية على طريقة جميلة خالية عن شوائب الإيحاش، وذلك من باب مـا يعلم بالعادة فليس لأحد أن يقـول: لو كانت الوصية واجبة لم يشترط تعالى فيه هذا الشرط الذي لم يمكن الوقوف عليه، لما بيّنّا اهـ وقولـه تعالى: ﴿حقـا على المتقين﴾ أي ثبت ذلك ثبوتـا، وتخصيص المتقين بهذا لأنهم هم أهل هدى القرآن الكريم كما تقدم وقد علم بالإجماع أن جميع الواجبات وسائر التكاليف هـى عامة في حق المتقين وغيرهم، والظاهر أن هذه الآيـة الكريمة الـدالة على وجوب الـوصية نـزلت قبل آيات المواريث التي حدّدت لكـل ذي حق من الورثـة حقه، يأخذه حتما مـن غير وصية ولا تَحَمُّلِ مِنَّـةِ المُوصي حيث يقول الله تبـارك وتعالى: ﴿يـوصيكم الله في أولادكم للـذكـر مثلُ حظ الأُنْثَيَيْن فإن كنّ نسـاء فـوق اثنتين فلهن ثلثا مـا تـرك وإن كانت واحدة فلها النصف، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان

له ولدٌ، فإن لم يكن له ولـدٌ وورثه أبواه فلأمه الثلث، فإن كان لـه إخوة فلأمه السدس، من بعـد وصية يوصي بها أو دين، آباؤكم وأبنـاؤكم لا تدرون أيّهم أقرب لكم نفعاً، فريضـة من الله، إن الله كان عليما حكيما﴾ ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولـدٌ، فإن كان لهن ولـدٌ فلكم الرُّبُع ممـا تركن، من بعد وصية يوصين بها أو دين، ولهن الـربُع مما تركتم إن لم يكن لكم ولدٌ، فإن كان لكم ولدٌ فلهن الثُّمُن مما تـركتم، من بعد وصية توصون بها أو دين، وإن كـان رجل يـورَثُ كـلالـةً أو امـرأةٌ ولـه أخ أو أخت فلكل واحـد منهما السـدس، فإن كانـوا أكثـر من ذٰلك فهم شركـاء في الثلث، من بعد وصيـة يُوصَى بها أو دين غير مُضَارّ، وصية من الله، والله عليم حليم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكـلالة، إن امرؤ هلك ليس لـه ولد وله أخت فلها نصف ما ترك، وهو يـرثها إن لم يكن لها ولدٌ، فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثـان ممـا تـرك، وإن كـانوا إخـوة رجـالا ونسـاءً فللـذكـر مثل حظ الأنثيين، يبيّن الله لكم أن تضلّوا، والله بكل شيء عليـم﴾ والمراد بمن يورث كلالة في قوله تعالى: ﴿وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت﴾ يعني من الأم فقط ولذلك تتسـاوى فيه المرأة والرجل ولا يـزيدون عن الثلث من التركة. والمراد بـالكلالـة في قولـه تعالى: ﴿قل الله يفتيكم في الكـلالة﴾ فالمراد بالأخت فيها أو الأخ ما كانا شقيقين أو لأب. وقد بين الله تبارك وتعالى أنه لا يجوز لأحد من الورثة أن يستـأثر بشيء من الميراث دون سائر الورثة مهما كان فلا تختص البنت بما يحتـاجه النساء ولا يختص الرجل بما يحتاجـه الرجال من سيف أو غيره حيث يقول عـز وجل: ﴿للرجال نصيب مما تـرك الوالدان والأقربـون وللنساء نصيب ممـا ترك الوالـدان والأقربـون مما قلّ منـه أو كثر، نصيبا مفروضا﴾ وقـد رفع الإسلام ــ بوجوب الوصيـة للوالدين والأقربين ثم بـآيات المواريث ــ مـا كـان يصيب المرأة من ظلم في الجاهلية حيث كـانت

تـورث ولا تَرِث ويختص الـرجـال بالمال بـدعـوى أن المال لمن يحمي الذِّمَـار ويدافع عن القبيلة، فلله الحمد والمنة. ولما نزلت آيات المواريث التي سقتها قـال رسول الله ﷺ: «لا وصيـة لـوارث». فقـد روى الترمذي وقـال: هـذا حديث حسن صحيح، من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله قـد أعطى لكل ذي حق حقّه فلا وصية لـوارث». وقد تفضل الله تبـارك وتعـالى فجعل لـلإنسان حقّـا أن يـوصي لغير الـوارثين من أقـاربه بما لا يـزيد على الثلث من مـالـه طُعْمَةً من الله عـز وجل له وتطييبـا لخواطر ذوي قـرباه وصلة لرحمهم، ولـذلك لو أوصى لغير ذوي قربـاه وحَرَمَ ذوي القـربى صحت وصيته وكـان مسيئا كما أكّـد ذلك عامـة أهل العلم، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: لو غضّ الناس من الثلُث إلى الرّبُع، فقد روى البخـاري ومسلم من حديـث ابن عباس رضي الله عنهما قـال: لو غضّ الناس إلى الرُّبُع لأن رسول الله ﷺ قال: «الثلث والثلث كثير أو كبير». وابن عباس رضي الله عنهما يشير بذلك إلى ما قاله رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فقد روى البخاري في صحيحه من حديث سعد بن أبي وقـاص رضي الله عنه قـال: جاء النبي ﷺ يعـودني وأنا بمكـة وهو يكـره أن يموت بـالأرض التي هاجـر منها، قـال: «يرحم الله ابن عفـراء»، قلت: يا رسـول الله أوصي بمالي كله؟ قـال: «لا» قلت: فـالشطر؟ قـال: «لا» قلت: الثلث؟ قال: «فـالثلث، والثلث كثير، إنك أن تَدَعَ ورثتـك أغنياء خير من أن تدَعهم عالَةً يتكفَّفُون الناس في أيديهم، وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة حتى اللقمة التي تـرفعها إلى في امرأتك، وعسى الله أن يرفعك فينتفعَ بك ناسٌ، ويُضَرَّ بك آخرون». ولم يكن له يومئذ إلا ابنة، وفي لفظ للبخاري من حديث سعـد رضي الله عنه قـال: مرضت فعـادني النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله ادع الله أن لا يردّني على عقبي. قـال: «لعل الله يرفعُك وينفعُ بك

ناسًا». قلت: أريد أن أوصي وإنما لي ابنة، قلت: أوصي بالنصف؟ قال: «النصف كثير»، قلت: فالثلث؟ قال: «الثلث والثلث كثير أو كبير» قال: فأوصى الناس بالثلث وجاز ذلك لهم. أما مسلم رحمه الله فقد أخرج هذا الحديث بعدة ألفاظ، منها: قال: عادني رسول الله ﷺ في حجة الوداع من وجع أشفَيْتُ منه على الموت، فقلت: يا رسول الله بلغني ما ترى من الوجع وأنا ذو مال ولا يرثني إلا ابنة لي واحدة، أفأتصدق بثلثَيْ مالي؟ قال: «لا». قال: قلت: أفأتصدق بشطره؟ قال: «لا، الثلث، والثلث كثير، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس». الحديث. وقول رسول الله ﷺ في حديث الصحيحين هذا لسعد رضي الله عنه: «وعسى الله أن يرفعك فينتفع بك ناس ويضر بك آخرون». معجزة من معجزات رسول الله ﷺ مما أطلعه الله عليه مِن غَيْب فإن سعدا رضي الله عنه لم يمت حتى فتح الله على يديه العراق وبلادا من أرض فارس فرفع الله به أقواما دخلوا في الإسلام على يديه، وضرّ به آخرين قتلهم على الكفر واستولى على بلادهم، وطال عمره وبقي بعد جماعات كثيرة من أصحابه، فكان كما أخبر رسول الله ﷺ. وفي قوله في حديث البخاري: فأوصى الناس بالثلث وجاز ذلك لهم، دليل على أن وجوب الوصية قد نسخ، وأن الأمر صار على الاستحباب. أما ما رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ما حق امرئ مسلم له شيء يريد أن يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده» فإن قوله في لفظ الحديث: «يريد أن يوصي فيه» يشعر بأن المقصود الاستحباب لا الإيجاب لأنه علّقه بإرادة الشخص ورغبته. أما إذا كان على الشخص دين أو حق لله تعالى وأولياؤه لا يعرفون ذلك فإنه يجب عليه أن يكتب وصية بذلك مخافة أن يبادره الموت قبل أداء ما عليه من الحق، وقد يؤدي عدم تحرير وصية به إلى ضياعه وعدم الوفاء

به فيعرّض نفسه لعقوبة الله يوم القيامة. وقوله عز وجل: ﴿ فمن بدّله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدّلونه إن الله سميع عليم﴾ أي فمن حرّف وغير الإيصاء من شاهـد أو كاتب أو غيرهما بعدما علم نصّ الوصيـة فإنما عقوبته عند الله عز وجل الذي يجازي كل عامل بما عمل وهو السميع العليم. وقوله عز وجل: ﴿فمن خاف من موصٍ جنفـا أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفـور رحيم﴾ أي فإذا علم الـوصيُّ أن الموصي مـال عن الحق خطأ أو عمـدا بأن زاد على الثلث أو وَصَّى لوارث أو خصّ بـوصيته عمـلا من أعمال الإثم التي يحرمها الشرع فعدّل في الوصية بما يتلاءم مع الوجه الشرعي فلا إثم عليه ولا حرج.

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ أيّامًا معـدودات، فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدّة من أيام أخر، وعلى الذين يطيقـونه فدْية طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خيرٌ لهُ، وأن تصوموا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون﴾ .

هذا بيان لحكم آخر من هذه الأحكام العظيمة التي تربّي النفس الإنسانية أحسن تـربيـة، فتـزكّيها، وتطهّـرهـا، وتنمي فيهـا مسـالك الخير، وتضيّق مسـالك الشيطان، حيث نـادى الله تبارك وتعـالى المؤمنين في هذا المقـام من سورة البقـرة وأعلمهم أنه فـرض عليهم الصيام كما فرضـه على مَن قبلهم مِن أمم الأنبياء السـابقين ليسلكوا سبيل المتقين حيث يقول عـز وجل : ﴿يا أيها الـذين آمنـوا كُتِبَ عليكم الصيـامُ كما كُتِـبَ على الـذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ وقد جعل الله تبارك وتعالى الصيـام أحد أركان الإسلام الخمسة التي بينها رسـول الله ﷺ في حديث جبريل مـن رواية عمر بـن الخطاب رضي الله عنه عند مسلم ومن رواية أبي هـريرة رضي الله عنه عند البخاري ومسلم كما سقت نصه في تفسير الآيـة السابعة والسبعين بعـد المائة . وكما روى البخاري ومسلم من حديث عبـد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قال : «بني الإسلام على خمس : شهـادة أن لاإله إلا الله وأن محمـدا عبده ورسـوله، وإقام الصـلاة، وإيتاء الزكـاة، والحج، وصوم رمضـان» . وأصل الصيام في اللغـة هو الإمسـاك عن الشيء والكفّ عنـه، ومنه قـولـه عز وجل في قصـة مريم : ﴿فقـولي إني نذرت للـرحمن صوما﴾ أي إمسـاكا عن الكـلام، بدليل قوله بعـد ذلك : ﴿فلن أكلّم اليوم إنسيّا﴾ ويقال : صـام النهار، إذا اعتدل وقام قائم الظّهيرة، ومنه قول امرئ القيس :

فدعها وسَـلّ الهمَّ عنهـا بجَسْـرة ذمـولٍ إذا صـام النهار، وهَجَّـرا

وقال شاعر آخر:

حتى إذا صـام النهـار واعتـدلْ   وسـال للشمس لُعَـابٌ فنَـزَلْ

ويقـال: صامت الـريح إذا ركـدت، وصامت الخيل إذا قـامت على غير اعتلاف، ومنه قول النابغة:

خيل صيـامٌ وخيـلٌ غير صـائمـة   تحت العَجَاج وأخـرى تَعْلِكُ اللُّجُما

ومَصَام الفرس موقفه، ومصام الشمس حيث تستوي في منتصف النهار، ومَصَام النجم مكانه الذي يُرى فيه كأنه ثابت، ومنه قول امرئ القيس:

كـأن الثّريـا عُلِّقَتْ في مَصَـامِـها   بأمـراسِ كَتَّان إلى صـمٍّ جَنْـدلِ

والصوم في الاصطـلاح الشرعي هو الإمسـاك من طلوع الفجـر إلى غروب الشمس عن المفطرات حال العلم بكونه صـائما مع اقتران النية. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يـا أيها الذين آمنـوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الـذين من قبلكم﴾ أي يـا معشر من آمن بالله ورسـوله ودخل في دين الإسـلام: فُرِضَ عليكم الصيام كما فرض على من كـان قبلكم من أمم الأنبياء السابقين، ولما لم يثبت بحـديث صحيح عن رسـول الله ﷺ أن عين فـريضـة الصيـام التي فرضت علينا هـي عين فريضة الصيام التي فرضـت على الأمم السابقة، ولما كان تشبيه شيء بشيء لا يلـزم منه أنهما متشابهان من كل الوجـوه فإنه لا يلزم من تشبيه صومنـا بصومهم أن يكون صومهم مختصا برمضـان أو بصيام شهر في السنة، والمقصود من إيراد هـذا التشبيه هو بيان أن إيجاب الصوم شرع الله على الأنبياء والأمم من لدن آدم إلى عهـد محمد ﷺ. وبهذا يَسْهُل الصوم على المسلمين لأن النفس من طبيعتها أن يسهل عليهـا ما علمت أنها غير مختصة بحمله، على حد قول الخنساء:

ولـولا كثـرة البـاكين حـولي   عـلى إخـوانهم لقتـلت نفسـي

ومـا يبكيـن مثل أخـي ولكن   أسلِّي النفـس عنـه بالتأسّـي

فالشرائع متفقة في الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر والملائكة، ولكنها تختلف في شِرعتها ومنهاجها كما قال عز وجل: ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجا﴾ فالصلاة فرضت على جميع أمم الأنبياء لكنها ليست عند جميع الأنبياء خمس صلوات كما هو الحال لأمة محمد ﷺ ولذلك لما أخبر رسول الله ﷺ موسى عليه السلام ليلة الإسراء بأن الله فرض عليه وعلى أمته خمسين صلاة قال له موسى عليه السلام: (إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاةً كلّ يوم وإني والله قد جرّبت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك) الحديث. على أن قوله تعالى: ﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾ إذا اعتبرت (ما) مصدرية يكون تقديره كَتْبا كَكَتْبه على الذين من قبلكم فيكون التشبيه في أصل الفرض لا في وصفه. وقوله عز وجل: ﴿لعلكم تتقون﴾ بيان لحكمة الصّوم وأنه يورث التقوى لما فيه من انكسار الشهوة وانقماع الهوى حيث أثره الظاهر في كسر شهوة البطن والفرج والرّدع عن الأَشَر والبَطَر والفواحش، مع مافيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقية الجسم من الأخلاط الرديئة والفضلات المضرّة والشحوم الزائدة التي ينبغي أن يتخلّص منها الجسم، وقد أقر بجليل فوائد الصيام أممٌ من أطباء المسلمين وغيرهم في سائر الأعصار، ولذلك وصف رسول الله ﷺ الصيام بأنه جُنّة كما وصفه بأنه له وِجاءٌ والجُنّة هي الوقاية التي يتّقي بها الإنسان المخاطر ويصون بها نفسه، كما يستتر المقاتل بالمِجَنّة وهي التُّرْسُ الذي يتترّس به من أعدائه، والوِجاء يؤول بصاحبه إلى تمكنه من قمع شهوة نفسه، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الصيام جُنّة، فلا يرْفُث ولا يجهل وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم مرتين، والذي نفسي بيده لَخُلوفُ فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك يترك طعامه وشرابه

وشهوته من أجلي، الصيام لي وأنـا أجزي به والحسنة بعشر أمثالها». كما روى البخاري ومسلم من حـديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال: «يا معشر الشبـاب من استطاع منكم البـاءة فليتزوج فإنـه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليـه بالصوم فإنـه له وِجَاء»، وقـوله تبارك وتعـالى: ﴿أياما معدودات﴾ أي أياما قلائل، والمقصـود بهذه الأيام القلائل المعـدودات هي شهر رمضـان، والتعبير بكونها معدودات لـلإشعار بتيسيرها وتسهيلها وأنها يمكن ضبطها، وقـد جرت عادة التشريع في الإسلام على مراعاة إعداد الأنفس لاستقبـاله، كما شرعت الصلاة ركعتين ركعتين ثم أقرت في السفر وزيدت في الحضر، وكذلك الصيام فقد كان رسول الله ﷺ في السنـة الأولى من الهجرة قـد حتّم صـوم يـوم عاشـوراء وأمـر به، فلما فـرض رمضان في السنة الثـانية للهجرة صار صيـام يوم عاشوراء تطـوعا، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عبـد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قدم المدينة فـوجد اليهود صياما يوم عاشوراء فقـال لهم رسول الله ﷺ: «ما هذا اليوم الـذي تصومونه؟» فقالوا: هـذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه وغرّق فرعون وقومه، فصـامه موسى شكرا فنحن نصومه، فقال رسول الله ﷺ: «فنحن أحق وأولى بمـوسى منكـم» فصـامـه رسـول الله ﷺ وأمـر بصيامه. كما روى مسلم من حديث جابـر بن سمرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يأمر بصيام يوم عاشوراء، ويحثّنا عليه، ويتعاهدنا عنده، فلما فرض رمضـان لم يأمـرنا ولم ينهنـا عنه، ولم يتعـاهدنـا عنده. اهــ ولمّا فرض رمضـان جُعل الصيام من بعـد صـلاة العشاء أو النـوم ولـو بعد المغـرب إلى غـروب الشمس لكنـه وسّع فيـه وأذن للصـائم إذا رغب في الفطـر أن يفطـر ويطعم عن كل يوم مسكينا على سبيل الحتم والإلزام مع ترغيب المسلمين بأن الصيام خير لهم، وكان المقصود بذلك هو تعريف المسلمين بنعمة الله عليهم

إذا جعل لهم الصيام من طلوع الفجر إلى غروب الشمس وهو التشريع المستقر إلى يوم القيامة، وقوله عز وجل: ﴿فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ أي فمن كان منكم أيها المسلمون مريضا في رمضان أو مسافرا فإن الله تبارك وتعالى رفع عنه المشقة بسبب مرضه أو سفره فرخّص له في أن يفطر وقت مرضه في رمضان أو قت سفره فيه، وعليه ــ إذا زال عنه المرض أو إذا حضر المسافر وزالت عنه علة السفر ــ أن يقضي بعدّة ذلك من أيام في غير رمضان ولا فدية عليه. وقوله عز وجل: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خير له، وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي وأما الصحيح المقيم الذي يطيق الصيام فإنه يجب عليه الصيام وجوبا مخيرا فإن شاء صام وإن شاء أفطر ولزمه عن كل يوم يفطره من رمضان فدية هي إطعام مسكين، فإن أطعم عن كل يوم أكثر من مسكين فهو خير له، وإن صام فهو أفضل من الإطعام. وكون بعض الواجب المخيّر أفضل من بعض لا إشكال فيه عند أهل العلم كما في خصال كفارة اليمين حيث أوجب الله تبارك وتعالى على من وجبت عليه كفارة يمين أن يُخَيَّر بين إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة، ولا شك أن تحرير الرقبة أفضل من إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم، وقد ذهب عامة أصحاب رسول الله ﷺ عدا ابن عباس رضي الله عنهما إلى أن قوله تبارك وتعالى: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ منسوخ بقوله عز وجل: ﴿شهر رمضان الذي أُنْزِل فيه القرآن هدًى للناس وبيناتٍ من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهرَ فليصُمْه﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي ليست بمنسوخة بل هي مخصوصة بالشيخ الكبير الفاني والمرأة الكبيرة ممن يشقُّ عليه الصيام فإنه يفطر ويطعم عن كل يوم مسكينا. وكان يقرأ هذه الآية: ﴿يُطَوَّقُونه﴾ أي يُكَلَّفون إطاقته، وعلى تفسير ابن عباس يمكن أن يكون

الكلام على تقدير «لا» في قوله عز وجل: ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ أي وعلى الذين لا يطيقونه، والعرب قد تحذف الحرف وهو مراد، أو قد تذكره وهو غير مراد لعلم السامع بالمراد، كقوله تبارك وتعالى: ﴿قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف﴾ أي قالوا: تالله لا تفتأ تذكر يوسف، وكذلك قوله تعالى: ﴿ولا يأتل أوْلواْ الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى﴾ أي ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن لا يؤتوا أولي القربى، ومنه قول امرئ القيس:

فقلت يمين الله أبرح قاعدا … وإن قطعوا رأسي لديك وأوصالي

أي لا أبرح قاعدا، لأن العرب لا يستعملون: فتئ وبرح إلا منفية فإذا جاءت بغير حرف النفي علم قطعا أنه مراد. ومثال زيادة (لا) وهي غير مرادة قوله تعالى: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب ألاّ يقدرون على شيء من فضل الله﴾ أي ليعلم أهل الكتاب. ويكون الحذف أو زيادة الحرف لقصد بلاغي، قال البخاري في صحيحه: بابٌ ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية﴾ قال ابن عمر وسلمة بن الأكوع: نسختها ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾.
وقال ابن نُمير: حدثنا الأعمش حدثنا عمرو بن مرة حدثنا ابن أبي ليلى حدثنا أصحاب محمد ﷺ: نزل رمضان فشقّ عليهم فكان من أطعم كلّ يوم مسكينا ترك الصوم ممن يطيقه، ورُخص لهم في ذلك فنسختها ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾ فأمروا بالصوم. حدثنا عيّاش حدثنا عبد الأعلى حدثنا عُبَيْد الله عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قرأ ﴿فدية طعام مساكين﴾ قال: هي منسوخة. وأخرج مسلم من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ كان من أراد أن يفطر ويفتدي حتى نزلت الآية التي بعدها فنسَخَتْها.

قال تعالى : ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدّة من أيام أخر، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدّة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾ .

هذا هو الطَّور الثاني من أطوار الصوم وهو إيجاب صوم شهر رمضان على التعيين ونسخ ما كان من التخيير في وجوبه بين الصيام والإطعام، وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل في الآية السابقة : ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ أن عامة أصحاب رسول الله ﷺ ما عدا ابن عباس رضي الله عنهما قد ذهبوا إلى أن قوله تعالى : ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ منسوخ بقوله تبارك وتعالى : ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ وأنه تعيّن على كل صحيح مقيم من المسلمين المكلفين صيام ما يشهده من شهر رمضان، وبذلك سقط إيجاب الصوم على التخيير وثبت التعيين، وحتى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقرر عدم إيجابه على التخيير كذلك وإنما يجب على التعيين إلا في حق الشيخ الفاني الكبير والمرأة الفانية الكبيرة، على أن عامة أهل العلم كذلك مع ابن عباس رضي الله عنهما في حق الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة، ولذلك ثبت أن أنس بن مالك رضي الله عنه لما صار في عَشْر المائة من عمره كان يفطر رمضان ويطعم عن كل يوم مسكينا، فقد قال ابن كثير رحمه الله : قال البخاري : وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام فقد أطعم أنس بعد ما كَبِرَ عاما أو عامين عن كل يوم مسكينا : خبزا ولحما، وأفطر، وهذا الذي علّقه البخاري قد أسنده الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده فقال : حدثنا عبد الله بن معاذ حدثنا أبي حدثنا عمران عن أيوب بن

أبي تميمة قال: ضعف أنس عن الصوم فصنع جفنة من ثريد، فدعا ثلاثين مسكينا فأطعمهم، ورواه عَبْد بن حُمَيْد عن روح بن عبادة عن عمران وهو ابن جرير عن أيوب به، ورواه عبد أيضا من حديث ستة من أصحاب أنس عن أنس بمعناه اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ أي الأيام المعدودات هن شهر رمضان، قال ابن جرير رحمه الله في تفسيره: وقد بينت فيما مضى أن «شهر» مرفوع على قوله: ﴿أياما معدودات﴾ هن شهر رمضان وجائز أن يكون رفعه بمعنى: ذلك شهر رمضان وبمعنى: كتب عليكم شهر رمضان اهـ وشهر رمضان عَلَمُ جنس مركب تركيبا إضافيا وكذا باقي أسماء الشهور من حيّز علم الجنس. وكانت ربيعة تطلق اسم رجب على شهر رمضان فهو رجب ربيعة، أما مُضَر فكانوا يسمونه شهر رمضان ولذلك لما خطب رسول الله ﷺ في حجته قال في ذكر الأشهر الحرم: «ورجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان» كما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي بكرة رضي الله عنه، وإنما قال ذلك للاحتراز مما تطلقه ربيعة على شهر رمضان إذ تسميه رجبا. وقوله عز وجل: ﴿الذي أنزل فيه القرآن﴾ مدح من الله عز وجل وثناء على شهر الصيام من بين سائر الشهور حيث اختاره الله عز وجل من بينهن لإنزال القرآن العظيم والذكر الحكيم. ومعنى إنزال القرآن فيه أن الله بدأ بإنزال القرآن على نبيه ﷺ في هذا الشهر المبارك كما يقول القائل: جاء الشتاء، لأول يوم منه أي ابتدأ دخول الشتاء، لا أن الشتاء جاء كلّه في وقت حديثك عن دخوله. ولم يثبت خبر صحيح مرفوع مُسْنَد إلى رسول الله ﷺ بأن القرآن نزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا ثم نجّمه جبريل على رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة. وقد ألف مفتي الديار السعودية السابق الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله رسالة لبيان بطلان القول بأن القرآن نزل جملة إلى السماء الدنيا وأن جبريل نجّمه على رسول الله ﷺ في

ثلاث وعشرين سنـة وبيّن رحمه الله أن هذا القول دسيسة اعتـزالية لإنكار أن يكون الله تبارك وتعالى تكلم بالقرآن لأن المعتزلة عن الحق ينكرون إثبات صفة الكـلام لله عز وجل، وإن تعجب فعجب لعـدم تفطن كثير من العلماء لهذه الدسيسة الاعتزالية، ومن العجيب كذلك أن القرطبي رحمه الله قال في مقدمة تفسيره: وذكر أبو بكر الأنباري في كتاب الردّ أن الله تعالى أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا ثمّ فُرّق على النبيّ ﷺ في عشرين سنة. ثم قال القرطبي في تفسير هذه الآيـة: قوله تعالى: ﴿الـذي أُنزل فيه القرآن﴾ نصٌّ في أن القـرآن نزل في شهر رمضان، وهو يبين قوله عـز وجل: ﴿حم* والكتاب المبين* إنا أنزلناه في ليلة مباركـة﴾ يعني ليلة القدر، ولقـوله: ﴿إنا أنزلنـاه في ليلة القدر﴾ وفي هـذا دليل على أن ليلـة القـدر إنما تكـون في رمضـان لا في غيره. ثم قـال القـرطبي رحمه الله وعفـا عنـا وعنه: ولا خـلاف أن القـرآن أنـزل من اللـوح المحفوظ ليلة القدر ـ على ما بينـاه ـ جملة واحدة فوُضِعَ في بيت العزة في سماء الدنيا، ثم كان جبريل ﷺ ينـزل به نجماً نجماً في الأوامر والنواهي والأسباب وذلك في عشرين سنـة، وقال ابن عبـاس: أنزل القـرآن من اللوح المحفـوظ جملةً واحدة إلى الكتبـة في سماء الدنيا ثم نزل به جبريل عليه السـلام نجوما ـ يعني الآية والآيتين ـ في أوقات مختلفة في إحدى وعشرين سنة ثم قال القرطبي رحمه الله في تفسير قوله عز وجل: ﴿إنا أنـزلناه في ليلة القدر﴾ وقال الشعبي: المعنى: إنا ابتدأنـا إنزاله في ليلة القدر، وقيل بل نزل بـه جبريل عليه السلام جملة واحدة في ليلـة القدر من اللوح المحفوظ إلى سماء الـدنيا إلى بيت العزة، وأملاه جبريل على السفرة ثم كان جبريل يُنزلـه على النبي ﷺ نجوما نجوما، وكان بين أولـه وآخره ثلاث وعشرون سنة قـاله ابن عباس وقد تقـدم في سورة البقرة، وحكى الماوَرْديُّ عن ابن عباس قال: نزل القرآن في شهر رمضان وفي ليلة القـدر في ليلة مباركة، جملـةً واحدة من عند الله من اللـوح المحفوظ إلى

السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا، فنَجَّمَتْه السفرة الكرام الكاتبون على جبريل عشرين سنة، ونَجَّمَه جبريل على النبي ﷺ عشرين سنة، قال ابن العربي: وهذا باطل، ليس بين جبريل وبين الله واسطة ولا بين جبريل ومحمد عليهما السلام واسطة. اهـ وبهذا يتضحُ التناقض بين دعوى الإجماع التي أوردها في تفسير قوله تعالى: ﴿الذي أنزل فيه القرآن﴾ وبين قَوْلَة الحق التي فتح الله تعالى بها على القاضي أبي بكر بن العربي رحمه الله وأجزل مثوبته، ولتشريف الله تبارك وتعالى لهذا الشهر المبارك بابتداء إنزال القرآن فيه كان جبريل عليه السلام ينزل كلّ ليلة في رمضان يعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث ابن عباس، رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في رمضان، لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ، يَعْرِض عليه رسولُ الله ﷺ القرآن، فإذا لقيهُ جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة اهـ ولذلك عُني المسلمون بكثرة قراءة القرآن في شهر رمضان حتى صار يسمّى شهر القرآن. وقوله عز وجل: ﴿هدًى للناس﴾ أي هاديا للناس من الضلالة. وقوله: ﴿وبينات من الهدى والفرقان﴾ أي وآيات واضحات جليّات مما يهدي إلى الرّشد في شئون المعاش والمعاد ويفرّق بين الحق والباطل. وقد وَعَت الجن هذه الحقيقة عندما سمعت القرآن فقالوا كما ذكر الله عز وجل عنهم: ﴿إنا سمعْنا قرآنا عجبًا* يهدي إلى الرّشد فآمنّا به ولن نشرك بربنا أحدًا﴾ وقوله عز وجل: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ أي فمن كان منكم أيها المسلمون المكلفون مقيما غير مسافر صحيحا غير مريض في شهر رمضان فيتحتم عليه الصوم، وقد انعقد إجماع علماء المسلمين على أن الحيض والنفاس يمنعان المرأة من الصوم والصلاة لكنها تقضي ما يفوتها من صوم رمضان دون الصلاة، فقد روى البخاري ومسلم في

صحيحيهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ في قصة قوله ﷺ: «إنّكن ناقصات عقل ودين». وفيه: «أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟» قلن: بلى. قال: «فذلكنّ من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟» قلن: بلى، قال: «فذلكنّ من نقصان دينها». وقد روى البخاري ومسلم من طريق معاذة قالت: سألت عائشة فقلت: ما بالُ الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ قالت: كان يصيبنا ذلك مع رسول الله ﷺ فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نؤمر بقضاء الصلاة. وقوله عز وجل: ﴿ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ أي ومن كان مصابا بمرض يشقّ معه الصوم أو يؤخّر بُرْأه أو كان على جناح سفر، والمقصود بالسفر هنا ما تتغير به الأحكام الشرعية وهو ثمانية وأربعون ميلاً وهي أربعة بُرُد وهي ستّة عشر فَرْسَخا، وفي البخاري: وكان ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم يقْصُران ويُفْطِران في أربعة بُرُد وهي ستة عشر فرسخا. ولما كانت هذه الآية الكريمة ناسخة للطور الأول من أطوار الصيام، كان قوله عز وجل: ﴿ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ ليس لتكرار قوله في الآية السابقة: ﴿فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام﴾ لأنه لو خلا منه هذا المقام ربما توهم متوهم أن هذا الحكم نسخ مع الآية التي نسخ حكمها وهي قوله عز وجل: ﴿أياما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ الآية، وقوله عز وجل: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ أي يحب الله عز وجل أن ييسّر عليكم في ما يَشْرَعه لكم من الأحكام ويكره أن يعسّر ويشدّد عليكم فيما يَشْرَعه لكم من الأحكام لأنكم أمة النبي الذي بعثه الله بالتيسير ولم يبعثه بالتعسير ووصفه بقوله: ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ والمراد بالإرادة هنا هي

الإرادة الشرعية لا الكونية القدرية التي بمعنى المشيئة، فإن إرادة الله عز وجل تكون شرعية بمعنى المحبة وتكون كونية قدرية بمعنى المشيئة، والإرادة الكونية لا تتخلف أبدا فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وهي ملازمة للأمر الكوني على حد قوله عز وجل: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾ والأمر الشرعي ملازم للإرادة الشرعية فلا يأمر الله عز وجل إلا بما يحب ولا ينهى إلا عما يكره تبارك وتعالى ولذلك قال عز وجل: ﴿قل إنّ الله لا يأمر بالفحشاء﴾ وقال عز وجل: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ وقوله عز وجل: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ هو القاعدة الأساسية للتشريع الإسلامي فمَبْنَاه على التيسير بحمد الله ومنته ولذلك ما خُيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما، وكان يكره التنطُّع والتشدُّد فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحدا من أصحابه في بعض أمره قال: «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا». كما روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يسروا ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا» كما روى البخاري ومسلم من طريق ابن أبي بردة قال: بعث النبي ﷺ جدّه أبا موسى ومعاذا إلى اليمن فقال: «يسّرا ولا تعسّرا، وبشّرا ولا تنفّرا، وتطاوعَا ولا تختلفا». كما روى مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «اللهم مَن وَلِيَ مِن أمر أمتي شيئا فشقّ عليهم فاشْقُقْ عليه، ومن وَلِيَ من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فارفق به». كما روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنّ الدين يسرٌ ولن يُشادّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه فسدّدوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغَدْوَة والرَّوْحَة وشيء من الدُّلْجَة». كما روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: ما خُيّر رسول الله ﷺ بين

أمرين أحدهما أيسر من الآخر إلا اختـار أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كـان أبعد النـاس عنـه. اهـ وكيف لا يكـون كـذلك وقد سماه الله الـرءوف الـرحيم ﷺ. وقولـه عـز وجل: ﴿ولتكملـوا العدة﴾ أي إنما رخص الله عـز وجل لكم في الإفطـار في شهـر الصـوم للمـرض أو السفـر ونحوهمـــا من الأعذار لأنه يحب التيسير عليكم، وإنما أمركم بـالقضاء لتكملوا وتتموا عدة شهركم. وقوله عـز وجل: ﴿ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾ أي ولتذكـروا الله عز وجل وتقـولوا: الله أكبر، عنـد انقضاء عبـادتكم وشهر صومكم ولتشكروا الله الذي وفقكم للصيـام والعبادة التي يورثكم بها جنات النعيم. وقـد نبـه الله تعـالى المسلمين إلى ذكـره وشكـــره عنـد قيـامهم بأداء شعـائرهم وعبـادتهم حيث يقـول: ﴿فـإذا قضيتم منـاسككم فـاذكـروا الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكـرا﴾ ولذلك كان رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم يكبرون دبر الصلوات فقـد روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت أعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ بالتكبير.

قال تعـالى : ﴿و إذا سألك عبادي عنّي فإني قريب أجيب دعـوة الدّاع إذا دعـان فليستجيبوا لي وليـؤمنوا بي لعلّهم يـرشـدون* أُحلّ لكم ليلة الصيـام الـرّفث إلى نسـائكم، هنّ لبـاس لكم وأنتم لبـاسٌ لهنّ، علم الله أنّكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهنّ وابتغوا ما كتب الله لكم، وكلـوا واشربـوا حتى يتبيّن لكم الخيـط الأبيض من الخيط الأسـود من الفجر ثم أتمّوا الصيـام إلى الليل، ولا تباشروهنّ وأنتم عاكفون في المسـاجد، تلك حدود الله فلا تقربوها، كذلك يبيّن الله آياته للناس لعلهـم يتّقون﴾

هذا هو الطَّـوْر الثالث والأخير من أطوار الصيام الذي استقـر عليه حال الصوم في الإسـلام، وقد ذكر الله تبارك وتعـالى آية الدعاء متخلّلـة بين آيات الصيام لإرشاد المؤمنين الصـائمين إلى الحرص على الدعاء والاجتهاد فيـه عند إكمال عدة الصـوم وعند كل فطـر، قال ابن كثير في تفسيره : وفي ذكـره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخلّلة بين أحكام الصيام إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة بل وعنـد كل فطر، كما رواه الإمام أبو داود الطيالسي في مسنده : حدثنـا أبو محمد المُلَيْكي عن عمرو هـو ابن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمـرو عن أبيه عن جـده عبد الله بن عمرو قـال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة» فكان عبد الله بن عمرو إذا أفطر دعا أهله وولده ودعا . وقال أبـو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه في سننه : حدثنا هشام بن عمار أخبرنا الوليد بن مسلم عن إسحاق بن عبد الله المدني عن عبيد الله بن أبي مُلَيْكة عن عبد الله بن عمرو قال : قال النبي ﷺ : «إن للصائم عند فطـره دعوة ما تُرَدّ» . قـال عبيد الله بن أبي مليكة : سمعت عبد الله بن عمرو يقـول إذا أفطر: اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كلّ شيء أن تغفر لي . وفي مسند الإمام أحمد وسنن الترمـذي والنسائي وابن ماجه

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا تُرَدّ دعوتهم الإمام العادل، والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة وتُفتَحُ لها أبواب السماء ويقول: بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين» اهـ وقوله عز وجل: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ أي وإذا استفهم منك المؤمنون عن ربهم فعرّفهم بأني قريب منهم بعلمي لا يحتاج من يدعوني ويسألني إلى وسطاء أو شفعاء أو صراخ ورفع صوت، وإني أشاهد حركاتكم وسكناتكم فادعوني تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول في أية ساعة شئتم ما دمتم في مكان كريم فإني أَستجيب دعاءكم وأعطيكم مسألتكم وليكن توسلكم بالاستجابة لديني والانقياد لأمري فإنكم إن أفردتموني بالعبادة وطلبتم كلّ حوائجكم مني رشدتم واهتديتم. وقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن قيس أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس ارْبَعُوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائبا، إنكم تدعون سميعا بصيرا وهو معكم، والذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته». قال أبو موسى: وأنا خلفه أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، في نفسي، فقال: «يا عبد الله بن قيس ألا أدلّك على كنز من كنوز الجنة؟» فقلت: بلى يا رسول الله. قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله» وقد أرشد رسول الله ﷺ المسلمين أن يطلبوا من الله حوائجهم وهم واثقون في رحمته وجوده، فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دعا أحدكم فلا يقل: اللهم اغفرلي إن شئت، ارحمني إن شئت، ارزقني إن شئت، وليعزم مسألته، إنه يفعل ما يشاء ولا مُكْرِهَ له» كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دعا أحدكم فلا يقل:

اللهم اغفـرلي إن شئت، ولكن ليَعْزِم، ولْيُعَظِّم الـرغبـة فإنّ الله لا يتعاظمـه شيء أعطاه» كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال: «يقول الله تعـالى: أنا عنـد ظنّ عبدي بي، وأنـا معه إذا ذكرني، فإن ذكـرني في نفسه ذكـرته في نفسي وإن ذكرني في مـلأ ذكرتـه في ملأ خير منهم». وقوله عز وجل: ﴿أُحِلّ لكم ليلـة الصيام الرفَث إلى نسائكم﴾ الآية، هـذه هي الآية الكريمـة التي ختم الله بها أحكام الصـوم في الإسلام، وقـرر الطَّوْر الثـالث والأخير من أطـواره، وهو نسخ مـا كان في الطَّـوْر الأول والثاني من أطوار الصيام حيث كان وقت الفطر من غروب الشمس إلى صلاة العشـاء أو النوم قبلهـا، فكـان من صلى العشـاء حرم عليـه الأكل والشرب وسائر المفطـرات إلى غروب شمس اليـوم الثاني وكـذلك من نام قبـل صلاة العشاء يحرم عليـه بمجرد النوم الأكـل أو الشرب أو قربان النسـاء إلى غروب شمس اليوم الثـاني، وكان المقصود من ذلك التشريع هـو تدريب المسلمين على الصبر وتعـريفهـم بفضل الله عليهم إذا نسَخَ هــذا الحكمَ وجعل وقت الإمساك من طلـوع الفجر إلى غروب الشمس، قال البخـاري في صحيحه: بـابُ قول الله جلّ ذكـره: ﴿أُحلّ لكم ليلـة الصيام الـرّفَث إلى نسـائكم هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكـم فالآن باشروهـنّ وابتغوا ما كتب الله لكـم﴾ حدثنا عُبَيْـد الله بن مـوسى عـن إسرائيل عن أبي إسحـاق عن البَرَاء رضي الله عنـه قـال: كـان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرجل صائما فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وإن قيس بن صِرْمة الأنصاريّ كان صائما، فلما حضر الإفطـار أتى امرأتـه فقال لها: أعنـدك طعام؟ قـالت: لا، ولكن أنطلقُ فأطلبُ لك، وكان يومَه يعمل، فغلبته عيناه، فجاءته امرأته فلما رأته قـالت: خيبـة لك، فلما انتصف النهـار غُشِيَ عليـه، فــذُكِـرَ ذلك للنبي

ﷺفنزلت هذه الآية : ﴿ أُحِلّ لكم ليلة الصيـام الرّفث إلى نسائكم﴾ ففرحوا بها فرحا شديدا، ونزلت : ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسـود﴾ . هذا لفظ حـديث البراء الذي أورده البخـاري رحمه الله في كتـاب الصـوم من صحيحـه مـن طـريق أبي إسحـاق عن البَرَاء، وأورده في التفسير من طـريق أبي إسحاق أيضـا قال: سمعت البَرَاء رضي الله عنـه : لما نزل صوم رمضـان كانوا لا يقربـون النساء رمضان كلّه، وكـان رجال يخونون أنفسهم فأنـزل الله : ﴿علم الله أنكم كنتم تختـانـون أنفسكم فتـاب عليكم وعفا عنكم﴾ وقوله عز وجل : ﴿أُحِلَّ لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ أي أبيح لكم أيها المسلمـون الذين كتب عليـك الصيام قُـرْبان زوجـاتكم في ليلة الصيـام، والليلة تطلق على الوقت من غروب الشمس إلى طلـوع الفجر الصادق، والمراد بالرفَث هنا مقارفة الرجل أهله وغِشْيَانها، وقوله عز وجل : ﴿هن لبـاس لكم وأنتم لبـاس لهن﴾ أي نسـاؤكم سِتْر لكم وأنتم سِتْر لهن، وهـذا كنايـة عن صعوبـةالصبر عنهن مع شدة مخالطتهن بما جبل الله عليـه الـرجل مع المرأة من الغريـزة الجنسية، حيث يصير كل واحـد منهما بالنسبـة للآخر لبـاسا له لاعتناقهما واشتمال كل منهما على صـاحبه كما يشتمل الثوب على لابسه، قال النابغة الجعدي :

إذا مـا الضّجيـــع ثنـــى عِطْفهـا   تـداعَتْ فكـانت عليـــه لبـاسـا

واللباس قـد يطلق بمعنى السكن كما قال عـز وجل : ﴿جعل لكم الليل لباسا﴾ أي سكنا، على حد قـوله تبارك وتعالى : ﴿الله الذي جعل لكم الليل لتسكنـوا فيه والنهـار مبصرا﴾ وكما قال عـز وجل : ﴿هو الـذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منهـا زوجها ليسكن إليها﴾ وكما قـال عز وجل : ﴿ومن آيـاتـه أن خلق لكم من أنفسكم أزواجـا لتسكنـوا إليهـا وجعل بينكم مـودة ورحمة﴾ كأنـه عز وجل يقـول : هن سكن لكم وأنتم سكن لهن، وقـوله عـز

وجل: ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم﴾ أي علم الله عز وجل ما كان يحدث بالليل بينكم وبين نسائكم من تزيين أنفسكم لكم حبّ وقاع نسائكم، كما أُثِرَ أن بعض الصحابة رضي الله عنهم جاء إلى بيته قبل العشاء فأراد امرأته فقالت: إني قد نمت، فظن أنها تعتل وواقعها، وقد تفضل الله تبارك وتعالى فسجّل في كتابه الكريم توبته عليهم، وعفوه عنهم، ورُبّ ضارة نافعة، وقوله عز وجل: ﴿فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ أي فقد أبحت لكم قربان نسائكم الآن فباشروهن متى شئتم من ليلة الصيام، وأصل المباشرة إلزاق البشرة بالبشرة أي الجلد بالجلد وهو كناية عن مقارفة الرجل حليلته، ومعنى قوله عز وجل: ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ أي ولتكن رغبتكم طلب الأولاد، قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: وقوله: ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ قال أبو هريرة وابن عباس وأنس وشُرَيْح القاضي ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء والربيع بن أنس والسُّدِّيّ وزيد بن أسلم والحكم بن عُتَيْبة ومقاتل بن حيان والحسن البصري والضحّاك وقتادة وغيرهم: يعني الولد اهـ. وقوله عز وجل: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ أي وقد أبحت لكم سائر المفطرات فمتى أردتم الأكل أو الشرب في أية ساعة من ليلة الصيام فكلوا واشربوا إلى طلوع الفجر فإذا طلع الفجر فأَمسكوا عن سائر المفَطِّرات إلى غروب الشمس. قال البخاري في صحيحه في كتاب الصوم: باب قول الله تعالى: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتمّوا الصيام إلى الليل﴾ فيه البراء عن النبي ﷺ، ثم ساق بسنده إلى عَدِيّ بن حاتم رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ عَمَدْتُ إلى عِقَال أسود و إلى عِقَال أبيض فجعلتهما تحت وسادتي، فجعلت

أنظر في الليل فلا يستبين لي فغَدَوْت على رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك فقال: «إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار». ثم ساق البخاري رحمه الله بسنده إلى سهل بن سعد رضي الله عنه قال: أُنزِلَتْ: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ ولم يَنْزِلْ ﴿من الفجر﴾ فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود ولم يزل يأكل حتى يتبين له رؤيتُهما فأنزل الله بَعْدُ: ﴿من الفجر﴾ فعلموا أنه إنما يعني الليل والنهار. كما ساق البخاري في كتاب التفسير من صحيحه بسنده إلى عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود؟ أهما الخيطان؟ قال: «إنك لعريض القَفا إن أبصرت الخيطين» ثم قال: «لا، بل هو سوادُ الليل وبياض النهار» وفي لفظ للبخاري من طريق الشعبي عن عدي قال: أخذ عدي عقالا أبيض وعقالا أسود حتى كان بعض الليل نظر فلم يستَبِينَا، فلما أصبح قال: يا رسول الله جعلت تحت وسادتي عقالين. قال: «إنَّ وِسَادَكَ إذًا لعريضٌ أن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك». وقوله عز وجل: ﴿ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد﴾ أي ولا تقربوا نساءكم وقت اعتكافكم وإقامتكم في المساجد. والاعتكاف في اللغة الملازمة، وفي الشرع الإقامة في المسجد وقتا مخصوصا التماسا لمرضاة الله عز وجل. وقد استنبط العلماء من ذكر الاعتكاف في آخر أحكام الصيام في القرآن الكريم، ومن اعتكاف رسول الله ﷺ في العشر الأواخر من رمضان أنهم يذكرون أحكام الاعتكاف بعد أحكام الصيام في كتبهم. وقوله عز وجل: ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾ أي هذه الأحكام التي فصَّلْتُها لكم عن الصيام هي مراسيم وضعها الله عز وجل لخير دنياكم وأخراكم وقد بينت لكم ما حرمته عليكم في وقت الصيام فلا تنتهكوها ولا تبدّلوا أو تحرفوا منها شيئا وحافظوا عليها. وقوله: ﴿كذلك

يبين الله آياته للناس لعلهم يتقـون﴾ أي كما بين الله هذه الحدود يبين جميع ما يحتاجـه الناس ليفـوزوا بتقوى الله لينـالوا عـز الدنيـا وسعادة الآخـرة حيث يسلكون الصراط المستقيم والمنهج القويم.

قال تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدلوا بها إلى الحكّام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون* يسألونك عن الأهلّة قل هي مواقيت للناس والحج، وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البرّ من اتّقى، وأتوا البيوت من أبوابها، واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك تعالى في ختام المسك من أحكام الصيام والاعتكاف أنه يبين آياته للناس ليسلك المستمسكون بها سبيل التقوى، ويندرجوا في سلك المتقين، شرع هنا يضع لهم قواعد المعاملات وأساس المعاوضات حيث يقول: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدْلُوا بها إلى الحكّام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾ قال القاضي أبو بكر بن العربي في كتابه أحكام القرآن: هذه الآية من قواعد المعاملات، وأساسُ المعاوضات يَنْبَني عليها وهي أربعة: هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿وأحلّ الله البيع وحرّم الربا﴾ وأحاديث الغَرَر، واعتبار المقاصد والمصالح اهـ وقوله عز وجل: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ يشمل أكل الإنسان مال غيره بالباطل، كما يشمل أكل الإنسان مال نفسه في غير ما أباح الله عز وجل، كأن يشتري بها لحم خنزير ليأكله أو خمرا ليشربه. ولا شك أن المقصود الأصلي هو الأول بدليل قوله عز وجل في نفس هذه الآية: ﴿وتُدْلُوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾ ومعنى: ﴿ولا تأكلوا﴾ أي ولا تأخذوا ولا تتعاطوا، لكن لما كان المقصود من أخذ المال هو التّمتّع به في شهوتي البطن والفرج التي شرع الصيام لقمعهما قال تعالى: ﴿ولا تأكلوا﴾ فخصّ شهوة البطن لأنها المثيرة لشهوة الفرج. وقوله عز وجل: ﴿ولا تأكلوا أموالكم﴾ بإضافة الأموال إليهم مع أنها أموال غيرهم وأن المقصود الأول: لا يأكل بعضكم مال بعض، لأن الأصل في المسلم أنه

أخو المسلم، وعليه المحافظة على ماله كما يحافظ على مال نفسه، كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلُ المؤمنين في تَوادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مَثَلُ الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمّى».
ومثل هذا التعبير في هذا المقام الكريم قوله عز وجل في سورة النساء: ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم، ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما﴾ وكما قال عز وجل في سورة النور: ﴿فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة﴾ فقوله في آية سورة النساء: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضا. وقوله تعالى في سورة النور: ﴿فسلموا على أنفسكم﴾ أي فليسلم بعضكم على بعض. ومعنى قوله: ﴿بالباطل﴾ أي بما لا يحل شرعا ولا يفيد مقصودا لأن الشرع نهى عنه وحرّم تعاطيه، كالنّهب والغصب والخداع والقمار والرشوة وكلّ ما لم تَطِبْ به نفس صاحبه، أو حرمته الشريعة وإن رضي بذلك مالكه كمهر البَغِيّ وحُلْوان الكاهن وأثمان الخمور والخنازير، وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ أن أكل الحلال الطيب من أكبر العون على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وأن اللقمة من الحرام يقذفها الرجل في جوفه قد تحول بينه وبين قبول دعائه وعمله الصالح دهرا طويلا، وأشرت إلى أن الحلال يؤثر في القلب صلاحا وأن الحرام يؤثر في القلب فسادا، وقوله عز وجل: ﴿وتُدْلُوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾ أي ولا تُدْلُوا ولا تحاجّوا ولا تخاصموا ولا ترفعوا دعاوى باطلة إلى الحكام لتقتطعوا قطعة من أموال الناس ظلما وأنتم تعلمون في قرارة نفوسكم أنكم ظالمون آثمون. وبهذا كأنه يقول لهم: لا تجمعوا بين

أكل المال بـالباطـل وبين الإدلاء إلى الحكام بـالحجج البـاطلة، يقـال: أدلى الرجل بحجته أو بـالأمر الذي يرجو الغَلَبـة به تشبيها بالذي يـرسل الدّلو في البئر ليستخرج الماء، يقال: أدلى دلوه أي أرسلهـا في البئر. وفي الآية الكريمة إشعـار بأن من ادّعى عنـد الحاكم بدعـوى وهـو يعلم أنـه كاذب في دعـواه فحكم الحاكم بما ادعاه على خصمه فإن حكم الحاكم هـذا لا يحل حراما ولا يحرم حلالا ولا وزر على القاضي الذي حكم في هذه القضية ما دام قد قضى بما ظهر لـه من الأدلة التـي قد يكـون فيها شهادة زور؛ لأن القـاضي لا يعلم الغيب، ولا يعلم الباطن إلا الظاهرُ الباطنُ عـلاّم الغيوب. وقد حذر رسول الله ﷺ هؤلاء الـذين يدلـون بقضايـاهم إلى الحكام ليأكلـوا فريقـا من أموال الناس بالإثـم حتى ولو كان القاضي محمدا رسول الله ﷺ الذي يقضي على ما يظهـر لـه ولا يعلم من الغيب إلا مـا أطلعه الله عـز وجل عليـه، فقـد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قـال: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمـون إليّ، ولعلّ بعضكم أن يكـون أَلْـحَنَ بحجّتـه من بعض، فأقضي له على نحو مـا أسمع منه، فمن قَضَيْتُ له بشيء من حق أخيـه، فلا يأخُذَنّه، فإنما أقطع لـه قطعة من النار» كما روى مسلم من طـريق علقمة بن وائل عن أبيـه قـال: جاء رجل من حَضْرَمَـوْت ورجل من كِنْـدة إلى النبي ﷺ فقال الحضرمي: يـا رسول الله إن هـذا غلبني على أرض لي، فقال الكِنْدِي: هي أرضي وفي يدي، ليس له فيها حق، فقال النبي ﷺ للحَضْرَمِيّ: «ألك بينة؟» قال: لا. قال: «فلك يمينه» قال: يا رسـول الله إن الرجل فـاجرٌ، لا يبـالي على مـا حلف عليه، وليس يتـورّع من شيء، قال: «ليس لك منه إلا ذلك» فـانطلق ليحلف، فقال رسول الله ﷺ لمّا أدبر: «لئن حلف على ماله ليأكله ظلما لَيَلْقَيَنّ اللهَ وهو عنه مُعْرِضٌ». وقد روى مسلم كذلك من حـديث أبي ذر رضي الله عنه أنـه سمع رسول الله ﷺ

يقول: «من ادّعى ما ليس له فليس منا، ولْيتبَوَّأ مقعده من النار». وقوله عز وجل: ﴿يسألونك عن الأَهِلَّة قل هي مواقيت للناس والحج﴾ لم يرد في خبر صحيح ثابت كيفية سؤالهم رسول الله ﷺ عن الأهلة وهل كان عن فوائدها أو كان عن حقيقتها؟ وظاهر الجواب في الآية أنه كان عن منافعها وفوائدها، فإن كان السؤال عن حقيقتها كان الجواب من الأسلوب البلاغي المعروف بأسلوب الحكيم، لأن السؤال عن حقيقتها وذاتها قليل الجدوى بالنسبة لعامة البشر كما لو سألك سائل عن تكوين شجرة من الشجر فتجيبه ببيان فوائدها ومنافعها لتلفت انتباهه بأن هذا هو الذي ينبغي أن يسأل عنه، وقد لفت الفخر الرازي رحمه الله الانتباه إلى أن سؤالهم رسول الله ﷺ ورد في القرآن الكريم في أربعة عشر موضعا قال: ثمانية منها في سورة البقرة، أولها: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ وثانيها هذه الآية ثم الستة الباقية بعدُ في سورة البقرة فالمجموع ثمانية في هذه السورة، والتاسع قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿يسألونك ماذا أحلّ لهم﴾ والعاشر في سورة الأنفال ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ والحادي عشر في بني إسرائيل ﴿يسألونك عن الروح﴾ والثاني عشر في الكهف ﴿ويسألونك عن ذي القرنين﴾ والثالث عشر في طه ﴿ويسألونك عن الجبال﴾ والرابع عشر في النازعات ﴿يسألونك عن الساعة﴾ ولهذه الأسئلة ترتيب عجيب: اثنان منها في الأولى في شرح المبدأ فالأول قوله: ﴿وإذا سألك عبادي عني﴾ وهذا سؤال عن الذات، والثاني قوله: ﴿يسألونك عن الأهلة﴾ وهذا سؤال عن صفة الخلاقية والحكمة في جعل الهلال على هذا الوجه، واثنان منها في الآخرة في شرح المعاد أحدهما قوله: ﴿ويسألونك عن الجبال﴾ والثاني قوله: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها﴾ ونظير هذا أنه ورد في القرآن سورتان أوّلهما ﴿يا أيها الناس﴾ إحداهما في النصف الأول وهي السورة الرابعة من سور النصف الأول فإن

أولاها الفاتحة وثـانيتها البقرة وثالثتها آل عمران ورابعتهـا النساء، وثانيتهما في النصف الثاني من القرآن وهي أيضا، السورة الرابعة من سور النصف الثاني، أولاهـا مـريم، وثانيتهـا طـه وثـالثتهـا الأنبياء ورابعتهـا الحج، ثم ﴿يـا أيها النـاس﴾ التـي في النصف الأول تشتمل على شرح المبـدأ فقــال: ﴿يـا أيها الناس اتقـوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ و﴿يـا أيها الناس﴾ التي في النصف الثاني تشتمل على شرح المعـاد فقال: ﴿يا أيها النـاس اتقوا ربكم إن زلزلـة الساعة شيء عظيم﴾ فسبحـان من له في هذا القـرآن أسرار خفية، وحِكَم مَطْوِيَّة لا يعرفها إلا الخواصُّ مـن عبيده اهـ والأهِلّة جمع هلال، ولا شك أن القمـر في أول ليلة من الشهـر يسمى هلالاً وإنما جمع وهـو واحد في الحقيقـة من حيث كـونـه هلالا واحـدا في شهـر غير كـونه هـلالا في سـائر الشهور، ومعنى قوله: ﴿هي مواقيت للناس والحج﴾ أي هذه الأهلة ليعرف النـاس بها مـواقيت شهر الصـوم وانتهـائه وعِـدَد نسائهم، وآجـال ديـونهم ومعاملاتهم، ومدة الحمل والـرضاع والحج، إلى غير ذلك من مصالح العباد التي لا تحصى وكمعرفـة الأشهر الحرم التي لا يحل القتـال فيها. وتخصيص الحج هنا بالـذكر مع أنه داخل في عموم اللفظ الأول لأن أهل الجاهليـة كانوا يحجـون بـالعَـدَد ويبدلـون الشهـور ويصيرون إلى النسيء، فنص الله تبـارك وتعـالى على الحج هنـا لإبطـال أعمال أهل الجاهلية في الحج وجعلـه مقـرونـا بالأهلة، كما ربط رسول الله ﷺ الصيـام برؤية الهلال حيث قال ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غُمَّ عليكم فأَكملوا عدة شعبان ثلاثين». هذا وقد جعل الله تبارك وتعالى الـزمان مقـدّرًا من أربعة أوجـه وهي السنة والشهـر واليوم والسـاعة، فـالسنة عبـارة عن الـزمان الحاصل من حـركـة الشمس من نقطة معينـة من الفلك بحركتها الحاصلة عن خلاف حركة الفَلَك إلى أن تعود إلى تلك النقطة

بعينها، والشهر عبارة عن حركـة القمر من نقطة معينة من فلكه الخاص إلى أن يعود إلى تلك النقطة. وأما اليوم بليلته فهو من مفارقة الشمس أفق المشرق وعَوْدِها إليه من الغداة. وأما الساعة فهي جزء من أربعة وعشرين جزءًا من اليـوم بليلته. ولا شـك أن معرفـة المواقيت بـالهلال أيسر على جميع الأمم من معرفتها بالشمس، إلا ما كان مـرتبطا بالشمس كمواقيت الصلاة التي تتكرر كل يوم وليلة خمس مرات. وقوله عز وجل: ﴿وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهـورهـا ولَٰكنّ البرّ من اتقى وأتـوا البيـوت من أبـوابها واتقـوا الله لعلكم تفلحون﴾ هو نظير قوله عز وجل: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغـرب﴾ الآية. وقـد تقدم بيـان ذلك. قال البخـاري في صحيحه: بـاب قـوله: ﴿وليس البرُّ بأن تأتـوا البيوت من ظهـورها ولَٰكنَّ البرَّ من اتقى وَأْتُـوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ حـدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحـاق عن البراء قال: كـانـوا إذا أحرمـوا في الجاهلية أتـوا البيت من ظهره فأنزل الله: ﴿وليس البرّ بأن تأتـوا البيوت من ظهورها ولَٰكن البرّ من اتقى وَأْتُوا البيوت من أبوابها﴾ وقد ساقه البخاري في الحج من طريق شعبة عـن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنـه قال: نـزلت هذه الآيـة فينا، كانت الأنصار إذا حجّـوا فجاءوا لم يدخلوا من قِبَل أبـواب بيوتهم ولكن من ظهورها، فجـاء رجل من الأنصار فدخل من قِبَل بابـه، فكأنه عُيّر بذلك، فنزلت: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت مـن ظهورها ولَٰكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها﴾ هـذا وفي قوله عز وجل: ﴿ولَٰكن البرّ مـن اتقى﴾ وقوله في نفس الآية: ﴿واتقـوا الله لعلكم تفلحون﴾ تأكيـد لبيان أن تقـوى الله عز وجل سبب للفـلاح والفوز والسعـادة في الـدنيا والآخـرة وأن مدار الأحكـام الشرعية على تربية النفوس عليها لتحصيل مَعِيّة الله عز وجل الخاصة بالتأييد والعون والنصر والتـوفيق كما قال عز وجل: ﴿إن الله مع الذين اتقـوا والذين هم محسنون﴾ جعلنا الله بفضله منهم.

قال تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الـذين يقاتلونكم ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين* واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم، والفتنة أشدّ من القتل، ولا تقـاتلوهم عند المسجد الحرام حتّى يقـاتلوكم فيه فإن قاتلـوكم فاقتلـوهم، كذٰلك جزاء الكـافرين* فإن انتهـوا فإنّ الله غفور رحيم﴾

بعد أن أكّـد الله تبارك وتعـالى الأمر بتقـواه وبين أن تقواه عـز وجل سبب لفلاح المتقين أمـر في هذا المقـام الكريـم بأعلى درجـات التقوى وأشـد سبلها وأشقها على النفس الإنسـانية وهو قتال المشركين وجهادهـم لإعلاء كلمة الله الذي يستجلب لهم معيـة الله بنصرهم وتأييدهم كما قال عـز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يَلُونكم من الكفار وليجدوا فيكم غِلْظة، واعلموا أن الله مع المتقين﴾ وقد مرّ تشريع الجهاد بأطوار ثـلاثة بعدد الأطوار التي مرّ بها تشريع الصيام، حيث كـان القتال ممنوعا في أول الإسلام قبـل الهجرة، وبعد أن صار للمسلمين دولة في المدينة أُذِن لهم بقتال من قاتلوهم وأخرجوهم من ديارهم، ثم أمروا بـالقتال حتى لا تكون فتنةٌ ويكـون الدينُ لله، إذ بعد تمام بيعة العقبة الثانية قال العباس بن نضلة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ ليلتها: والـذي بعثك بـالحق إن شئت لَنَمِيلَنَّ على أهل منى غـدا بأسيـافنـا، فقـال رسول الله ﷺ: «لم نـؤمر بـذلك» كما جاء في حـديث كعب بن مالـك الذي أخرجه ابن إسحاق بسنـد صحيح، وكان كثير من المسلمين يتمنون أن يأذن الله لهم في قتـال أعدائهم، وإلى ذلك يشير الله تبـارك وتعـالى في محكم كتابـه حيث يقول في سورة القتال: ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزِّلت سورة﴾ أي يأذن الله لنا فيها بقتـال الكفار بدليل قولـه: ﴿فإذا أُنزلت سورة محكمـة وذُكِرَ فيها القتال رأيتَ الذين في قلوبهم مرضٌ ينظرون إليك نظر المغْشِيّ عليه من الموت

فأولى لهم* طاعةٌ وقولٌ معروفٌ فإذا عَزَم الأمرُ فلو صَدَقوا اللهَ لكان خيرا لهم﴾ . وكان المشركون لا يفتأون يصدون عن سبيل الله ويؤذون أولياءه، حتى قتلوا سُمَيَّة أم عمار وزوجها ياسرا رضي الله عنهم، فلما مكّن الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وللمسلمين بالمدينة أذِن الله تعالى لهم في قتال أعدائهم حيث يقول: ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خَوّان كفور * أُذِنَ للذين يُقَاتَلُون بأنهم ظُلِمُوا و إن الله على نصرهم لقدير * الذين أُخْرِجُوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربُّنا اللهُ ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض لهُدِّمَتْ صَوامع وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجد يُذْكَرُ فيها اسمُ الله كثيرا، ولَيَنْصُرَنّ اللهُ مَن ينصُرُه إن الله لقويّ عزيزٌ﴾ . قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في كتاب المغازي: قال الزهري: أوّل آية نزلت في القتال كما أخبرني عروة عن عائشة: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا﴾ أخرجه النسائي و إسناده صحيح اهـ ولا شك أن شرعية القتال في الإسلام ليست بِدْعا في شرائع الرسل عليهم الصلاة والسلام ولا في أنظمة الأمم، بل كانت شريعة الإسلام في هذا الباب وغيره أرحم الشرائع وأكملها وأتقنها وأحسنها؛ إذ كانت تنهى عن قتل النساءوالصبيان والشيوخ المسنين وتنهى عن الغدر والتمثيل بجثث الأعداء، وقد حاول بعض أعداء الإسلام من اليهود والنصارى والملاحدة أن يُلَبّسوا على بعض الأغرار بأن الإسلام إنما انتشر بالسيف، فقال بعض الناس من المنتسبين للعلم: إن القتال في الإسلام للدفاع فقط، وتغافلوا عن الآيات الكثيرة والأحاديث الصحيحة الثابتة في أن الجهاد الحقّ إنما هو ما كان لإعلاء كلمة الله، ونسي هؤلاء أو تناسوا أن الشرائع السماوية السابقة كلّها متّفقة على الجهاد لإعلاء كلمة الله، وأنها ما كانت تُبِيحُ الأسْر إلا بعد التقتيل الشديد في أعداء الله، و إلى ذلك يشير قوله عز وجل: ﴿ماكان لنبي أن يكون له أَسْرى حتى يُثْخِنَ في الأرض﴾ أي حتى يبالغ في قتل الكفار ويُوسِعَهم

جِراحـــــة إلى أن تَغْلُظ الأرض من دمـــائهم وجثثهم، وفي الإصحـــــاح العشرين من سفر التثنية في الفقْرة العاشرة إلى السادسة عشرة من التوراة التي بيد اليهود والنصارى يقول: حين تقـرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجـابتك إلى الصلح وفتحـت لك فكلّ الشعب الموجـود فيهـا يكون لك للتسخير، ويُسْتَعْبَـد لك، وإن لم تُسالمك بل عملت معك حـرباً فحـاصرهـا، وإذا دفعها الـربّ إلهك إلى يـدك فـاضرب جميع ذكورهـا بحـدّ السيف، وأمـا النساء والأطفـال والبهـائم وكلّ مـا في المدينة كلُّ غنيمتهـا، فتغتنمها لنفسـك، وتأكل غنيمة أعـدائك التي أعطاك الـربّ إلهك، هكذا تفعل بجميع المدن البعيـدة منك جـدا، التـي ليست من مـدن هـؤلاء الأمم هنا، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الربّ إلهك نصيبا فلا تَسْتَبْقِ منها نَسَمةً مـا اهـ على أن اليهود والنصـارى لعنهم الله لم يقفوا في هذا البـاب عند حدود ما كان قد شرع لهم على ألسنة أنبيـائهم، بل كانوا لا يتركون حيًّا يمشي على الأرض في المدن والقرى التي يحاربـونها، وما محاكم التفتيش التي أقـامها النصـارى ضـد مسلمي الأندلس ولا مـذابح اليهـود للمسلمين في فلسطين ولبنان بخافية على أحد مع الفارق العظيم بين معاملة أهل الإسلام لمن يكون تحت أيديهم من الكفـار من الرحمة والإحسان وبين معاملـة هؤلاء الضالين.

وقوله عز وجل: ﴿وقاتلـوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ أي وحـاربوا ابتغاء مـرضاة الله الذين يحاربـونكم من الكفار ولا تتجاوزوا قتالهم فلا تمثّلوا بجثثهم ولا تغدروا ولا تقتلوا صغيرا ولا امرأة ولا شيخـا مُسِنًّـا ممن لا همّ لهم بقتـالكم، ولا يكن لكم قصـد في قتـال من تقاتلونهم سـوى إخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإسـلام، ولذلك روى مسلم في صحيحه مـن حديث سليمان بن بُرَيْـدة عن أبيه بـريدة قـال: كان رسول الله ﷺ إذا أمّـر أميرا على جيش أو سريّة أوصـاه في خاصتـه بتقوى الله

وبمن معه من المسلمين خيرا، ثم قال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بـالله، اغزوا ولا تَغُلُّوا ولا تَغْدِروا، ولا تمثّلـوا، ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيت عـدُوك من المشركين فادْعُهُم إلى ثـلاث خصال فأيّتُهُن أجـابوك إليهـا فـاقْبَلْ منهم وكُفَّ عنهم: ادْعُهُم إلى الإسلام فإن أجـابوك فـاقبل منهم، ثم ادعهم إلى التحـوّل مـن دارهـم إلى دار المهـاجـرين، فإن أَبَـوْا فأخبرهم أنهم يكـونـون كأعـراب المسلمين ولا يكـون لهم في الغنيمـة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أَبَـوْا فاسألهم الجزية، فإن هم أجابـوك فاقبل منهم وكفّ عنهم، فإن هم أَبَـوْا فاستعن بالله وقـاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمـة الله وذمة نبيه فـلا تفعل، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحـابك، فإنكم أن تُخْفِروا ذممكم وذمم أصحـابكم أهون من أن تُخْفِروا ذمة الله وذمة رسـوله، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تُنْزِلَهم على حكم الله فـلا تنـزلهم على حكم الله ولكـن أنـزلهم على حكمك فإنّك لا تـدري أتصيب حكم الله فيهم أمْ لا» كما روى البخـاري ومسلم من حـديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ رأى امرأة مقتولة في بعض مغازيه فأنكر قتل النساء والصبيان. وقولـه عز وجل: ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ أي إنّ الله يُبْغِض الظـالمين من أي جنس ومن أي لـون لأنه حـرّم الظلم على نفسـه وجعلـه بين عباده محرّمـا، وقـولـه عز وجل: ﴿واقتلـوهم حيث ثقفتمـوهم وأخـرجـوهم من حيث أخـرجـوكم﴾ أي اقتلـوا المشركين حيث وجـدتموهم وحيث أصبتم مَقَاتلهم وتمكّنتم من قتلهم، واحرصـوا على تطهير مكة شرفها الله من المشركين النّجس، ولستم بظـالمين لهم لأنكم أحق ببيت الله وحـرمـه منهم وقد أخـرجوا المهاجرين منـه وأبعدوهم عن ديارهم. وقولـه عز وجل: ﴿والفتنة أشـدّ من القتل﴾ أي وإصرار المشركين على الكفر بـالله والصدّ عن سبيله، وتعذيبهم لمن يتمكنون منه من المسلمين ليرجع عن دين الإسلام أبلغ

وأشد وأعظم وأطمّ من قتل هؤلاء المشركين. وقوله عز وجل: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم﴾أي ولا تبدؤوا المشركين بالقتال في مكة بلد الله الحرام حتى يبدؤوا هم في قتالكم فإن شرعوا في قتالكم عند المسجد الحرام فاحرصوا على قتلهم واجتثاث جذورهم، وفي قوله: ﴿فإن قاتلوكم فاقتلوهم﴾ ولم يقل: فقاتلوهم. لإفادة أن من بدأ بالقتال في مكة يجب قتله لانتهاكه حرم الله الذي حرّمه يوم خلق السموات والأرض، ولذلك قال عز وجل هنا: ﴿كذلك جزاء الكافرين﴾ وهو يفيد أن من بدأ بالقتال في حرم مكة صار مرتدّا عن دين الإسلام واستحق القتل لو كان في الأصل منتسبا للإسلام لأن قوله: ﴿فاقتلوهم﴾ مُرَتَّب على بدئهم بالقتال عند المسجد الحرام لا على كفرهم الأصلي إذ لو كان على كفرهم الأصلي ما اشترط فيه، وقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يَحِلّ القتال فيه لأحد قبلي، ولم يَحِلّ لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعْضَدُ شوكُه، ولا يُنَفَّرُ صَيْدُه، ولا يُلْتَقَطُ لُقْطَتُه إلا من عرّفها، ولا يُخْتَلَى خلاها» فقال العباس: يا رسول الله إلا الإِذْخِرَ فإنه لِقَيْنِهِم ولبيوتهم؟ فقال: «إلا الإِذْخِر» كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي شُرَيْح العَدَوِي رضي الله عنه أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة: ائذن لي أيها الأمير أحدّثك قولا قام به رسول الله ﷺ الغَدَ من يوم الفتح، سمعَتْهُ أذناي ووعاه قلبي وأبصرتْهُ عيناي حين تكلّم به، حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إنّ مكة حَرّمها الله ولم يحرّمْها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يَسْفِك بها دمًا، ولا يَعْضِدَ بها شجرة، فإن أَحَدٌ تَرَخّص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا له: إن الله أَذِن لرسوله ﷺ ولم يأذَنْ لكم،

وإنما أَذِنَ لي ساعةً من نهار وقد عادت حُرْمَتُها اليوم كحرمتها بالأمس، ولْيُبَلِّغْ الشاهدُ الغائبَ» فقيل لأبي شُرَيْح: ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شُرَيْح، إنّ الحرَم لا يُعِيذُ عاصيا، ولا فارًّا بدم، ولا فارًّا بِخرْبَةٍ. اهـ وقوله عز وجل: ﴿فإن انتهوا فإنّ الله غفور رحيم﴾ أي فإن تركوا القتال في الحرم ودخلوا في دين الإسلام وأنابوا إلى الله فإن الله يغفر ذنوبهم ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله لأن الله تعالى لا يَتَعَاظَمُه ذنبٌ أن يغفره لمن تاب وآمن ثم اهتدى.

قال تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين* الشّهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاصٌ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، واتقوا الله واعلموا أنّ الله مع المتقين* وأنفقوا فى سبيل الله ولا تُلقوا بأيديكم إلى التّهلكة وأحسنوا إنّ الله يحبّ المحسنين﴾.

بعد أن أمر الله عز وجل بالجهاد في سبيله وملاحقة أعدائه أينما ثُقفوا وبيَّن أن فتنة الإنسان عن دين الإسلام أعظم من قتله وأشد خطرا وأكثر ضررا، وحذّر من القتال عند المسجد الحرام وأن من قاتل المسلمين عند المسجد الحرام وجب قتله، وأن من تاب تاب الله عليه، كرر الله تبارك وتعالى هنا الأمر بقتال الكفار إلى غاية هي انقضاء فتنتهم، وأن تكون كلمة الله هي العليا، حيث يقول عز وجل: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةٌ ويكون الدينُ لله﴾ ولا شك أن تكرير الأمر بالجهاد في سبيل الله للقضاء على فتنة المشركين الصادين عن شريعة الله وحتى تكون كلمة الله هي العليا يقضي بأن الجهاد ذِرْوة سَنَام الدين، وقد وصفه رسول الله ﷺ بذلك، فقد روى أحمد والنسائي وابن ماجه والترمذي وقال: حديث حسن صحيح، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذِرْوة سنامه الجهاد». وقد ذكر الله تبارك وتعالى فضل الجهاد في سبيله وأمر به في مواضع كثيرة من كتابه الكريم حيث يقول في سورة الأنفال: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدينُ كلُّه لله﴾ وقال عز وجل في سورة التوبة: ﴿انفِرُوا خِفَافا وثِقَالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ وقال عز وجل: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم

بأن لهم الجنـةَ ، يُقـاتِلون في سبيل الله فيَقتُلـون ويُقتَلـون وعْـدًا عليه حقّـا في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومَن أَوْفَى بعهده من الله ، فاستبشروا بِبَيْعكم الذي بايَعْتُم به ، وذٰلك هو الفوز العظيم﴾ في آيات كثيرة ، وأخبر رسول الله ﷺ أن عمل المجاهــد في سبيل الله هـو أعظم الأعمال ، فقــد روى البخـاري من حديث أنس رضي الله عنه أن رجلا قـال : يا رسول الله دُلّني على عمل يعدل الجهاد ، قال : «لا أجده» ثم قال : «هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقـوم ولا تَفْتُرَ، وتصوم ولا تُفْطـر؟» فقال : ومن يستطيع ذلك؟ . ورواه مسلم بلفظ : قـال : قيل يا رسـول الله مـا يعدل الجهـاد في سبيل الله؟ قال : «لا تستطيعـونه» فأعـادوا عليه مـرتين أو ثلاثا ، كـل ذلك يقول : «لا تستطيعـونـه» ثم قـال : «مثل المجاهـد في سبيل الله كمثل الصـائم القـائم القانت بآيات الله لا يَفْتُرُ من صـلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهـد في سبيل الله» ، وقـد أوضح رسول الله ﷺ أن فضـل الجهاد في سبيل الله إنما يكـون لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليـا ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعـري رضي الله عنه أن أعرابيـا أتى النبيّ ﷺ فقال : يـا رسول الله الرجل يقاتل للمَغْنَم ، والرجل يقاتل ليُذْكَرَ، والرجل يقاتل ليُرى مكانُه ، وفي رواية : يقاتل شجاعةً ويقاتل حَـمِيَّة ، وفي رواية : يقاتل غضبا فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ : «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» وقـوله عـز وجل : ﴿فإن انتهـوا فـلا عدوان إلا على الظـالمين﴾ أي فإن انتهى المشركون عن شركهم وعن فتنتهـم للمسلمين وصدّهم عن سبيل الله ، وصارت كلمة الله هي العليا ، فلا عـدوان عليهم أي فلا تقاتلوهم ، قال ابن كثير رحمه الله : والمراد بالعدوان ههنا المعاقبة والمقـاتلة كقوله : ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتـدوا عليه﴾ وقوله : ﴿وجـزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلهـا﴾ ﴿وإن عاقبتم فعاقبـوا بمثل ما عُـوقِبْتُم به﴾ اهــ وقال البخاري في صحيحـه : باب قـوله

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ ثم ساق بسنده عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما: أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس ضُيّعُوا وأنت ابن عمر وصاحب النبي ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ فقال: يمنعني أنّ الله حرّم دم أخي، فقالا: ألم يقل الله: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾؟ فقال: قاتَلْنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله.

وفي رواية للبخاري من طريق نافع أن رجلا أتى ابن عمر فقال: يا أبا عبد الرحمن ما حملك على أن تحجّ عاما وتعتمر عاما وتترك الجهاد في سبيل الله عز وجل وقد علمت ما رغّب الله فيه؟ قال: يا ابن أخي، بني الإسلام على خمس: إيمان بالله ورسوله، والصلوات الخمس، وصيام رمضان، وأداء الزكاة، وحج البيت، قال: يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ماذكر الله في كتابه: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بَغَتْ إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تَبْغي حتى تَفِيءَ إلى أمر الله﴾، ﴿قاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ قال: قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ، وكان الإسلام قليلا، فكان الرجل يُفْتَنُ في دينه، إما قتلوه، وإما يُعَذّبونه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة. قال: فما قولك في علي وعثمان؟ قال: أمّا عثمان فكأنّ الله عفا عنه وأما أنتم فكرهتم أن يعفو الله عنه، وأما عليّ فابن عم رسول الله ﷺ، وختنه، وأشار بيده فقال: بيته حيث ترون. اهـ وقوله تعالى: ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحُرُمات قِصَاصٌ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ هذا تأكيد لحرمة الشهر الحرام والبلد الحرام وحرمة الإحرام، وأنه يجب على المسلمين ألا يبدؤوا المشركين بقتال عند المسجد الحرام أو وهم في حالة الإحرام أو في الشهر الحرام، فإذا بدأهم المشركون بقتال في الشهر الحرام، أو في البلد الحرام أو في حالة الإحرام

فإنهم يجوز لهم الردّ عليهم بالمثل ولا إثم عليهم في ذلك ولا حرج، ولذلك أخرج أحمد بسند صحيح من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يُغْزَى. . الحديث، قال ابن كثير رحمه الله: ولهذا لما بلغ النبيّ ﷺ وهو مخيّم بالحديبية أن عثمان قُتِل وكان قد بعثه في رسالة إلى المشركين بايع أصحابه وكانوا ألفا وأربعمائة تحت الشجرة على قتال المشركين، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل كفّ عن ذلك وجنح إلى المسالمة والمصالحة فكان ما كان، وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حُنَيْن وتحصّن فَلّهم بالطائف عدل إليها فحاصرها ودخل ذو القعدة وهو محاصِرٌ لها بالمنجنيق واستمر عليها إلى كمال أربعين يوما، كما ثبت في الصحيحين عن أنس، فلما كثر القتل في أصحابه انصرف عنها ولم تُفتَحْ ثم كرّ راجعا إلى مكة واعتمر من الجِعرانة حيث قسم غنائم حنين وكانت عمرته هذه في ذي القعدة أيضا عام ثمان، صلوات الله وسلامه عليه اهـ وفي قوله عز وجل: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله﴾ إشعار بوجوب العدل حتى مع المشركين وهو تأكيد لقوله تبارك وتعالى في أول آية من آيات القتال في هذا المقام: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ وتسمية معاقبة المعتدي والقصاص منه بمقدار اعتدائه اعتداءً مع أنه حق وصواب وعدل جاء على طريقة الأسلوب البلاغي المعروف في علم البديع باسم المشاكلة على حد قول الشاعر:

قالوا اقترحْ شيئا نُجِدْ لك طَبْخَه ... قلتُ اطبُخُوا لي جُبَّةً وقميصا

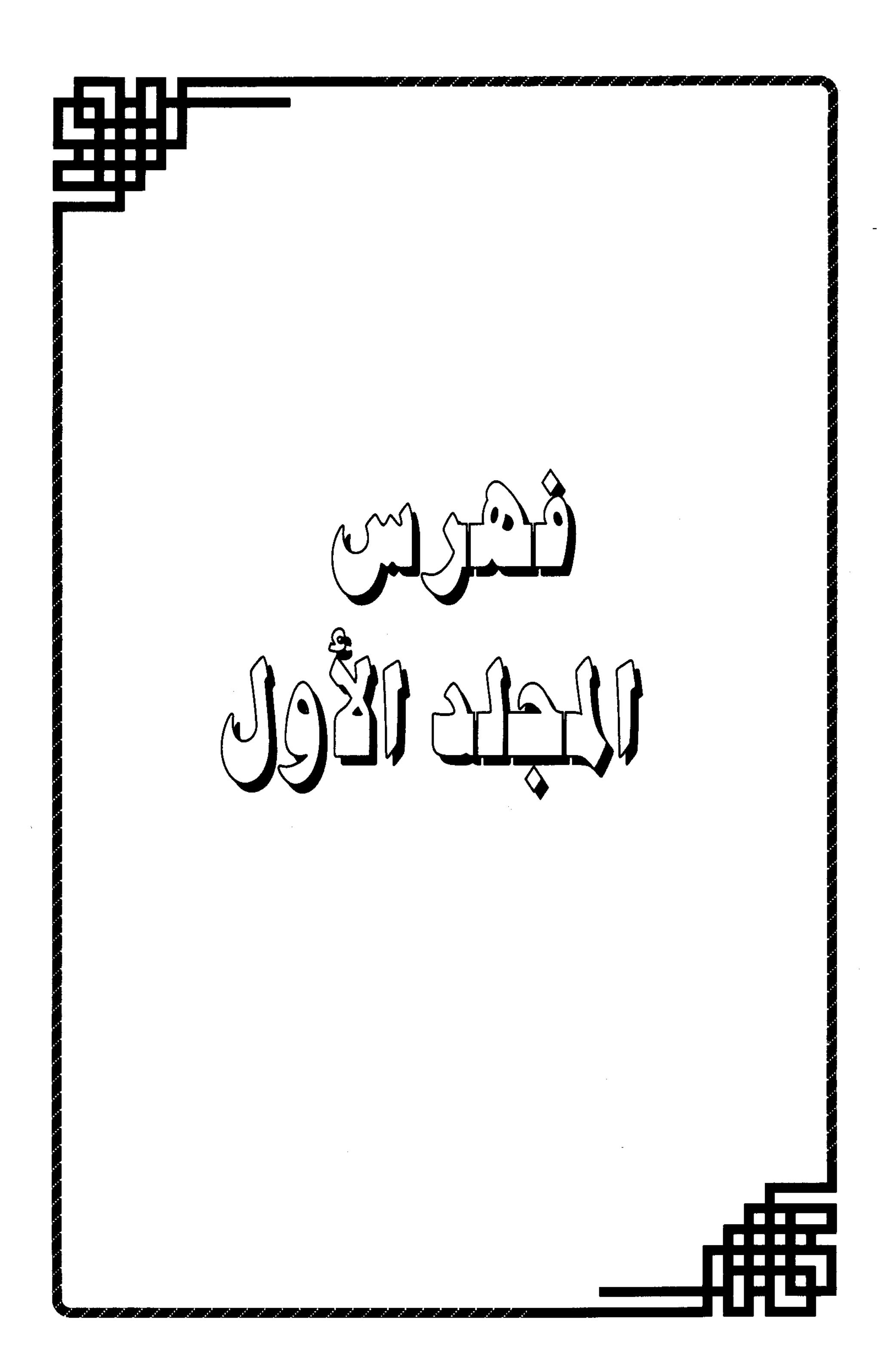
فبدل أن يقول: خيطوا لي جبة وقميصا قال: اطبخوا لي، مشاكلة لقولهم: نُجِدْ لك طبخه. قال أهل العلم: ومن ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ وقوله عز وجل: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ وقال القاضي أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن: والذي أقول

فيه : إنّ الثـاني كالأول في المعنى واللفظ ، لأن معنى الاعتـداء في اللغة مجاوزة الحدّ ، وكـلا المَعْنَيَيْن موجـود في الأول والثاني وإنما اختلف المتعلِّق من الأمـر والنّهي ، فـالأول منهيّ عنه ، والثاني مـأمور به ، وتعلّق الأمـر والنهي لا يغيّر الحقـائق ولا يقلب المعاني بـل إنه يُكْسِبُ مـا تعلّق بـه الأمـر وَصْفَ الطاعـة والحُسْن ، ويكسب ما تعلّق به النّهـي وصف المعصية والقبح ، وكلا الفعلين مجاوزة الحدّ ، وكلا الفعلين يسوء الـواقع به ، وأحدهما حق والآخر بـاطل اهـ وقـولـه تبارك وتعـالى : ﴿واعلمـوا أن الله مع المتقين﴾ تـرغيب للمسلمين في الثبات على تقـوى الله عز وجل التي تجلب لهم النصر مـن الله ، وترهيب لهم من الاعتداء على المشركين بغير الحق الذي أمرهم الله عز وجل به فيهم . وقوله عز وجل : ﴿وأنفقـوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكـة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ أي وابذلوا أيها المسلمون من أموالكم في طريق نشر دين الله وأَعطـوا المجاهـدين من أمـوالكم لإعلاء كلمـة الله ، ولا تُقَصِّروا في ذلك فَتُهْلِكوا أنفسكم ، لأن تركَ الجهاد أو عدم إعانة المجاهدين يمكّن لأعدائكم فيتسلّطـون عليكم ويُذِلّـونكم ويُهلكونكم فتكـونون أنتم السبب في إهـلاك أنفسكم . قال البخاري في صحيحه في كتاب التفسير: باب قوله : ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقـوا بأيديكم إلى التهلكـة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ التّهلكـة والهلاك واحد . حـدثني إسحاق حـدثنا النضر حـدثنا شعبـة عن سليمان قال : سمعت أبا وائل عن حـذيفة : ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ قال : نزلت في النفقة . قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح البارى في قـوله : نزلت في النفقة ، أي في ترك النفقـة في سبيل الله عز وجل وهذا الذي قـاله حذيفة جاء مفسّرا في حديث أبي أيـوب الذي أخرجه مسلم والنسائي وأبو داود والترمـذي وابن حبان والحاكم من طريق أَسْلَم بن عمران قال : كنا بالقسطنطينية فخرج صفّ عظيم من الروم فحمل رجل من

المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم ثم رجع مُقْبِلا، فصاح الناس: سبحان الله، ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: أيها الناس إنكم تُؤَوِّلون هذه الآية على هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، إنّا لمّا أعزّ الله دينه وكَثُر ناصروه قلنا بيننا سرّا: إنّ أموالنا قد ضاعت، فلو أنّا أقمنا فيها وأصلحنا ما ضاع منها؟ فأنزل الله هذه الآية فكانت التهلكة هي الإقامة التي أردناها، وصحّ عن ابن عباس وجماعة من التابعين نحوُ ذلك في تأويل الآية. اهـ وقد روى البخاري ومسلم من حديث زيد بن خالد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من جهّز غازيا فقد غزا». الحديث. وفي تذييل هذه الآية الكريمة بقوله عز وجل: ﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ إرشاد للمسلمين بأن يجمعوا في سلوكهم بين تقوى الله وبين الإحسان الذي هو أعلى مقامات الطاعة حتى في قتالهم لأعدائهم ليفوزوا بما وعدهم الله عز وجل في قوله: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ وقد روى مسلم من حديث أبي يَعْلَى شَدّاد بن أَوْس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبْحَة، ولْيَحُدّ أحدُكم شَفْرَته ولْيُرِحْ ذَبِيحته».

نسأل الله أن يجعلنا من المتقين المحسنين، والحمد لله رب العالمين.




فهرس
المجلد الأول

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
الخمس	٢٢٣
معنى قوله تعالى : «واتبعوا ما تتلو الشياطين» الآيتين	٢٢٩
معنى قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا» الآيات الخمس	٢٣٥
تعريف النسخ وأمثلة له	٢٣٨
معنى قوله تعالى : «ودَّ كثيرٌ من أهل الكتاب» الآيتين	٢٤١
قصة إسلام سلمان رضي الله عنه	٢٤٢
معنى قوله تعالى : «وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى» الآيتين . وفيه صورة واضحة لعنصرية اليهود التلمودية	٢٤٦
معنى قوله تعالى : «وقالت اليهود ليست النصارى على شيء» الآيات الثلاث	٢٥١
معنى قوله تعالى : «وقالوا اتخذ الله ولدا» الآيات الأربع	٢٥٧
قوله تعالى : «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم» الآيات الأربع	٢٦٢
قوله تعالى : «وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن» الآيتين	٢٦٧
مقام إبراهيم وحكمة بقائه	٢٧١
معنى قوله تعالى : «وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدًا آمنا» الآيات الثلاث	٢٧٣
قصة بناء البيت الحرام	٢٧٤
معنى قوله تعالى : «ربنا وابعث فيهم رسولا منهم» الآيات الأربع	٢٧٩

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة